

الدكتور الطاهر أحمد

دكتورة دولة بامتياز من جامعة مدريد
أستاذ الأدب في كلية دارالعلوم
جامعة القاهرة

دراسات عن
أبي جحر
وكتابه "طوق الحمامة"

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية بعبدين
تليفون ٩٣٧٤٧٠

للطبعة الثانية :

ربيع الأول ١٣٩٧ هـ -

مارس ١٩٧٧ م -

الإهداء

إلى والديّ ، في رحاب الله . . .



تمثال ابن حزم ، أقامته بلدية قرطبة عام ١٩٦٣ م ، أمام باب أشبيلية ، أو العطارين ، وكان يؤدي
إلى بلاط مغنيث ، الحى الذى نشأ فيه ابن حزم ... من هنا كان طريقه اليومى إلى المسجد الجامع ،
طالها ، وأستاذنا ، أو للصلاة !

كلمات في البدء

كان مقدراً لهذه الدراسة أن تكون مقدمة لكتاب « طوق الحمامة » ،
لابن حزم ، وقد حققته ، وصدرت طبعته الأولى عن دار المعارف منذ شهر ،
ونفدت ، وتصدر الطبعة الثانية منه خلال أيام :

لكنني وجدت المقدمة طالت ، ووجدتها تتجاوز حجم الكتاب نفسه ،
ولم أرد أن اختصرها لأنها دراسة للطوق ، ومقدمة له ، وتعريف بصاحبه ،
ودراسة الطوق يجب أن تتناول ، على الأقل ، الجوانب الهامة فيه ، وما أكثرها ،
والصفحات التي تمهد له ، وحياة كاتبه ، تعيينان القارئ على تصور جوه :
وتسهمان في تذليل صعبه ، والكتاب حافل بها .

لقد تصورت في البدء - مثلاً - ألا حاجة لي لأن أكتب عن عمران
قرطبة ، الشوارع والميادين والحياة والناس ، ثم وقعت عيني على كتاب
للدكتور زكريا إبراهيم بعنوان : « ابن حزم الأندلسي » ، وصدر في سلسلة
« أعلام العرب » فأدركت على الفور ، من النظرة الأولى فيه ، أن جهله بتخطيط
مدينة قرطبة ، أوقعه ، كما أوقع ناسخ مخطوطة الطرق الوحيدة قبله ، وكل
الذين نشروا الكتاب بعد ذلك ، في خطأ مربع : تقول الفقرة في غير
نسختنا المحققة ، والتي اعتمد عليها الدكتور زكريا إبراهيم : « ... سألتني
يوماً أبو عبد الله محمد بن كليب من أهل القيروان ، أيام كوني بالمدينة ، وكان
طويل اللسان جداً ، مثقفاً للسؤال في كل فن ... »

هكذا جاءت الفقرة في كل الطبعات العربية ، باستثناء طبعتنا المحققة ،
واعتماداً عليها مضى الدكتور زكريا إبراهيم يعلق على النص ويستنتقه :
« ولكن ابن حزم لم يذكر لنا سبب انتقاله إلى القيروان ، فضلاً أنه لم يشر إلى
أي اضطهاد وقع عليه من جانب أهل المغرب عموماً ، وأهل تلك المدينة خصوصاً ،
وأغلب الظن أن يكون أمامنا قد رحل إلى القيروان للدفاع عن مذهبه الظاهري ،
ومجادلة الفقهاء وأهل الفرق » . وهذا كلام باطل كله ! . فابن حزم لم يغادر

الأندلس أبداً ، لا إلى القيروان ولا إلى غيره ، ولم يقع عليه اضطهاد من أهل المغرب ، ولا ذهب إليه لينشر مذهبه . وأخيراً فالقيروان في تونس وليست في المغرب ، كما وهم الدكتور. ولو كان مؤلف كتاب ابن حزم ، والذين نشروا مخطوطة « الطوق » قبلي ، يعرفون أن كلمة « مدينة » إذا جاءت مرسلة عند الحديث عن قرطبي ، فإنما تعني الحى القديم من عاصمة الخلافة ، وتميز في عماره وحياته بملامح خاصة ، ولو عرفوا أن ابن حزم لم يسكن هذا الحى القديم أبداً من قرطبة ، أى المدينة ، لفكروا في تقويم النص . « والمرية » مما سكن ابن حزم حقاً ، أقرب الألفاظ رسماً إلى كلمة المدينة ، وليس ثمة شك في أن هذه تحريف عن تلك ، جرى بها قلم ناسخ المخطوطة الوحيدة جهلاً ، لأنه مشرقى على غير علم بأسماء الأمكنة الأندلسية. وهو تصويب يمكن الوصول إليه بشيء من التأمل ، وللحق فإن الأستاذ الجليل الدكتور طه الحاجرى أدرك هذا الخطأ وصوبه منذ أعوام طويلة ، في كتابه القيم : « ابن حزم : صورة أندلسية » . ولم يقرأ أحد من نشروا الطوق هذا الكتاب واستفاد منه :

وكان ذلك دافعاً لكتابة الفصل الأول عن قرطبة ، عمراتها وتخطيطها والحياة فيها على أيام ابن حزم ، وألحقته بمصور تخطيطى وتقريبى للمدينة في القرن العاشر الميلادى ، ودون ادعاء ، يرسم وينشر لأول مرة في اللغة العربية .

وأمام حياة ابن حزم ، شاهد عصر ، ترددت لحظات ! . لأننى ترجمت كتاب المستشرق الإسباني العظيم ميجيل أسين بلاثيوس عن ابن حزم القرطبي ، وسوف ينشر قريباً ، وفيه الغناء كل الغناء ، ولكنه كتاب موسع وشامل ومتعمق ودراسة مستقلة ، ونحن هنا في حاجة إلى علامات هادية فحسب ، على طريق حياة ابن حزم ، تعين على فهم « الطوق » ، وليس إلى حياته كلها ، ثم هممت أن أقدم ترجمة للدراسة الجميلة والموجزة التى قدم بها غرسية غومث ترجمته الإسبانية للطوق ، ولكن الرجل يتحدث فيها إلى إسبان ، يكتب لهم أحياناً ما ليس القارىء العربى فى حاجة إليه ، ويتجاوز أحياناً قضايا فوق طاقة القارىء الإسباني غير المتخصص ، ولكنها ضرورية للقارىء العربى ، ومن ثم فقد استهديته

في دراستي ، وأفدت مما كتب ، وهو يعتمد أصلاً على أسبين يلاثيوس ، دون أن أسير على دربه دواماً .

وقد وجدت الفيلسوف الإسباني الكبير أورتيجا إلى جاسيت (١٨٨٣ — ١٩٥٥) ، شهرته تتجاوز إسبانيا إلى عالم الفلسفة بأسره ، قدم لترجمة الطوق الإسبانية ، بدراسة مركزة ورائعة ، فأثرت نقلها إلى العربية برمتها ، ليكون لدى قارئ الطرق العربي ، وجهة نظر أخرى غير عربية ، قد يرضى عنها أو يختلف مع صاحبها ، ولكنها مفيدة في كل الأحوال .

وعن هوية ابن حزم كتب المؤرخ الإسباني ، الحججة في دراسات للعصر الوسيط ، الأستاذ سانتشيث البرنس (١٨٩٣ —) دراسة مستفيضة ، رد فيها عبقرية ابن حزم إلى خصائص سلالته الإسبانية ، وقد ترجمت هذه الدراسة برمتها أيضاً ، دون تعليق مني أو مناقشة ، ودون أن يعني هذا موافقتي على رأيه ، لأني فضلت ، كعادتي فيما أترجم ، أن أترك القارئ العربي حراً ، مطلق الفهم ، في مواجهة ما يقرأ من نصوص مترجمة ، وأن يبدي رأيه فيها دون تطفل مني . وثمة كثيرون من المفكرين الإسبان المعاصرين يشاركون سانتشيث البرنس رأيه ، ولكنه الوحيد الذي حرم القضية ، وعبر عن فكره ، وربما عن فكرهم أيضاً ؛ في هذه الدراسة المستفيضة .

أما أن ابن حزم من أصول غير عربية فحقيقة لانرفضها ، وكان عالم قرطبة العظيم مسلماً طيباً ، والإسلام فوق عصبية الجنس واللون والدم ؛ وأما أنه من سلالة يمكن أن توصف بأنها إسبانية ففيه شك كبير . لأن لفظة «إسبانيا» لحظة الفتح الإسلامي كانت تعني امتداداً جغرافياً فحسب ، دون أن تكون لها دلالة أبعد من هذا ، قومية أو دموية أو فكرية . والقول بهذا ليس من عندي ، وإنما هي فكرة اهتدى إليها المفكر والمؤرخ الفيلسوف أميركو كاسترو ، وظل يبشر بها طوال حياته (١٨٨٥ — ١٩٧٣) ،

ويرى في تجاهل الإسبان لها تفضيل وتحريف للتاريخ ، وانحراف بسير الثقافة في وطنه ، وألف في ذلك كتاباً قياً : « حقيقة إسبانيا التاريخية » ، وكانت دراسة سانشيث ، وكتاب آخر له ، رد على نظرية كاسترو هذه ، ولقد حرم القارىء من فكر أميركو كاسترو الرائع في هذه الدراسة التي تقدمها ، لأن نظريته لا تتفق عند ابن حزم وحده ، وإنما تتجاوزها إلى القضية في جوهرها : لمن ينتسب هؤلاء الذين عاشوا في الأندلس ، على امتداد دولة الإسلام التي ظلت تسعة قرون ؟ وإجمالها غير متاح ، ومن ثم فقد ترجمت الكتاب كله ، وينظر الناشر ليأخذ طريقه إلى القارىء قريباً .

ورأيت مفيداً إلى جانب ما تناولت من أفكار الطوق ودلالاته المتنوعة ، أن أمتع آثاره في الآداب التي عايشته ، أو تلتها ، في الأندلس ، في الأدبين العبري والإسباني ، وأن ألقى نظرة على الدراسات المماثلة التي سبقته إلى هذا المنحى في اللغة العربية ، والتي جاءت بعده وسارت على دربه ، أو أفادت منه ، وترجمت دراسة لغسية غومت تناولت جانباً من هذه القضية ، وأكملت الجوانب الأخرى التي لم يتعرض لها المقال .

ثم وقفت عند شاعرية ابن حزم ، وأهمية الطوق كمصدر لتأريخ الحياة الأدبية في قرطبة ، إلى جانب ما يقدم من معلومات أخرى ضافية ، اجتماعية وسياسية ، والمرأة في قرطبة الخلافة من خلاله ، ولحياة مؤلفه نفسها . وتلك هي الخطوط العامة للدراسة ؛ وما أريد أن أقف عندها تفصيلاً ، وفي الفهرسة آخر الكتاب ما يغني .

* * *

أنهت هذه الدراسة مع بداية الصيف ، ثم حملتها إلى المراتن التي عاش فيها ابن حزم منذ ما يزيد على ألف عام ، أمضيته بين وابة وإشبيلية وقرطبة والمرية وشاطبة وميورقة ، وغيرها . وفي ضوء ما رأيت على الطبيعة وحياة الناس ، وفيها ما لم يتغير أصلاً

أوما تغير قليلا ، وما استلهمت من روح التاريخ ، واستهديت من حدى بين
هذه المعالم ، صححت وراجعت ، وأضفت وحذفت ، فكانت هذه
الصفحات :

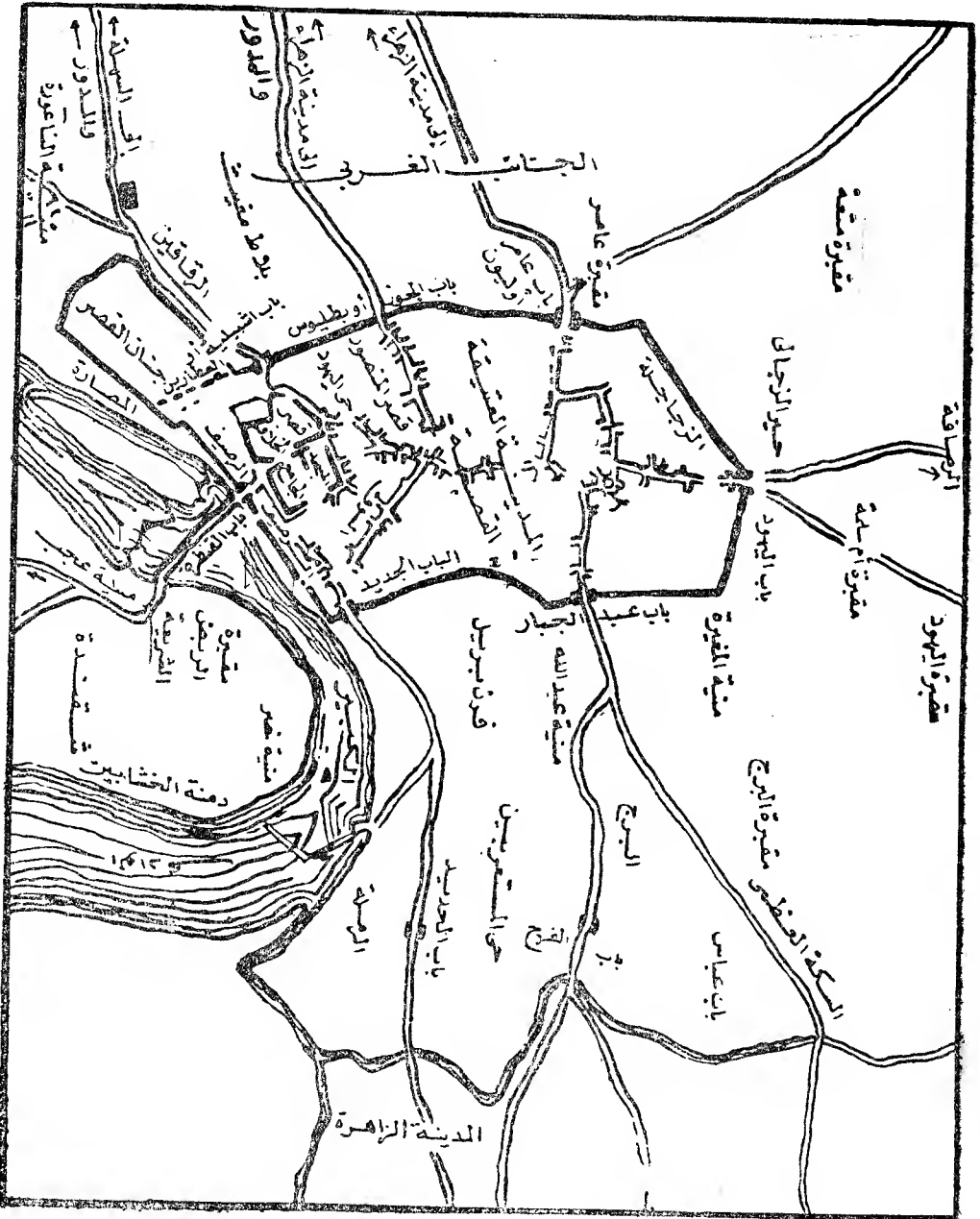
قلت وأنا أقدم الطبعة الأولى من تحقيقى « لطق الحمامة » ، إن النص
والدراسة التى سوف أعدها مستقلة عنه ، كمقدمة له ، تربط بينهما أقوى
الوشائج ، ولا يقرأ أحدهما بمعزل عن الآخر . وأعيد هذه السطور هنا
مرة أخرى لإبراء لذمتى ، لأن فى هذا ما يفسر ذاك ، والعكس
صحيح أيضا .

ومن الله الجزاء ، ومنه التوفيق .

شعبان ١٣٩٦ هـ
أغسطس ١٩٧٦ م

قرطبة - الأندلس

الطاهر أحمد مكي



خريطة تقريبي لمدينة قسطنطينة في القرن العاشر الميلادي

قرطبة على أيام ابن حزم

• السكان :

حين زحف مغيث الرومي ، علام الوليد بن عبد الملك ، يريد قرطبة عام ٩٢ هـ = ٧١١ م ، وحاصرها حتى فتحها ، لم يدربخلده ، ولا يخلد أحد ممن كانوا معه ، أن هذه المدينة الصغيرة القابعة في صفح جبل العروس ، نصف همجية ونصف متبذية ، يمكن أن تصبح في مدى قرنين ونصف من الزمان ، كبرى مدن الأندلس ، موطن الإمارة ، وحاضرة الخلافة ، تنافس بغداد ، وتطاول القاهرة ، وتكسف ماحولها من مدائن ، وتبلغ شهرتها الخافقين ، فتصبح موضع الإعجاب من راهبات منقطعات في دير منعزل بألمانيا ، وتقول عنها الأخت الشاعرة السكسونية روز فيتا Hroswita في قصيدة لها : «جوهرة العالم الساطعة ، مدينة جديدة ورائعة ، فخورة بقوتها ، شهيرة بمباهجها ، مزهورة بما تملك من خير وفير » .

ليس من غرضي ، ولا في نطاق بحثي ، أن أعرض لقرطبة في طفولتها وتطورها على امتداد القرنين الثامن والتاسع الميلاديين ، وغاية ما أطمح فيه أن أعطي صورة مصغرة فحسب ، لجوانبها المختلفة ، خلال القرن العاشر الميلادي ، حين طرق ابن حزم أبوابها وليدا .

كانت قرطبة القرن العاشر الميلادي مدينة كبيرة ، يتجاوز سكانها المليون عددا ، تتحدث العربية ، إلى جانب لغات أخرى ، وتدين بالإسلام ، إلى جوار المسيحية واليهودية ، ويسكنها أقوام ينتمون إلى أصول مختلفة .

كان هناك العرب ، مضر يون أو عمنيون ، جاءوا قديما مع موسى بن نصير ، أو مع بلج بن بشر القيسي بعده ، أو في أفواج قليلة العدد أيام عبد الرحمن الداخل ، وانتشروا في كل الأندلس ، وأورد لنا ابن حزم معلومات مستفيضة

عن منازلهم في كتابه «جمهرة أنساب العرب» واتخذ عدد منهم مكانه إلى جانب الإمارة أو الخلافة ، ولم تكن أعدادهم في المدينة كبيرة ، ويمكن القول أنهم كانوا أقل عددا من أية طائفة أخرى ، ويتولون الوظائف الهامة ، وعكف بعضهم على التجارة ، وقلة تدبير من العاصمة مزارعها الواسعة في الريف ، وحافظوا على أصولهم التي انحدروا منها ، وحرصوا على أن يتميزوا بألقابهم العربية ، وظلت ذكريات قبائلهم حية في حكاياتهم وسميرهم ، وهي خصائص أخذت تختفي مع الزمن ، ونتيجة الزواج المختلط ، فقد جاء العرب فرادى عادة ، وكان النصف الثاني من بيوتهم ، زوجة أو جارية أو عشيقة ، لمبيريا في الأعم الأغلب ، ومن ثم بدأت «الأندلسية» تأخذ طريقها إلى وجدانهم لإحساسا ، فأصبح النرد منهم يحس بأنه قرطبي ، قبل أن يكون مخزوميا أو قرشيا . وبدأ ثقلهم السياسي يضعف مع عبد الرحمن الناصر ، فقد كان ميالا إلى قيام سلطة مركزية قوية ، ورأى المنصور بن أبي عامر بعده خطر قيام طبقة تعتمد على الدم وحده طريقا إلى النبيل ، فقرر أن يهبط بهم إلى حيث بقية الناس ، وقضى نهائيا على نظام الجند القبلي ، وأحل مكانه مفهومًا جديدًا يجعل العصبية للأندلس .

وكان هناك البربر ، من زناتة أو صنهاجة ، وهم أول من دخل الأندلس ، واحتملوا صدمة الفتح الأولى ، واتصلت هجراتهم إليه ، اقرب بلادهم منه ، وتشابه مناخ أوطانهم به ، وكثرة القلاقل السياسية عندهم ، حتى فاقوا العرب عددا ، وأورد لنا ابن حزم في كتابه «جمهرة أنساب العرب» فصلا عنهم أسمائهم : «بيوتات البربر في الأندلس» ، ونجد عنهم معلومات وافرة في تاريخ ابن خلدون . وقد اتجه معظم البربر إلى الريف ، وامتزجوا بالسكان الأصليين ، ولعبوا دورا هاما في نشر الإسلام ، وآثرت قلة منهم البقاء في العاصمة ، تعمل في المهن المتواضعة ، هلى حين سمت بآخرين مواهبهم ، فتبوا أعلى المناصب ، وباشروا نفوذا سياسيا أو علميا أو أدبيا مرموقا . لقد عرف القرن العاشر منهم في قرطبة أبناء يحيى بن يحيى اللبثي ، كبير فقهاء

المالكية ، ومنذر بن سعيد شيخ الخطباء وإمام عبد الرحمن الناصر ، وابن دراج القسطل شاعر المنصور بن أبي عامر : وحافظ بعضهم على نسبة البربري ، واصطنع آخرون لهم نسباً عربياً ، على ما سئرى .

أما الكثيرة الغالبة من السكان في قرطبة ، فمنهم وجدهم المسلمون لحظة الفتح ، ويعودون إلى أصول مختلفة ، لاتينية وقوطية وإيبيرية وسانتية وحتى أفريقية وفينيقية ، وقد أطلق على من أسام منهم لحظة الفتح اسم « المسالمة » ، وعلى أبنائهم اسم « المولدون » ، وكان منهم الحرفيون وصغار التجار ورجال الأعمال ، وبعضهم كان يعمل في المزارع التي حول قرطبة ، وهم العنصر الأكثر فعالية في الاقتصاد ، لأنهم أعرف من غيرهم بالبلد ، وأكثر احتمالاً لأجوائه وجوائحه . وقد دعمت الدولة في سياسة بعيدة النظر هؤلاء المسلمين الجدد وحميتهم ، وفتحت أمامهم باب الأمل والعمل واسعاً وعريضاً ، لكي يعملوا ويثروا ويحتلوا مكانهم في المجتمع ، وبرزت من بينهم مواهب عظيمة ، وحرص الكثيرون منهم ، كالبربر ، على أن يصطنعوا لهم نسباً عربياً ، عن طريق الزواج والمصاهرة : أو الولاء ، أو باصطناع نسب مزيف ، وثمة متخصصون في صنع أشجار النسب يصنعونها ويبيعونها لمن يريد ، هروباً من ماضيهم غير الإسلامي ، وثانياً كان أم مسيحياً أم يهودياً . وكان بينهم من يتعصب لطائفته ، وقد كتب أبو عامر أحمد بن غرسية ، وأصله من الباسك ، رسالة في فضائلهم والدفاع عنهم .

وقد احتفظ عدد كبير من هؤلاء المولدين بأسماء أسرهم القديمة ، واتخذوا منها ألقاباً ، فلدينا ابن بشكوال Ibn Pascual صاحب كتاب « الصلة » وبنو قومس Banu Comes ، وبنو مرتين Banu Martin وبنو غرسية Banu Garcia ، وآخرون كثيرون . وبعضهم عرب اسمه اللاتيني ، فأصبح Félix يدعى سعيدياً ، و Victor يدعى الظاهر ، وأخذت الأسماء اللاتينية المستمدة من التوراة الشكل العربي ، فاسم Moisés أصبح مومى ، و Jesus عيسى ، وهكذا .

ثم السود والصقالبة ، وكانوا أقل عدداً من العرب والبربر ، والسود أقل من الصقالبة ، وهما على النقيض لونا . ويطلق على الرقيق القادم من بلاد السودان اسم العبيد أو السودان ، ولا صلة للتسمية بما يطلق الآن على جنوبي وادي النيل ، وإنما تعني تلك المناطق التي تمتد من جنوب المغرب وما وراءه من غربي إفريقيا ووسطها . وقد اتخذ منهم الخلفاء حرمهم الخاص ، وبلغوا عدداً لا بأس به ، وبخاصة في عهد الحكم الثاني ، وأصبحوا يكونون جانباً من المهرجانات العامة ، بين فرسان ومشاة ، وبخاصة في البيعة ، وأكثر منهم المنصور بن أبي عامر ، لأنهم اشتهروا بالقوة والاحتمال ، والقدرة على العدو ، حتى أن البريد ويطلق عليه في لغة الأندلس الإدارية اسم « الرقاص » كان وقفا عليهم ، وكان يتبع المنصور في كل حملاته الحربية ، حل أو امره إلى مرعوسيه في بقية العاصمة أو بقية الكور .

ولا يزال أحد شوارع قرطبة يحمل اسمهم مترجماً حتى يومنا هذا : زقاق السود Calleja de Los Negros *

والسوداوات كن أكثر عدداً من الرجال ، ويتمتعن بشهرة عالية في الأعمال المنزلية ، وكان الرجال يقدرون فيهن صفات أنثوية لا يجدونها في غيرهن ؛ وكان اللون الأسود لأبناء من آباء بيض شائعين الطبقة الحاكمة والمقتدرة ، « وإنه لشيء يشرف هؤلاء المسلمين أنهم لم يعرفوا التفرقة العنصرية بسبب اللون أبداً ، لا في العصر الوسيط ، ولا في أيامنا هذه » .

وكان الصقالبة خصباناً في أكثر الأحوال ، ويعملون في حرم الخليفة ، والطريق مفتوح أمامهم إلى المناصب العليا ، وإلى أن يصبحوا في مرتبة الرجال الأحرار ، رغم أنهم جاءوا إلى الأندلس رقيقاً ، وبينهم من احتفظ ببلغته ، ومن اعتزل المجتمع ، وحافظوا على خصائصهم ، واتخذوا لهم موقفاً خاصاً ، رغم أنهم أسلموا ، وفتحوا قلوبهم للمجتمع الذي يعيشون فيه ، وعندما سقطت الخلافة أصبحوا عنصراً مستقلاً في

مواجهة العناصر الأخرى ، وتميزوا بروح التضامن فيما بينهم . وفي البدء كان يطلق لفظ الصقالبة على الذين يؤتى بهم من وسط أوربا ، ويقوم اليهود على خصائصهم في مدينة بجاية ، وكل سكانها من اليهود ؛ وكان يهود فرنسا يباشرون المهنة في مدينة « فردان » ، ويربحون من وراثتها أموالا طائلة ، وفيما بعد أطلق الاسم على كل الرقيق الأبيض اللون ، حتى أولئك الذين يؤتى بهم من جنوب فرنسا أو شمال الأندلس .

وكان الأسيرات القادمات من بلاد الإفرنج ، في جنوب فرنسا ، أو من مقاطعات قطلونية والباسك وغاليسية في شمال الأندلس ، حظوة كبيرة في قرطبة ، لأنهن يبيضاوات البشرة ، شقراوات الشعر ، زرقاوات العيون ، ومن بينهن كان الأمراء يختارون عشيقاتهم المدللات ، فإذا أنجبت الواحدة منهن صارت أم ولد ، أي حرة . وقد مارست الجوارى نفوذا كبيرا في الحياة السياسية ، ولم يكن اتخاذهن وقفا على الأمراء ، وإنما شاع ذلك في بيوت الخاصة ، وأعلى الطبقة الوسطى ؛ من كبار الموظفين ؛ ورجال الدولة ، وأبناء البيوتات . وتميز هؤلاء الجوارى بالثقافة والرق والصلابة ، وأدين دورا بالغ الأهمية كأمهات ، وأعطين المجتمع الأندلسي طابعه الخاص ، ولعبن دورا كبيرا في تحسين مكانة المرأة في الأندلس . ويحمل شارع في قرطبة اسم شارع الرقيق ، أو الجوارى Las esclavas حتى يومنا .

هذه العناصر على اختلافها كانت تأخذ طريقها ، تدريجيا ، نحو اندماج كلي ، سهله ومهتدله ، عقيدة واحدة كانت تظل الناس جميعا ، وتحدد لهم أنماط السلوك في حياتهم العامة والخاصة ، دون أي تمييز طبقي أو عنصري . ويمكن القول ، إن القرن العاشر الميلادي ، في النصف الثاني منه تقريبا ، وفي ظل السلام الوارف الذي بسط عبد الرحمن الناصر ربوعه على الأندلس ، تمت عملية المزج بين العناصر الأصيلة والوافدة ، وكنت إذا مرت في الشوارع ، أو تجولت في الأسواق ، تلتقي بأناس ألوانهم مختلفة ، شقر وسمر وببيض وسود ومخاطون ، يعيشون في وئام مع بعضهم ، ومع الذميين من الكاثوليك (م ٢ - ابن حزم)

واليهود ، » ونجم عن اختلاط الأجناس ، وتجاور الديانات ، جو سمح جميل ، إنساني وشفاف ، هو الجو الحضارى نفسه الذى نعرفه فى بغداد كما تصورنا قصص ألف ليلة وليلة ، خالصا من كل ما يرتبط بالشرق فى أذهاننا ، من جلافة يشوبها الغموض .

فى هذا القرن كانت الخلافة الفاطمية فى المغرب ، والعباسية فى بغداد ، تدفع بالأندلس دفعا نحو الإنطواء على نفسه ، فكلاهما كان خصما سياسيا حنيفا ، ومن ثم كان اهتمامه بالوحدة الفكرية للعالم الإسلامى فاترا . وبدأ يتكون فى وجدان الأندلسى شىء غامض ، بإحساس ذاتى مبهم ، من المبالغة أن نقول عنه إنه قومى ، لأن مثل هذا التعبير يتجاوز ما أحس به الأندلسيون ، ولا يتناسب وطبيعة العصر ، ويمكن تحديده بأنه إحساس بوحدة الأهل والغاية والحياة بين سكانه ، وبغزلة جغرافية شعورية عن بقية العالم الإسلامى ، ومع شدة العداء السياسى من الفاطميين والعباسيين أخذ هذا الاتجاه شكلا أكثر قوة ووضوحا ، وبدأ الأندلسى ، لإيريا من شبه الجزيرة ، أو قادما من المغرب ، أو مهاجرا من المشرق ، يحس بشخصيته الأندلسية ، ويعبر ابن حزم عن هذا المعنى تعبيرا قويا فى بيت من الشعر :

ويا جوهر الصين سحقا فقد غنيت بياقوتة الأندلس

لقد بدأ الأندلسيون يستشعرون أنداسهم وطنا ، يتعبدون به دواما ، يتغزلون فيه شعراء حين يكونون على بساطه ، ويحنون إليه وجدا حين يكونون بعيدين عنه ، وليس مهما بعد ذلك أنه لم يعرفوا كيف يدافعون عنه فيما بعد . ذلك أن الأندلسى كان كثير الكلام وجذلا ، قوى الإحساس بالطبيعة وشاعرا ، قادرا على التمتع بالحياة ، ولكنة كأى متحضر تنقصه الحشونة التى تجعل منه قادرا على الصمود والفضال .

وكان هناك المستعربون ، وتطلق عليهم المصادر العربية ، نصارى اللذمة ، أو العجم ، أو مجرد كلمة نصارى ، وتطلق عليهم المصادر اللاتينية

اسم : المستعربون ، أخذنا من من كلمة مستعرب Mozarabes مضافا إليها أداة الجمع في اللاتينية ، وهم أولئك الذين ظلوا على كاثوليكيتهم ، ولكنهم فيما عدا ذلك شاركوا المسلمين الكثير من عاداتهم وثقافتهم وألوان حياتهم . ولا نستطيع أن نستنتج عددهم ، ومن الواضح أنه كان يقل مع الزمن بفضل تقدم الإسلام ، وباستثناء رؤسائهم الدينيين ، فإن المصادر العربية قلما تتحدث عنهم . وبينهم من كان يتمتع بوضع اجتماعي ممتاز ، ولم يكونوا يتعرضون لأية مضايقا من الخليفة ، أو من المنصور بن أبي عامر عندما أصبح حاجبا ، ولامن الخاصة ، وبرهنوا من جانبهم على انضمامهم للمجتمع ، وحاولت الدولة أن تكسب ثقتهم ، ولكن ما إن نمت القوى الكاثوليكية في الشمال حتى اهتز ولاؤهم ، وأصبح مجاعة وتقية وانتظاراً أكثر من الإخلاص .

وقد استقلوا بشؤونهم الدينية ، أصبح لهم رئيس ينتخبونه من بينهم ويعينه الخليفة ، يدعى قومس Comes ، وقاض ينظر في أمورهم الخاصة ، يعرف باسم « قاضى المعجم » ، وكان لهم كنائس في داخل المدينة ، وعدد آخر خارجها ، تضم كل واحدة منها ديراً ، وفي هذا القرن ألغى القرار الخاص بحظر دق أجراس الكنائس ، وكانوا يؤدون طقوسهم الدينية في جرج يشد إليه فضول حتى أولئك المسلمين الطيبين من العامة ، ووصف لنا ابن شهيد ، في رسالته « التوابع والزوابع » ، انطباعه عن دير زاره . ورغم أن بعض المسلمين كان يقيم رجال الدين الكاثوليك بأنهم ليسوا طيبين ، وأن بعض الأديرة تحولت إلى حانات للشراب ، وأمكنة لممارسة الحب ، لا يمكن القول بأنهم جميعاً ، وبأن الأديرة كلها كانت كذلك . وأياً ما كان الأمر فإن مثل هذا الاتهام لم يكن يسبب أية متاعب للمستعربين .

وبعض هؤلاء المستعربين كان على ثقافة عالية ، وموضع ثقة الخليفة ، وكان ربيع بن زيد ، واسمه المسيحي Reemundo يستخدم

اللاتينية والعربية بمستوى واحد ، وقد اتخذ منه الناصر سفيراً متجولاً له : فأرسله إلى أوتون الأول Otoni ملك جرمانيا ، ثم إلى القسطنطينية وسورية للحصول على مواد يحتاج إليها في بناء مدينته الزهراء ، ولكي يضمن عليه احتراماً زائداً في سفارته عينه أسقفاً لمدينة البيرة ، وهي وظيفة شرفية ، فلم يكن لديه في الواقع وقت ليباشر وظيفته هذه . وكان الحكم الثاني يقدر معارفه الفلسفية والفلكية ، وله ألف ربيع بن زيد كتابه « الأنواء » وكان المستعربون طبقات اجتماعية مختلفة ، يقف على قممها النبلاء الذين ينحدرون من القوط ، ثم الطبقة العليا وكانت وقفاً على رجال الدين ويأتى العبيد في نهاية السلم ، وكان المسيحيون واليهود شأنهم كالمسلمين يمتلكون الرقيق .

وكان في قرطبة يهود ، ومعلوماتنا عن نشاطهم في القرن العاشر محدودة للغاية ، وما وصلنا من أخبار وفيرة عنهم يعود إلى القرن التالي ، ونقد وجدت عنناً في الوصول إلى معرفة عدد من اليهود كان يعرفهم ابن حزم ، وتتردد أسماؤهم في « طوق الحمامة » . ومع ذلك يمكن القول أنهم كانوا يكونون جالية كبيرة ، تقطن حياً خاصاً بها ، يقع بين شارع القنطرة وقصر الخلافة ، ويحمل اسمهم . وأن أحد أبواب المدينة كان يطلق عليه اسم باب اليهود ، وأن الربض المجاور له يحمل اسمهم أيضاً ، ويبدو رغم صمت المؤرخين أنه حتى يهودى آخر يختلف عن الأول ، وربما كان موطن الأغنياء منهم .

وقد سكن اليهود الأندلس قبل مجئ المسلمين ، وساعدوهم في حركة الفتح ، واعتنق بعضهم الإسلام ، وظلت غالبيتهم على دينها ، وفيما بعد جاء يهود آخرون من أفريقية وآسيا . وقد تركوا أحراراً تماماً في حياتهم الدينية ، وكانت لهم بيعة داخل المدينة ، ولهم مجانس شوري يرعى شئونهم يسمى « الجماعة » . ورئيس هو الصلة بينهم

وبين السلطات الإدارية ، ورئيسهم في عهد عبد الرحمن الناصر ، وهو الوحيد الذى نعرف عنه شيئاً ذا قيمة فى هذه الفترة ، حسداى بن إسحاق بن شبروط ، كان طبيباً للخليفة ، ومن مستشاريه المقربين ، وبسفر له لدى ملوك الشمال المسيحيين ، وإليه يرجع فضل إقامة الدراسات الطمودية فى قرطبة وإزدهارها ، على حين كانت تخبو فى المشرق ، وبدأ اليهود يصوغون لهم تشريعات خاصة وقوانين ، وأخذ الشعراء ينشدون الشعر العبرى ، ويتخذون من العروض العربى قالباً يصبون فيه أشعارهم العبرية .

وفى قبل القرن العاشر حاول اليهود أن يتمردوا ، وأن يغتدوا بالحركات الثائرة ، أو ينضموا إليها . ولكنهم سرعان ما أدركوا أن هذه ليست مهمتهم ، وأن التآمر والدسائس ودفع الآخرين إلى الثورة ، والتمرد على الحكومة ، لن يودى إلى شيء ، فأثروا السلامة ، وانصرفوا إلى أعمالهم . وعندما جعل الناصر من نفسه خليفة ، ومن قرطبة عاصمة الخلافة ، وغرق الناس فى الترف ، ووسعت الحياة كل عمل ، انصرف اليهود إلى جمع الثروات الكبيرة ، وآثروا أن يربحوا ثقة الدولة ، وكانوا يعملون فى تجارة المجوهرات ، والذهب والفضة والرقيق ، والسوق السوداء ، والرهونات والصياغة ، والربا ، وفى التزييف أحياناً ، ويعملون مترجمين وأطباء وصيادلة ، وفى التنجيم والملك ، وبعض وظائف الإدارة ، وخاصة ما اتصل منها « بخزانة المال » .

• الطبقات الاجتماعية :

اندمج سكان قرطبة عنصرياً ، ولكن الطبقة الاجتماعية ظلت قائمة على النحو الذى كانت عليه فى بقية العالم الإسلامى ، فقد كان هناك الأحرار والموالى . وفى نطاق الأحرار هناك الخاصة ، أو الطبقة العليا بلغة العصر الحديث ، والعامية ، أو الجماهير كما نقول فى أيامنا هذه .

تتكون طبقة « الخاصة » من أبناء الأسر العربية ، وبخاصة أولئك الذين يرتبطون من قريب أو بعيد بنسب مع الأميرة المالكة ، ويطلق عليهم أحيانا « بنوهاشم » ، أو « أهل قريش » ، إشارة إلى أصولهم النبيلة ، ويتلقون رواتب من بيت المال إلى جانب أملاكهم الخاصة ، وكانوا موضع احترام كبير من عامة الشعب ، ويعيدون عن المناصب العامة ، ويتولى شئونهم نقيب لهم ، هو صوتهم والصلة بينهم وبين الخليفة. وتأتى مكانتهم فى الحفلات الرسمية أو العامة ، أو الأعياد الدينية ، أو استقبال السفراء ، قبل الوزراء وكبار الموظفين ، ويلهم رجال القضاء ، وعلى رأسهم قاضى الجماعة ، ثم كبار الموظفين ، ويعدون من الخاصة ، إلى أى عنصر انتموا . ومنذ نهاية القرن التاسع الميلادى بدأ كثيرون ممن كونوا ثروات طائلة ، قدما أوحديثا ، يشتررون وضعا اجتماعيا أفضل ، يدفعون ثمنه ذهابا ، لكى ينتسبوا فى هذه الطبقة ذات الأهمية الاجتماعية ، وكانت تتمتع بامتيازات مادية محدودة ، ومعنوية أكبر ، ولها الحق فى معاملة خاصة من موظفى الدولة . وعلى أية حال فقد كانت طبقة متجددة ، ومحدودة العدد ، وغير مستقرة ، لأن عمليات الإقطاع والمصادرة تم فجأة ، وتخضع لأهواء الحاكم دوما .

كان أبناء « البيوتات » أوضح عناصر هذه الطبقة فى القرن العاشر ، وهم الذين كانوا يتوارثون الوظائف الكبرى منذ القرن التاسع ، ويحتكرون الإدارة المركزية فى العاصمة ، وتميز من بينهم خمسة ، أصولهم شرقية هم : بنوعبدة ، وبنو حدير ، وبنو شهيد ، وبنو عبد الرؤوف ، وبنو فطيس ، وأبناء الأسر الثلاثة الأولى تردد أسماءهم كثيرا فى طوق الحمامة ، وفى القرن العاشر ، على أيام الناصر ، سوف تلحق بهم بيوت أخرى ، لموظفين كبار ، أو موال محدثين ، نجموا فى مهمات وكلت إليهم . من طراز بدر ابن أحمد الذى انتصر على أوردينو الثانى Ordonio ملك ليون ، فى موقعة متونية Mitonia ، وكان يتولى الحجابة للناصر منذ أصبح أميراً إلى أن توفى خليفة ، وخلفه فى بعض مناصبه إبنه : عبد الله وعبد الرحمن . وظهر عدد

من الفتيان الصقالية ، أمثال : درى ، وأفلح ، وطرفة ، وجعفر ، ويظهرون في الوثائق تحت اسم «أبناء الخلائف» ، ويدهى أنهم أصبحوا أحراراً قبل أن يعهد إليهم بالوظائف العالية ، والتي ارتفعت بمستواهم إلى أشهر البيوتات العربية القديمة ، والتي أحست على التأكيد بأن شيئاً تتوارثه قد انتزع منها فجأة . وفيما بعد ، في خلافة الحكم الثانى وابنه الضعيف هشام الثانى ، سوف نلتقى بالحاجب المصحفى ، والمنصور بن أبى عامر ، وأحمد بن سعيد ابن حزم ، والد ابن حزم صاحبه .

جرت العادة أن يحمل كبار الموظفين لقب وزير ، وأن يتلقوا الراتب المقرر له ، وكانوا إلى جانب ذلك يجمعون ثروات طائلة ، من الضياع الواسعة ، والعقارات الهامة ، والجواهر الغالية ، وكان الخليفة يسأل الذين تطول أعناقهم فجأة عن مصادر ثرائهم ، وبعضهم لا ينتظر حتى يسأل ، وإنما يسبق الأحداث فيقدم بعض ما جمع إلى الخليفة ، أو بيت المال ، وكلاهما كان واحداً .

ثم تأتى الطبقة الوسطى ، ويتحدث عنها المؤرخون عرضاً ولما ، ونجى طبقة لنظم المراسم فى آخر القائمة ، ويطلق عليهم اسم «الأعيان» ، وهم أغنياء الأحياء ، وكبار تجار الأسواق ، ممن استطاعوا أن يرتفعوا بمستواهم فى سلم الطبقات الاجتماعية ، ومعظمهم من المولدين . ولا نستطيع فى ضوء النصوص التى بين أيدينا تحديد الدور الذى قامت به هذه الطبقة فى حياة العاصمة ، ولكن الأقرب إلى التصور أن الأغنياء منهم كانوا يحاولون أن يقفزوا إلى مرتبة الخاصة ، ولم يكن للبقية دور حتى يكون لهم وضع خاص .

وكانت الطبقة الدنيا ، أو العامة كما تسميهم المصادر القديمة ، وقل ما يتحدث عنهم ، تتكون من الحرفيين والعمال ، وكلها من البربر أو المولدين أو الموالى ، إلى جانب المستعربين واليهود . وفى مدينة كقرطبة ، تجرى الأموال بن يدي الخاصة أنهاراً ، كان على هذه الطبقة أن تتحمل ضيق المجتمع

وقسوة الحياة ، وأن ترزح تحت أعباء ضرائب باهظة كانت تفرض عليها . وكانت تقوم بينهم وبين الدولة هوة سحيقة من سوء الظن وعدم الثقة ، لأن الغرم يقع عليهم دائماً ، وكانوا دوماً ، وربما على حق ، مادة معدة للانضمام إلى أية ثورة أو تمرد أو عنف ، ووراء أى قائد أو دعوة ، وظلوا يخضعون دائماً لرقابة مشددة من الدولة ، ودرج الأمير أو الخليفة على أن يتملق عواطفهم عند توليه السلطة ، يؤكد أمنهم ، ويخفف الضرائب عنهم ، وقد يعفيهم عما تأخر منها .

• اللغة :

هذه الجماهير المتدفقة عبر شوارع قرطبة ، أو الجامعة في بيوتها ، أو المتحلقة في الكتائب والمساجد ، أو العاملة في المصانع والحقول ، أى اللغات كانت تتحدث ؟

خارج عن قصدى أن أتبع العربية في زحفها وراء راية الإسلام المندفعة ، وأن ألم بخصائصها ، وما أصابها من تخوير أو تحريف أو تطور ، إنما أريد أن أقصر نظري على نهاية القرن العاشر وأوائل القرن الحادى عشر ، أى الفترة التى سبقت أو عاصرت أو تلت ابن حزم ، وهى فى الوقت نفسه الفترة التى بلغت فيها الحضارة الأندلسية قمة توهجها .

كانت اللغة العربية الفصحى اللغة القومية ، ولأنها لغة ثقافة ، وعاء حضارة ، لم تجد على بطحاء شبه الجزيرة الإيبيرية لغة أخرى تدخل معها فى صراع ، أو تقاوم زحفها ، ولأنها لغة القرآن فرضت نفسها لغة الإدارة أيضاً . وأصبحت لغة الحديث فى اجتماعات الأصدقاء المثقفين ، وفى « الصالونات » الأدبية ، ونحرير الرسائل ، والوثائق الرسمية ، وفى الإبداع الأدبى شعراً ونثراً ، ولغة التعليم بنوعيه ، المبتدىء والعالى على السواء . وفى العلاقات الدولية ، ومع المشرق بخاصة ، أفراداً أو على مستوى الدول ، وكان يمكن منها شرطاً لتولى أى من المناصب العامة ، والتفوق فيها الطريق

الوحيد إلى النبيل المكتسب والوظائف العليا . ومن ثم كان على الأندلسيين من غير المسلمين ، يهوداً أو مستعربين ، أن ينبغي فيها إذا أرادوا أن يجدوا لهم مكاناً مرموقاً تحت شمس الخلافة ، وتعرف من بينهم أدباء وشعراء كانوا يكتبون فيها شعراً جميلاً ونثراً راقياً . ويعبر عن هذا لها الواقع زفرة أرسلها ألفارو ، مطران قرطبة ، عام ٨٥٤ م ، أى قبل الفترة التى تعرض لها بنحو قرن كامل ، ولما يمتص على الفتح الإسلامى غير مائة وأربعين عاماً ، يقول : « من الذى يعكف اليوم بين أتباعنا من المؤمنين على دراسة الكتب المقدسة ، أو يرجع إلى كتاب أى عالم من علماتها ، ممن كتبوا فى اللغة اللاتينية ؟ من منهم يدرس الإنجيل أو الأنبياء أو الرسل ، إننا لا نرى غير شبان مسيحيين هاموا حبا باللغة العربية ، يبحثون عن كتبها ويقتنونها ، يدرسونها فى شغف ، ويعلقون عليها ، ويتحدثون بها فى طلاقة ، ويكتبون بها فى جمال وبلاغة ؛ ويقولون فيها الشعر فى رقة وأناقة . يالاحزن : مسيحيون يجهلون كتابهم وقانونهم ولا تبنيتهم ، وينسون لغتهم نفسها ، ولا يكاد الواحد منهم يستطيع أن يكتب رسالة معقولة لأخيه مسلماً عليه ، وتستطيع أن تجد جمعاً لا يحصى يظهر تفوقه وقدرته وتمكنه من اللغة العربية » .

وكانت البربرية ، بلهجتها المختلفة ، تتحدث فى الأعوام الأولى من الفتح ، وحتى زمن متأخر نسبياً ، مع الجنود البربر ، والمهاجرين من شمال إفريقيا ، وكانوا أكثر عدداً من العرب ، ويذكر ابن القوطية فى كتابه : « افتتاح الأندلس » : أن عبد الرحمن الداخل « ركب مع ثقات من مواليه ورجاله ونفر من العسكر ، فسمع البربر يتكلمون فى العسكر بالبربرية ، فدعا بمواليه من البربر ، وقال لهم : خاطبوا بنى عمكم وعظومهم ، وأعلموهم أنه إن تغلب العرب وقطعوا دوائنا فلا بقاء لهم معهم ، فلما أظلم الليل دنوا من العسكر ، وخاطبوهم بالبربرية ، ولكنهم ما لبث أن تفهقوا امام العربية ، ولا تبلغ المرحلة التى نحن بصدددها من تاريخ الأندلس حتى نجددها قد تلاشت تماماً ، فهاهنا كلمات قليلة ليست بذات أثر ، من أسماء

بعض الأطعمة أو الملابس ، ولو أنها سوف تعود فيما بعد ، ودون أن تترك أيضا أثرا يذكر ، مع بعض دول الطوائف ذات الأصل البربري ، ومع المرابطين والموحدين .

وكانت هناك اللغة اللاتينية ، لغة رجال الدين من المستعربين ، يعرفونها إلى جانب ما يعرفون من العربية الفصحى والعامية ، والرومانشية ويطاق عليها اللاتينية الواطية ، لأنها تختلف عن اللاتينية الأدبية في تراكيها وصوتياتها ومفرداتها ودلالاتها ، وتباين مناطق وعصوراً ، وتأثراً باللغات القديمة في المناطق التي عاشت فيها ، وما وصلنا فيها من أدب قليل للغاية ، لأنها لم تكن لغة ثقافة ، وإنما تستخدم في الطقوس الدينية ، وفي الوثائق الإدارية فحسب ، ولم تكن مفهومة لغير رجال الدين ، وقد اضطر سعيد المطران ، أو Juan Hispalense كما يرد في المصادر اللاتينية ، إلى شرح الكتاب المقدس باللغة العربية ليسهل فهمه على عامة المستعربين ، وفيما بعد ترجمت التوراة نفسها ، وتحفظ مكتبة مدريد الوطنية بمخطوطة تضم ترجمة عربية للقوانين الكنسية كتبت عام ١٠٤٩ م ، وإذا عرفنا أن الكتاب وضع خاصة لكبار رجال الكنيسة أدركنا المستوى الذي انتهت إليه اللغة اللاتينية في الأندلس .

وكان عامة المستعربين ، ومعظم المسلمين ، وجل اليهود ، يتكلمون الرومانشية ، أو يعرفونها ، أو يلمون بشيء منها ، إلى جانب الفصحى وعامية أهل الأندلس ، وهي لغة انحلت من اللاتينية العامية ، أو اللاتينية الواطية ، وابتعدت عنها كثيراً ، وأخذت في كل منطقة تطوراً خاصاً ، صوتاً واشتقاقاً وتركيباً ، سوف يصبح فيما بعد اللغات اللاتينية الحديثة ، وهي الإيطالية والفرنسية والإسبانية والبرتغالية والقطلونية والبروفنسالية والرومانية (نسبة إلى رومانيا الحديثة) ، وما تفرع عن هذه من لهجات . ويطاق عليها المؤرخون الأندلسيون اسم : لسان العجم ، أو العجمية ، أو الليطينية قليلاً . وقد عجب ابن خزم في كتابه « جمهرة أنساب العرب » ، من أن

بنى بيليء لا يتحدثون اللبطينية ، لانساوهم ولا رجالهم . وبعض جمل منها كان يتردد في مجالس الخليفة تروحا وتخففاً ، ويجرى على السنة المتخاصمين والشهود في مجالس القضاء . وهي تمثل مصدراً هاماً لعامية أهل الأندلس ، على نحو ماسيحي . غير أنها رغم هذا كله لم تكن لغة الحياة اليومية ، فقد حاصرتها عامية أهل الأندلس ، ودفعت بها إلى ركن قصي لاتتجاوزها ، في أروقة الكنائس ، أو الحياة الخاصة للمستعربين ، أو بين قلة منهم مثقفة أو منزلة أو تسكن مناطق نائية ، ويرى مينندث بيدال ، أنه لا يمكن الجزم بأن المستعربين في القرن العاشر وما بعده ، قد احتفظوا بلغتهم الرومانشية أداة تخاطب ، أو لغة أدب .

وعرف العصر عدداً من كبار المفكرين اليهود في قرطبة ؛ وفي غيرها ، وفيه بدأت الدراسات لليهودية تزدهر ، ومع ذلك لا يمكن القول بأن اللغة العبرية كانت لغة ثقافة أو محادثة لأحد . صحيح أن عدداً محدوداً من علماء اليهود كان على معرفة بها ، ولكنها معرفة المتخصص الراغب في الدراسة ، أكثر منها معرفة المتمكن يجعل منها محملاً لأفكاره أو مشاعره ، أو أداة وصل بينه وبين الآخرين .

ومن المؤكد أن الصقلية ، وجاءوا من أمكنة عديدة من وسط أوربا ، كانوا يعرفون لغاتهم الأصلية أو مفردات منها ، وأن أدوات النطق عندهم تكونت على نحو يترك أثره في نطقهم للغة التي سوف يتحدثون بها . ورغم أن الكثرة الغالبة منهم كان يوثى بهم أطفالاً ، ويربون على إتقان اللغة العربية وإجادتها ، فإن عدداً منهم ليس بالقليل ، كان يجيء في سن فتية لا يتأتى معها أن يتعلم اللغة العربية بسهولة . وكان جهلهم بها يقيم بينهم وبين عامة الناس سورا عالياً من العزلة ، فلا يشاركون غيرهم في حديث أو حوار ، فكان يطلق عليهم اسم « الخرس » . لكننا لا نعرف أنهم تركوا أثراً واضحاً ، أو غير واضح ، في أى من لغات الأندلس : العربية أو العامية أو الرومانشية ، أو حتى الإسبانية فيما بعد ، ولو أن

حيوان ابن قزمان ، وكتب في عامية أهل الأندلس بعد ذلك بقرن من الزمان ، يضم عددا كبيرا من ألفاظ غير عربية ، الجانب الأكبر منها من أصل روماني ، ولكن عددا من المفردات يمكن - ظنا - أن يكون مصدره هؤلاء الصقالبة ، لأننا لانعرف له معنى ، ولم نتوصل له إلى أصل يمكن أن يرد إليه .

ولمى جانب هذه اللغات كلها عرف الأندلس عربية عامية ، ذات دائرة أوسع منها جميعاً ، ولها خصائص متميزة ، وسوف تعرف باسم « عامية أهل الأندلس » ، وجاءت نتيجة طبيعية لقلّة العنصر العربي ، وللزواج المختلط ، فكل العرب الذين وفدوا على الأندلس ، إلا ماندر ، جاءوا رجالاً ، وتزوجوا فيه من إسبانيات . أو تسروا من الجوارى ما وسعتهم الحال ، وكان عدد الجوارى كبيراً ، وينتمين في جنسيات مختلفة ، ومن مناطق متنوعة في الأندلس نفسها ، ففمنهن القادمات من قطاونية ، أو الباسك ، أو جليقية ، ومن جنوب فرنسا ، ويطلق عليهن في المصادر القديمة اسم « الفرنج » ، وكن مرغوبات ومحجوبات ، لبياض بشرتهن ، وشقرة شعرهن ، ويمثلن الأغلبية ، إلى جانب قلّة من الصقاليات أو السودانيات ، وكانت الجارية التي تجهل العربية ، وتطلب للمتعة ، أغلى ثمناً من غيرها .

والرجل مع زوجته ، أو جاريته ، في لحظتهما الودود ، لا يتحدث الفصحى ولا يسمعها ، يعبر عن عواطفه بلغة مفهومة لمن معه ، وتجسد هي مشاعرها في لغتها الأصالية ، أو في لغة هجين ، لأن الكتب والثقافة والتعليم لا تمدها ، ولا غيرها ممن على شاكلتها ، بألفاظ هذه الأحاسيس ، إنما يتعلمها التي من أئداده ، وتنقلها الفتاة عن أترابها . وكل ذلك إلى جانب مفردات البيت المتصلة بالطعام والشراب . وهي تلقن هذه الألفاظ وما تحب من لغتها لأطفالها ، فتأتي لغة الأبناء ، على الأقل في المرحلة التي تسبق المدرسة ، خليطاً من لغة الأب ومن لهجة الأم .

وإذا تجا وزنا الجوارى ، فإن الباعة وأصحاب المهن الصغرى ، وكاهنهم ليسوا بعرب ، تخلف في نطقهم ، وفي معجمهم اللغوى ، الكثير مما ورثوا ، ومن الرومانشية ، ومن ثم فإن عامية الأندلس كانت خليطا من ألفاظ عربية في مجملها ، في صورتها الصحيحة أو تطورت نطقا ودلالة . ومن كلمات رومانشية تمثل نسبة عالية ، قد تبلغ حد الثلث منها ، ومن ألفاظ بربرية أو من لغات أخرى قليلة للغاية ، وليست بذات أهمية ، وكانت هذه اللغة معروفة للناس جميعا ، عربا وبربرا وإسبانيا مسلمين ويهودا ومستعربين ، ولكل من يعيش في قرطبة ، لأنها لغة الحياة اليومية في البيع والشراء ، والسمرو والتوادم ، والتخاطب بين عامة القوم ، ولم يصلنا من هذه اللغة ، أو اللهجة إن شئت الدقة ، في الفترة التي نعرض لها ، نصوص تعين على تحديد ملامحها ، ولكن ابن حزم أشار إلى بعض هذه الملامح ، ويذكر أن البربر لعبوا دوراً حاسماً في التحريف البنائي والصوتي الذي أصاب اللغة العربية في الأندلس ؛ ويقول المقدسى ، وهو جغرافى غير أندلسى من القرن العاشر الميلادى ، إنه التقى في مكة بحجاج أندلسيين ، « لغتهم عربية ، غير أنها منغلقة ، مخالفة لما ذكرنا في الأقاليم ، ولهم لسان آخر يقارب الرومى » . أما هذه العربية المنغلقة ، فهي عامية أهل الأندلس ، وأما اللغة التى تقارب اللسان الرومى (أى اليونانى) فهي الرومانشية . ويمكن القول إجمالاً أن هذه العامية ، إذا استثنينا الكلمات الرومانشية التى اختلطت بها ، تشبه في صوتياتها ، والجانب الأكبر من دلالاتها ، عامية أهل المغرب والجزائر ، فى أيامنا هذه ، إلى حد بعيد .

وهذا التيار العامى كان يمكن أن يودى بالعربية ؛ لولا أنه أدى في الوقت نفسه إلى رد فعل معاكس ، فكانت عناية الدولة والمجتمع الراقى والمتقنين بالفصحى كبيرة . الخلفاء ورجال الدولة يقربون من يحسن العربية ، ويتنافسون هم أنفسهم فى إجادتها ، ويغدقون العطاء على الشعراء والكتاب ، ويحرص هؤلاء من جانبهم على التزامها ، وببالغون فى مراعاة القواعد ، والتأنى فى التعبير ، ومن ثم ازدهرت الدراسات اللغوية ، وعرف الأندلس عدداً من كبار النحاة ، كابن مالك صاحب الألفية ، وأبى بكر الزبيدى صاحب الواسع فى النحو ،

وغيرهم. وعرفت الدراسات الخاصة بمقاومة اللحن ، وتصحيح النطق ، وإرشاد الناس إلى الصواب .

● العمران :

تحتل قرطبة بوصفها عاصمة الأندلس المكانة الأولى في المصادر التاريخية والجغرافية ، غير أن التفاصيل التي تقدمها لنا هذه المصادر عن تخطيط المدينة والحياة فيها قليلة للغاية ، والكتاب الوحيد الذي نستخلص من عنوانه أنه عني بهذا الجانب ، وهو «كتاب وصف قرطبة» لمؤرخ الأندلس الكبير أحمد بن محمد الرأزي (ت ٣٤٤ هـ = ٩٥٥ م) ، وفيه تفاصيل وافية عن شوارعها وقصور الأعيان فيها ، ضاع ولم يصلنا . ولقد أوقف المقرئ الجزء الثاني من كتابه «نفع الطيب» ، طبعة الشيخ محي الدين ، على مدينة قرطبة ، وحشد فيه نصوصا كثيرة ، كاملة أو مبتسرة ، جغرافية وتاريخية وأدبية ، غير أن المؤلف وهو مغربي ، وحرر كتابه في القاهرة ، ويتحدث عن مجتمع أندلس قد اندثر ، لا يقدم لنا ، إذا حذفنا الأشعار والتكرار وما لا صلة له بالموضوع ، إلا معلومات قليلة للغاية . وحاضر المدينة ، وزرتها مرارا ، صورة مشوهة لما كانت عليه في ماضيها ، نعم إن بعض المعالم لا تزال قائمة ، وبخاصة تلك التي تقع على شاطئ الوادي الكبير ، كالمسجد الجامع ، والرصافة ، وبقياء أطلال العصر الأموي في السهلة ، أوسفح الجبل ، أو مدينة الزهراء ، كما أن السور الذي كان قائما حول المدينة في القرن العاشر يمكن تحديد معالمه كاملة . إن قرطبة المعاصرة ، مباني وسكانا ، جزء صغير عما كانت عليه في عصر الخلافة ، لقد تلاشت أحياء وأرباض كاملة برمتها ، وأصبح ماحول قصر الناصر في مدينة الزهراء أعشابا مخضرة ، مراعى للثيران .

كانت قرطبة القرن العاشر صنوبغداد ، فيما يرى ابن حوفل ، ولم يجد لها في مصر أو الشام شيئا ، ويختلف المؤرخون المعاصرون في عدد سكانها ، فبعضهم يتجاوز به المليون ، ويهبط به آخرون إلى مائة ألف ، وفي غيبة

الوثائق المقاطعة كل شيء محتمل ، ولو أن الرقم الأدنى يبدو غير معقول ، لأن قرطبة الآن تضم من السكان مائتي ألف ونيفا ، وكان امتدادها مدينة ، ومركزها عاصمة ، يجعل منها في العصر الوسيط أضعاف أضعاف ما هي عليه الآن. وإذا استخدمنا الأرقام ، ومالدينامها كاف لإلقاء ضوء على حجم المدينة ، قلنا : كان بها ٣٨٧٧ مسجد في رواية ، و ٢٨ ربضا ، و ٩١١ حماما ، وطبقاً لإحصاء تم بأمر المنصور بن أبي عامر في نهاية القرن العاشر ، كان فيها ٧٧٠ ر ٢١٣ داراً يسكنها العامة ، و ٣٠٠ ر ٦٠ بيت يسكنها الخاصة وكبار الموظفين ، و ٤٥٥ ر ٨٠ دكانا ، ولا يدخل في هذه الأرقام البيوت المؤجرة ، ولا الحمامات ولا الفنادق ، وسبعون داراً للكتب .

وكان يطلق على الجانب القديم من قرطبة اسم « المدينة » مرسلًا ، أو « المدينة العتيقة » أو « القصبة » ، ويحيط به سور يرمم من حين من لآخر ، وتقوم عليه عدة أبواب ، أهمها : باب القنطرة ، ويقوم على مقربة من المسجد الجامع ، ومن قصر الخلافة ، ويربط المدينة بربض شقندة ، لو كان الحكم الأول (٧٩٦ - ٨٢٢ م) قد أمر بهدمه وتحويله إلى مقبرة ، بعد أن تزعم سكانه ثورة عليه عرفت باسم « فتنة الربض » . وباب الوادي ، أو الجزيرة ، وفيما يقول البكري كان عليه تمثال لمريم العذراء ، والباب الحديد ، وباب طليطلة ، ويطلق عليه أيضاً باب رومية ، على حين كانت العامة تسميه باب عبد الجبار ، نسبة إلى عبد الجبار بن الخطاب مولى الخليفة المشرق مروان بن الحكم . والباب الرابع في الشمال الغربي ويسمى باب ليون أو باب طليطلة أو باب اليهود ، واستفتح بعضهم هذا فكانوا يطلقون عليه باب الهدى ، والأبواب الأخرى توجد في الجانب الشرقي ، وهي : باب عامر ، وأبواب الخوز ، ويسمى باب بطليوس أيضاً ، وباب لإشبيلية أو العطارين ، وعلى مقربة منه كان يوجد مصنع سبك العملة ، ويطلق عليه اسم « دار الضرب » . وكانت عدة دور الرعايا والسواد الذين يسكنون داخل السور ١١٣ ألف دار ، حاشا دور الوزراء وأكابر الناس والنباض .

غير أن المدينة ، وبخاصة منذ القرن التاسع ، بدأت تفيض بسكانها نحو أحياء جديدة بين الجانب الأيمن والمنطقة التي تبدأ من باب عبد الجبار وتمتد حتى الكولية ، وتسمى الشرقية ، أو الجانب الشرقى ، وما زالت تعرف باسمها العربى حتى يومنا هذا فى شكله الإسباني الحديث Ajarquia (فى الإسبانية القديمة Axerquia) ، ومنها يبدأ الطريق الموصل إلى مدينة الزاهرة التى بناها المنصور بن أبى عامر .

وفى أقدم مخطط وصلنا لمدينة قرطبة ، ورسم عام ١٨١١ م ، نلتقى بعدد من المعالم العربية وبخاصة ما اتصل منها بالحى التجارى مثل : القيصرية ، وهى سوق الأقمشة ، وتتفرع منها على الطريقة القديمة شوارع : الحزازين والحبازين والخياطين ، والصفارين . ونلاحظ أن حى الشرقية الحديث احتفظ بعدد من أسماء الشوارع العربية ، فى صورتها العربية أو مترجمة إلى الإسبانية ، وتربط بنشاط تجارى أو صناعى كان يشتهر به الشارع فى قرطبة العربية ، فهناك شارع الوراقين Librerias ، والخلايين vinagros ، والحبايين Los Cordoneros والخياطين Alfayatas ، وزقاق الحدادين Herradores ، وأسماء أخرى كثيرة . وبقي القليل فى صورته العربية ، كالحور الذى تلتقى عنده عدة شوارع صغيرة ويسمى الزنيقة Azonaica ، أو ميدان المغرة Al gra ، وشارع الساقية Accquia ، وزقاق عائذ calleja Aixa ، وغيرها .

وكأية مدينة إسلامية فى العصور الوسطى لها حى وسيط يشغله أرباب التجارة ، ويرتبط بشوارع تتصل بأبواب المدينة ، وبأحياء أخرى يعمل فيها أصحاب الحرف ويعيشون أيضا . وإلى جوار السور ، حيث يتيح الحلاء أرضاً واسعة لمن يريد ، تسكن الطبقة العليا فى بيوت متسعة أكثر منها مرتفعة ، تطوقها حدائق غناء ، ومع ازدياد السكان بدأ الناس يبنون بيوتهم خارج الأسوار ، على نحو ما أشرنا ، وبدأ ما أطلق عليه اسم « الرىض » ، وهى كلمة

أخذت طريقها إلى اللغة الإسبانية لفظاً ومعنى ، مع تحريف يسير ، فأصبحت Arrabal والكلمة مستخدمة في لغة الحياة اليومية حتى يومنا ، وقد ينتقل السور مع الحى الحديد ، وقد تتعدد الأرباض ، على حين أن الأصل ، وهو ما بين الأسوار القديمة ، ظل يعرف باسم المدينة ، ومع الزمن أصبح كل ربض مدينة مستقلة ، له حياته ومتطلباته الخاصة ، وأورد لنا ابن بشكوال قائمة بأرباض قرطبة ، وكانت تبلغ في روايته ستة وعشرين ، وقد اندثرت هذه الأرباض اليوم ، وقامت على أنقاضها مزارع وحدائق . ولم يكن امتداد المدينة يخضع لتخطيط من الدولة ، وإنما ترك للمبادأة الشخصية .

ويخترق المدينة شارع كبير ، طويل وهريض ، يطلق عليه اسم : « السكة الكبرى » أو « المحجة العظمى » ، وسوف يصبح مثل هذا الشارع من معالم قرطبة وغيرها من مدن الأندلس ، كبرت أم صغرت ، وحتى الآن ، بعد أن ترجم حرفياً إلى اللغة الإسبانية ، فأصبح Calle mayor . ويطلق على الشوارع غير الرئيسية اسم « زقاق » ، ويؤدى الزقاق وهو متعرج وضيق إلى « درب » ، ويكون هذا مسدوداً عادة في نهايته ، وانتقل اللفظ بصورته العربية إلى الإسبانية Adarve . ومجموعة الشوارع تصيح « حومة » أو « حارة » ، ودخلت هذه إلى اللغة الرومانشية في صورة مصغرة على الطريقة الإسبانية Harrella ، وتحمل الحارة أو الحومة اسم المسجد الخاص بها ، والذي يؤدى فيه سكانها الصلاة . ويتوسط الشارع مجرى مركزى محدد ، ومغطى أحياناً ، تصب فيه المياه القذرة ، ومياه المطر ، ويقوم على تنظيفه عمال من قبل الدولة ، يذقون الأجراس قبل عملهم تنبهاً للمارة كي يبتعدوا ، أما النزالة فكان موكولاً أمرها لسكان الحى أنفسهم ، يستأجرون من يحملها خارج المدينة . وكان فيها أميال من الطرق المرصوفة ، التى تضاء من بيوت تقوم على جانبي الشارع ، وذلك « على حين لم تكن تتمتع بمثل هذا لندن أو باريس حتى بعد سبعة قرون من ذلك التاريخ ، وبعد ذلك (٣٢ - ابن حزم)

يقرون كان الذى يجروا على الخروج من عتبة بيته فى باريس فى يوم مطر
ينغوص فى الوحل إلى عقبه .

وكانت قرطبة ، شأنها فى ذلك شأن أية مدينة أندلسية كبرى ، تضم
خارج أسوارها حدائق واسعة ، يطلق عليها اسم : « الشريعة » ، مخضرة
وذات خمائل ، وتستخدم لأغراض عديدة ، ففي جانب منها يقام السوق
الأسبوعى ، وفى آخر مصلى لإقامة الصلوات فى الفضاء ، وبخاصة فى
الأعياد والحفلات الدينية ، وإلى جانبها الحور ، طريق ممتد تحفه الأشجار
العالية ، ويتخذها المتنزهون والعشاق والمتبطلون ملتقى لهم . وخارج أسوار
المدينة كانت المقابر أيضا ، وعليها يتردد السكان رجالا ونساء ، ليزوروا
مقابر أسلافهم ، ولتكون قبل ذلك وسيلة الالتقاء ، حيث يلتقى الأصدقاء ،
وتتبادل السيدات آخر الأنباء والإشاعات ، وحيث تتاح الفرصة للعشاق
أيضا .

وكان للمخاضة ، أو الطبقة العليا ، بيوت ريفية ، تقوم وسط جنان
متدة وعامرة ، يطلق عليها اسم « المنية » ، وإذا كبرت جداً واتسعت
أطلق عليها اسم « حبر » ، وتفتح عادة فى وجه الراغبين من عامة الشعب ،
وأشهرها فى قرطبة « حبر الرجال » ، وتملكه أصلا أسرة بربرية ، وتميز
بأنه كان يفتح فى وجه العامة من المثقفين والأذكىاء وأصحاب الذوق الرفيع
فحسب . ونعرف من هذه البيوت الفاخرة « منية نصر » ، نسبة إلى الفتى
الضيقبى نصر ، وكان خصيا ، وموضع ثقة عبد الرحمن الثانى ، وبعد
موته المأسوى صادرها الأمير محمد ، ومنحها زرياب المغنى ليسكن فيها ،
وحفظ لنا ابن حيان فى كتابه « المقتبس » قصيدة ليحيى الغزال يسجل
فيها الحادث والمناسبة ، وفيها أيضا كان ينزل السفراء القادمون فى مهمات
لدى عبد الرحمن الناصر .

وخارج المدينة تقوم « المشافى » للمرضى الذين يستعصى علاجهم ، أو

يبطىء ، أو مصابين بأراض معدية ، في حى قائم بنفسه يطلق عليه :
« ربض المرضى » ، ويقع قريباً من « منية عجب » ، وتقوم عليها جماعات
من متطوعة إشرافاً وإنفاقاً ، مما تلتقاه من أهل الخير ، أو مما يوقف عليها من
مال أو أرض أو عقار .

ومن معالم قرطبة المسجد الجامع ، ولا يزال قائماً بعد ألف عام من
بناؤه ، يطاول الزمن ، ويقاوم الحن ، والإلمام بتاريخه ، والوقوف عند
أوصافه ، يخرج بنا إلى إطناب ليس هنا مكانه . وقد ترك لنا الشريف
الإدريسى ، وهو أندلسى من سبته ، وتوفى عام ٥٦٠ هـ = ١١٦٦ م ،
وصفاً له ، شاملاً ودقيقاً ، في كتابه : « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » ،
كما أن المقرئ جمع في كتابه « النفح » نصوصاً عديدة متصلة به .

وعندما يهبط المرء من أعلى المدينة ، سالكاً طريق « المحجة العظمى » ، ويمر
بين قصر الخلافة والمسجد الجامع ، ينتهى إليه الأمر إلى القنطرة القائمة على
نهر الوادى الكبير ، وهى قديمة وشهيرة ، ويقال إن الإمبراطور الرومانى
أغسطس أول من أمر ببناؤها ، وما تزال قائمة حتى يومنا هذا .

لأن على جانبي النهر كانت تقوم النواعير ، والطواحين التى تعمل بقوة
اندفاع الماء ، وأمكنه الصلاة فى الهواء الطلق ، ومكان متسع يعلق فيه
الحكوم عليهم بالصلب .

• المهن والحرف :

فى القرن العاشر ، وتحت مظلة شاملة من الأمن والسلام ، لكل الأرض
وكل الناس ، بلغت قرطبة قمة الازدهار الاقتصادى . وتحولت المدينة إلى
خاية عاملة ، تقوم على التخصص فى المهن ، والتعاون فيما بينها فى الوقت
نفسه ، فكانت هناك مهن كثيرة ، وحرف متعددة ، تجعل الحياة أكثر
سهولة وبسراً وإمتاعاً .

كانت هناك أفران عامة وكثيرة ، توجد في كل شارع مهما صغر ، وأحصيت في قرطبة المعاصرة خمسة شوارع يحمل كل منها اسم قرن Horno مضافاً إلى صاحبه أو منشئه ، ويرسل الناس بنخبهم إليها ، ولكل قرن صبي معين يمر بالبيوت في ساعة معينة ، يحمل منها الخبز عجينا ويعود به مستويا ، ويتلقى أصحاب الأفران أجرهم عجينا ، فيصنعونه خبزا ، ويبيعونه بدورهم لمن لا عجين عنده . وفي كل حي شارع يتميز بالخوانيت الخاصة ببيع الطعام والشراب ، من خضري وجزار وفاكهى وبقال وعطار وسماك . وإلى جانبهم من يقوم بالطبخ أو الشواء ، أو عمل الحلوى ، لمن يحب وعلى مرأى من طالبيه ، وما يجري في الشارع موضع رقابة كاملة من الدولة ، نظافة وصناعة وسعرا .

وتنظم الدولة صناعة النسيج والاتجار فيه وتراقبها ، وكانت تحتل جانبا هاما من نشاط الناس ومن اتساع المدينة ، فتشغل حيا كبيرا يسمى « الطرازين » ، وتفتح في أطوارها المختلفة ، من نسج وصبغ وتطريز وتفصيل ، الباب واسعا أمام آلاف العمال ، وثلثهم من الصبيان الراغبين في التعليم والتدريب . وجمهرة العاملين فيها من المسلمين المولدين ، ومن المستعربين المسيحيين . كانت الأقمشة تباع نسيجا لمن يحب ، أو ملابس جاهزة ، وكان له سوق خاصة بها يطلق عليها اسم « السقاطين » ، وهي لفظة انتقلت إلى الإسبانية لتوذى المعنى نفسه ، وما زال سوق « السقاطين Zactin » قائما في غرناطة . وزرته مرارا ، تجد النسيج ، وتعددت الألوان ، وتغيرت أنواع الملابس ، ولكن الحى ، حياة وتقاليدا ، لم يبعد كثيراً عما كان عليه بالأمس . وكانت الرسوم متأثرة في جانب منها بالرسوم الفاطمية ، أو القبطية المصرية ، وقد غزا النسيج المصرى قرطبة ، وشاع فيها ، وعرفت باسم « القباطى » .

وعلى هذا النحو من الاتساع كانت صناعة الجلود ، صباغة وعملا ، وبلغت في قرطبة شهرة عالمية في العصر وسيط ، حتى أن الكلمة الفرنسية

الخاصة بصانع الأحذية Cordonnier أخذت من لفظ قرطبة في صورته الفرنسية Cordoue ، وتخضع هذه الصناعة بدورها لرقابة الدولة ، ونعكس في أشكالها وألوانها ، فضلا عن الدقة ، قدراً من الترف المصقول الذي كان لدى القاهرين والأغنياء وعامة الناس .

وكانت الملابس الملكية ، وما تحتاجه دار الخلافة ، والهدايا التي يمنحها الأمير أو الخليفة ، تتم في مصانع خاصة ، متصلة بالقصر ، يطلق عليها « دار الصناعة » ، وترسم وتزخرف في عناية بالغة ، ويكتب عليها بأحرف من ذهب اسم الأمير ، أو الخليفة ، المهدى لها .

وبلغت صناعة الفخار ، إلى جانب صناعة الزجاج ، قدراً عالياً من التقدم ، وعثر في حفائر مدينة الزهراء على بقايا منه تؤكد هذا التقدم ، وأول من اكتشف أسرار صناعة الزجاج قرطبي من القرن التاسع ، عباس بن فرناس ، وهو شاعر أيضاً ، وأشرف بنفسه على إقامة مصانعه وأفرانه في قرطبة .

ومع نهاية القرن العاشر بدأت قرطبة تحتل مكانة عالمية تفوق بيزنطة ، في صناعة الجواهر ، من عقود وخواتم ومعاصم مرصعة ، وفي تزيين الجلود ، وصناعة التماثيل من العظم والعاج والخشب .

ولم تكن في قرطبة مصانع كبيرة للورق أو الرق ، وكانت تعيش منها على ما تنتجه المصانع الكبرى التي أقيمت في شاطبة jativa قريباً منها ، وكان الورق ميسوراً ورخيصاً ، والنوع الجيد منه يسمى الشاطبي ، ولا تزال شاطبة حتى اليوم مركزاً هاماً لصناعة الورق في إسبانيا .

ولا يمكن أن نرسم صورة صادقة للمناخ الذي عاش فيه صاحب « طوق الحمامة » ، ما لم نتحدث عن سوق الرقيق ، وليس هنا مكان دراسة الظاهرة نفسها ، وكانت من معالم المجتمع الإنساني حتى وقت قريب . فقد كان في قرطبة ، كما كان في غيرها من كبريات المدن ، سوق للرقيق تسمى

« المعرض » ، يعرض فيها الرقيق من رجال وإناث للبيع . وفيما يتصل بالإناث هناك صنفان : المتميزات ويطلق عليهن اسم « مرتفعات » ، و« وحش الرقيق » . والبيضاوات منهن كمن يعرضن طبقاً لمصدرهن : الصقلييات ، ويوثى بهن من وسط أوروبا ، والإفريقيات وهن القادمات من جنوب فرنسا ، وإيطاليا ، ومنطقة قطاونية في شمال شرق الأندلس ، والغاليسيات ، أو الجاليقيات في المصادر القديمة ، وموطنهن شمال غربي الأندلس ، والبربريات . على حين يطلق اسم « السودانيات » على كل السوداوات ولم يكن هؤلاء بأقل احتراماً من البيضاوات ، فقد تميزن أعمال البيوت ، والشئ نفسه يمكن أن يقال عنهن كعشيقات . والإفريقيات ، والصقلييات القادمات حديثاً ، ولما يزلن يجهلن لغة وتقاليد من اشتراهن ، أغلى ثمناً من غيرهن . ويطلق اسم « قيئة » على التي تجيد الغناء والرقص ، ولما كان المجتمع القرطبي يهفو للشعر الجيد ، ويطرب للموسيقى الجديدة ، ويهتزل للرقص الرفيع ، أكثر مما يعنى بألوان الفنون الأخرى ، فقد عظم شأن الجوارى الموهوبات المتعلمات وسمت قيمتهن . وقد كثر عددهن في قصر الخلافة ، ومارسن نفوذاً قوياً في الحياة الخاصة للأمير أو الخليفة ، والعامّة للدواة ، وكان يوثى بهن في البدء مدربات من المشرق ، وفيما بعد ، حين أقام زرياب عدداً من معاهد الموسيقى في الأندلس ، كان الإعداد يجري في قرطبة نفسها .

• الحياة الخاصة :

وتقيم الأسرة في بيت ، والأب صاحب الكامة فيه ، وداخل البيت لا صلة له بالشكل الخارجى ، فإذا كان المظهر الخارجى متواضعاً ، فإن الداخل يمكن قدراً كبيراً من الرفاهية والترف ، ويعادل الزوج زوجته باحترام شديد ، والعكس صحيح ، وبخاصة أمام الأبناء ، وهؤلاء يوقرون أباهم ، لا يقرّون منه إلا بقدر ، ولا يتحدثون بحال إلا بإذن ، وعندما تسبكن

الأم مع ابنها المتزوج ، تصبح المسئولة عن اقتصاد البيت ونفقاته . وتعدد الزوجات نادر بين الفقراء والطبقة الوسطى . ويحدث أحياناً حين لا تكون الزوجة جذابة أن يشتري الزوج جارية بيضاء أو سوداء ، تعاون في أعمال البيت ، وترضى رغائبه حين يحب ، ويمكن أن ينجب منها ، وتصبح أم ولد ، ولا يجوز للرجل أن يبيعها حينئذ ، وتحصل على حريتها يوماً ، بعد موت زوجها . ومنذ زمن مبكر جداً يعرف الأطفال بالدقة ما تعنى العلاقة الزوجية ، فإذا بلغوا سن الحلم ، كان نصيبهم العاطفى كاملاً ، وليسوا في حاجة إلى أية إثارة .

ويقوم الأب بشراء متعلقات البيت ، وحين يذهب إلى عمله تتنفس الأسرة الهدوء ، وتستأجر البيوت المقتدرة خادماً ، ومن بين الوثائق التي وصفتنا صورة لعقد بين أسرة وخدام ، يحدد الحقوق والواجبات : كان عليها العجن والمخبز وعمل الطعام ، والنظافة وترتيب الأسرة ، وإحضار الماء ، وغسل الملابس ، والخيطة . ويدفع أجرها سنوياً إلى جانب الغذاء والإقامة والملابس .

أما في بيوت الخاصة فتمتقى ، طبقاً لمستوى الزوج الاقتصادي ، بعدد من الزوجات ، وسحابة من الجوارى : سود وبيض ، وحاشية من الخصيان ، تحت رئاسة «قهرمان» ، وثمة رئيسة للخدم في بيوت العلية تسمى «قهرمانه» . يعمل تحت إمرتها الخادومات والطباخات والحاضنات ، وكان يطلق على الأخيرات اسم « الرشيدات » ، ويتوزع على بيت متسع ، كثير الحجرات ممتدة الحديقة . وفي غيبة الأب تسمع المناقشات الصاخبة بين هذا العديد من البشر ، حتى حين يلعب الأطفال في الأبناء أو الحديقة ، ولكن ما إن يصل رب البيت حتى يسترد المنزل هدوءه كاملاً ، هدوء يحرقه من حين لآخر بنحوظ الخدم الأصم : أو وشوشة النوافير الناعمة ، أو هديل الحمام الغرد في الأسوار الملحظة المخصصة للراحة ، أو الاسترخاء ، أو المبتعة . والجانب المخصص للنساء . لا تكاد تقع عليه عين الغريب ، فهما بلات الزوج لأصدقائه ،

أولاً للعمل ، أومع الباعة ، ، تم في غرفة توجد عند مدخل البيت ، ومخصصة لمثل هذه المقابلات . والبيت مملوكة تكاد تكون مستقلة ، وتبلغه أخبار الشارع ، وما يجري في البيوت الأخرى ، من فضائح وجديد في الأزياء ، موشاة بالزيادة والأكاذيب .

وتجري الحياة في البيت رتيبة ، يوماً وراء آخر ، عمل وتنظيف ، وتهئية كل وسائل الراحة لربه أولاً ، ولمن فيه أخيراً وكلهم سعداء ، لا أحد يشكو سوء الحظ ، ومن حين لآخر تقوم الزوجة بعمل ما يدفع الحسد أو الشياطين عن البيت . وقل ما تخرج الأسرة للنزهة ، فلديها بستانها وكثير ما تخرج لزيارة أصدقائها ، وتخرج إلى الهواء الطلق في الأعياد الدينية والقومية ، وتقوم بزيارة أسبوعية للمقابر للصلاة على أرواح الذاهبين من الأهل ، وتذهب مرة أو مرتين إلى الحمام ، إذا لم يكن لديها حمام خاص ، وهي فرصة ذهبية للسيدات لكي يلتقين ، ويتبادلن آخر الإشاعات ، سويّاً وبعبداً عن أية عين ورقابة .

وتتركز الأحداث الهامة في حياة الأسرة في ثلاثة : الزواج والإنجاب والموت . وفي الحدث الأول يكون الاحتفال كبيراً وبهيجاً في بيت العروس ، ويتكاف نفقات طائلة ، مما أدى إلى حملة قوية من الفقهاء على ذلك النمط ، وتشغل حفلات الزواج أسبوعاً كاملاً ، وترك لنا ابن حزم في كتابه « الطوق » وصفاً لحفلة كهذه جرت في الشارع ، وهو منظر يسعد المارة ، والفارغين من العمل وما كان أكثرهم في قرطبة . وتم عملية الوضع على يد القابلة ، وتستدعى الطيبية في الحالات المستعصية . وكانت تتقاضى أجراً عالياً . وتقوم على الطفل حاضنة خاصة في بيت أبيه ، إذا كان مقتدرًا ، وفي حالات كثيرة يعهد به إلى قروية تحمله إلى الريف ، ويبقى معها حتى الفطام ، ووصلتنا عقود تحدد الشروط الواجب توفرها في الحاضنة وأهل الطفل ، فكان على الأب أن يدفع للحاضنة راتباً شهرياً وملابس ، وعليها إرضاع الطفل ونظافته جسماً وملبساً ، وتقام « العقيقة »

في اليوم السابع ، وتأخذ شكلاً يرتبط بمستوى الأسرة الاقتصادية ، حينئذ يحلق شعره للمرة الأولى . ويأخذ الطفل اسمه ، ويستخدم مصغراً تدليلاً له ، وتأصلت هذه العادة في الأندلس ، وتخلفت بعد جلاء الإسلام والمسلمين عنه ، فهي شائعة حتى يومنا هذا ، وغالباً ما يطلق عليه اسم جده ، أو الجد الأعلى للأسرة ، أو اسم أشهر شخصية فيها . وفي هذا اليوم تعطى له كنيته أيضاً ، وحين يكبر سوف ينادى بها في الأسرة أكثر مما ينادى باسمه . ويطلق على الفتاة اسم إحدى شهرات الإسلام في أيامه الأولى ، وكنية أيضاً تنادى بها ، مثل : أم كلثوم ، أم الحكم ، وهكذا . ومنذ القرن العاشر بدأت قرطبة تتخلى عن هذا التقليد المشرقي لتعطى أسماء وصفية للفتيات الحرائر ، وكانت قبل وقفاً على الجوارى فأصبح لدينا أسماء مستمدة من الزهور . ونعرف للمنصور بن أبي عامر ثلاث بنات كانت أسماءهن : بهار ، ونرجس وبنفسج .

وكانت حفلات الإعزاز للذكور كبيرة . والعادة أن يجمع المقتدر اقتصادياً عدداً من الأطفال من المستوى الاجتماعي لطفله ، أودونه ، لكي يعذروا معه ، وتم الحفلة للجميع ، ويتولى نفقاتها بمفرده . وعلى العكس ، كان تشييع المتوفى ودفنهم يتم في ظروف بسيطة ، وطبقاً لأحكام المذهب المالكي ، ويدفن في أقرب مقبرة إلى بيته ، وبعضهم كان يعد شاهداً يوضع على قبره ، لايضاف إليه غير تاريخ الوفاة واسم المتوفى ، ويتضمن بعض الآيات القرآنية المناسبة ، ودعوة لمن يقرأ أن يطلب الرحمة لصاحبه وأن يقرأ الفاتحة لروحه ، يرضم متحف قرطبة الآن عدداً من هذه الشواهد .

ولا يتميز البيت ، عادة ، في خارجه عن بقية البيوت حوله ؛ سواء أكان في شارع عام أم درب نافذ ، والبيت باب بمفتاح من خشب غالباً ومن حديد قليلاً ، ويفتح في أسطوان ، أو سقيفة ، ومنها يمتد ممر ينتهي إلى صحن البيت ، وتوجد فيه بئر وأشجار وظلة ، وتظل عليه

قاعتان كبيرتان ، ويحتوى البيت على مرفق ، وطبخ . تسع يؤدى إلى الصحن ، ويتكون البيت ، بعامة ، من دورين على الأقل . ولا يضم ، غالباً ، غير أسرة واحدة ، والفقراء جداً قد يضطرون إلى تأجير بعض غرفه ، أو يشاركون فيه أسراً أخرى ، وهو أمر نادر ، ويصبح موضع تندر وعتب وتعبير من الجيران .

ومنازل الطبقة الوسطى متسعة ، وتبنى الأحياء المضطمة ، ويتوسطها صحن رحب ، يضم ما يشبه أن يكون حديقة صغيرة من الزهور والرياحين ، وأشجار الفواكه أحياناً ، وتمتد عبره قنوات لتوزيع المياه التي تستخرج من البئر ، على حين تمتد مجاز أخرى ، بعيدة عن الأولى ومغطاة ، تحمل المياه القدرة إلى مستودعها الذى يوجد فى منتصف الشارع .

وبيوت الطبقة العالية تفصل بينها جنان واسعة ، والممتد منها يسمى « حيرا » والجنان ، وهذه مشمرة ، ومثلها « المنيات » القائمة على ضفاف النهر الكبير .

وفى أى بيت توجد حجرة استقبال ، تضم أثاثاً يسهل نقاله من غرفة إلى أخرى ، والأرض مغطاة بالحصر فحسب ، أو بالحصر وفوقها السجاد ، تبعاً لمستوى الأسرة ، وتغطى الجدران بأقمشة منصوجة من الصوف ، عليها مناظر جميلة ، وتسمى « الحائطى » ، وتحتها ديوان قليل الارتفاع ، فوقه المراتب وعليها الوسائد معتمدة على الحائط ، محشوة قطناً ، ومزخرفاً ظاهراً بالرسوم ، وفوق المراتب تتناثر المخدات المدورة ، والأرائك المتخذة من الجلد ، ويستخدمون المقاعد ذات الحشايا ، وتضم حجرة النوم سريراً عليه فراش مغطى ، والخفة محشوة صوفاً .

ويضم مطبخ كل بيت خزين أغذية ، من دقيق وزيت وعسل ، وفواكه جافة ، ولحوم مقددة ، وتحفظ ألوانى من الزجاج أو الفخار .

وتضاء البيوت بالشموع والقناديل . وتستخدم التريات في بيوت
الاغنياء ، وتتم التدفئة في الشتاء عن طريق إجراء الماء الساخن ، عبر
الحجرات ، في أنابيب من الفخار ، على حين يستخدم الآخرون المواقد العادية .
أما في الصيف فيواجهون الحر برش الصحن جيداً بالماء ، وأكثر من مرة
في اليوم .

وترك لنا الأندلسيون أكثر من كتاب في الطبخ ، وتحدث عن مطابخ
ثلاثة : أندلسي . ومسيحي ، ويهودي . وطرائق متعددة ومعقدة ،
وتخضع المائدة لنظام صارم . فلا بد أن يكون هناك تناسق بين الألوان
التي تقدم . ويقوم على إعداد الطعام في بيوت الطبقة الراقية طبّاخون محترفون ،
من السود غالباً ، وتزخر المائدة بألوان غامرة من الحلوى ، مابين محشو
بالزبد أو الموز ، وشهر من بينها نوع من الفطير المحشو جبناً ، ويسمى
« المعجنات » . وكان لدينا وشائعا ، واحتل من الشعر الأندلسي مكانا ،
وتخلف في الإسبانية لإعدادا ومادة واسم Almojabanas ، ويصفها ابن
الأبار :

بنفسى مثلجات للصدور ، لها سمتان من نار ونو
حوامل وهى أبكار عذارى تزف على الأكف مع البكور
كبر د الطل حين تذاق طعماً وفي أحشائها وهج الحرور
لها حالان بين فم وكف إذا وافتك رائعة السفور
فتغرب كالأهلة في لـحاة وتطلع في يمين كالبدر

وعلى المائدة يستخدمون المنعق ويشربون الماء معطرا بالزهر أو
الورد ، ويأكلون الفواكه كثيرا من عنب ورمان ، وبطيخ وتفتح .

وفيما يتصل بالملابس كثير منها مشترك بين الرجال والنساء ، فكلهم
يرتدى فرق البدن قميصاً من الصوف أو القطن ، وسراويل (دخلت اللغة

الإسبانية في صورة (Zaraguelles) طويلة وضيقة ، ولا تتجاوز الركبة ، ويمكن أن تحمل الجلابية البيضاء محل القميص ، وهو مزخرف إلى حد كبير . وتضاف « المحشاة » في الشتاء على هذه الملابس الخفيفة ، للرجال والنساء ، وهي فروثقيل يتخذ من جلد النعاج أو الأرانب ، ويلبس في شكل جلاباب . والأطفال من الجنسين ملابسهم على هذا النحو ، ويضعون جوارب في أقدامهم ، وتتخذ من الصوف ، وتصل إلى الركبة ، ويأتي فوقها الخداء ، خفا في الشتاء ، وصندلا في الصيف ، ويسمى هذا في الأندلس « القرق » ، ودخات الكلمة إلى الإسبانية في صورة Alcorque . ويميز غطاء الرأس الرجل من المرأة ، فالأول يغطي رأسه بكوفية أو شاشية ، على حين تضع المرأة على وجهها خمارا .

ويرتدى أبناء الطبقة العالية الملابس الحريرية المطرزة ، وتصنع من الحرير الطبيعي ، وبلغ نسجه حداً عالياً من الإتقان ، نافست به قرطبة بقية بلاد العالم ، ومنه تصنع ملابس الحفلات ، والحلايب الراقية ، ذات النسج الرقيق الشفاف . وبدأوا يستخدمون القلانيس والطوائى ، إلى جانب الطرطور ، وسوف يقلدهم في صنعهم هذا بلاط مملكة ليون المسيحية في الشمال . وثمة ملابس أخرى ذات ترف ووجاهة ، ترتديها الطبقة العالية ، وأبرزها الحبة ، وانتقلت إلى الإسبانية في صورة Algupa ، والدراعة ، وتخلفت في الإسبانية adorra ، والمحشية Almexias . وسوف يتلاشى لباس الرأس تدريجاً ، لتصبح العمامة ، ابتداء من القرن الحادى عشر ، وقفاً على رجال الدين من العلماء والقضاة ، وبعض هؤلاء ردها لباساً . وكان البرنس ، وتختلف في الإسبانية في صورة Albornoaz ، في هذه الفترة ، وحتى مجيء المرابطين ، وقفاً على نساء الطبقة العالية عندما يسافرن على ظهور الخيل أو البغال . وكان زرياب المغنى ، حين جاء الأندلس ، في الربع الأول من القرن التاسع الميلادى ، قد أحدث ثورة في عالم الأزياء ، إلى جانب الموسيقى ، ومراسم تناول الطعام ، وطريقة تصفيف الشعر للرجال والنساء ، فقد جعل لكل فصل من السنة ملابسه الخاصة به ، طبقاً

لمكانه من الحر أو البرد . فالملابس البيضاء للصيف ، وجعل له بدءاً عيد « العنصرة » في الأندلس ، ويحيى في الأيام الأولى من شهر يونيو ، ويمتد حتى أول أكتوبر ، والملابس الملونة لبقية العام ، وجعل منها للربيع « جباب الخز والملتحم والمححر والدراريع التي لا بطائن لها ، لقربها من لطف ثياب البيض الظهائر ، التي ينتقلون إليها لخفتها وشبهها بالمحاشي ثياب العامة » ، وأن يلبسوا في الخريف « المحاشي المروية . والثياب المصمتة وما شاكلها من خفاف الثياب المأونة ذات الحشو ، والبطائن الكثيفة ، وذلك عند قرص البرد في الغدوات » ، فإذا قوى البرد ودخل الشتاء « ينتقلون إلى أنحن منها من الملونات ، ويستظهرون من تحتها إذا احتاجوا إلى صنوف الفراء » . وكان اللون الأبيض شعار الحزن عند بني أمية الأندلسيين ، فلما اتخذ ملبساً للصيف تراجعت عنه الناس إلى السواد .

• الحفلات والأعياد والملاهي :

وتحتفل الأسر كلها بالأعياد الدينية . عيدى الفطر والأضحى ، وكان الصوم شائعاً ، إلا أولئك الذين لديهم رخص دينية . وإذا جاء رمضان في الصيف . وقرطبة حارة ، ترك أثره في الحياة العامة للناس ، فهم يصحون من نومهم متأخرين ، ويخذلون إلى الراحة ساعة الظهيرة حين يشتد الحر ، فإذا غربت الشمس ، وأفطر الناس ، عادت الحياة إلى الشارع بكل صخبها : تفتح المتاجر ، وتظل كذلك حتى ساعة متأخرة من الليل ، ويبدأ الباعة المتجولون من حملة المشروبات الباردة وغيرهم في الطواف . وتضاء المساجد ليلة الإسراء على نحو خاص ، وتمتلئ بالعباد الخاشعين ، ومعها يتهاى الناس للعيد ، بوللعودة إلى الحياة العادية .

وفي عيد الأضحى يحرص الناس ، كل الناس : أغنياء وفقراء ، على التضحية بكبش ، وكسوة الأولاد بملابس جديدة . ويتم صلاة العيد في أضواء الطلق ، ويؤم المصلين قاضي الجماعة . أو صاحب الصلاة ،

وتتضم الرجال وكثيراً من النساء ، وبعدها يعود الجميع إلى المدينة لتبادل التهاني .

ولم تعرف قرطبة حتى نهاية القرن العاشر الاحتفال بالمولد النبوي ، ذلك شيء سوف يجيء فيما بعد ، ولكنها كانت تحتفل ، وعلى نحو بهيج ، بعيدى « النيروز » و « المهرجان » ، ويشاركونهم في هذا مواطنوهم المستعربون . و « النيروز » فى أصله اليوم الأول من العام الشمسى فى فارس ، ومنذ اتخذته العالم الإسلامى عيداً دخلته تغييرات كثيرة ، وكان يحتفل به فى الربيع ، فى اليوم المعتدل منه ، دون أن يرتبط ذلك بأول العام الجديد . وليس فيما بين أيدينا من مصادر ما يحدد تاريخ هذا اليوم فى الأندلس . أما المهرجان ، ويطلق عليه عيد العنصرة أيضاً ، فيقع فيما بين اليوم السادس واليوم الرابع والعشرين من شهر يونية . وكانت الأعياد ، وبخاصة عند العامة ، أمراً مرغوباً لكسر رتابة الحياة اليومية .

وتزدحم الشوارع ، ويجد فيها الكسالى والمتبطلون فرصتهم لمتابعة السائرين ، وتأمل ما هو جديد ، على حين يحاول الباعة فى الشوارع القرية من القيصرية ومن « السقاطين » ، أن يجذبوا إليهم الزبائن ، بأصواتهم العالية ، ونداءاتهم المسجوعة ، لحضور المزايا . وتلتقى فى الميادين العامة بأهل المدينة ، والقادمين إليها من الريف للشراء أو البيع ، أو لأشياء أخرى ، يلتفون حول « مهرج » تخفى فى شكل قروى ، وراح يقلد حركاته البسيطة والساذجة ، حين يواجه المدينة للمرة الأولى . وهناك من يعرضون ألعابهم على أنغام الموسيقى ، و « الهلوانات » ، والشعراء الجوالون ، ومن يعرضون خيال الظل ، ومن يقرأون الطالع ، ومن يقصون الحكايات ، أو التواريخ ، أو شيئاً من السنة ، بصوت مرتفع . ويختلط ذلك مع أصوات السقاطين ، وبانعى البخور وموزعيه ، واللصوص ، والقواذات . وقد يضطرب الأمن حين يقوم شجار بين اثنين ، أو حين يكتشف واحد سرقة حافظة نقوده ، ولكن ظهور واحد من رجال الشرطة كاف لكى يعود الهدوء ويتوزع الجميع .

وفي يوم الجمعة حيث تخرج النساء إلى المقابر ، وفي نزهاتهن الأسبوعية ، فإن الطريق إليها وإلى الحدائق يكون غاصاً بأناس من الجنسين ، وكلها تعبر القنطرة إلى ربض شقندة ، ويلبس الفتيان خير ما عندهم ، ويبحثون عن المغارات ، ويداعبون الفتيات الوحيدات بالكلمات الحلوة ، أمر يشبه ماعليه حال قرطبة اليوم . وفي هذا المكان التقى الشاعر يوسف الرمادى بصاحبه خلوة ، وجرى بينهما حوار أورد لنا ابن حزم في كتابه « الطوق » جانباً منه . ومع غياب الشمس يعود الجميع إلى بيوتهم ، فإذا أقبل الليل لا يسمع في الشارع غير وقع أحذية الجنود الثقيلة ، وخطى المتخلفين والساهرين .

وكان الفضاء المتسع خارج المدينة معداً . إلى جانب عرض المحكوم عليهم بالصواب ، لاستعراض الجيوش في المناسبات العامة ، كقدوم سفير ، أو سفر الخليفة على رأس حملة ، وتقام هذه في الطريق الموصلة إلى مدينة الزهراء ، وكان ظهور الفرسان بملابسهم الزاهية ، على خيولهم الأصيلية ، في خوذاتهم القوية ، تنعكس عليها أشعة الشمس فتعطي ألف لون ولون ، يشرفى الناس الحماسة والبهجة والاطمئنان .

وكان من المتع العالية في مجتمع قرطبة صيد الطيور والأرانب الجبلية ، ومن المهارة أن تصطادها قبل أن تنفق ليتمكن الإفادة منها ، فتذبح ثانية بطريقة شرعية ، وتباع في المدينة . ويعد الصيد هواية محببة للأمير وحاشيته والخاصة ، ويتحدث المؤرخون عن رحلات صيد طويلة على ظهور الخيل ، في الجبال والوديان المحيطة بقرطبة ، ويتم الصيد بالصقور ، وكانت تربيتها وبيعها تجارة رابحة ، ويقوم على أمرها في قصر الخلافة فتي يغني بها ، يدعى « صاحب البزرة » ، وتركت المهنة أثرها واضحاً في اللغة الإسبانية ، ففي جنوب البرتغال قرية تحمل اسم « البزرة Alvayazere » ، وأشهر حى في غرناطة ، وكان موطن المسلمين في آخر أيامهم بعد سقوط دولة الإسلام ، يدعى « البيازين Albaicin » .

وكان هناك الصيد بالكلاب فى المناطق الوعرة المخضرة ، ذات الأشجار الملتفة والجبال العالية ، وبخاصة تحت سفح الجبل ، حيث تعقد حفلات صيد كبرى ، تصاد فيها الخنازير البرية والغزلان والأبول ، يطلقون عليها فصائل من الكلاب السريعة تثيرها ، وتدفع بها حيث تنتظرها الصيادون . ويمضى العاهل القرطبي ، أحيانا ، أياما متصلة فى الصيد ، وهو أمر كان موضع نقد العامة واعتراضهم .

ومن الألعاب المحببة للخاصة أيضا لعبة الصولجان ، وهى قريبة من لعبة « البولو » الحديثة والرد ، وسباق الخيل ، والشطرنج [وجاء به زرياب من المشرق ، ولقى رواجاً كبيراً بين أهل قرطبة ، وأصبح من مظاهر الرقى الثقافى .] وكان القصار رغم تحريمه معروفا ، ومعلوماتنا عنه قليلة للغاية بوصفه عملا محرما ، ونعرف من أوامر المنع أن لعبة الرد كانت شائعة ، وكان النساء يلعبن القرق .

• مباحج الحضارة وأمراضها :

وفى هذا القرن بدأت قرطبة تعاني الكثير من أمراض الحضارة ، ويكفى أن نلقى نظرة على كتاب « الطوق » لنجد ابن حزم يقص علينا الكثير مما يجرى دون حرج أو إنكار ، ودون أن يلاحق أصحاب الأحداث بالسب واللعن ، كما هى عادة الفقهاء ، يذكر ما عرف فى بساطة ، كما كان شيئا عاديا ، لا مهرب منه ولا حيلة فيه . لقد فاضت رغبات الناس الجنسية ، وتجاوزت ما هو مقبول عرفاً وعادة ، ولم يعد حب المرأة ، رغم شيوخه ويسره ، كافياً وحده لموقف اندفاعهم ، من أى وسط كانوا إلى أية طبقة انتموا ، عن اتجاه آخر تنحرف فيه العاطفة عن مسارها الطبيعى ، أعنى الشذوذ الجنسى .

كان الحديث عن الغلمان والتغنى بحماهم شائعاً يتعدى الشعراء إلى الحياة ،

ويعرض له المؤرخون دون إنكار أو تشنيع ، ولست أعتقد أن كل الذين تحدثوا عن الغلمان كانوا يمارسون هذه العادة الشاذة ، ولو أنه ، في الوقت نفسه ، لا يمكن أن نقلل من شيوع الظاهرة وخطورتها . وتخلو المصادر من إشارات إلى أحداث وقعت من عامة الناس ، وهو أمر طبيعي ، فالتاريخ الوسيط قلما ما يتوقف أمام هذا القطاع من المجتمع ، وعلى النقيض ، يقدم لنا قائمة طويلة بشخصيات هامة في شتى مجالات الحياة في قرطبة ، أورد لنا ابن حزم في كتابه « الطوق » مثلاً صارخاً لها : قصة أحمد بن كليب ، وسنعرض لها في دراسة خاصة ، وهي قصة تمس شخصية هامة ، أسرياً وثقافياً واجتماعياً ، في المجتمع القرطبي ، وشاعت حتى بلغت المشرق فأوردوها ياقوت الحموي ، (ت ٦٢٦ هـ - ١٢٢٩ م) ، في كتابه « إرشاد الأريب » ، وجاء بها في تفصيلات وافية داود الأنطاكي ، (ت ١٠٠٧ هـ - ١٥٩٩ م) في كتابه : « تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق » . وكان ضحايا هذه الفعلة الشنيعة ، عادة ، من الحصيان وصغار الموالى ، في قصور الأمراء وبيوت الأشراف ، ولم تكن قرطبة أيضاً تخلو من فتيان مخشّين ، يقدمون خدماتهم لأفضل طالب ، وأعطانا ابن عبدون وصفاً للمخشّ في رسالته عن الحسبة بأنه « الذي يقاد النساء في ملابسه وصوته » .

وعرفت المدينة بيوت « الخطوة » : وزبائنها من دهماء المدينة ، ومن الريفين الذين يهبطون العاصمة للبيع أو الشراء أو لقضايا أخرى ، وتسكن العاملات فيها الخانات ، ويدفعن ضرائب للدولة ، وتسمى الواحدة منهن في لهجة الأندلس « خراجية » ، ويطلق على بيوت الدعارة نفسها « دار الخراج » ويسمى ابن عذارى « دار البنات » . ولا تكاد المصادر تشير إلى شيء يتصل بانحراف العاطفة عند المرأة ، وممارستها الحب مع امرأة أخرى ، وقياساً يمكن أن نتصور أن هذا حدث ، وكتب الفقه الأندلسي المفصلة تشير إليه ، وتراه محرماً ، ولا نعتزله على صدى في دواوين الشعراء ، أو كتب المؤرخين ، باستثناء أبيات من الشعر أنشدها أبو الصات : أمية عبدالعزيز الداني ؛ المتوفى (م ٤ - ابن حزم)

عام ٥٢٩ هـ - ١١٣٤ م ، وفيها عرض للمساحقة مباشرة . وكان الصمت فيما يدولى تخرجاً وليس جهلاً ، لأن العماد الأصفهاني في كتابه « خريدة القصر وجريدة العصر » أتى بهذه الأبيات في القسم الخاص بالمغرب ، وحين طبع للمرة الأولى في تونس في أوائل هذا القرن ، حذف منه الطابعون هذه الأبيات .

وكان الحصول على النبيذ والشراب حتى السكر ميسوراً ، ومنذ القرن التاسع الميلادي أصبح ربض شقندة يضم سوقاً نافقة للنبيذ ، يستأجرها واحد من المستعربين ، وقد أغلق مدة ثم أعيد فتحه ، لما يدره على الخزنة العامة من دخل ، وكان يمد الحانات المسموح بها ، والتي تعمل في خفاء ، بما تحتاج إليه من أنواعه المختلفة ، ويتردد على الحانات المستعربون المسيحيون والمسلمون غير الطيبين ، ونفهم من إشارات الشعراء أن ثمة حانات كانت تقوم على مقربة من الأديرة المسيحية خارج المدينة ، يقدم فيها الطعام والنبيذ أيضاً . ومن الشائع أن يتردد على هذه الحانات المخشون ، والنساء من ذوات السمعة السيئة ، يقضين الليل مع نشوة الكأس وفي حمياها ، وكان ذلك موضع هجوم دائم من الفقهاء ، وملاحقة مستمرة من رجال الشرطة ، وظل الصراع عنيفاً بين سلطان هؤلاء وذكاء الشارين ويتعرض الشارب للمتابعة والعقاب حين يكون الأمر علانية ، ويمس الأخلاق العامة ، ويعذر من يضبط سكراناً بالحد الشرعي المعروف ، غير أن المتابعة لا تمتد لما يجري في البيوت ، بيوت العامة والخاصة على السواء ، فهي بمنأى عن الملاحقة والرقابة . وكان المقتدرون في قصورهم ، أو بيوتهم الريفية في ضواحي العاصمة ، يستطيعون بلاخوف ، ودون حد ، أن يمتصوا مع أهوائهم شراباً ونساء حتى الثمالة . ولعل جانباً من المجتمع ، إلى جانب ضرورات البيئة ، كان يجد مندوحة فيما شهر عن أبي حنيفة النعمان أنه أباح شرب النبيذ ، وأوجز ابن عبد ربه صاحب «العقد» هذا الاتجاه في بيت من الشعر :

ديننا ، في السماع ، دين مديني ، وفي شربنا الشراب عراق

وفى مجتمع لم يعرف المسرح كان الرقص والموسيقى والغناء من أكثر مباحج الحياة شيوعاً فى قرطبة القرن العاشر، وإذا صدقنا الشعراء ، أوحى جانباً مما يقولون ، لم تكن هناك حفلة ولا جمع ولا مهرجان لا يضم هذه الألوان الثلاثة . وترك لنا ابن حزم فى « الطوق » ، وابن بسام فى كتابه « النخبة » وصفاً تفصيلياً شائقاً لبعض الحفلات التى كانت تقام فى بيوت الخادمة ، فى قرطبة وغيرها ، حفلات ما يكاد المدعوون فيها ينتهون من تناول الطعام على أنغام الموسيقى حتى يبدأ الغناء والرقص ، والعازفون من الرجال والنساء ، ولكن الفرق الجيدة الممتازة لم يكن يتقدم على نفقاتها غير كبار الموسرين . وشهت من بين أنواع الرقص العديدة رقصة يرتدى فيها الراقصات ملابس الغلمان ، ويمتطين خيولاً صغيرة من خشب ، معلقة بأطرافها أقبية ، وطبقاً لنظام معين تأخذ الرقصة شكل معركة حقيقية ، يكرون ويفرون ويحاورون . ولم يكن الأمراء يترددون ، أحياناً ، فى حضور حفلات أكثر بساطة : مجرد راقصة بالصاجات ، تتلوى على أنغام بوق ، ويطلق على هذه الحفلات اسم « سمر » ، وبقي لها الاسم حتى أيامنا هذه ، وأخذ صورة Sambra ، ويحمله اليوم أعرق وأرقى مكان للرقص التقليدى فى مدريد : واشتهر من بين الراقصات أولئك القادسات من مدينة قادس ، ولراقصاتها شهرة تاريخية عريقة ، ولهن من قديم قدرة فائقة على التشكل والإثارة . وقد أشار إليهن فى قصائده الشاعر الرقيق ، الماجن والأنيق ، اللاتينى اللغة ، الإسباني الموطن ، مرسىال Marcial ، المتوفى عام ١٠٤ للميلاد ، ونعرف منه أن هؤلاء الراقصات كن موضع إعجاب روماء لصحة الإمبراطورية على امتداد القرن الأول الميلادى ، وأن قادس كانت تدفع بأعداد منهن على الدوام إلى روما ، فيلقين الحفاوة والحب ، وأصبحت رقصاتهن موطن التقدير والإعجاب ، رقصات تحرك نوازع الرغبة ، وتفضل أقوى الرجال عفة فى روما . وتحدث عنهن أيضاً الشاعر اللاتينى جوفينال Juvenal ، المتوفى

قريباً من عام ١٢٥ ميلادية ، ووقف طويلاً عند جمال غنائهم ، وإثارة رقصاتهم . وفي العصر الذى تعرض له ، شهرت مدينة أبدة Ubida ، فى كيرة شاطبة ، على مقربة من قرطبة ، « بالرواقص المشهورات بحسن الانطباع والصنعة ، فإنهن أحذق خلق الله » .

• الثقافة :

باستثناء حالات نادرة يكون فيها الأب دون أن ينتسب فى أية طبقة اجتماعية ، وفى ظروف بائسة للغاية ، فإن الأب يقدم لأطفاله ، بنين وبنات ، تعليماً ابتدائياً منذ صغرهم ، إذا كان ميسوراً يأتى لهم بالمدرس إلى البيت ، وإلا أرسل بهم إلى « الكتاب » الأقرب إلى مسكنه ، وتخضع هذه المدارس الابتدائية نظرياً لإشراف « المحتسب » ، وقل ما كان يزورها فعلاً . ويجمع المعلم ، أو المؤدب ، عدداً محدوداً من الأطفال فى مكان صغير ، مفتوح على الشارع ، يطلق عليه اسم « المصرية » ، يدرس لهم بأجر برنامجاً معروفاً ، غير مكتوب ، تحدده التقاليد ، ويعقد محترم منه ومن والى الطفل . وفى هذه المرحلة يحفظ الطفل جانباً من القرآن الكريم ، ويحفظ قصائد من الشعر ، ومقتطفات من النثر ، ويدرس شيئاً من النحو ، وقليلاً من الحساب ، والكتابة والقراءة على الطريقة « الجمالية » ، ويبدو أنها لم تكن مقبولة من الكافة ، لأن ابن خلدون فيما بعد سوف يبسط آراء المعارضين لها ويفندها . ويدفع الأجر للمعلم ، فى كتابه أو جاء إلى البيت ، طبقاً للعقد ، ويكون سنوياً ، ويتضمن المادة والمواد المطلوب تعليمها ، وشكل التعليم ، والزمن المخصص لها ، وشروط دفع النفقات ، من مال يدفع آخر العام ، أو مواد غذائية من دقيق وزيت تدفع شهرياً ، ومن العادات المتأصلة أن تقدم الهدايا للمعلم فى عيدى الأضحى والفطر ، وأخرى أجل وأكبر حين يختم الطفل القرآن . ويتردد على بيوت القادرين ، غالباً ، أكثر من معلم لتربية أطفالهم . وأحياناً يقع الاتفاق على إكمال العمل ، يقوم المعلم بتعليم الصبى ، مقابل أجر معلوم ، مادة معينة ، أو مراد متعددة ، وفى هذه الحالة يازم والى الأمر أن يقدم تقريراً وافياً عن عقلية الصبى وقدراته الذهنية .

ورغم أن التعليم أهلى ، كانت المدارس المجانية كثيرة ، ينفق عليها من ريع الخوانيت والعقارات والأراضي التى أوقفها الحكيم الثانى ، وآخرون غيره . وأسهم الشعب بدورده ، بجمع الهبات ، ويدعم المدارس ، بعيداً عن رقابة الدولة وتدخلها فى النظم أو المناهج . ما دامت لا تستهدف نشر أفكار ضارة بأمن المجتمع وهدوئه . وقد تحقق فى قرطبة المثل الأعلى الذى نطمح إليه ، أن يكون التعليم الابتدائى مجاناً وإلزامياً ، مجاناً لأن العاجزين لم يكونوا يحرمون منه لعجزهم ، وإلزامياً بضغط من المجتمع نفسه ، دون حاجة إلى أمر يصدر أو قانون يشرع ، لأن التجار وأصحاب الحرف والمصانع يرفضون أن يقبلوا فى حوانيتهم عمالاً لا يعرفون القراءة والكتابة حتى ولو كانت مهمهم لا تحتاج إليها . فإذا بلغ الطفل سن الحلم انتقل إلى مصنع أو متجر ليعمل ، أو يواصل تعليمه العالى إذا سمحت له ظروفه بذلك ٥

ونعنى بالتعليم العالى ما تجاوز المواد التى تدرس فى التعليم الابتدائى ، ولقد يكون فى وصفنا له « بالعالى » تجوز ، لأننا بإزاء مرحلة ليست لها خطط رسمية تحدد المناهج أو الوسائل ، وإنما يحضر الطالب المواد التى تعجبه ، على الأستاذ الذى يطمئن إليه ، ويقرأ فى الكتاب الذى يراه نافعا ومفيداً ، ويتعمق فى درسه بالقدر الذى يسمح له به ذكاؤه ورغبته وإمكاناته ، ومن المصعوبة بمكان أن نحدد على نحو دقيق : متى يبدأ التعليم العالى ومتى ينتهى ، وليس من الممكن كذلك تحديد المادة ، أو المواد ، التى يبدأ طلاب التعليم بدراستها : القرآن ، أو الرياضيات ، أو الطب ، أو اللغة ، أو الأدب ، فقد كان للطلاب أحياناً يجمعون بين أكثر من مادة فى الوقت نفسه ، ولكن يمكن القول أن الطلاب كانوا يبدأون دراسة النحو والتعمق فيه ، ليعينهم على فهم بقية المواد الأخرى ، وتليه دراسة المواد الدينية ، من فقه وحديث وتفسير وأصول .

وكان هناك الطلاب المنتسبون ، إذا صح لنا أن نستخدم هذا المصطلح العصرى جداً ، وهم الذين لا تمكنهم ظروفهم من حضور الدرس ، فيعتمدون على الكتاب ، وإذا وثقوا من أنفسهم تقدموا للأستاذ ليعجزهم . ويعتمد الطلاب على ذواكرهم كثيراً ، وكان فيهم من يحفظ آلاف القصائد من

الشعر، ومن يحفظ كتاب « الأغاني » لأبي الفرج الأصفهاني كاملاً ، وفيه تتعدد الروايات وتشابه ولا رابط بينها ، ويتنوع محتواه من شعرونثروحكايات ، ومن يحفظ القرآن لا يغيب عن ذاكرته حرف واحد منه ، ومن يحفظ موطأ مالك ، أو مدونة سحنون ، أو ديوان المتنبي ، أو كتاب « الكامل » للمبرد ، نعم ، وكان في الأندلس من يحفظ هذا دون حاجة إلى أن يكون عالماً أو متخصصاً ، ويقص علينا ابن بشكوال أنه كان في سوق قرطبة باعة عنب وتين يستطيع الواحد منهم أن يقرأ من الذاكرة أمامك كتاب « معاني القرآن » لأبي جعفر النحاس . أما أولئك المذنبين لا تواتيهم ذواكرهم فيشعرون بخيبة أمل مريرة ، ويحاولون ما استطاعوا أن يزيدوها حدة بالأدوية ، وأشهر هذه شراب « البلاذر » ، ويتخذ من ثمار شجرة هندية ، يصفه الأطباء ، ويتناولها القادرون ، ليجعل ذواكرهم أشد حدة ، وأصفى صفحة . وفيما بعد أسرفوا في الحفظ ، وأقلوا من التفكير ، وكان ذلك ، فيما لحظ ابن خلدون ، وراء تدهور الثقافة والعلم في آخريات أيام الأندلس ، لأن المعرفة لا تتقدم بالحفاظ عايتها ، وإنما بتعهداها إنماء وتجديدا .

وكان العمل بالتعليم العالي مناط تقدير المجتمع واحترامه ، ويرفع العاملين فيه إلى مستوى كبار القوم ، ممن إجماعهم الجاه ورائة ، أساتذته في مستوى بقية الوظائف الكبرى عسكرية أو مدنية ، كالولاة والقضاة والقادة . ولكنها مهنة تميزت بأنها مفتوحة الأبواب أمام كل ذكي ، وكان يعمل فيها من ينسبون إلى طبقة الخاصة حباً في العلم ، وطلاباً للعز يد من الجاه ، والقادمون من تحت ، يجدون فيها الأمن والحماية والطريق إلى الشهرة . وعادة تانتقط الدولة خيرة الأساندة وترشحهم للمناصب العالية ، جلباً أرضى العامة ، وكسباً لثقافتها ، فلم تكن هناك أحزاب ولا صحافة ولا مجامع عالمية ولا برلمان يجمع فيها الناس ، وتظهر الكفاءات . ومن جانب آخر ، لم يكن لدى الأدباء ، وكبار الكتاب . في وقت لم تكن عرفت فيه الطباعة ، من وسيلة لنشر آرائهم وأفكارهم غير أن يجروا لهم حكمة في المسجد الجامع ، وهي دروس لم تكن تجذب الطلاب والأساتذة بحسب . وإنما كانت تنتج إليها صفوفة المجتمع القرطبي . ويقص علينا

أحد تلاميذ أبي وهب عبد الأعلى ، يقول : « كان أستاذى يقيم قريبا من مقبرة قريش في قرطبة ، في بستان له يقوم هو نفسه على غرسه ، وذات يوم بعد أن قدم طعام الغداء لتلاميذه ، جاء من يطلب الإذن بالدخول ، وكان القادم الوزير هاشم بن عبد العزيز ، وأقرب الناس إلى الأمير ، وقد رحب به الأستاذ ، وعندما دخل وجدنا نتناول خضرا مطبوخة ، وهى مما غرس فى الحديقة ، وقد ارتبك صاحب البيت قليلا قبل أن يدعو ، خشية أن يكون الطعام دونه ، ولكن هاشما بادره : ألا تدعونى لمشاركتهم ، أو تخاف أن آتى على المائدة بأجمعها ؟ ، فقال : هى دونك ! ، فرد : ولماذا ، فشمر عن ساعده ، واقتحم المائدة معنا ، وبعده انتحى به جانبا ، فاستشاره بعض القضاة الفقهية وتلقى رأيه ، وعندما خرج هممت بالوقوف تحية ، ولكن الأستاذ أشار إلى فى قسوة أن أجلس ، وبعد أن ودعه عاد فعتب علينا فى شدة أننا أسرفنا فى الأدب والمجاملة ، ولم نكن عادين » .

وكانت هناك شروط معينة يجب توافرها فى الأستاذ ، أولها العلم ، ويحرص الأستاذ على أن يحصله بكل جهد ممكن له : يذهب إلى المشرق ليدر من هناك ، وكان تعبير « وله رحلة » يعادل فى لغتنا الحديثة « عائد من بعثة » ، وموضع زهو من صاحبه ، وتقدير من المجتمع ، وثلثى به وصفاً لعدد من العلماء الكبار ، وأن يختلف إلى مجالس كبار العلماء قرطبة ، والقاديين من المشرق بخاصة ، وأن يحرص على اقتناء ، أو على الأقل دراسة ، ما يؤلف من الكتب لحظة صدورها . وحين استقامت الحياة الثقافية ، وتكونت شخصية الأندلس ، وأحسن بذاته ، استغنى عن الراحة ، وعن الأستاذ الوافد ، بل أقسم عالم من إشبيلية أن يذهب إلى القاهرة ، وأن يجلس فى صحن الأزهر ، وأن يدرس « الكتاب » لسيبويه ، ليثبت أن الأندلسيين لم يعودوا دون المشاركة تمكنا من العلم ، واستيعابا له .

والصفة الثانية التقوى ، والعالم غير التقى لن يجد طلاباً يجلسون إليه ويتناقون
العالم منه ، وكلما كان الأستاذ مالكي المذهب كان إقبال الطلاب عليه أشد .
وكثيرون من الأندلسيين ذهبوا إلى المشرق ، ورأوا مذاهب فقهية أخرى ،
تحسوا لها ، وعادوا على أمل أن يبشروا بها ، فلما عرف الطلاب منهم
هذا انصرفوا عنهم واحداً وراء آخر ، فبقوا وحدهم لا يجدون من
يستمع إليهم .

وإلى جانب العالم والتقوى ثمة صفات أخرى يود الناس والطلاب أن
تكون مما يتحلى به العالم ، منها الصدق ، واستقامة العادات . وعليه أن يكون
في درسه لطيفاً واجتماعياً ، سخيّاً في الشرح والتعليق والتفسير ، لا يحجب عن
طلابه شيئاً ، وأن يكون منهم بمنزلة الأب أو الأخ الأكبر ، وكان الأساتذة
كذلك بعامه ، فتميزت علاقاتهم بطلابهم بعطف حنون ، ومودة صادقة .

وليس سهلاً أن يصبح المرء أستاذاً معترفاً به ، وله طلابه ، إلا بعد أن
تتقدم به السن في المهنة ، أو يبلغ شأواً كبيراً من الشهرة والذيع في وظيفة
عامة ذات طابع ثقافي ، قاضياً أو مفتياً أو مشاوراً أو والياً . وليس ثمة
سن معينة يتقاعد عندها الأستاذ ، والطلاب وحدهم هم الذين يقررون ، فإذا
تبينوا في أستاذهم خرف الشيخوخة ، أو طفولتها ، بدأوا يفارقونه ،
وحينئذ يحيل نفسه إلى التقاعد . ولم يكن للأساتذة زى محدد ، ولكن الأجلاء منهم
يضعون الطيلسان على رءوسهم ، وكان ابن حبيب ، الفقيه المالكي الكبير ، يذهب
إلى الدرس في أحسن أزيائه ، وهى من نسيج يمنى ، على حين يرى آخرون
إن أفضل زى يرتديه الأستاذ أن يكون في رأسه شيء يقوله للطلاب . ويزاول
الأساتذة إلى جانب التدريس مهناً أخرى ، تدر عليهم رزقاً يعينهم على الحياة ،
ويلقى الواحد منهم طلابه في بستانه أو حانوته أو مصنعه ، وآخرون يلقون
دروسهم في المسجد الجامع أخرة اليوم ، بعد صباح جاهد من أجل لقمة
العيش . وقبول الأجر من الطلاب لا يلجأ إليه الأستاذ إلا عند الضرورة
للقصوى ، وطلبه ، أو قبول الهدية ، أمر مخجل على أية حال .

• الحياة الدينية :

ظلت قرطبة بمنأى في الخيال الديني عن الحركات المتطرفة من إلحاد وزندقة ، وعن الدعاوى غير السنية من خوارج وشيعة ، وليس من الممكن القول أن الدين كان يحتل مكانة هامة ، لأن الدين كان الحياة نفسها ، عنه تصدر ، وبه ترتبط كل مظاهر الحياة الاجتماعية . ويلتزم القرطبي بما ياتزم به أى مسلم ، في أى مكان ، فالإسلام عقيدة وفكراً وطقوساً لا يتأقلم في جوهره ، وليس ممكناً أن نتحدث عن إسلام قرطبي أو أندلسي . وربما تميزت قرطبة عن غيرها بأن حماسها للإسلام وحرصها عليه كان عفويّاً وشديداً ومستمرّاً .

كانت حماسة الناس للدين قوية ، وحرصهم على أداء شعائره حاداً ، وأشدّهم حرصاً أولئك الإيبيريون الذين أسلموا مع الفتح أو بعده ، ثم البربر ، ويأتى العرب أخيراً . وصنع الإسلام من هذه العناصر مجتمعاً متماسكاً ، وهو ما كانت تفتقده بلاد إسلامية أخرى . ومن هنا كان الرحالة المشارقة يؤخذون ، حين يطأون أرض قرطبة ، بما عليه أهلها من إسلام خالص ، ومن تقوى خاشعة ، عند غالبية الناس . وكان المجتمع ، لواء دين بلا كهانة ، يقوم على حراسة معتقده ، ولا يتهاون أبداً فيما هو جوهرى منها ، ولم تكن « الحسبة » في أى بلد بأكثر احتراماً وهيبه كما كانت عليه في قرطبة . وكانت حرية الأديان مطلقة ، ومحترمة ، ويتم اعتناق الإسلام أمام القاضي ، ويسجل في وثائقه ، ويقر فيها المرء بأنه اعتنق الإسلام بإرادته وحرية وبليمان مطلق منه ، ودون ضغط أو تدخل من أحد ، وأنه يلتزم بقواعده ، ولكن عقوبة التحيف على الإسلام صارمة ، وكان الاتهام بها يخفى وراءه ، أحياناً ، أهدافاً سياسية أو شخصية .

وحرص الأندلسيون على الحج ، وتقلع بهم السفن من المرية أو بلنسية أو دانية ، وهى لغور لانزال قائمة ومزدهرة حتى يومنا هذا ، تبجرو عليها

أعداد كبيرة من رجال ونساء ، وتاقى رحالها في الإسكندرية ، لكى يتجه الناس منها إلى القاهرة ، وقد يتوقعون فيها أياماً طويلة ، للعام أو التجارة أو السياحة . على حين يأخذ الفقراء طريقهم براً عبر شاطئ شمالى أفريقية حتى يبلغوا مصر ، وهى رحلات أخذت شكلاً جماعياً ، فى قوافل كبيرة ، منذ نهاية القرن التاسع ، ومن يتخلف عن الحج لسبب أو لآخر يمكن أن ينب عنه من يقوم به بدلاً منه ، وفيما وصلنا من وثائق صورة عقد بين حاج وموكاه ، والمناسك التى عليه أن يضطاع بها . وكان الحج شائعاً بين العامة والفقراء ورجال العلم ، فهم يهدفون إلى أن تكون لهم معه رحلة علم ، ومن هنا فنحن لا نعرف إلا قلة بين الخاصة أدت الحج ، ولم يؤده أى من الأمراء أو الخلفاء لأسباب سياسية خالصة ، ولا نعرف أن ابن حزم ، صاحبنا ، أدى الحج ، رغم دفاعه الشديد عن الإسلام وأصوله ، وقدرته المالية ، فى أوائل حياته على الأقل ، ولعله أناب من يضطاع به نيابة عنه ، أو وجد لنفسه مندوحة فيما أحاط به من ظروف .

وقد أصبحت قرطبة موطن المذهب المالكى ، وأصبح الاتجاه الغالب فيها ، تبنته الدولة ، وعليه الفتوى ، وأغلقت أبوابها فى وجه المذاهب الفقهية الأخرى ، وأعرض علماءه عن النظر إلى غير المالكية من المذاهب ، واعتبروا معرفتها أمراً لا جدوى فيه ، ووقفوا بالفقه المالكى عندما أورده مالك وكبار تلاميذه وأصحابه من بعده ، يدورون حوله دون أن يتقدموا به خطوة ، ولم يتيحوا لأنفسهم حرية الدرس أو الاجتهاد إلا فى حالات نادرة ، حين يضطدمون بما هو شائع ويصعب تغييره ، فيجدون لهم مندوحة فى باب « العرف والعادة » ، وهما من روافد التشريع عند المالكية . وإن المرء ليستطيع أن يؤولف مجلدات تستغرق أسماء الفقهاء الذين برزوا من علماء المذهب فى تلك الفترة . ويهمنى أن نشر من بينهم إلى أبى الوليد الباجى ، سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث التجيبى ، فقد كان خصماً فكرياً لدوداً لابن حزم ، وجرت بينهما محاورات عنيفة ، وأثنى

عليه ابن حزم ثناء بالغا . وألف الباجى عدداً من الكتب فى الفقه المالكية ، وفى علم الأصول ، وفى الحديث . وكان موطأ الأمام مالك ؛ وشرح « المدونة » لسحنون القيروانى ، من أوائل الكتب التى يدرسها المالكية ، وأكثرها رواجاً .

وفى النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى جاء قاسم بن محمد بن سيار بالمذهب الشافعى من المشرق ، وانصرف إلى نشره عن طريق الدرس والتأليف ، وكان يلقى دروسه فى المسجد الجامع ، ووجد رعاية من الأمير محمد الأول ، الذى عينه موثقاً الخاص حماية له من علماء المالكية ، وعاش المذهب الشافعى فى الظل طوال أيام عبد الرحمن الناصر ، لأن ابنه الأمير عبد الله ، وكان شافعيًا ، اتهم بالاشتراك فى مؤامرة لخلع أبيه الناصر ، لأنه بايع ابنه الحكم بولاية العهد دونه ، وقد فشلت المؤامرة ، ولقى عبدالله حتفه على يد أبيه ، وكان لذلك أثره السيئ على المذهب الشافعى فتوقف نشاطه حتى أيام الحكم المستنصر ، الذى كان يحسن وفادة القادمين إلى الأندلس من أهل الأدب المشاركة ، وبينهم عدد من شيوخ المذهب الشافعى ، فانتعش المذهب الشافعى من جديد ، ولكنه انكمش ثانية فى عهد المنصور بن أبى عامر ، وكان حاكماً واقعياً ، فرأى من صالحه أن يجارى فقهاء المالكية ليكسب تأييدهم ، وفيما يعد سوف يصبح ابن حزم واحداً من أتباعه ، قبل أن يتحول إلى المذهب الظاهرى .

ودخل المذهب الظاهرى الأندلس فى الوقت الذى دخل فيه المذهب الشافعى تقريباً ، على يد عبد الله بن محمد بن قاسم بن هلال (ت ٢٧٢ هـ = ٨٨٥ م) ، واجتهد رغم أنه شافعى فى نشر المذهب الظاهرى ، ويبدو أنه لم يوفق كثيراً فيما رعى إليه . وتعرض الظاهرية لمثل ما تعرض له الشافعية من مضايقات علماء المالكية ، وأول شخصية ظاهرية نلتقى بها ، ذات مقام وتأثير ، منذر بن سعيد البلوطى ، وتلقى أصواته فى رحلة له إلى المشرق ، وظل عليه حتى وفاته عام ٣٥٥ هـ - ٩٦٦ م ، ثم ضعف صوت الظاهرية إلى أن عاد قوياً مع ابن حزم العظيم .

ومع وصول كتب الجاحظ إلى الأندلس ، وشيوعها على نحو خفى بين مجموعة من المثقفين ، عرفت قرطبة عدداً محدوداً من المعتزلة ، ولكننا في النصف الثاني من القرن العاشر لانكاد نعتبر لهم على أثر ، والذين جاءوا الأندلس من الخارج لنشر هذا المذهب أبعدوا منه . مثلاً وصل قرطبة أبو الطيب ابن أبي بردة ، عام ٣٦١ هـ = ٩٧١ م ، وأحسن الحكم الثاني استئباله ، كواحد من كبار علماء الشافعية على أيامه ، ولكن ما إن علم أنه من المعتزلة حتى أصدر قراراً بإبعاده . ولكن ابن حزم يقول لنا أن وادى بنى توبة كان كله معتزلياً . وربما ارتبطت فكرة المعتزلة بالزهد ، لقد كان الطريق الوحيد ، فيما يرى أسين بلاثيوس ، أمام الذين يرغبون أن يبشروا بأفكارهم دون أن يعرضوا أنفسهم للاضطهاد والملاحقة أن يزهدوا وينسكروا في «الروابط» لأن هذه الخلوات تمتعت بمهابة جليلة لدى الحكام والفقهاء والعامة ، وكانت تقع خارج المدينة ، في الجبال أو الغابات ، وتجري الحياة فيها على نحو زاهد ويطلق على سكانها اسم : زاهد أو ناسك أو عابد أو صوفي . وآخرون من الزهاد ظلوا بين العامة ، وتميزوا بالتقشف ، واحتقار الترف ، وإهمال الأناقة ، وعاشوا حياة رقيقة ، يمتنون أعمالاً متواضعة ، ويشاركون في الجهاد .

وكان الفيلسوف ابن مسرة أوضح شخصيات هؤلاء العباد ، وأقام خلاوة له في جبل قرطبة ، على مقربة من العاصمة ، وعرف بالجبلي ، وفي ثياب زاهد خاشع بدأ يتأمل أفكار المعتزلة ، ويبني لنفسه فلسفة جديدة ، راح يبشر بها بين عدد محدود من تلاميذه ، وفي البدء ، بتأثير من حياته المستقيمة ، ونسكه الصادق ، وتقواه الخاشعة ، كسب إلى جانبه قلوب القرطبيين ، ثم بدأ الهمس : إنه معتزلي ، يبشر بمذهب فلسفي جديد ، بينه وبين الإلحاد خطوة واحدة . وأحسن ابن مسرة بالهمس ، وبما تجرى حوله وخطورته ، فرحل إلى المشرق ، وأدى فريضة الحج ، وبعده عاد إلى خلاوته ، وبأشهر حياته الزاهدة ودروسه ، وضيقت الحياة ودع الدنيا عام ٣١٩ هـ = ٩٣١ م ، وقد مهد الطريق لفكر فلسفي حر ، ومن بعده واصل

تلاميذه إشاعة فكره ، ونشر كتبه ، ولم يصلحاً منها شيئاً ، ولكنى فى زيارتى المتعددة للرباط عاصمة المغرب ، وجدت أن مخطوطة الجزء الخامس ، من كتاب « المقتبس » لابن حيان ، ولما تنشر ، وتوجد فى خزانة القصر الملكى ، تضم نصوصاً كثيرة ، ذات فائدة قصوى فى توضيح مذهب ابن مسرة وتحديد مساره .

وفى أواخر خلافة الناصر ، أو على التحديد عام ٣٥٠ هـ = ٩٦١ م ، نشر فقيه قرطبي ، محمد بن يرقى بن زرب ، دحضاً لآراء ابن مسرة ، فنهجه الخليفة ، مع الزبيدى ، أبو محمد بن الحسن ، سلطات واسعة لمحاورة فلسفة ابن مسرة . فأمر ابن زرب باعتقال كبار تلاميذه ، وأكرههم على رفض أفكارهم على ملأ من الناس ، وأمر بكتب ابن مسرة التى كانت معهم فأحرقت علانية على مرأى منهم ، أمام أبواب المسجد الجامع . وقد خفت حدة الملاحقة فى عهد الحكم الثانى ، ولكن ما إن ولى المنصور بن أبى عامر الحجابة ، وعين ابن زرب قاضياً ، حتى اشتدت الملاحقة من جديد ، وأغضى المنصور عينه عنها استجلاباً لرضى الفقهاء والعامة ، وكان من ضحاياها عبد الملك بن منذر ابن سعيد الباطنى ، صاحب خطة الرد ، وكان معتزلياً مثل أبيه ، المتقاضى والإمام والخطيب على عهد الناصر . ويبدو أن عبد الملك ، وأخويه عبد الوهاب والحكم ، حاولوا إحياء مذهب ابن مسرة وخاوتهم ، وكونوا فى بجانة مجموعة من المؤمنين به ، وقد حكم عليه بالإعدام والصلب ، وأورد لنا ابن حزم قصة صلبه فى كتابه « الطوق » .

• الأدب :

وفى هذا القرن شاعت الأعمال الأدبية المشرقية فى الأندلس ، فقد أدخل أحمد بن محمد بن هارون البغدادى . وجاء قرطبة ليتجسس للعباسيين ، كتب ابن قتيبة ، وأدخل فرج بن سلام وكان مهتماً باللغة والشعر والطب وتربطه بالجاحظ صداقة وطيدة ، كتاب « البيان والتبيين » ، ورسائل

وكتبنا أخرى للجاحظ أيضا . وأدخل عثمان بن المطنة ، وكان يعمل مؤدبا لأولاد الأمراء ، وعاش في الشرق مدة ، ديوان أبي تمام ، وكان معجبا بشعره . ويعطى كتاب « العقد الفريد » لابن عبد ربه صورة صادقة لثقافة الأندلسيين المشرقية في هذا العصر ، وما كانت عليه من شمول وعمق .^٥

ولم يحدث أن اهتم خليفة بالثقافة كما اهتم بها الحكم الثاني ، وكان نفسا عالما موسوعيا ، يمضى ساعات طويلة في مكتبته يقرأ ، وقلمه في يده يعلق على ما يقرأ ، وقلمها تجد له كتابا في خزائنه ، من أى فن كان ، إلا وله فيه نظر ، يكتب فيه بخطه ؛ إما في أوله أو آخره أو تضاعيفه ، نسب المؤلف ومولده ووفاته والتعريف به ، ويذكر أنساب الرواة له ، ويأتى من ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده ، لكثرة مطالعته ، وعنايته بهذا الفن . ومن حين لآخر يدعو العلماء والفقهاء إلى قصر الخلافة في قرطبة ، أو إلى قصور آل مروان في مدينة الزهراء ، وبخاصة في سهرات رمضان ، لمطارحات ومناقشات أدبية وعلمية جادة ، تمتد في كثير من الأحيان حتى الفجر .

وكانت مكتبة الحكم الثاني تضم ٤٠٠.٠٠٠ مجلد ، وتشغل مكانا فسيحا في قصر الخلافة ، ويحكى ابن حزم في كتابه « جمهرة أنساب العرب » ، نقلا عن تليد الحصى ، وكان على خزانة العلوم : أن عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، وفي كل فهرسة خمسون ورقة ، ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين لا غير .

وكان له وراقون بأقطار البلاد ينتخبون له غرائب التواليف ، ورجال يوجههم إلى الأفاق باحثين عنها . ومن وراقيه ببغداد محمد بن طرخان ، ومن أهل المشرق والأندلس جماعة ، وبعث إلى أبي الفرج الأصفهاني القرشي المرواني ألف دينار عينا ذهبيا ، وخاطبه يلتمس منه نسخة من كتابه الذي ألفه في الأغاني ، وما لأحد مثله ، فأرسل إليه منه نسخة حسنة منقحة قبل أن يظهر الكتاب لأهل العراق ، أو ينسخه أحد منهم .

وكانت المكتبة تسير على نظام دقيق وراق للغاية ، وتضم أقساما مختلفة ، أحدها للنسخ ، ويعمل فيه مهرة الخطاطين ، من فتيان وفتيان ، وشهرت من بينهن لبنى كاتبة الخليفة نفسه ، وكانت أديبة شاعرة ، نحوية عروضية ، رائعة الخط ، بصيرة بالحساب ، مشاركة ، ولم يكن في قصر الخلافة أنبل منها ، على حد تعبير ابن بشكوال في كتابه « الصلة » ، وتميزت من بينهن أيضا فاطمة بنت زكرياء بن عبد الله الكاتب ، المعروف بالشيلاري وكانت كاتبة جزلة ، وخطاطة ماهرة ، وعمرت طويلا ، فعاشت أربعة وتسعين عاما ؛ كتبت فيها مئات الكتب الطوال . وكان هناك قسم للمراجعة والمعارضة يراجع ماخط الناسخون ، ويعمل فيه صفوة من علماء اللغة ، أمثال : الرباحي الجياني ، وأبي الفضل بن هارون الصقلي ، وعباس بن عامر الصقلي ، ويشرف عليه العالم اللغوي الجليل أبو علي القالي ، صاحب كتاب « الأمل » . إلى جانب قسم للتجليد والتذهيب والزخرفة ، يعمل فيه أندلسيون ، وآخرون جاء بهم الخليفة من بغداد وصقلية .

وكان قسم النسخ لا يتوقف عن الكتابة ، ينسخ من الكتاب الجديد عشرات النسخ ، يحتفظ بها في المكتبة للمتردين عليها ، أو يهديها الخليفة لأصفياه ، أو لكبار العلماء والأدباء ، أو يوقفها على مكتبات المساجد ، أو على حلقات الدرس للراغبين فيها من الطلاب ، من العاجزين عن النسخ أو الشراء . وإهداء الكتب النادرة إلى الخليفة أقصر الطرق ، وأحبها ، إلى قلبه .

ولم يكن الخليفة استثناء في هذا الاتجاه ، فنحن نعرف عددا كبيرا من المكتبات الخاصة ، ومن هواة الكتب ، لا تبلغ قدر مكتبة الحكم ، ولكنها مكتبات كبيرة بمقياس ذلك العصر ، وكل عصر ، ولناخذ لها مثلا مكتبة قاضي الجماعة بقرطبة ، أبي المطرف عبد الرحمن بن فطيس ، فقد جمع « من الكتب في أنواع العلم ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس ، مع سعة الرواية والحفظ والدراية ، وكان يملئ الحديث من حفظه ، في

مسيجده ، وله ستة وراقين ينسخون له دائما ، ورتب لهم على ذلك راثبا معلوما ، ومتى علم بكتاب حسن عند أحد من الناس طالبه الابتياح منه ، وبالغ في ثمنه ، فإن قدر على ابتياعه ، وإلا انتسخه منه ورده إليه . وكانت عائشة بنت أحمد بن محمد بن قادم القرطبية حسنة الخط ، تكتب المصاحف والدفاتر ، وتجمع الكتب ، وتعنى بالعام ، ولها خزانة علم كبيرة حسنة ، ولها غنى وثروة تعينها على المروعة .

ولم يقف الأمر عند الخاصة من الناس ، فكان البسطاء أيضا يعنون بأن تكون لهم مكتباتهم في بيوتهم ، في ضوء ما تسمح به إمكاناتهم ، ويقدمونها على مظاهر الحياة الأخرى . ولدينا معلومات عن صاحب كتاب يدعى ابن حزم (غير صاحبنا مؤلف طوق الحمامة طبعا) ، يعلم الأطفال فيه ، بمساعدة ابن له يقوم على الصبيان ، وابنة تقوم على الفتيات ، وما يوفره يشترى به كتبها ، وفي ساعات الفراغ يقوم على نسخها ، ورغم تواضع حاله كانت مكتبته منظمة ، فيها كتب قيمة ، وأحيانا نادرة ، أتى بها في رحلة كانت له إلى المشرق ، وتتميز بالضبط والدقة وللإفادة منها يتردد عليه العلماء والطلاب .

ولكن هواية الأندلسيين الكبرى كانت تتركز في الأدب : والشعر منه بخاصة ، وبلغ في هذه الفترة أوج سمته الجمالي ، وعرف هذا العصر حشدا هائلا من الشعراء ، أنشأ لهم المنصور بن أبي عامر ديوانا خاصا بهم ، يسمى « ديوان الندماء » ، مهمته ترتيب الشعراء طبقات ، وبذل العطاء لهم على مستوى أقدارهم في الشعر وكان على رأس هذا الديوان واحد من كبار نقدة الأدب ، ولقد صحب المنصور في بعض غزواته أربعون شاعرا ، من كل طبقة ، ليسجلوا ما يرون شعرا .

من طليعة الشعراء في هذا العصر ابن عبد ربه (ت ٣٢٨ هـ - ٩٣٩ م) صاحب كتاب « العقد الفريد » ، وبهر القلوب بمدائحه ، وغزله ينبي عن

ذوق وحساسية تفوق ما في مدائحه . وابن هانيء الإلبيري (ت ٣٦٢ هـ = ٩٧٢ م) وما لبث أن غادر الأندلس إلى المغرب ، ومات وهو في طريقه إلى مصر ، ليلاحق فيها بالمعز لدين الله الفاطمي ، ويقول عنه ابن خلكان : « إنه أشعر المغاربة على الإطلاق ، وهو عندهم كالمتنبى عند المشارقة ، وكانا متعاصرين ، أما المعري فقد شبه شعره الضخم الرائع بأنه « رحي تطحن قروناً » . وكان ابن دراج القسطلي (ت ٤٢٢ هـ = ١٠٣٠ م) أعظم الشعراء في قرطبة على أيام المنصور بن أبي عامر ، وكان كاتباً له ، وللحكم الثاني قبله ، وهومن أصل بربري ، ذاع صيته ، وأثنى عليه ابن حزم ، وكان واسع العلم ، قادراً على المديح ، يملك زمام الصناعة ، يجود شعره ، ويتكلف أحياناً ، فجاءت بعض أشعاره عسيرة الفهم . ويوسف بن هارون الرمادي (ت حوالي ٤١٣ هـ = ١٠٢٢ م) ، والرمادي ترجمة حرفية لكنيته في اللغة الرومانشية أبو جنيش ، وبها كان يدعى أيضاً ، لأن كلمة جنيش Geniza فيها تعني الرماد ، وهومن كبار الشعراء ، ويقارن بالمتنبى أيضاً ، وكان تلميذاً لأبي علي القالي ، وجمع بين تمكنه من الشعر القديم ، ومن الأنماط الشعبية المستحدثة في وطنه ، وأعجبها الموشحات . وجمع بين رقة الشعر وخفة الظل ، وفخامة الأسلوب ، وأورد له ابن حزم في « طوق الحمامة » قصة حب رومانتيكية جميلة . واشتهر من بين الشعراء الأمراء حفيد لعبد الرحمن ، يلقب « بالطلق » ، الشريف أو الشاعر ، (ت ٤٠٠ هـ = ١٠٠٩ م) وبرع في مقطعات النسيب الرقيق ، وكان طليعة شعراء الأندلس في الزهريات .

وبرع من شعراء هذا العصر أيضاً أبو عامر بن شهيد (ت ٤٢٦ هـ = ١٠٣٥ م) ، وهومن بيت عريق ، وكان صديقاً ودوداً لابن حزم ، واحتل في العاصمة مكاناً مرموقاً بشعره الجزل ، ورسائله الفكاهية ، وتراءى لنا في شعره ، أحياناً ، لمحات ذات وقع حديث ، وخلف لنا رسالة « التوايح والزوايح » ، وصلتنا في جانب منها ، وفيها يصور رحلة شاعر إلى الجنة ، فسبق بذلك المعري ودانتي الإيطالي في هذا الموضوع .

(م هـ - ابن حزم)

وكان الشعر يجري على ألسن النساء ، وبرع نفر منهن فيه ، مثل :
عائشة بنت أحمد ، وعشقت أحد أبناء المنصور وتولعت به ، ومريم بنت
أبي يعقوب الفيصولى ، وكانت زاهدة ورعة ، واسعة العلم بالأدب . وبينما
الفتن تجتاح قرطبة ، وشمس الخلافة توشك على الغروب ، اجتاحت العاصمة
حديث فتاة أميرة ، تنحدر من أصلاب خليفة ، ولادة بنت المستكفى
(ت ٤٨٤ هـ = ١٠٩١ م) صبية وجميلة ، ذكية وشاعرة ومتعمدة ، تجعل
من قصرها منتدى الشعراء ، ومجمع الأدباء ، وملتقى عليّة القوم ، تحب
وتجاهر ، وتعبر عن عواطفها فى صراحة ، ويهيم بها الوزير الشاعر ابن زيدون ،
فتصله وتسعد معه ، وما تلبث أن تهجره ، وكيداً له تصل غيره ، فيندب
حظ قلبه معها بقية حياته . كانت ولادة ، فيما يقول ابن بسام : « فى نساء
زمانها واحدة أوانها ، حضور شاهد ، وغزارة أوابد ، حسن منظر ومخبر ،
وطلاوة مورد ومصدر . كان مجلسها فى قرطبة منتدى لأحرار المصر ،
وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر ، يعيش أهل الأدب إلى ضوء غرتها ،
ويتهالك أفراد الشعراء على حلاوة عشرتها ، ولكنها على سهولة حججها ،
وكثرة منتابها ، تخلط ذلك بعلو نصاب ، وكرم أنساب وطهارة أثواب » .
غير أنها « لا تخلو من نزق وطيش ، فقد اطرحت التحصيل ، وأوجدت
إلى القول فيها السبيل ، لقلة مبالاتها ، ومجاهرتها بلذاتها » .

وقد عمرت ولادة حتى تجاوزت الثمانين عاماً (ت ٤٨٤ هـ = ١٠٩١ م)
دون زواج ، مع ما كانت عليه من جمال باهر ، وعراقة نسب متصل ،
ومواهب فنية عالية ، وتقف المصادر القديمة عند الظاهرة ، تقدم لمحات
عنها ، دون أن تمضى بها حتى النهاية ، تفسيراً وتفصيلاً . ويراه الباحثون
المحدثون أمراً غير طبيعى ، فيقول عنها غرسية غومث إنها « امرأة رجلة ،
بالغة الظرف والأناقة » ، ويرى أ . و . نيكل ، ومن بعده هنرى بريس ،
أن صلاتها بمهجة بنت الثيان القرطبية الشاعرة كانت مريبة ، وفى القليل
الذى روى من أخبارها ما يدعم الاتهام . وإلى هذا المنحنى يذهب الأديب

العراقي الأستاذ عبد الرزاق الهلالي ، وبتهمها الأستاذ علي عبد العظيم بالسادية Sadism ، ويمضي وحده في هذا الاتجاه .

ومهما يكن القول ، فإن هذه الفتاة الشاعرة المتمردة ، أثرت الحياة الأدبية والاجتماعية في قرطبة ، وأوجدت نمطاً أدبياً جديداً . دفعت به إلى سطح الحياة ، وكان قبلها يأخذ طريقه وراء الظاهر جباناً وخفياً .

وفي مطاع هذا العصر بدأت قرطبة تتغنى بالمرشحات ، ولو أن موشحات عصر الخلافة ضاعت كلها ، وضاعت معها طفولة هذا الفن الجميل الذي أبدعه الأندلسيون ، على غير احتذاء ، في عالم الفن والشعر .

المؤرخون :

وشهد هذا العصر من المؤرخين الكبار ابن القوطية ، أبو بكر بن عمر (ت ٣٦٧ هـ = ٩٧٧ م) صاحب كتاب « تاريخ افتتاح الأندلس » ، ويغلب على ظن المستشرق الإسباني خوليان ريبيرا ، وقد ترجم الكتاب إلى اللغة الإسبانية ، أن الكتاب ليس من إنشاء ابن القوطية ، ولعله أن يكون سماعاً دونه عنه بعض من كان يحضر دروسه من طلابه المولعين بالأخبار ، وكان ابن القوطية نحويّاً أيضاً ، وكتابه في تصريف الأفعال أول كتاب وصلنا في الموضوع . وكان هريب بن سعد (ت ٣٦٩ هـ = ٩٨٠ م) قرطيبياً من أصل نصراني ، أسلم آباءه ، وتلقى تعليماً طيباً ، واتخذ الحكيم الثاني كاتباً له ، وقد اختصر تاريخ الطبري ، وأضاف إليه أخبار المغرب والأندلس ، وكان إلى جانب اشتغاله بالتاريخ طبيباً .

وأعظم مؤرخي هذا العصر على الإطلاق أبو مروان حيان بن خلف القرطبي ، ويلقب بابن حيان (ت ٤٦٩ هـ = ١٠٧٦ م) ، ومؤلفاته لا تقل عن خمسين مؤلفاً ، وأحدهما ويسمى « المتين » في ستين مجلداً ، ولسوء الحظ لم يصلنا من مؤلفاته هذه إلا أجزاء متناثرة من كتابه « المقتبس في تاريخ رجال الأندلس » .

ويقول عنه المستشرق الهولندي رينهارت دوزى : « يتحدث العرب في كتب ابن حيان صدق الرواية بقدر ما يعجبون بجزالة لغته ، وورنين عباراته ، وأنا أؤيدهم في هذا كل التأييد ، ولا أتردد في القول بأن كتبه لو بقيت لألقت على تاريخ الأندلس الغامض ضياء باهرة ، ولصورته لنا أحسن تصوير ، ولوجدنا أنها تبلغ من الروعة مبلغا يجعلنا نستغنى بها عن غيرها من الكتب التي تناول تاريخ هذه العصور . إن ابن حيان سيال الأسلوب ، ومع ذلك لا يتعثر في الإطناب والقعقة اللفظية ، كما فعل غيره من أصحاب الروايات المسهبة التي لا تنهى . إنه ليسرق التاريخ مساق من يبدى رأيه وحكمه فيما يعرض من القضايا ، ويبحث عن أسباب الأشياء ، ويناقشها عن علم وفهم وذكاء ، كما سيفعل من بعده مؤرخون نقدة كابن سعيد وابن خلدون . ويمتاز ابن حيان إلى ذلك بأسلوب صاف ناصع ، لا يهبط إلى الركافة التي تثير السخط ، ولا يقع في التفصح والإسراف في قعاقع الألفاظ ، ورغم التزامه السهولة لا يهمل جانب الجمال في أسلوبه ، ويبحث في كلامه دائما حماسة وغنى وطابعا غالباً من الجدة . نعم ، إنه يلجأ في بعض الأحيان إلى التشبيهات وضرب الأمثلة . ولكنه - رغم امتيازه بفصاحة القدماء - لا يولع بما أولع به معاصروه . ونخرج من هذا كله بأننا لا نجد من بين مؤرخي العرب إلا القليلين ممن نستطيع أن نقارنهم به ، ولن نجد بينهم من تقدمه علمه » .

وانصرف عدد من المؤرخين إلى كتابة السير ، ووضع المعاجم في طبقة معينة من الرجال ، وأول من تلقى منهم : الخشني ، أبو عبد الله محمد بن الحارث (ت ٣٦١ هـ = ٩٧١ م) ، وهو قيرواني قدم الأندلس ، وولاه الحكم الثاني خطة المواريث في بجاية ، وبعد وفاته استقر في قرطبة يعيش على بيع العطاراة ، وألف كتباً كثيرة عن الفقهاء والمحدثين ، واشتهر بكتابه « تاريخ قضاة قرطبة » ، وألفه فيما يبدو لإحياء من الحكم نفسه ، ونشره خوليان ريبيرا الأول مرة في مدريد عام ١٩١٤ م ، وترجمه إلى الإسبانية ، ويضم من الفوائد ما يجعله أهم مصدر لدراسة الحياة الاجتماعية في الأندلس ، وقد كتبه وتحت يده مادة طبية من الوثائق المحفوظة في دار الخلافة ، وسجلات

القضاة ، والأوراق الخاصة لبعض الأفراد . وأهم من ذلك كله ما أخذه من الروايات والأخبار التي كان الناس يتناقلونها ، منها ما يحكى في قصر الخلافة وبيوت السروات ، ومنها ما يتناقله الجمهور والقصاص في طرقات قرطبة وأرباضها وأحيائها التي يحشد فيها أصاغر الناس . وبعضها أخذه من أفواه أهل الأدب والدين والعلماء والفقهاء مما كان يجري في حلقات دروسهم ، وبعضها الآخر اختلقه نفر من الساخطين على النظام السيامي والاجتماعي القائم ، ومنها ما هو صدى لما كان يتحدث به أولئك المولعون بنقد رجال الدين والأنقياء ، ومنها ما هو ترجمة عربية لروايات كان الناس يتناقلونها في لغتهم العجمية أو العامية الدارجة أو صياغة جديدة لها . كل هذه العناصر تتجمع وتتألف منها مادة الكتاب دون أن يضيف إليها المؤلف من عنده إلا قليلا . إنه كتاب يضعنا في قلب قرطبة القرن العاشر ، وأخباره مصوغة في قالب من الواقعية لا يبلغ إلى تصويرها كتاب غيره من كتب الأدب أو التاريخ . وهو يحدثنا عن أشياء تافهة ، ويصور لنا مشاهد مبتذلة ، لاجلال فيها ، ولا صلة تربطها بغيرها ، وهذه الروايات المرسلة على عونها تعين على دراسة المظاهر الاجتماعية ، مما لا يذكره أو يعنى به غير هذا الكتاب .

ومنهم ابن الفرضي ، أبو الوليد عبد الله بن محمد (ت ٤٠٣ هـ = ١٠١٢ م) ، من أهل قرطبة ، وكان فقيهاً ومحدثاً وخطيباً وشاعراً ، وجماعاً للكتب ، ودرس في القيروان والقاهرة ومكة والمدينة ، وعرض له ابن حزم في « طوق الحمامة » واستشهد في داره على يد البربر ، عندما اقتحموا قرطبة وانتهبوها ، ولم يعثر على جثته إلا بعد أربعة أيام ، وقد تحللت وتعفنت ، فووري التراب دون أن يغسل أو يكفن . وضاع بعض ما ألفه مثل كتابه : « تاريخ شعراء الأندلس » ، وبقي لنا منها كتابه الذائع الصيت : « تاريخ علماء الأندلس » .

• العلوم :

ولقيت الدراسات الفلكية في النصف الثاني من القرن العاشر عناية تامة ، وكان فلكيو الأندلس ، مثل نظرائهم في المشرق ، يؤمنون بتأثير النجوم ،

واعتبارها سبباً فيما يحدث من شئون هامة بين الميلاد والموت على سطح الأرض، وكان الفلك يستخدم في تحديد قبلات المساجد، وتعيين مواقيت الصلاة على امتداد العام، والاستيثاق من مواعيد الأهلة، ولم يكن مسموحاً بالتنبؤ وقرأة الطالع، ومع ذلك كانت الجاهير، من وراء ظهر الدولة؛ تقبل على أدعياء الفلك، من المنجمين والعرافين ومن يستخرجون الفأل، والمتنبئين والسحرة وصناع الأحجية. وكان الفلكيون يعملون في الكيمياء أيضاً، وقد ازدهرت دراسة الفلك على يد مساحمة الجريطي (ت ٣٩٨ هـ = ١٠٠٨ م)، تحت رعاية الحكيم الثاني، وعرض له ابن حزم في «طوق الحمامة»، وإلى جانب الفلك كان أستاذاً في العلوم الرياضية، ومن بينها فن مساحة السطوح، وإليه يعود الفضل في إدخال «رسائل إخوان الصفاء» إلى الأندلس.

وأزهر علم الطب في قرطبة إزهاراً عظيماً، وفي منتصف القرن العاشر الميلادي أرسل إمبراطور بيزنطة، قسطنطين السابع، سفارة إلى عبد الرحمن الناصر، كان بين ما حملته من الهدايا نسخة مكتوبة بالإغريقية من كتاب ديوسقوريدس Dioscorides في الطب، ولم يكن في قرطبة من يعرف الإغريقية، فسأل الناصر الإمبراطور أن يبعث إليه واحداً من العارفين بها وباللاتينية، فأرسل إليه الراهب نيقولا لكي يقوم بتحديد أنواع النباتات الواردة في الكتاب، وأنجز ذلك العمل بمعاونة لجنة بينها: حسداى بن شبروط، الذائع الصيت، وأبي عبد الله الصقلي، وكان عارفاً باليونانية ويتحدث بها، وله إلمام بتركيب العقاقير، وعبد الرحمن بن إسحاق بن الهيثم، ومحمد بن الكتاني، وعلى رأسهم أبو القاسم الزهراوى، وعدد آخر من الأطباء وعلماء النباتات وكان لمعرفة الأندلسيين بهذا الكتاب أثر حاسم في تطور دراسات الطب والنبات، وتميز الذين عملوا في ترجمة الكتاب كأطباء فيما بعد، في بلاط الحكيم الثاني، والمنصور بن أبي عامر.

وأعظم أطباء ذلك العصر، من غير شك، أبو القاسم خلف الزهراوى،

نسبة إلى مدينة الزهراء الشهيرة في قرطبة ، ويعرف في اللاتينية باسم Abulcasis (ت ٤٠٣ هـ = ١٠١٣ م) . وطار ذكره شرقاً وغرباً بالبراعة في الجراحة ، وتعتمد شهرته على مؤلفه المسمى : «التصريف لمن عجز عن التأليف» ، أى العون لمن ليست له قدرة على استيعاب المؤلفات الضخمة ، ونلخص في القسم الأخير منه المعلومات الجراحية التي كانت سائدة في عصره ، واهتم المؤلف بالآراء الخاصة بكى الجروح ، وتفتيت «الحصوة» في داخل المثانة ، وأهمية التشريح والفحص الدقيق . وكان هذا الجزء ، ونشر في اللاتينية باسم الجراحة ، في البندقية عام ١٤٩٧ ، وفي بل عام ١٥٤١ ، وفي اكسفورد عام ١٧٧٨ ، أهم وأذيع كتاب في تاريخ الطب كله ، وارتفع به الزهراوى في أعين الناس إلى طبقة أبقراط وجالينوس . وهو أول مؤلف جعل الجراحة علماً قائماً بذاته ، مستقلاً عن الطب ، وأقامها على أساس من العلم بالتشريح ، وتضمن رسوماً للآلات الجراحية التي كان يستعملها العرب ، أوثقواها عن غيرهم .

* * *

في هذا الجومن الحضارة المصنوعة : والثقافة المزدهرة ، ولد ابن حزم ونشأ ، وتفاعل معها ، غلاماً يافعاً ، وصبيّاً دارساً ، وشاباً قلقاً ، ورجلاً يعمل بكل ما أتيح له لكى يوقف انحمار الخلافة وتلاشيها !

شاهد عصر

لا أحد يختار اللحظة التي يولد فيها ! :

وقدر لابن حزم أن يجيء إلى الحياة في أشد لحظات الأندلس إقساوة ومأساة وحسماً . شهد شمس الخلافة تنحدر نحو المغرب ، وقاوم ما استطاع لكي يبقى عليها ، وراها تتناثر مزعا ، وتقوم على أنقاضها دويلات صغيرة ، يحكمها أمراء صغار ، سوف يدخلون التاريخ تحت اسم : « ملوك الطوائف » . وعاصر فوضى هؤلاء الملوك وصغارهم ، ورأى دولهم تنتحرف في بطن ، وتسرع نحو الهاوية في بلاد . وعبثا نجد جوابا للسؤال يتردد في الخاطر أحيانا : ماذا لو عاش ابن حزم في غير هذه الأعوام ، لوجاء قبلها بقرن ، أو تأخر به القدوم بعدها بزمان ؟ . المؤكد أن حياته وسط هذه الأحداث شاهدا ، ومشاركته فيها مؤثرا ، جعلت منه قمة الفكر الإنساني في مطلع القرن الحادي عشر ، في الشرق والغرب ، في العالمين الإسلامي والمسيحي على السواء . كان سياسياً ورجل دولة ، شاعراً وكاتباً ومؤرخاً ، مفكراً وفيلسوفاً ، وفقهياً جدلاً لدد الحصومة ، عنيف الحوار .

ولن أمضى مع حياة ابن حزم تفصيلاً ، لقد درستها في عمق ورزانة وتأن المستشرق الإسباني ، العالم الفيلسوف ميغيل أسين بلاثيوس ، في كتابه : « ابن حزم القرطبي » ، وقد أنهيت نقله إلى العربية ، وسأدفع به إلى المطبعة قريباً ، وفيه الغناء ، كل الغناء ، لمن يطلب المزيد . وسأكتفي هنا بالملامح البارزة ، التي تعيننا على فهم إبداعه ومحتوى وإشارات « طوق الحمامة » ، وكان مقدرا لهذا الكتاب أن يكون مقدمة له :

● أسرة من المولدين :

ينحدر ابن حزم من أصول ليست واضحة تماماً ، وأشدها احتمالاً ،

وهو أمر غير مؤكد : أنه ينتسب في أسرة من المولدين ، أى أنه ينحدر أصلاً من الأجناس التى وجدها المسلمون لحظة الفتح . ولا يمكن الجزم بأصول هذه الأسرة ، هل هى لانيبية أوقوطية ، أو من بقية الأجناس التى مرت يشبه الجزيرة واستقرت فيها من الأفارقة والفينيقيين والسلتين . ولا يمكن الجزم كذلك بالديانة التى كان عليها أسلافه ، أهى الكاثوليكية أم ديانات أخرى ، أم الوثنية ، وكان لها عباد فى القرى النائية لحظة الفتح الإسلامى . وخارج عن العلمية - طبعاً - أن يقال : إنه كان إسبانيا ، بالمعنى العلمى أو القومى للمصطلح فى عصرنا الحديث ، فالقومية الإسبانية لا يمكن أن نذهب بها ، فى أشد الاحتمالات ، إلى أبعد من آخريات القرن الثالث عشر .

وليس للأسرة تاريخ عريق فى الإسلام ، فلم تكن مع السابقين إليه لحظة الفتح ، أو ماتلاها من أعوام . كانت كملايين آخرين ، من صغار الفلاحين فى القرى النائية ، تضى حياتها هينة متشائية ، بلا آلام ولا أحلام ولا أمجاد . تعيش من الزراعة ، على أرض لها ، فى ضيعة صغيرة ، كانت تسمى على أيام ابن حزم منت لشم Mont lisam ، وأخذت فى الإسبانية المعاصرة صورة متيخر Montijar ، أو بلدون الرء الأخيرة ، فى مقاطعة ولبة Huelva ، جنوب غربى الأندلس .

ولم تكن الحياة فى هذه المنطقة سهلة ولا ميسرة ، ولا تزال حتى يومنا ، محدودة الموارد فى الزراعة ، قليلة الصناعة ، لا يكاد إنتاجها من الحبوب يكفى فلاحها ، على حين تزداد العاصمة قرطبة ثراء وتقدماً ، وتصبح الحياة فيها أمينة ، تستوى عامة الناس وبسطائهم ، وتداعب آمال كل طامح ، وبخاصة أحلام أسرة ترغب ، وتعمل جاهدة ، فى تحسين واقعها الاقتصادى ، فترك سعيد ، جد ابن حزم صاحبنا ، ولبة حيث يقيم ، وجاء إلى العاصمة . ولأنك تلك معلومات وافية عن حياة سعيد فى قرطبة ، والغلب الذى وصلنا منها غامض ومتناقض ، ولدينا أخبار وفيرة عن ابنه أحمد ، والد أبى محمد هلى موضع درسنا .

كان أحمد ، فيما يبدو ، فطناً ودوداً ، مثقفاً أدبياً ، مستقيماً عاقلاً ،
مقتصداً وماهرآ في شئون المال ، بارعاً في مواجهة المواقف السياسية المتناقضة ،
ذا طموح يفظ ، قادرآ على كبح جماحه عند الضرورة ، مسالماً دائماً ، ومسلياً
بكل هذه الصفات بدأ يشق طريقه ليكون له في مناصب الدولة نصيب .
وفي هذا الوقت كانت منتديات قرطبة تنهاس حديث نجم بمضى صعدا بلا
توقف ، فتي من أبناء الأقاليم يدعى المنصور بن أبي عامر . كان مثل سعيد
ابن حزم ريفياً ، هبط قرطبة ذات يوم ، ضائعاً مغموراً يبحث عن المجد ،
ويؤمل أن يلقاه في عاصمة الغرب الإسلامي . ولكنه على العكس من سعيد ،
ينتمي في أسرة عربية عريقة ، ولو أن معلوماتنا أيضاً عن أيامه الأولى
قليلة وغامضة .

ولم يكن المنصور فرداً في طموحه وصعوده ، كثيرون كانوا يرقبونه ،
وعلى نية أن يتبعوه ، وقد بدأ دم جديد يتدفق في شرايين الدولة ، فأتى على
الأسوار العالية ، التي أقامها أبناء البيوتات العريقة ، وكانت المناصب الكبرى
وقفاً عليهم ، سنة جارية ، وتقليداً محترماً . وهكذا وجد أحمد طريقه
إلى مناصب الدولة ، ربما لأنه كان مولى لبني أمية ، وهذه تحسب له ،
وأكدأ لأنه أشاع الثقة فيمن حوله ، بقدرته وحنكته ، ومع البداية
واصل سيره قدماً ، ونجehl خطواته الأولى ، ولابد أنه كان ذا دهاء سياسي
رفيع ، لبطال وفيأ هشام المؤيد الخليفة ، وموضع ثقته ورعايته ، دون أن
يثير في أعماق المنصور ، وكان الحاكم الفعلي أو في طريقه ليصبح كذلك ،
روح الشك والخوف ، بل حاول المنصور أن يربحه ، وأن يضمه
إلى جماعته .

وقد ترك أحمد منزله ، لأول مرة ، في بلاط مغيث ، في الخانب
للغربي من قرطبة ، إلى « منية المغيرة » في الجانب الشرقي من المدينة ، مكان
قريب من الزاهرة ، المدينة التي بناها المنصور لتكون مقرأ لحكمه ، وعظمت
فيه ثقة المنصور ، فجعل منه وزيره ، يقول ابن الأبار في كتابه « إعتاب

الكتاب » ، نقلا عن ابن حبان : إن المنصور « استوزره قبل سائر أصحابه ، في سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة (= ٩٩١ م) في خلافة هشام المؤيد بالأندلس واستخلفه أوقات مغيبة على المملكة ، وصير في يده خاتمه » .

تلك هي الأميرة التي ولد بينها ابن حزم ، أسرة ثرية من طبقة الخاصة الوليدة ، طبقة كبار الموظفين ، تعيش فيترف ورفاهية ، وفي مستوى حياة أعلى طبقات المجتمع القرطبي ، ويضغظ عليها في طيات النفس أمران غير ظاهرين : تواضع الأصل ، ولا إسلامية السلف ، وكان عليها أن تتحرر منه ، وأن تتغلب عليه ، وفي أشجار النسب متسع ، وهو طريق سلكه قبلهم ، ومن بعد ، آخرون كثيرون . والأمر الثاني : الولاء الموزع بين هشام المؤيد ولي نعمته ، والمنصور راعيه .

• طفولة بين الخريم :

ولد أبو محمد ، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم ، في قرطبة ، صبيحة الأربعاء آخر يوم من رمضان عام ٣٨٤ هـ = ٧ من نوفمبر ٩٩٤ م . وطبقاً لما يرويه ابن حزم نفسه ، في مواضع مختلفة من كتابه « طوق الحمامة » ، صريحاً أحياناً ، وموارباً أحياناً أخرى ، نعرف أنه أمضى طفولة رخيصة وضعيفة وكسولة ، طفولة ابن وزير ، يشب في أبناء القصر ، وتحت رعاية الخدم ، وبين مناغاة النساء ، من القيان والجواري والإماء ، على أيديهن نشأ ، ومعهن تربى ؛ ولم يعرف غيرهن من الرجال حتى حل الشباب ، وكن حاضناته وأستاذاته ، علمته القرآن ، ورويته الشعر ، ودربه في الخط ، ومنهن تعلم أشياء أخرى ليست أقل نفعا ، ولكنها مؤذية في سن الطفولة . لقد أظهرنه في سن مبكرة على أسرار الحياة الجنسية ، ومناورات النصور ، وحيل النساء . فنشأ صبيا سريع التأثير ، كثير المرض ، ملحوظ العصية ، متوقد الذكاء ، مطبوعاً على الغيرة ، سيئ الظن بالمرأة وقد خبرها عن قرب ، وأشرف من أسبابها على غير قليل .

أقصى ما عرف من العالم في صباه شوارع « منية المغيرة » ، حتى كبار موظفى البلاط ، الملاصق لقصر الزاهرة ، فى نزعات أغلب الظن أنها لم تكن طويلة ، ولم يكن فيها وحيدا ، وربما قادتة قدماه إلى قصر المنصور نفسه ، وكان ابن أبى عامر ودوداً جدامع الأطفال ، بهش لرويتهم ويسعد بمحضهم . ولم يشر ابن حزم إلى شئ من هذا فى مؤلفاته ، ولكن صديقه وتوأم روحه ، أبو عامر بن شهيد ، قص علينا بعض ما حدث له ، فى رسالة جميلة ، كتبها فيما بعد رجلا ، إلى المؤتمن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبى عامر ، وقد أصبح أمير بلنسية ، وأورد لنا ابن بسام فقرات طوالا منها فى كتابه « الذخيرة » . يتحدث ابن شهيد عن صلته بالمنصور طفلا فيقول : « لى نشأت فى حجره ، وربيت فى قصره ، وارتضعت ثدى كرائمه ، واعتجرت رداء مكارمه ، واغتذيت من فيه ، أكلأ زقنيه ، وماء عليه ، فصرت أفراخ نعمائه الحمر الحواصل ، ولحقت بأخوة أبنائه الغر العباهل .

وكان ابن شهيد ندا لابن حزم ، ويكبره بعامين فحسب ، وينتمى فى أسرة عربية عريقة ، وكان أبواهما موظفين كبيرين ، وزيرين فى قصر الحجابة ، وعلى نفس المسافة من المنصور ، فليس مجازفة إذ أن نتصور أن ابن حزم ، كابن شهيد ، كان يتردد على قصر الحجابة ، ويحظى بحنان المنصور ، والطريق إليه أبسر من الوصول إلى الخليفة للوقور المحتضر ، وقد دفنه المنصور حيا .

• ثوار وعباد جمال :

فى عام ٣٩٢ هـ = ١٠٠٢ م ، تحققت رغبة المنصور العظيم ، أن يموت فى ساحة الوغى ، وأن يلتقى الله مجاهدا ، أثناء عودته من حملة قام بها على قشتالة ، وهى الحملة الخمسون من حملاته العسكرية ، وطبقاً لوصيته دفن حيث لفظ نفسه الأخير ، فى مدينة سالم ، ومعة الغبار الذى تجمع على درعه أثناء حملاته المتعددة ، وكان يحتفظ به لهذا الغرض ، وعلى قبره هذا الشاهد :

آثاره تنبيك عن أخباره حتى كأنك بالعيان تراه
قا الله لا يأتى الزمان أبداً ولا يحصى الثغور سواء

وتولى الحجابة بعده ابنه عبد الملك المظفر ، ومعه أملت الأندلس خيراً كثيراً ، وبخاصة في أيامه الأولى ، وكان ابن حزم في الثامنة من عمره ، يطل على العالم قلقلًا ، ويشق طريقه إلى الحياة في خطى محسوبة ، وتعكس مواقفه نضجاً مبكراً . في بينهم بدأ غرامياته الأولى مع جواربهم ، وقرأ أوليات المعارف من فقه ولغة وأدب ، ولقى كبار الأساتذة في قرطبة ، يجيئون إليه أويذهب إليهم ، أساتذة يمثلون كل الأفكار . من أشد الناس ورعاً وتصوفاً وزهداً ، إلى أكثرهم جرأة وتحرراً وتمرداً . وخلال ذلك بدأ ينمي صداقاته ، مع صبيان وفتيان من سنه ، صداقات عمرت طويلاً ، وأخذ بعضها شكلاً حميماً .

وفي الثانية عشرة من عمره ، في عيد النضر لعام ٣٩٦ هـ ، نامتقى به في مجلس الحاجب المظفر ، يشارك في سماع المهنيين من الشعراء بالعيد ، ولا يقف به الأمر عند هذه المجالس الرسمية ، وإنما يتجاوزها إلى الحرم نفسه ، فهو يحدثنا في « الطوق » أن ضنا العامرية ، كريمة المظفر ، اقترحت عليه أن يصنع لها أبياتاً من الشعر ، اقترحت عليه أفكارها ، لتصنع لها لحناً ، وتجعل منها صوتاً يغنى .

ولم يتجه ابن حزم إلى دراسة الفقه جاداً ومتمكناً إلا شاباً مكتملاً ، في السادسة والعشرين من عمره ، على ما يقول هو ، حين أخطأ في صلاة الجنائزة على شخصية هامة ؛ فكان موضع سخرية الحاضرين . وقد شك غرسة غومث في الخبر ، وراه لونا من المداعبة ، لأن ابن حزم يجب أن يكون قد درس الفقه وعلم الكلام مبكراً ، ولا أرى تناقضاً بين الأمرين ، لأن الدراسة النظرية لا تعني عدم الخطأ ، لأن العبادات العمالية — وصلاة الجنائزة ليست مما يصلى كل يوم أو حتى كل شهر — تلعب فيها الممارسة دوراً أكبر من القراءة والدرس ، وإشارة ابن حزم إلى أنه بدأ دراسة الفقه لا تعني أكثر من أنه راجع ما قرأ ، وتعمق فيما درس ، واستحضر ما كان غائباً من تفصيلات .

وأباً ما كان الأمر ، فقد اختار ابن حزم في هذه الفترة المبكرة من شبابه ، أن يكون واحداً في رفقة من الأصفياء ، ربطت بينهم صداقة وطيدة ، أقلية من العشاق المصقولين ، تنتمي إلى أعلى طبقة في المجتمع القرطبي ، عرض ابن حزم لبعضهم في « طوق الحمامة » ، وأثنى عليهم كثيراً ، يتميزون بالأناقة ، ويرتدون أفخم الثياب ، في أحدث الأنماط ، يفتنهم الجمال ، وتسويهم الطبيعة ، تطربهم الموسيقى ، ويفضلون الأدب ، ويتبعون فيه منهجاً ثورياً . كان هؤلاء الفتية ، كما تخيلهم غرسية غوث ، يرتدون ملابس بيضاء ، ويحاورون بين أروقة بيضاء ، يغرمون بالأوز ، ويعشقون النساء الشقراوات .

كان هؤلاء الفتية من الخاصة في قرطبة يقفون عند نماذج الأدب المشرق ، يعرفونها ، ثم يطرحونها ، ويحاولون أن يرتفعوا إلى مستواها . كانوا باختصار يقرأون كثيراً ، ويمثلون ما يقرأون ، ويرجلون عبر العالم واقعاً أو قراءة ، ثم يبدعون أخيراً . لقد التزموا منهجاً وسطاً ، ينأى عن التحلل الهابط ، ويتجاوز التقليد المحيى ، ويزاوج بين حداثة الفكرة ، ودقة الصياغة ، وحرية الاختيار ، وهى القواعد التى جعلت منها الخلافة طابع المجتمع في قرطبة . وكان الأدب الجديد يطمح أن يكون في مستوى الحياة ، ومواثماً للتطور السياسى حوله ، وكما يحدث عادة ، جاء ذلك متأخراً . وحين تهاوى نظام الخلافة بغتة ، أطبق على هذا الأدب بين خرائبه ، ولما يعطى إلا قليلاً جداً من ثماره ، ثمار مبكرة ، وكثرتها غير ناضجة ، ولكنها شهية من الطراز الأول .

كان أبو عامر بن شهيد رأس هذه الجماعة ، مواضعة وعرفا ، وترك لنا في رسالته « التوايع والزوايع » ، وهى أول رحلة علمانية في التاريخ إلى عالم الآخرة ، ما يمكن أن نعهده دستور الجماعة . لقد صعب الكاتب شيطانه إلى عالم الأرواح ، والتقى هناك بشياطين كبار الشعراء ، جاهليين وإسلاميين وعباسيين ، وبعض الكتاب ، فأشادوه أشعاراً لأصحابهم ،

وأسمعهم شيئاً من شعره . وعرض على توابع الكتاب بعضاً من رسائله .
وخلال الراحة ينقد مجتمعه . وما يفتقده فيه . ويعرض آماله . وما يطمح
أن يكون عليه .

فهو يأبى لقرطبة تتحدث لكنة أعجمية . تؤدي بها المعاني تأدية المحروس
والنبت . ليس لسيبويه في كلامها عمل ولا للخليل إليه طريق . ولا للبيان
عليه سمة . ويشكرو قوماً من المعلمين في العاصمة : « ومن أتى على أجزاء
من النحو . وحفظ كلمات من اللغة . يحنون على أكباد غلاظ » ، وقلوب
كقلوب البهران . ويرجعون إلى فطن حمة . وأذهان صندقة ، لا منفذ لها
في شعاع الرقة . ولا مدب لها في أنوار البيان . سقطت إليهم كتب في البديع
والنقد فهموا منها ما يفهمه القرد الناني من الرقص على الإيقاع . والزمرة على
الألحان . فهم يصرفون غرائبها فيما يجري عندهم نصريف من لم يرزق آلة
الفهم . ومن لم تكن له آلة الصناعة » . ويكتب أحياناً ينافس بها الشعراء
المشاركة ؛ ويؤكد أن الأدب الجيد يعتمد على الموهبة . قبل أن يقوم على
سعة الثقافة ، أو مراعاة قواعد النحو . وأن « أول أدوات الكاتب العقل .
ولا يكون الكاتب غير عاقل » . ويعني بالعقل الذكاء في لغتنا المعاصرة .
والأدب هبة من الله . لا يعلمه أستاذ . ولا يلتقط من كتاب . والشاعر
يولد ولا يصنع . وشر الفن ما كان وسطاً . « لا يحسن فيطرب . ولا يسيء
فيلهي » . وهي قاعدة جريئة في الأدب العربي . وليس دونها جرأة في
تلك الأيام ما رآه . من أن « لكل عصر بيان . ولكل دهر كلام . ولكل
طائفة من الأمم نوع من الخطاب . وضرب من البلاغة . لا يوافقها غيره ،
ولا تهش لسواه » .

وتوفي ابن شهيد . عام ٤٢٦ هـ = ١٠٣٥ م . إثر داء عضال ، عانى
مرارته زمناً . وتحمل عناءه صابراً . وخلفه ابن حزم في رئاستها ، وكان له
دائماً صديقاً وفياً ومخلصاً ، فسار على النهج نفسه . واحترم تقاليد الجماعة
وأسلوبها .

• أزمة الخلافة :

قبل أن تعطى هذه المدرسة الأدبية ثمارها ، أو إذا شئنا الدقة قبل أن يخطط ابن حزم أى كتاب مهم له ، إذا استثنينا المقطعات الشعرية وبعض الرسائل الأدبية ، وقبل أن يتولى أية وظيفة سياسية فى مستوى تكوينه وطبقته الاجتماعية ، تفجرت الحرب الأهلية فى قرطبة ، وعكرت بعنف صفو الحياة المصقولة ، والهادئة ، لهؤلاء الشباب القرطبيين من عشاق الفن والجمال ، وسوف أدرس هذه « الفتنة » وما كان لها من نتائج بالغة السوء فى فصل خاص ، ويكفى أن أشير هنا لما ، وفى إنجاز شديد إلى ما أحدثته فى أسرة ابن حزم . وفى حياته نفسه ، ليبقى خيط الأحداث متصلاً .

لقد توفى العامرى الثانى ، الحاجب عبد الملك المظفر ، فى ١٦ من صفر ٣٩٩ هـ = ٢٠ من أكتوبر ١٠٠٨ م ، فولى الحجابة بعده أخوه عبد الرحمن الملقب بشنجول ، وكان مجرداً من المواهب ، فاغتيل فى قرطبة بعد شهور من توليه الحجابة ، فى ٣ من رجب ٣٩٩ هـ = ٣ من مارس ١٠٠٩ م ، وعزل هشام الثانى عن الخلافة ، وبويع بها محمد المهدي ، وأعفى أحمد بن سعيد من مناصبه ، وترك « منية المغيرة » حى كبار موظفى البلاط ، قرب ربض الزاهرة ، وقد أتى عليه الثائرون هدماً وتخريباً ، وعاد إلى سكنهم القديم فى بلاط مغيث ، ليواصل الحياة هادئاً ، وبعيداً عن صخب السياسة ، واستطاع أن يحتفظ ببعض ماله من هبة ، وسئلتنى به فى العام نفسه ، فى ٢٧ من شعبان ٣٩٩ هـ = ٢٦ من أبريل ١٠٠٩ م . يشهد المسرحية الرائعة المحزنة ، لدفن هشام الثانى ، المزيف طبعاً ! وكان معه ابنه على صاحبنا ، وترك لنا وصفاً صادقا وموثراً لما حدث ، يقول فى سياق كلام له عن صلب المسيح وقتله : « وقد شاهدنا نحن مثل ذلك ، وذلك أننا ندرأنا للجيل ، لحضور دفن المؤيد هشام بن الحكم المستنصر ، فرأيت أنا وغيرى نعشاً فيه شخص مكفن ، وقد شاهد غسله شيخان جليلان حكمان من حكام المسلمين ، ومن عدول القضاة ، فى بيت ، وخارج البيت أبى

رحمه الله، وجماعة عظماء البلاد، ثم صلبينا في ألوف من الناس عليه ، ثم لم يلبث إلا شهوراً نحو السبعة حتى ظهر حيا ، وبويع بعد ذلك بالخلافة ، ودخلت عليه أنا وغيرى ، وجلست بين يديه ، ورأيت ، وبقي ثلاثة أعوام غير شهرين وأيام .

وفى ١٠ من ذى الحجة ٤٠٠ هـ = ٢٣ من يولية ١٠١٠ م ، اغتيل المهدي بعد خلافته الثانية ، وبويع ثانية هشام الثانى ، بعد أن قيل للناس أنه مات ودفن ، وبعد أن شهدوا جنازته وصلوا عليه ! . وكان الظن أن يعود بنو حزم إلى سابق عهدهم ، ومكانتهم القديمة ، غير أن الأمور سارت على النقيض . لأن لعبة السياسة المعقدة . والموقف الحذر الذى سار عليه أحمد بن سعيد . حتى ذلك الحين ، جعله يصطدم مع القائد الصقلبي واضح : محسوب الخليفة ، فلاحقه وسجنه وصادر أمواله . وحيثئذ رأت الأسرة ، وقد تمزقت بقايا العامرين . أن لها الحق ، مع غيرها ، فى أن تغضب وأن تقاوم ، فاشتركت فى عمل المناهضة الصقلبية ، ولكن المؤامرة فشلت ، وجلبت على أحمد بن سعيد مصائب كبيرة .

ومع هذه الفن اجتاحت الطاعون قرطبة ، وعاث فيها ، وفقد أحمد ابنه أبا بكر ضحية له ، فى شهر ذى القعدة عام ٤٠١ هـ = يونية ١٠١١ م . وبعد عام كامل توفى أحمد نفسه صريع هذه الأحداث ، فى ٢٨ من ذى القعدة ٤٠٢ هـ = ٢٣ من يونية ١٠١٢ م . وعلى صاحبنا ١٨ عاما لما تكمل ، وكان عليه وهوى هذه السن الضرية ، وفى عنفوان تعاسة أسرته ، أن يواجه الموقف . وأن يدير دفة الأحداث .

وبقيت كوارث أخرى أشد هولا : ففى نهاية شهر شوال ٤٠٣ هـ = مايو ١٠١٣ م ، استسلمت عاصمة الخلافة لبربر ، ودخلها سليمان المستعين خليفة للحرة الثانية . وأبقى شهرين فحسب : ومعه نهبت قرطبة فى قسوة ، وانتهكت الحرم ، وعمت الاغتياالات والمذابح : واجتاح الدير ، بلا حساب ، كل الأحياء . وأتى البربر على بيت ابن حزم فى بلاط مغيب كاملا . على نحو (م - ٦ - ابن حزم)

ما قص علينا في صفحة من النثر الجميل ، في كتابه « طوق الحمامة » ، وكان على ابن حزم أن يهاجر إلى المرية في ١ من محرم سنة ٤٠٤ هـ = ١٣ من يولية سنة ١٠١٣ م .

• منفى ومتأمر :

في وسط هذه الدوامه من الفوضى والتمزق ، كان يحكم المرية خيران ، صقلبي من فتيان العامرين . ووه لها ابن حزم رفقة صديقه أبي بكر محمد ابن إسحاق ، وأمضيا في البدء أياماً هادئة ، بعيدين عن القلاقل ، فالمدينة أموية الولاء ، لما نزل - اسماً - تحت سيادة الخليفة ، وأصبحت قبة العامرين والأمويين الفارين من قرطبة . وأمضى فيها ابن حزم أعواماً ثلاثة لم يتوقف عن تحصيل المعرفة ، وعن تكوين صداقات جديدة ، ففيها كما يحدثنا في « الطوق » اتصل بطبيب يهودي ، يدعى اسماعيل بن يونس ، يتردد على دكانه ، ويجلس إليه في لمة من الأصحاب ، ولسوء الحظ فلان معلوماتنا عن هذا الطبيب معدومة ، لا نعرف عنه شيئاً إلا إشارة ابن حزم هذه .

ولكن خيران ما لبث أن رأى مستقبله السياسي في أن يتخلى عن الولاء لبني أمية ، وأن يوازر على بن حمود الإدريسي في الاستيلاء على قرطبة ، فدخلها في زفة في ٢٢ من محرم ٤٠٧ هـ = ١ من يولية ١٠١٦ م . وأصبحت المرية مدينة عاوية لا أموية ، وبربرية لا صقلبية ، ولم يعد خيران ينظر بعين الرضا إلى هذين الشابين الرفيقين المثقفين ، يؤمنان بحق بني أمية في الخلافة ، حفاظاً على الشرعية ، وتمكيناً لهيبة الدولة ، ولا يقبلان هذا مساومة ، فاعتقلهما بتهمة التأمر ، وهي تهمة ربما كانت محتملة ، ولو أن ابن حزم أنكرها على أية حال ، وما لبث أن نفاهما .

ومنفيان في حصن القصر Aznalcazar ، قرية توجد في مقاطعة مالقة ، أو مرسية ، غير التي تحمل الاسم نفسه الآن قرباً من سان لوكر San Lucar سمعا من يتحدث عن ثورة قام بها أموى يطالب بالخلافة ، في أرض بلنسية

شرق الأندلس ، وأنه أعد جيشاً سوف يزحف به على قرطبة لملاقاة بني حمود ،
ليجمع الشمال ، ويعيد الخلافة ، ويرحط الدولة ، فلم يتردد لحظة ، ابن
حزم وصاحبه أبو إسحاق ، وكانا في ديمة الشباب . من التوجه شرقاً إلى
لمنسية في أول سفينة يجدان بها مكاناً

كان المطالب بالخلافة في هذه المرة شاباً من أحماد عبدالرحمن الناصر ،
يدعى عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك ، اكتشفه وجره على الثورة
خيران الصقلبي صاحب المرية ، بعد أن نسي اسمه وغير جلده ، وأصبح
رسوله إلى منظر التجبي صاحب سر تسمية ، والذي وقف إلى جانبه ،
وزاد فطلب له العون من حليفة كونت برشلونة . وفي ١٠ من ذي الحجة
٤٠٨ هـ = ٢٩ من أبريل ١٠١٨ تجمع الجيش والأعوان في شاطبة ، وبويع
عبد الرحمن بالخلافة ، وتلقب بالمرتضى . ولم تستطع قرطبة وقد طاله بها
الشوق إلى أمجاد الأسس الزاهر ، ونفذ صبرها في انتظار من يطالب
بالخلافة ، أن تتحمل المزيد من المعاناة والألم ، فاغتالت على بن حمود في
١ من ذي القعدة ٤٠٨ هـ = ٢٢ من مارس ١٠١٨ م ، فجثم على صدرها
أخوه القاسم .

وبنما قرطبة تطوى الضلوع على ثورة صماء ، وكراهية غير مكتومة لبني
حمود تحرك المرتضى نحوها على رأس جيشه . عن طريق جيان ، وكان ابن
حزم ، فيما يرحح ، ضمن هذا الجيش ، وكانت عاصمة الخلافة مهياة
لاستقبال الخليفة . وكل الظروف تجعل من النصر أملاً يمكن التحقيق ،
لولا حيانة خيران ومنذر في اللحظة الحاسمة . لقد ظن كلاهما ، في البدء ،
أن المرتضى سوف يكون مجرد لعبة في أيديهما . ظلال كمان من ورائه ،
فلما وجداه ذا شخصية قوية . تدرت على اتخاذ القرار المناسب في اللحظة
المناسبة أضمرأله الغمدر ، ومن موقعهما مستشاران وحليفتان قدما
له نصيحة قاتلة : من الأفضل له ، قبل أن يتقدم إلى العاصمة ،
أن يتنصّب على بني زيري ، من بربر صنهاجة ، وقد استقروا في كورة

للبرية ، واتخذوا من غرناطة عاصمة لهم ، وكان على رأسهم حينئذ الأفريقي العجوز الداهية ، زاوى بن زيرى ، الذى لم يهزم أبداً ، والذى اضطر بعد قليل ، وفى قمة مجده ، أن يتنازل عن رياسته ، وأن يعود إلى إفريقية ليموت هناك مسموماً . وقد التقى الجيشان . وتحدثنا مصادر كثيرة عن نتيجة المعركة ، دون أن يقدم لنا أى منها تاريخاً لها ، محدداً ودقيقاً .

لقد هجم البربر بشراسة على جيش المرتضى ، وفى اللحظة الحاسمة تخلى عنه خيران ومنذر ، فتمزق جيشه شر ممزق ، وهرب المرتضى نفسه إلى وادى آش ، وفيها اغتالته عصابة مأجورة من المرية ، على حين توزع القتل والهرب والأسر جيشه ، وكان ابن حزم من بين الأسرى ، وطبقاً لما يذكره فى كتابه « الطوق » ، كان أثناء الأحداث قد تسلل إلى قرطبة سرا ، فى شوال من عام ٤٠٩ هـ = فبراير من عام ١٠١٩ م . للقيام باستطلاع الموقف السياسى ، وجس نبض المدينة على التأكيد .

وبعد أن أفلت ابن حزم من الأسر البربرى انسحب إلى شاطبة ، نفس المكان الذى تحرك منه جيش المرتضى التميمى فى ساعة نحس ، وفى شاطبة ، بين عامى ٤١٢ و ٤١٣ = ١٠٢٢ م ، فيما يحتمل ، حرر كتابه « طوق الحمامة » ، وله من العمر ٢٨ سنة ، استجابة لرغبة صديق له من المرية ، كتب إليه يقترح عليه أن يصنف له رسالة فى الحب ، ثم جاءه فيما بعد شخصاً إلى شاطبة ليراه ، ونزل معه فى داره مدة إقامته بها .

• بريق انتصار :

لم تطل فترة خلافة بنى حمود فى قرطبة ، وكانت أشبه بحملة بين قوسين فى تاريخ الخلافة الطويل ، على حد تعبير غرسية غومث ، فقد ضعف أمر القاسم بن حمود ، واضطرب الحبل فى يده ، وتسلط عليه البرابرة حتى احتفروه ، وأراد هو أن يخلص من سلاطنتهم فأحل السوداف مكانهم ، واتخذ منهم جنده ، وأخذ يضرب أولئك بهؤلاء ،

فتأمر البربر عليه ، بمعارضة يحيى وإدريس ابن أخيه ، فترك قرطبة ،
وهرب إلى إشبيلية عام ٤١٢ هـ = ١٠٢٢ م . وتولى الخلافة مكانه يحيى
الذى انصرف عنه السودان والبربر جميعاً ، فأثر السلامة ، وترك قرطبة
كما تركها عمه من قبل ، في ٢١ من جمادى الآخرة سنة ٤١٣ هـ = ٩
من سبتمبر عام ١٠٢٣ م . وبينما نحن تطوق قرطبة من كل جانب ،
بدأت تحاول شيئاً بناء إلى أقصى حد ، وجديداً لم تألفه العاصمة من قبل ،
إذا لم نقل ثورياً في عالم السياسة المضطرب : أن ينتخب الشعب الخليفة في
المسجد الجامع . طبقاً لأسمى قواعد الشريعة الإسلامية وأدقها ، أن
يحيى الخليفة مختاراً لا وارثاً ، ولا معيناً من سابقه ، ولا مفروضاً بقوة
السلاح . وهو تقليد يحدث للمرة الأولى منذ قيام دولة بني أمية في الأندلس .

لم تكن ساطة الخلافة الفعلية في هذه اللحظة تتجاوز أحواز المدينة ،
وماذا يهم ؟ ... ألم يحدث شيء يشبه بهذا ، حين انحصر سلطان العاصمة
في عصر الأمير عبد الله ، وتحمل القرطبيون المهانة ، في انتظار أيام مجيدة ،
جعلت من قرطبة مصدر القوة والجلال والثقافة ، على أيام عبد الرحمن
الناصر ، والحكم الثاني ، والمنصور بن أبي عامر ؟ . إن الأمل آخر شيء
يمكن أن يفقده الإنسان العظيم .

وفي ١٦ من رمضان سنة ٤١٤ هـ = ٢ من ديسمبر عام ١٠٢٣ م ،
وقع الاختيار على واحد من بين الأمراء الأمويين الثلاثة : سليمان بن المرتضى
وعبد الرحمن بن هشام ، وعلى بن محمد العراقي ، ولم يكن أحد بدءاً
يفكر فيه على الإطلاق . اختاروا عبد الرحمن بن هشام ، خامس الخلفاء
الذين حاولوا هذا الامم ؛ وتلقب بالمستظهر . وكان الخليفة الجديد على حمالة
سنه ؛ كما يصفه ابن حبان : « لبقاً ذكياً ؛ يقطر لوزعياً ؛ لبيل أدبياً ؛ حسن
السلام ؛ جيد القريحة ؛ مليح العبارة ؛ يتصرف فيما شاءه من الخطابة ؛
بأدب وروية ؛ ويصوغ قطعاً من الشعر مستجادة ، لم يكن في بيته يومئذ

أبرع منه منزلة ، وكان قد نقاته المخاوف ، وتفاذت به الأسفار ، فتحنك وتخرج وتمرن فيها .

كان المستظهر يطمح أن يعيد إلى الخلافة بهاءها ، وإلى قرطبة أمجادها ، فأحاط نفسه بخيرة الأدباء على أيامه ، وجلهم ينتمون إلى جماعة المثقفين الذين أشرنا إليهم من قبل . فكان بينهم ابن حزم ، وابن عمه أبو المغيرة عبد الوهاب ، وأبو عامر بن شهيد ، والشاعر البارع حسان بن مالك ، والكاتب الرائع ابن برد . ولكن هذا الاتجاه أحقد عليه الشيوخ ، ومحترفي السياسة ، والمنتفعين بالمصائب ، فضووا يألون عليه العامة ، ويشيرون الفتن والدسائس بين الخاصة ، ويبيعون الأحلام للطامعين ، فلم يستطع أن يبقى في الحكم أكثر من شهر ونصف ، فقد أعدم في ٣ من ذي القعدة سنة ٤١٤ هـ = ١٧ من يناير عام ١٠٢٤ م ، وبذهاب الخليفة استقر ابن حزم في السجن من جديد .

● خيبة أمل ، وتغيير الطريق :

في هذه اللحظة أشرق ذكاء ابن حزم وضيئا ، ليقنعه بأن العالم السياسي الذي ينتمي إليه ، وناضل من أجله ، انتهى تماماً ، مات ولا سبيل إلى بعثه ، وقد احتاجت قرطبة إلى سبعة أعوام كاملة بعده لتقتنع بالنتيجة نفسها . وعنده أخرج من السجن ، والإحساس بالحيرة عملاً داخله ، قرر أن يتخلى بطريقة نهائية وحاسمة عن ممارسة السياسة ، فنبذ الوزارة واطرحها اختياراً ، وأقبل على قراءة العلوم ، وتقييم الآثار ، من شريعة وفلسفة وتوحيد وتاريخ ، وظل موصول السبب بها حتى في أحلك لحظات حياته ، رجل دولة أو مغامراً أو لاجئاً ، « ونال من ذلك ما لم ينل أحد قبله بالأندلس » ، والشئ الوحيد الذي لم يتخلى عنه ، وما كان بوسعه أن يفعل لأنه يحمله في دمه ، هو روح المخالفة والأصالة والجرأة ، ورافقت حياته دائماً . لم يستطع أن يكون تقليدياً مالكي المذهب ، ورأى كبار علمائه مرات كثيرة ، كما هو شأن كبار الفقهاء ورجال الدين عادة ، وفي كل مكان إلا ما ندر ، يتحالفون مع السلطان ، وياتقون مع كبار

الموظفين ، ويغيرون مواقفهم على النحو الذى يرضى الحكام ، فأصبح المذهب المالكي بفضلهم هو السائد فى قرطبة ، تعلما وشعائرا وفتوى . وحوم حول المذهب الشافعى قليلا ، وأقام عليه زمنا ، وراه أكثر توفيقاً وتعددا ، رغم قلة أتباعه ، ومناهضة الدولة لأوليائه ، ثم انصرف عنه ، فقد وجدته يلفظ أنفاسه ، وانتهى به المطاف فقيهاً ظاهرياً : قبل عام ٤١٩ هـ = ١٠٢٩ م ، وكانت له من قبل صلوات بالمذهب . ورفقة مع السائرين على دربه ، وصلات أدبية ، على الأقل ، مع علمائه .

أوفى مسجد قرطبة الجامع ، إلى جوار أستاذه الظاهرى ، أبى الخيار مسعود بن سليمان بن مفلح الشنترينى . أخذنا يدرسان أصول المذهب الظاهرى ، مع آخر أيام الخلافة ، وقد أصبحت هذه شكلا مهلهلا ، حوالى أعوام ٤١٨ - ٤٢٠ هـ = ١٠٢٧ - ١٠٢٩ م . وقد آثم علماء المالكية ، والجمهور من ورائهم ، الأستاذين الجليلين بأنهما خطر على العقيدة ، ويفسدان تدين الشعب ، فاستشار صاحب المدينة فى أمرهما هشام الثالث ، آخر خليفة أموى ، وربما قبل أن يدخل المدينة ليأمر من سلطانه ، وتقرر منعهما من تدريس المذهب الظاهرى . ومن تلك اللحظة أصبح ابن حزم عالماً ثائراً ، غير مرغوب فيه ، يواجه وحيدا التخلف والتقليد والجمود ، وتزييف نصوص الشريعة لخدمة الأقوياء ، وبدأ يبشر بفكر إسلامى راق ، وفلسفة مستقيمة ، ولم تنفتر حبيته أبدا ، رغم كل المصاعب الجمة التى تعرض لها . ومع هذه المرحلة الجديدة من حياته سوف تقل معلوماتنا عنه كثيرا ، وسوف تصبح كتبنا الوحيدة لكتابة تاريخ حياته فيها .

• جهد ثنائى عملاق :

حتى ولو أخذنا فى الاعتبار أنه عمرنسيبى ، فإن ما قام به فى حقول الدراسات الإسلامية كان فرداً وعملاقاً ومتميزاً ، ويقول عبد الواحد المراكشى ، فى كتابه « المعجب فى أخبار المغرب » ، وألفه فى ظل الموحدين وهم : يناهضون المالكية : فجاءت أخباره بعيدة عن التعصب ، قريبة إلى الواقع ، إن ابن حزم

كان أكثر أهل الإسلام تصنيفاً ، وإنه « صنف في الفقه والحديث والأصول والنحل والمال ، وغير ذلك من التاريخ وكتب الأدب ، والرد على المخالفين له ، نحواً من أربعمائة مجلد ، تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة ، وهذا شيء ما علمناه لأحد من كان في مدة الإسلام قبله ، إلا لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري » ، وبعض هذه المجلدات كما نعرف رسائل صغيرة ، ولو أن ذلك لا يقال من جهد المؤلف ؛ ولا من قيمة الرسالة . ومحال أن نقف في هذه العجالة عند هذه المؤلفات محللين ؛ ونحيل الراغبين في هذا إلى الدراسة القيمة التي قام بها ميغيل أسين بلاثيوس لهذه المؤلفات ؛ في كتابه العظيم عن « ابن حزم القرطبي » ؛ وقد نقلناه إلى اللغة العربية ؛ وسوف يصدر عن قريب . ولقد أرى ؛ ويرى غيري معي ؛ أن الأمر رغم ذلك يحتاج ؛ على المدى البعيد ؛ إلى جهد آخر متأن ؛ في ضوء ما عثر عليه من مخطوطات جديدة ؛ وما نشر له أخيراً من تراث .

يكفي أن نقف هنا عند كتابه « طوق الحمامة » ، وسنعرض له تفصيلاً فيما بعد ، وأن نشير من بين أعماله إلى مؤلفاته ذات الأهمية القصوى في الفكر الإنساني ، على امتداد كل العصور ، ولم تذهب به الأحداث . ويأتي في مقدمتها كتابه المسمى « الأخلاق والسيرة في مداواة النفوس » ، وقد أجمل أسين بلاثيوس وصفه بقوله : « إنه أشبه بيوميات دون فيها ابن حزم ملاحظاته ، أو اعترافات تتصل بحياته ، وتأتي الملاحظات في ثنايا الكتاب دون ترتيب يقصد به إلى التربية والتعليم ، ولم يراع في تنسيقها منطقاً . ونحن إذ نقروءه نجد فيه الوقائع كما سجلها رجل يقظ ، دقيق الملاحظة ، أثناء تجاربه الواسعة ، وصاغها في قالب مبادئ عامة وحكم ، وأعظم قيمة لهذا الكتاب ، وألفه ابن حزم وقد اعتزل الناس في قريته منت لشم ، وصدر عن نفس يشوبها التساؤم والتصوف ، أنه يقدم لنا صورة حقيقية وحية لنفسية مسلمي الأندلس في القرن الحادي عشر ، وقواعد الأخلاق التي كانت مرعية في مجتمعهم ، إلى جانب الفقرات التي تتصل بحياته ابن حزم نفسه » .

ثم كتابه « الفصل في الملل والأهواء والنحل » ، وهو تاريخ نقدي للأديان والفرق والمذاهب ؛ غني بمادته وأفكاره ، وحاول فيه ابن حزم أن يوفق بين العقل والعقيدة ، فسبق ابن رشد في ذلك بقرن من الزمان ، ويعبر رشتي مذاهب الفكر البشري في موضوع الدين ، من الإلحاد المطلق لا يؤمن أصحابه بشيء ، إلى إيمان العوام بنسبتهم كل شيء . ويرى أن خير العقيدة ما أخذ طريقاً وسطاً بين العقل والنقل ، مما يطابق تمام المطابقة المذهب الظاهري الذي كان هو نفسه عليه .

وخلف لنا ابن حزم مادة طيبة في التاريخ ، يهمن أن نشير من بينها خاصة إلى كتاب « جبهة أنساب العرب » ، وهو أحسن قائمة بأنساب العرب في الغرب الإسلامي ، ولئن مارسون تاريخ الإسلام في المشرق والأندلس ، وكتاب « نطق العرب » ، وهو رسالة موجزة عن تاريخ الخلفاء والحكام في المشرق والأندلس ، وفيما يبدو كون نقاطاً وضعها ابن حزم لينشئ حولها كتاباً مطولاً . وله رسالة في « بيان فضل الأندلس وذكر علمائه » ، وجاء المقرئ بنصها كاملاً في « فتح الطب » . وحررها ابن حزم رداً على رسالة تلقاها ابن عمه ، أبو المغيرة عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن بن حزم ؛ من أديب القيروان ابن الربيع التميمي ، أبو علي الحسن بن محمد بن أحمد ، وربما كانت الأولى تاريخ الأدب الأندلسي ، وأول محاولة للإشادة بأمجاده ، ورغم قصرها جاءت شاملة بما ألف الأندلسيون في صنوف الآداب والعلوم .

ولابن حزم مؤلفات أخرى . فلسفية وفقهية أو في علم الكلام ؛ أو التاريخ ، أو الأدب الخاص ، وأحيل القارئ بشأنها إلى الكتاب الذي أشرت إليه في بداية الكلام .

• في مواجهة المواقف :

أنجز ابن حزم هذا العمل العملاق وهو يراجع أعتى المواقف والأعاصير ، هدفًا لكل ألوان الحق والكرهية والتأمر ، اضطره صغار ملوك البوائف ،

وكلهم صغار ، وآتهم رجال الدين بالمروق ، فلم تلن له عريكة ، ولا وهن منه عزم ، وبقي وحده ، ومعه قلة مؤمنة صابرة من أصحابه وتلاميذه ، يواجهون المحنة في صلابة ، جباههم عالية ، وقاماتهم مرتفعة ، يحركون الأفكار الجامدة ، وينثرون العقول المظلمة ، ويهزون مسلمات كثيرة متخلفة ، ومن هنا فإن الجانب الأكبر من مؤلفاته الفقهية والعقائدية ، ولد كلما يقال ، جدلاً عنيفاً مع خصومه . وإدانة صريحة لهم ، وكانوا يتمتعون برهابة الدولة وحمايتهم .

كان ابن حزم مجادلاً لا يكل ، جاد الكلمة ، عنيف المناظرة ، واحفظ جانب كبير من إبداعه بحرارة الحوار وحده ، وكان في حيويته هذه ، في القرن الحادى عشر ، «مدرسية Scolastique» حية ومتوهجة ، تفوق «مدرسية» المسيحيين في أوروبا ، وقد أفرغوا الحوار من محتواه ، ودفعوا به جملاً باردة ، لأروح فيها ، محاكمة خواء ، ورغم أنها بداية من عصرها الثانى ، مع الدم الجديد الذى تدفق إليها من الفلسفة الإسلامية عبر الأندلس ، ومع توماس الأكوينى ، شهدت فترة ازدهار وحياة ، إلا أنها كانت تهم للعلماء وحدهم ، وقليلاً ما تتجاوز آثارها قاعة البحث ، أما في قرطبة القرن الحادى عشر ، فكانت تهم الجمهور كله ، ويتابع صداها شغوقاً . لقد تميزت «مدرسية» قرطبة ، بشدة الإيقاع ، وأصالة المحتوى ، وحرية المنهج ، والدفع والتجديد والبساطة ، ومشاركة عامة الناس على نحو ما .

لقد عاين ابن حزم من ألوان الظلم ما أنضب في أعماقه معين الرقة واللين ، وشاهد من مساءات السياسة ما نقره منها ، وأودى في نفسه وكرامته ، فاعتزل الدنيا محاصراً ووحيداً ، قرينته منت لشم ، من بادية ولبة ، يواصل رسالته بنفس القوة التى بدأ بها حياته ، شاباً واعدأً ومناضلاً عنيدا ، «يبث علمه فيمن يتتابه بباديته تلك ، من عامة المقتبيين منه ، ومن أصاغر الطلبة الذين لا يخشون فيه الملامة ، يحدتهم ويفقههم ويدارسهم ، ولا يدع المثابرة على العلم ، والمواظبة على التأليف ، والإكثار من التصنيف ، حتى

كامل من مصنفاته في فنون العلم وقر بعير . لم يعد أكثرها عتية بابه ، لتزهد
الفقهاء طلاب العلم فيها ، حتى أحرق بعضها بإشيبيلية ، ومزقت علانية ،
ولا يزيد مؤلفها ذلك إلا بصيرة في نشرها . وجدالاً للمعاندين فيها ، إلى أن
مضى لسبيله .

في رسالة ابن حزم « فضائل أهل الأندلس » فقرة ، كأنما غنى بها نفسه ،
رغم أنه كتب الرسالة في زمن مبكر نسبياً ، ولا يستطيع الدارس لحياته أن
يمربها دون أن يقف عندها . يقول : « أزهد الناس في علم أهلها ، وقرأت
في الإنجيل أن عيسى عليه السلام قال : « لا ينقد النبي حرمة إلا في بلاده » .
« ولا سيما أندلسنا . فلها خصت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم ،
الماهر منهم ، واستقلالهم كثير ما يأتي به . واستهجانهم حسناته . وتبعهم
سقطاته وعثراته . وأكثر ذلك مدة حياته . بأضعاف ما في سائر البلاد .
إن أجاد قالوا : سارق مغير ، ومنتحل مدع . وإن توسط قالوا : غث
بارد ، وضعيف صاقل . وإن باكر الحيازة لقصب السبق قالوا : متى كان
هذا ؟ ومتى تعلم ؟ وفي أي زمان قرأ ؟ ولأمة الهبل ! .

« وبعد ذلك إن ولجت به الأقدار أحد طريقين . إما شفوفاً باثناً يعليه على
نظرائه ، أو سلوكاً في غير السبيل التي عهدوها ، فهناك حمى الوطيس على
البائس ، وصار غرضاً للأقوال ، وهدفاً للمطالب ، ونصباً للتسبب إليه ،
ونهباً للألسنة ، وعرضة للتطرق إلى عرضه ، وربما نحل مالم يقل ،
وطوق مالم يتقلد . وألحق به مالم يفه به ، ولا اعتقده قلبه ، وبالخرى
وهو السابق المبرز . إن لم يتعلق من السلطان بحظ ، أن يسلم من المتالف ،
وينجو من المخالف . فإن تعرض لتأليف نغمز ولمز ، وتعرض وهمز ،
واشتط عليه . وعظم يسير خطبه ، واستشنع حين سقطه . وذهبت محاسنه ،
وسرت فضائله ، وهتف ونودى بما أغفل ، فتنكسر لذلك همته . وتكل
نفسه . وتبرد حميته . وهكذا عندنا نصيب من ابتداء يحوك شعراً ، أو يعمل
بعمل رياسة ، فإنه لا يفلت من هذه الحبال ، ولا يتخلص من هذه النصب

إلا الناهض الفائق ، والمطنف المستولى على الأمد » .

• محافظون ومجددون :

هذا الموقف من رجل كان أستاذ نفسه ، حاد الذكاء ، موسوعي الثقافة ، صلب العزيمة بلا حدود ، عنيف المواجهة دون مثال ، لعب دوراً هاماً في تطوير الفكر الأندلسي ، وزعزعة المسلمات الأساسية للثقافة السائدة ، والرسمية في الوقت ذاته ، لقد احتضن الأندلس حتى القرن الخامس الهجري ، الحادي عشر الميلادي ، لونين من الثقافة ، يسيران في خطين متوازيين دون أن يلتقيا : المحافظون وهم الكثرة الغالبة ، والمتحررون . وكان المحافظون وأغنى بهم علماء المذهب المالكي السائد في الأندلس ، وقفوا بنشاطهم الثقافي عند حد التشريع العملي ، لا يتجاوزونه إلى مشاكل الثقافة المتصلة بالعقيدة نفسها ، واتهموا كل من يتكلم في المنطق بالزيف ، وكل تفكير عقلي في مسائل الدين بأنه زندقة . وكان الاتجاه الثاني يتحرك بين قلة مثقفة ، ولكنها لا تطمح ، ولا ترى لها مصلحة ، في مواجهة المحافظين أو الدخول معهم في خصام ، وارتضت لنفسها أن تقف منهم ساخرة ومتجاهلة .

وقد ظل المالكية حتى القرن السادس الهجري يقاومون الأشعرية ، ولكنهم تركوا الأرسطوطالية تتحرك في حرية ، وقد وصلنا كتاب « تقويم الذهن » لأبي الصلت الداني ، أمية بن عبد العزيز ، المتوفى عام ٥٢٨ هـ = ١١٣٤ م ، وهو رسالة في المنطق ، توجز آراء أرسطو . وكان ابن حزم عالماً فرداً ، واتجهاً متميزاً ، ولم يكن مالكيّاً ولا أشعرياً ، ولا زاهداً ولا أرسطوطاليسياً ، بل واتهمه ابن حبان بأنه لم يفهم أرسطو ، ومحدود الأنباع كظاهري ، يبذل جهداً فائق النظر ، لكي يقيم جسراً بين العقيدة والمنطق .

وهما يكن من أمر ، فقد نضجت شخصية ابن حزم ، واستكمل عدته ، ومكنت له الأحداث من صقل مواهبه ، وزادته اعتداداً بنفسه ، فمضى في طريقه ، يتمرد على التقاليد القائمة ، ويشور على الجمود الديني ، ويهاجم

المذاهب المختلفة ، فقهية وكلامية ، مسلمين وغير مسلمين ، مهاجمة عنيفة متصلة ، كلما أتاحت له الفرصة ، بالمناظرة في المجالس ، وبتأليف الكتب والرسائل ، واتسم جدله بقوة الحجج ، ونصاعة البيان ، وقوة الدليل ، ولكنه وقد ملك لساناً ذرباً ، مسلحاً باللغة المواتية . حتى قال عنه الصوفي الأندلسي ابن العريف : « لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان » ، لا يقف عند البيان والبرهان والإقناع ، وإنما يحتد في أحيان كثيرة ، فيتجاوزها إلى التفسير والتكفير والتفسيق . وهي حدة تعود في جانب منها إلى عصبية مزاجه ، واعتلال صحته طفلاً . ولا أراها مما يعاب عليه جملة ، فهي تأتي منه ، غالباً ، في موضعها ، وقولة الحق تحتاج دائماً من المؤمن بها إلى صوت مرتفع ، لتوقظ نائماً ، وتنبه غافلاً . يقول عن نفسه :

« ولقد أصابني علة شديدة ، ولدت على ربوا في الطحال شديداً ، فولد ذلك على من الضمجر . وضيق الخلق ، وقلة الصبر والنزق ، أمرا حاسبت نفسي فيه ، إذ أنكرت تبدل نحقي ، واشتد عجبى من مفارقتى لطبعى ، وصح عندي أن الطحال موضع الفرح إذا فسد تولد ضده » .

وهكذا انصدع ما بين ابن حزم وعلماء عصره ، وكان منه ما أسماه ابن حيّان « أنه يجهل سياسة العلم » ، وجعلها مصادر معظم أخطائه . ونحن نكتب عن حياة عظيم ، مرت عل وفاته أكثر من ألف عام ، وعاش في بيئة جد مختلفة ، يستحيل علينا أن نجزم ، أوحى نرجح ، ما كان عليه أن يتبعه من سياسة في ملاقاته معاصريه .

• مناظرات وملاحقه :

لا نعرف ، كما أشرنا من قبل . شيئاً دقيقاً وموثقاً عن الأعوام الأخيرة من حياة ابن حزم . نعم ، نعرف أنه أصبح مثقفاً عنيداً ، أخا سفر ، جواب آفاق ، ينتقل بين دول الطوائف المختلفة . يجاور العلماء ويجادل الفقهاء ، وينظر أهل الكتاب ، و عنف دائماً . كما هي عادته . صنع ذلك في قرطبة والمرية وطلبيرة وميورقة ، وربما في مدن أخرى لم يصلنا خبرها . وفي

ميورقة ، وجاءها لاجئاً بعد عام ٥٤٣٠ = ١٠٣٩ م وجد الحماية والتقدير في شخص عاملها الوزير الكاتب أبي العباس ، أحمد بن رشيق ، وكان مولى لبني شهيد ، وتأدب في قرطبة . ووجد أيضاً مزاحمة شديدة في شخص قرطبي آخر مثله ، أصغر منه سنّاً أبو الوليد الباجي ، من كبار فقهاء المالكية ، وكان قد رحل إلى المشرق ، ولبت في رحلته هذه ثلاثة عشرة عاماً ، لقي فيها كبار العلماء في الفقه والحديث وعلم الكلام ، « فبرع في الحديث وعلمه ورجاله ، وفي الفقه وغوامضه وخلافه ، وفي الكلام ومضائقه » ، وكان إلى هذا ، كابن حزم ، أديباً يقول الشعر ، ويحسن تدبيج الكلام .

ولما عاد من رحلته وجد ابن حزم مجادلاً ، وصاحب مذهب متميز ، تسد شهرته الأفق ، وخصومه من الفقهاء وغيرهم ضائقون به أشد الضيق ، وعاجزون عن ملاقاته أبلغ العجز ، ففرحوا بمقدم أبي الوليد الباجي إلى ميورقة ، وأثاروه على ابن حزم ، رغم ما بين الرجلين من إعجاب متبادل . وانعقدت بينهما المناظرات في الفقه ، وعلم الكلام أيضاً ، وكان أبو الوليد متقدم الأشاعرة في الأندلس ، وابن حزم خصماً لدوداً لهم ، وليس ثمة شك في أن ابن حزم وجد في مناظره لوناً جديداً من العلماء لم يعهده من قبل ، وسوف يعترف فيما بعد ، في رسالته عن « فضائل أهل الأندلس » : « لولم يكن لأصحاب المذهب المالكي ، بعد عبد الوهاب ، إلا مثل أبي الوليد لكفاهم » .

لم يتوقف الذين عجزوا يوماً عن مواجهة ابن حزم في ساحة الجدل والمناظرة عن الكيد له ، والدس عليه ، عند سلطات الجزيرة ، فلم يجد بداً من تركها ، وما من أحد في ملوك الطوائف يرغب في أن يستضيف بأرضه عالماً مزعجاً ، لا بسبب آرائه الدينية فحسب ، وإنما لاتجاهاته السياسية أيضاً ، فقد ظل ابن حزم متمسكاً بشرعية الخلافة الأموية ، لم ينزحزح عن رأيه أبداً ، حتى عندما أصبحت نظرية مجردة ، لا صلة لها بالواقع ، ولا مطمح أن تعود ، ولكنه لم يشارك في اللعبة السياسية المعقدة التي كانت تجري على أيامه هذه ، ولم يحتضن فكر أية جماعة معارضة ، وفي رسالته « التلخيص

لوجوه التخليص » ، وجاءت رداً على سائل يطلب الرأي عنده في قضايا كثيرة . سؤال عن الموقف الذي يجب على المرء أن يتبعه « من أمر هذه الفتنة ، وملازمة الناس بها . مع ما ظهر من تربص بعضهم ببعض » ، كانت لإجابة ابن حزم : « ... فالخلص لنا فيها الإمساك بالألسنة جملة واحدة إلا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ودم جميعهم . فن عاجز منا عن ذلك رجوت أن تكون التقية تسعه » . ولقد ذم ماوك الطوائف جميعهم في رسالته هذه . وحمل عليهم في غير هوادة : « وعمدة ذلك أن كل مدبر مدينة أو حصن في شيء من أئدلسنا هذه ، أولها عن آخرها . محارب لله تعالى ورسوله وساع في الأرض بفساد . والذي تروونه عياناً من شتم الغارات على أموال المسلمين من الرعية التي تكون في ملك من ضارهم . وإباحتهم لخدمهم قطع الطريق على الجهة التي يقضون على أهلها . ضاربون المكوس والجزية على رقاب المسلمين . مسيطون لليهود على قوارع طرق المسلمين في أخذ الجزية والضريبة من أهل الإسلام ، معتذرون بضرورة لا تبيح ما حرم الله » . ونحن « نراهم يستمدون النصارى فيمكنونهم من حرم المسلمين وأبنائهم وربالهم يحملونهم أسارى إلى بلادهم » ، « وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعاً ، فأخاوها من الإسلام وعمروها بالنواقيس . لعن الله جميعهم . وساط عليهم سيفاً من سيوفه » .

ولم يرحم طائفة من الفقهاء على أيامه ، وعلى أيامنا أيضاً ! . فتاواهم معدة ، وأقلامهم مشرعة ، يدعمون بها الطغاة خوفاً ، ويبررون لهم المظالم طمعاً ، ويسبحون بحمد الحاكم ملقاً ، ويشغلون عامة الناس عن الجاد من أمور الدنيا ، بغير العاجل من مشون الآخرة . « فلا تغالطوا أنفسكم ، ولا يغرنكم الفساق والمنتسبون إلى الفقه . اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع ، المزينون لأهل الشر شرهم ، الناصرون لهم على فسقهم » .

وأقصى هجوم خص به ماكا من الطوائف ، كان موجهاً ضد أمير غرناطة ، باديس بن حبوس الذكي الدموي الداهية ، رأس البربر ، وخليفة

زاوى بن حبوس الذى قضى على محاولة المرتضى ، على نحو ما أشرنا ، وأخذ ابن حزم سجيناً ، ذلك أن باديس جمع فساد بقية ملوك الطوائف وزاد عليه بأن اتخذ وزيره الأول ، ومستشاره الأمين ، من اليهود ، ابن النغريلة الشهير الذى مكن لأبناء قومه من رقاب المسلمين ، فسيطروا بعون منه على الاقتصاد والإدارة ، ثم أخذته العزة بالإثم « فألف كتاباً قصد فيه ، بزعمه ، إلى إبانة تناقض كلام الله عز وجل فى القرآن اغتراراً بالله تعالى أولاً ، ثم بملك ضعفه ثانياً ، واستخفافاً بأهل الدين بدءاً ، ثم بأهل الرياسة فى مجانة عوداً » . وقد رد عليه ابن حزم قوياً وعنيفاً فى رسالته : « الرد على ابن النغريلة اليهودى » ، فنقض آراءه ، وفند حججه ، وبين مساوئ قومه ، وأراد لصوته أن يكون عالياً وقاسياً ليبلغ ملك غرناطة ، ودون أن يذكره بالاسم حمل عليه ناقداً ومهدداً ومستنهضاً : « إن أُملى لقوى ، وإن رجأتى مستحكم ، فى أن يكون الله تعالى يسلط على من قرب اليهود وأدناهم ، وجعلهم بطانة وخاصة » ، ما سلط على اليهود ، وهو يسمع كلام الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم فإِنَّه منهم » . « وإن من فعل ذلك لحرى أن يشاركهم فيما أُوعد الله تعالى فى توراتهم » ، فى السفر الخامس ، إذ يقول لهم تعالى : « ستأتىكم ، وستأتى عليكم ، هذه اللعنة التى أصف لكم ، فتكوتون ملعونين فى مدائنكم وفدائينكم ، وتلعن أجدادكم وبقاياكم ، ويكون نسلكم ملعوناً ، وتكون اللعنة على الداخل منكم والخارج » .

هل قنع ابن حزم بهجومه الفكرى ؟ .

فى كتاب « الذخيرة » لابن بسام ، فقرة مثيرة ، نقلها عن المؤرخ القرطبى العظيم ابن حبان ، جاءت خلال حديثه عن الهزيمة المريعة التى أوقعها باديس ابن حبوس ، أمير غرناطة ، بزهير الصقلبى أمير المرية ، وفيها أن باديس ظهر « على قوم من وجوه رجال زهير ، فعجل على الفرسان والقواد بالقتل ،

واشتمل الأسار على حملة الأقالام ، وفيهم وزيره النياه أحمد بن عباس الجار لهذه الحادثة ، قيد إلى باديس و صدره و صدور أصحابه تغلى عليه ، بما أوقد من هذه النائرة ، فأمر بحبسه ليستخرج منه مالا ، و شفاؤه الولوغ دمه ، و عجل عليه بعد دون أصحابه من حملة الأقالام ، عف باديس عن دماهم من بين أصحاب السيف إلا من أصيب منهم في الحرب ، وأطلق ابن حزم و الباجي و غيرهما . ويرى غرسية غومث أن الإشارة هنا تنصرف إلى ابن حزم صاحبنا ، و قد ارتبط بالمرية دائماً ، ولعله أراد أن يثار لأمره الأول فوقع في الأمر الثاني ، و كان برفقة أبي الوليد الباجي ، مناظره اللدود و العنيد في مناظرات ميورقة . بينما يرى الأستاذ الجليل ، الدكتور طه الحاجري ، في كتابه « ابن حزم : صورة أندلسية » و قد وقع على النص قبل أن تقع عليه عين المستشرق الاسباني ، و التفت إليه ، أنها تنصرف إلى أبي المغيرة .

كان عداء ابن حزم لباديس أمير غرناطة ، و رأس البربر في الأندلس ، عنيفاً و جاداً وله ما يبرره ، و لكن لم يلق به ، و هو رجل مبدأ لا يحيد عنه ، في أحضان الحزب المعارض لباديس ، و هم بنو عباد في إشبيلية ، مع ما كانوا عليه من سخاء وترف بعامه ، و مع رجال الفكر بخاصة ، و كانوا ، بحق ، قادة الجانب العربي في معركة التزاحم بين الأجناس المختلفة ، و سادة المنطقة التي استقر فيها بيت آل حزم من قديم ، و بها أرائهم و ديارهم ، و رغم ذلك كله ، أدار لهم ابن حزم ظهره ، لأنه صلب العقيدة ، طاهر السيرة ، يرى الخلافة شرعة ، و في بني أمية شرعا ، لا يساوم و لا يتراجع و لا يتأول ، و لا يرتضى أنصاف الحلول . و كان المتعضد أمير إشبيلية ، و حكم من ١٠٤٢ م إلى ١٠٦٩ م ، كقرينه أمير غرناطة ، دمويا قاسيا ، يأخذ بالظنة ، و يخفر الذمة ، و يبلغ في المثلة ، فلم يثبت له قائم و لا حصيد ، و لا سام عليه قريب و لا بعيد ، و لا بد أن رأى ابن حزم فيه كان كرايه في باديس . و نجعل التاريخ أو الظروف التي أمر فيها أمير إشبيلية بتمزيق كتب ابن حزم ، و حرقها علانية ، و فيها نظم ابن حزم أبياته الشهيرة عندما بلغه أمرها ، و التقطها كل الذين أرخوا له :

دعوني من إحراق رق وكاغد
وقولوا بعلم كى يرى الناس من يدرى
فإن تحرقوا القرطاس لم تحرقوا الذى
تضمنه القرطاس ، بل هو فى صدرى
يسير معى حيث استقلت ركائبي
وينزل إن أنزل ويدفن فى قبرى
● هزيمة دون كيشوته :

وحيداً ضد الجميع ، وضد كل شيء ، وأشد مرارة وتشاؤماً من موطنه
كيشوته الإسباني ، بطل رواية سرفانتيس الشهيرة ، وعاش على الأرض نفسها ،
بعده بخمسة قرون ، وذهب كلاهما ضحية أحلامه : وقد حدد لنا ابن حزم
منهجه فى كتابه « الأخلاق والسير فى مداواة النفوس » : « لا تبذل نفسك
إلا فيما هو أعلى منها ، وليس ذلك إلا فى ذات الله عز وجل ، وفى دعاء
إلى حق ، وفى حماية الحريم ، وفى دفع هوان لم يوجبه عليك خالقك تعالى ،
وفى نصر مظلوم ، وبإذل نفسه فى عرض الدنيا كبائع الياقوت بالخصى » .
و « إنى لا أبالى فيما أعتقد حقاً عن مخالفة من خالفته ، ولو أنهم جميع من
على ظهر الأرض ، وإنى لا أبالى موافقة أهل بلادى فى كثير من زهيم الذى
قد تعودوه لغير معنى ، فهذه الحصلة عندي من أكبر فضائل التى لا مثيل لها » .
لقد دافع عن الإسلام الحق بعنف ، عقيدة وسلوكاً ومنهجاً فى الحياة ،
ودعا إلى سلامة الباطن ، وخطوص النية ، واستقامة العمل ، وناضل
عما يؤمن به دون هوادة ، وفى كل مكان ، وأثار على أعدائه حرباً شعواء
متصلة . دافع عن الإسلام فى وطنه وبين أهله ، وبعيداً عنه خارج حدوده ،
بالموعظة الناصحة ، والشروح الكاشفة ، والمواجهة الحاسمة عند الضرورة ،
وحين نظم نقفور فوكاس إمبراطور بيزنطة ، مزهواً بانتصاراته ، قصيدة
ذم فيها الإسلام ، وبعثها إلى الخليفة المطيع فى بغداد ، تولى ابن حزم الرد
عليه ، بقصيدة أبان فيها فضائل الإسلام ، وكشف عن تناقضات المسيحية ،
وأرسلها إليه ، وأورد لنا السيكي نصها فى كتابه « طبقات الشافعية » .

وظل حتى آخر رفق من حياته يدافع عن شرعية الخلافة الأموية في
الأندلس ، وقد اختفت إلى الأبد ، وشديد القناعة بأن « نوار الفتنة لا يعقد » .
وكان يحس بأنه لم يخلق لعصر الطوائف ، وظل يبشر بمذهبه الظاهري
وسط المتاعب والصعاب ، و مواجهة الجميع ، ويقاوم نفوذ اليهود وسيطرتهم
على الاقتصاد والسياسة ، على نحو ما فعل مواظنه أبو إسحاق الإلبيري ، وكان
شاعراً وفقياً ، ودفع بقصيدته الرائعة مسلمي غرناطة موطنه ، إلى الثورة
على مظالم يهودها ، فانتقموا منهم ، وأتوا على نفوذهم ، في يوم عاصف مريع .
وانتهى المطاف بابن حزم وحيدا ، فكراً وإحساساً ورفقة ، شبيحا لعصر
مضى ، وكان عليه أن ينسحب إلى ديارهم الأولى في قرية منت لشم ، من
وديان ولبة ، في تاريخ نجهله لسوء الحظ ، رفقة أولاده فحسب ، ولم يحدثنا
عن أسرته القريبة أبداً ، في كل ما كتب ، ومع عدد قليل للغاية من تلاميذه
الأوفياء .

آية مشاعر حزينة كانت تغمره ، وهه يعود إلى قريته في الريف مهزوماً ،
مغلوباً على أمره ، قريته التي خرج منها جده قبل جيلين فقط ، مغمورا
ينتسب في أسرة اعتنقت الإسلام من قريب ، وصنع لها والده مجداً موثقاً ،
يومها كتب في « الأخلاق والسير » : « أشبه ما رأيت بالدنيا خيال الظل » ،
وهي تماثيل مركبة على مطحنة خشب تدار بسرعة فتغيب طائفة وتبدو أخرى .
ولم يتوقف هناك عن العمل ، مضى في قريته يؤلف كتبه ، ويحرر رسائله ،
ولو أنها على حد تعبير ابن حيان : « لا تتجاوز عتبة داره » ،
وأوضحها كتابه « الأخلاق والسير في مداواة النفوس » . وهو سلسلة
من الاعترافات سجلها وله من العمر ٦٩ عاما شمسياً ، أو ٧٢ عاما قمرياً ،
وتوفي يرحمه الله في ٢٨ من شعبان ٤٥٦ هـ - ١٥ من يولية ١٠٦٣ م :

كأنك بالزوارى قد تناذروا وقيل لهم أودى على بن أحمد
فيارب محزون هناك وضاحك وكم أدمع تذرى ونحد محمد
عفا الله عنى يوم أرحل ظاعنا عن الأهل « حملوا إلى بطن ما جد »

وأترك ما قد كنت مغتبطاً به وألقى الذى آتست دهرًا بمرصد
فوارا حتى إن كان زادى مقدما ويانصبى إن كنت لم أتزود

• تلاقى النقيضين :

درج الباحثون على تقسيم حياة ابن حزم الأدبية إلى مرحلتين هما ، فيما يرى أسين بلاثيوس : « واحدة حتى الثلاثين من عمره ، والأخرى منهما حتى موته » . وفى الأولى وقف حياته على الأدب والسياسة ، وفى الثانية ترك السياسة ليتفرغ لدراسة الشريعة والعقائد . وهى تفرقة يمكن أن تكون مقبولة كتبسيط نظرى فحسب ، لأن المرحلتين تعايشا واقعا ، على امتداد حياته ، ولهذا ألقينا على حياة ابن حزم كلها نظرة شاملة ، ودون ذلك ليس ثمة مجال لالتقاط نفسيته شابا ، ومعرفة الكثير من إشارات طوق الحمامة ، وإدراك عدد من فقراته يتوقف على الإلمام بها .

ويرى غرسية غومث ، ودون أن أمضى معه إلى نهاية الطريق ، أن تلاقى الأضداد فى شخصية ابن حزم ، وازدواجية الصوت عنده ، وتجاور اللطف والخشونة ، والرقّة والعنف ، والنبيل والعامية ، دون أن يذوب أحدها فى الآخر ، يجعل منه شخصية محببة لنا (الضمير يعود على الإسباني) ، لأنها تضعه إلى جوار عدد من أقسم الأدب الإسباني فى عصره الذهبى ، أولئك الذين يتجلى فيهم مزاج الشخصية الإيبيرية واضحا ، مثل الشاعر القرطبى جونجرة Gongora (١٥٦١ - ١٦٢٧) ، والموسوعى كيبيدو Quevedo (١٥٨٠ - ١٦٤٥) ، ونستطيع أن نذكر آخرين كثيرين ، ليس بينهم ثرفانتيس مؤلف الرواية العالمية الخالدة دون كيخوته ، وأعطانا المثل رائعا ، ولا يتكرر ، كيف تلتقى متناقضات صلاتنا الجذرية فى تركيب إنسانى ومفهوم ، حلو وحزين ، وإلى ذلك ، وفى خط مواز له ، يمكن أن نصيف الشموخ الإسباني ، وأعطانا ابن حزم خلاصته فى بيت شعري ينضح خيلاء ، وفى مرات كثيرة اتخذت منه رمزا للإسلام الإسباني :

أنا الشمس فى جور العلوم منيرة ولكن عيبي أن مطالعى الغرب

• لائر على الدوام :

كان ابن حزم متمرداً وثائراً في شببته الأدبية ، وفي شيخوخته العلمية ، وحتى آخر رفق من حياته ، مع ظلال مختلفة . توائم كل فترة ، وقليلون سبقوه في أفكاره ، وأقل أولئك الذين ساروا بعده على طريقته ، وحتى أبنائه أنفسهم كانوا عاديين ، تخلصوا من نير الأدب ، والتصقوا بعصرهم ، وأشهرهم الفضل أبو رافع ، وأصبح وزيراً لبني عباد في إشبيلية ، وشاعرهم المداح ، وما أشد ما كرههم أبوه ! ، ومات في معركة الزلاقة لكي ينتصر المرابطون وهم أشد التصاقاً بالمذهب المالكي ، وضيقاً في فهمه ، وانصياعاً لفقهاءه ، وكانوا أشد الناس ملاحقة لأبيه . ولقد تبعه إلى قريته عدد قليل من الطلاب ، ولكن المدرسة الظاهرية ، وتحديد أسين بلايوش لها في دراسته لابن حزم لا يعلى عليه ، ظلت موضع الملاحقة حتى في المغرب ، ولم يبق لها غير حياتها الذاتية بالكاد . وأما الشئ النسبي انذى حظى به ابن حزم في عصر الموحدين ، والتقدير الذي حظى به من علماء عباقرة ، كالغزالي ، وابن عربي ، وابن رشد ، فيعود أكثره إلى ظروف سلبية ، كمعارضتهم لفقهاء المالكية ، أو إلى توافقات عقلية في المقام الأول ، أكثر مما تعود إلى تقبلهم لآراء ابن حزم ، وشق عليهم من بينها مناهضته العنيفة للأشعرية . والحق أن معظم الدارسين على أيامه ، وبعدها ، حاول أن يرسل به إلى زوايا النسيان ، لأنه هاجم الجميع ، ولم يقف بهجومه عند المسلمين ، لقد هاجم ، وبعنف كالعادة ، اليهود والمسيحيين ، واستطاع هؤلاء فيما بعد أن يردوا له الصاع صاعين ، حين مضى إلى ركاب الله ، وبدأ عصر الترجمة في الأندلس المسيحية ، فلم يأخذ اسمه طريقه إلى أوروبا في تلك الفترة ، ولم يصبح في قمة علماء كانوا دونه ، كابن رشد وموسى بن ميمون ، فخفت اسمه ، وتلاشت سيرته ، وظلت مؤلفاته تحت الأرض لا يعرفها إلا عدد قليل للغاية ، وظل كذلك إلى أن اخترعت المطبعة العربية ، وازدهر عصر الاستشراق ، وأفلتت الدراسات الأندلسية في إسبانيا من قبضة التعصب ، واستردت القاهرة قيادتها الثقافية للعالم العربي .

ولأنه لمثير حقاً ، أن العداوة البالغة ، لهذه الشخصية العملاقة في تاريخ
الأدب الأندلسي ، أسهم فيها رجال الدين المتخلفون في العالم الإسلامي
المعاصر ، واضطلع بالجانب الأكبر منها العلم الأوربي ، واشترك فيها عدد
غير قليل من الإسبان ، فظل اسم ابن حزم ، وعلمه ، موضع جدل كبير
ونقاش حاد ، ولكن أحداً لم يستطع أن يشجبه أبداً ، وعلى الرغم من كل
شيء تقاسمته ألقاب جليلة وكريمة : أحسن شاعر ، وأحسن فيلسوف ،
وأحسن متكلم ، يثق فيه علماء البلاغة ، ويحبه رجال الأدب ، ومحترمه
المثقفون .

كان واحداً من أعظم عمالقة الفكر الإنساني على امتداد تاريخه الطويل !

فتنة البربر

قدر لابن حزم أن يشهد غروب شمس الخلافة ، وأن يشهد مع غروبها أواناً من الانهيار السياسي والخلقي ، ومن المظالم والجور ، ما لا مثيل له : وأن يعيش سنوات حملت من الخيانة والهوان والأحزان والأدران ، فوق ما حملته حياة المصريين قبل ومع هزيمة ٥ يونية من عام ١٩٦٧ : ولا يمكن فهم إبداعه وما ينضح به من مرارة ، ولا أسلوبه وما اتصف به من حدة ، ولا مرمى فلسفته واتجاه أبحاثه ، ولا مثله للعليا وطباعه ومزاجه ، إلا إذا أدركنا حقيقة تلك الأيام ، وكانت أسمى مما خط أى مؤرخ ، وأشد هولاً من تصوير أى خيال ، وهى أحداث دخلت التاريخ تحت اسم : فتنة البربر أو البرابر ، وشغلت الربع الأول من القرن الحادى عشر الميلادى ، وقد عرضنا لها من قبل إشارة وإجمالاً عند دراستنا لحياة ابن حزم ، ما اتصل منها بنشاطه السياسى ، وما أسهم فيه رأياً وتديراً وعملاً . ونأتى الآن على هذه الأحداث ، من البدء وتفصيلاً :

. . .

ورث عبد الرحمن الناصر عندما تولى الإمارة عام ٩١٢م دولة تحكمها الفوضى والحروب الأهلية ، مزقتها الفتنة والفرقة ، موزعة بين عدد من الرؤساء ينتمون إلى مختلف العناصر ، فتخطى الصعاب وتغلب على المشكلات ، وجعل منها خلافة ، عام ٩٢٦م ، لها من السلطان والقوة ، والغنى والثروة ، والترف والحضارة ، والعلم والثقافة ، ومن المهابة والخوف عند جيرانها ، ما لم تبلغه يوماً قبله ولا من بعد .

وبعد أيام مجيدة ، امتدت حتى بلغت ٤٩ عاماً ، ما بين إمارة وخلافة ، توفى الناصر فى ١٦ أكتوبر عام ٩٦١م ، وخلفه ابنه الحكم الثانى ، بوصاة منه ، وتميز بثقافة واسعة ، لاجتاربه فيها واحد من أسلافه ، مكتبته

أحب مكان إليه في قصره ، ومجالسة العلماء والأدباء أقرب إلى قلبه من حوار القواد وحديث الحروب ، فازدهرت الثقافة على أيامه ، واتسع قلبه لعامة شعبه ، فكان ودوداً رحيماً محباً للسلام . وعلى أيامه بدأ ينمو حوله ما نسميه في أيامنا بمراكز القوى ، من خصيان وصقالبة وجوار ، وعرب وبربر ومولدين ، ويهود وآخرين . وعندما لفظ آخر أنفاسه في ٥ من فبراير عام ٩٧٦ م ، لم يكن حوله غير الخصبين فائق وجوذر ، وفيما عداهما أنت قرطبة ، والأندلس بأسره ، يجهل أن الخليفة قد رحل إلى جوار الله احتفظاً بالسر إلى أن يختار الجماعة التي ينضمون إليها ، وكان هذان الخصيان غليظان ، في خلقهما ذعارة ، وفي سلوكهما جفوة ، وطالما شكنا الناس منهما .

وكان الحكم الثاني قد أخذ البيعة ، في العام الذي توفي فيه ، لابنه هشام ولياً للعهد من بعده ، فبويع بالخلافة بعد كثير من المؤامرات والدسائس ، ولكنه كان طرى السن ، ضعيف العقل ، محدود الذكاء ، خور العزيمة ، فأخذ الأقوياء من حوله يتقاتلون على السلطة ، وكان الفوز حليف فتى عربي من الأزد ، دخل القصر موظفاً بسيطاً ، وما لبث أن استرعى أنظار السيدة صبح زوجة الحكم الثاني ، وأم الخليفة هشام الثاني ، جارية من الباسك اسمها في لغتها Aurora ، ذكية وطموح ، قوية الشخصية ، وذات تأثير بالغ على الخليفة ، فاخترته قائماً أعلى أمورها ، بعد أن أعجبت به فكرياً ومظهراً ، بين آخرين كثيرين تقدموا للوظيفة ، وتوثقت الصلة بينهما ، فتجاوزت الوظائف والأموال ، لتصبح علاقة حب ، عميق وحنون .

كانت صبح وراء المنصور في بدء حياته ، رأياً ودعماً ومالاً ، لكي يصير في طريقه إلى السلطة خصومه الأقوياء ، واحداً وراء آخر ، حتى أصبح حاجب الخليفة ، أو رئيس الوزراء ؛ لغتنا المعاصرة . وحققت بغيتها كاملة حين أرسل بالخليفة ابنها ، غصاً طرياً ، عديم الخبرة والتجربة ، إلى عالم النسيان ، داخل قصر في ضواحي العاصمة ، لا يزور ولا يزار إلا بإذن من

رئيس الوزراء ، وقلة من الناس في العاصمة تعرفه اسما أو شخصاً ، ومع ذلك فالجميع يحبونه ويوقرونه ، لأنه رمز الدولة والسلطة الشرعية فيها وابن الخليفة العظيم : الحكم الثاني . وقد دنع المنصور في طريقه إلى السلطة الثمن غالياً ، تجاوز ذكرياته مع صبيح وعارضها ، وأعدم ابنه تآمر عليه . والحق أن المنصور ، رغم أخطائه العديدة ومنها ما سار فيه على خطى الناصر ، من اتخاذ البربر والصقالبة ، والمأجورين والمرزقة ، وإقصاء العرب ، أعطى الأندلس ما أعطاه لها عبد الرحمن الناصر قبله ، من الهدوء والوحدة ، والثراء والهيبة ، مما تجاوز الأمم المجاورة وبلغ الخافقين .

في ربيع عام ١٠٠٢ م قام المنصور بآخر حملة حربية له ، وكانت غاية أمانيه أن يموت مجاهداً ، وبحس في أعماقه بأن رغبته سوف تتحقق يوماً ، ومن ثم فهو يحمل معه دواما كفته ، وقد خاطته بذاته ، واشتراه من حر ماله ، مال جاءه إرثاً من أرضهم القديمة ، وكان يرى أن بقية ثروته وما يملك ويقبض من راتب يخلط فيها الحلال بالحرام ، ويحمل معه التراب الذي تجمع على ملابسه في غزواته ، ليدفن معه ، فلا يدخل النار من اغبرت قدماه جهاداً في سبيل الله . وفي مدينة سالم توفي ، في ١٠ من أغسطس عام ١٠٠٢ ، وفيها دفن عملاً بوصيته : أن يدفن حيث يموت . (١)

وقد ولى ابنه عبد الملك الحجابة ، أو إن شئت الحكم ، من بعده ، وعلى عادة الخلفاء اتخذ المظفر لقباً له ، وواصل سياسة والده ، ولكن الأندلس كان يشهد تغيراً جذرياً في حياته ، لقد حل الصراع الطبقي محل الصراع العنصرى . وظهرت اتجاهات جديدة في الدين والسياسة ، وطفئت على السطح الظواهر العامة التي تسبق أية ثورة ظهرت قديماً ، أو حتى في أيامنا هذه ، والتي ستودى بالخلافة بعد قليل : سحق عام وعميق ،

(١) أنظر : ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص ٨٩ ، هامش رقم ١١ ، بتحقيقنا ، دار المعارف ١٩٧٥

وفساد حقيقى يمتد واقعا أو تصورا إلى الطبقة الحاكمة ، و ثروات ضخمة تظهر فجأة دون مقدمات ، ولا يملك أصحابها من المؤهلات أو رأس المال شيئا ، إلا صلات مربية بالحكام ، أو من يتصل بهم من زوجات وبنين وبنات وموظفين ، وشيوع من يحكمون فى الظلام ، أو من وراء ستار ، أو بالتعبير السياسى الحديث ، أولئك الذين يحكمون وليسوا مسئولين لا دستورا ولا عرفا ، ومكاسب قليلة ، براقة وخادعة ، تسكر الحاكم ، وتذهب بعقله ، وتغرس فيه الغرور بدل التأمل ، ومحاولات غير جادة وفاشلة لوقف ذلك كله . ثم تنفجر الأرض عن تنظيم سياسى خفى ، يأتى بنظام جديد غير متوقع حتى لأولئك الذين يفكرون فى التغيير أو قاموا به .

ولم تطل أيام المظفر ، شهد طلوع الثورة ، وإمارات التغيير ، ورحل فى زهرة شبابه قبل أن يطحنه ثقلها ، عام ١٠٠٨ م ، وقدر لأخيه عبد الرحمن الملقب بشنجول ، وأمه من الباسك مثل هشام الثانى ، أن يتولى الحجابة فى سن طرية ، لا يتجاوز العشرين عاما ، ويفتقد كل الخصائص والمزايا التى كانت لأبيه أو أخيه من قبل ، وربما لهذا أقدم على ما لم يقدم عليه واحد منهما : حدثه نفسه بأن يصيح ولى عهد للخليفة هشام الثانى ، وتحدث بهذا لخاصته ، فأثاوت محاولته بنى أمية ، وعامة أهل قرطبة ، فانهز أحد أحفاد عبد الرحمن الناصر ، ويدعى محمد بن هشام ابن عبد الجبار ، وكان المظفر قد قتل والده ، فرصة أن عبد الرحمن شنجول فى غزوة ضد ألفونسو الخامس ملك ليون ، فقاد ثورة استولى بها على قصر الخلافة ، وفى مواجهة الأحداث ، وااحتفظ هشام الثانى بحياته ، أقال عبد الرحمن شنجول من الحجابة ، وتنازل عن محقه فى الخلافة ، وولياها محمد ، واتخذ لنفسه لقب المهدي بالله ، ولما بلغ الخبر عبد الرحمن « قفل إلى الحضرة مدلا بمكانه ، زعيما بنفسه ، حتى إذا قرب من الحضرة تسلل عنه الناس ، من الجند ووجوه البربر ، ولحقوا بقرطبة ،

وبايعوا المهدي » ، ثم اعترضه منهم : من قبض عليه ، واحتز رأسه ، في ٤ من مارس عام ١٠٠٩ م ، وحمله إلى المهدي ، فصلب وإلى جواره قائد حرسه يلعنه ويلعن نفسه ، وذهبت دولة العامريين :
كان لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

* * *

سعدت قرطبة بالنصر الأموي . وكانت العامة أكثر سعادة ، رأت فيه ، وهي أشد اندفاعا نحو الغضب أو الهجة . طريقا أفضل ، نحو غد أسعد ، على حين تحفظت الطبقة الوسطى ، وقد أحست بالآلام ونتائج الثورة ، قبل أن تقف بجانبها ، وربما راودها أن طغيان العامريين ، وأعطى الازدهار الاقتصادي والمجد العسكري ، أفضل بكثير من الفوضى ، ومن حكم هؤلاء الجند المستبدين ، يثقلون عواتقهم بالضرائب والمظالم .

ولإذا كان المهدي قادرا على أن يأمر بالنهب ، فقد كان غير قادر على منعه ، ولما كان يتوقع ما سيحدث فقد أمر بنقل الأشياء الثمينة من مدينة الزاهرة ، مقر العامريين ، إلى قرطبة ، ولكن الخبثاء سبقوه ونهبوا كل ما في القصور وماحولها حتى الأبواب ، على امتداد أربعة أيام كاملة ، ولم يستطع الخليفة أن يصنع شيئا لمقاومة النهب ، أو لم يجرؤ في الحقيقة ، وقد تردد قليلا ، ثم اندفع يأخذ بحظه من الغنائم . ورغم أن الجماهير سبقته إليها ، كان نصيبه منها كثيرا : مليون ونصف مليون دينار من الذهب ، ومليونين ومائة ألف درهم من الفضة ، وبعد ذلك بزمن عثر على صناديق فيها مائتا ألف دينار ذهبي ، وعندما أفرغت القصور من محتوياتها أضربت فيها النيران ، وعادت المدينة الجميلة كومة من الخرائب والأنقاض .

ولم ترد الجماهير ، وهي التي صنعت الثورة ، أن يكون حكامها من القواد القدامى ، أولئك الذين كانوا من شيعة المنصور وجنده ، فجاء محمد المهدي بقواد من الشعب ، من الطبقة الوسطى : أطباء ونساجين وجزارين وسراجين ، وبدا الأندلس بلدا ديمقراطيا لأول مرة في تاريخه ، لقد

أفلتت السلطة من يد العامرين ومن طبقة الخاصة على السواء .

* * *

في البدء بدا كل شيء وكأنه يسير تبعاً لرغبة المهدي ، لقد رفعه شعب قرطبة إلى الخلافة ، واعترف به البربر ، وتلقى رسالة ولاء من واضح ، أقوى الصقالبة ، وحاكم الثغر الأدنى ، ولما تمض على مصرع عبد الرحمن شنجول غير خمسة أيام ، ولم يكن المهدي يتوقع منه ولاء سريعاً ، لأن واضحاً يدين بمركزه وثروته للمنصور بن أبي عامر ، والد عبد الرحمن ، ولهذا أسرع المهدي فالتقط القفاز ، وأرسل إليه أموالاً ، وملابس شرف ، وجوادة ، وبراءة بتوليته على كل الثغور .

والتمت كل الجماعات ، في الظاهر على الأقل ، حول الحكومة منذ اللحظة الأولى ، ولو أن الإجماع وقعاً أقل قوة وتماسكاً مما يبدو للعيان ، كان تيار الثورة يندفع من وراء ظهر السلطة ، فقد أدرك الناس سريعاً أن ذهاب العامرين لا يعني أن الأمور استقرت ، والمظالم انتهت ، والمفاسد توقفت ، وليس ثمة ما يشتكي منه ، في ظل الحكم الجديد . ولم يكن المهدي يتمتع بالذكاء أو الفضيحة ، قاس ودموى وأحمق وغارق في المذات ، وزاد فأخرج العامرين من قرطبة ، وفصل أعداداً كبيرة من العمال واستغنى عن خدمات جمع كبير من الصقالبة ، وأغضب الأتقياء لأنه قل ما يخرج من القصر ، وفيه يتجاوز نزواته ، واشتدت ثورة هؤلاء حين علموا أنه يقيم حفلات ساهرة ، يبلغ الموسيقيون فيها مائة ، مابين عازف على العود أو الناي ، صنيع شنجول من قبل ، وهو ما يأنس الناس فيه . وأطلقوا عليه اسم « السكير » ، واسموه بأنه خرب البيت ، ومزق الأسر ، ونهب الممتلكات ، مثل ما كان يفعل سابقوه ، وهكذا بدأ يدفع بالرأى العام كله إلى صفوف المعارضة .

لقد أصبح ضده الشعب والصقالبة والأتقياء ، وكل الناس الطيبين ، ولم يصنع شيئاً يستبقى به البربر ، واختاروا جانبه بلإرادتهم ، ولم يكن لهم

في الجانب الآخر مكان ، لأن سكان العاصمة يكرهونهم من الأعماق ، ولم ينسوا لهم أبدا أنهم كانوا العمد التي قام عليها الطغيان العامري ، ولولا ما لهم من العصبية لاستأصلهم الناس . وأمرهم المهدي ، وربما تملقا السكان قرطبة ، ألا يركبوا ولا يتسلحوا . ورد بعض رؤسائهم من باب القصر ، ولم يكن ذلك حالهم في ماضي الأيام . وأحسن البربر ، رغم قوتهم ، أنهم لم يعودوا يمثلون شيئا في الدولة ، وأن قصورهم نهبت دون أن تحاول الشرطة حمايتهم ، فمضى وفد منهم ، على رأسه زاوي بن زيري ، لمقابلة الخليفة ، وشكوا له ما أصابهم ، فخاف موقفهم ، واعتذر إليهم ، وقتل من أتهم بمن العامة في أمرهم . ومالبت أن شفى من رعبه ، وعاد من جديد يظهر بغضهم ، وبجأه بسوء الثناء عليهم .

كان المهدي يقدر خطر البربر تماما ، رغم ما يمكنه لهم من بغض ، وأشد ما يخشاه أن يصبح انهم هشام الثاني ، الخليفة المعزول ، راية تلتقي عندها كل الجماعات التي أساء إليها ، عامدا أو دون قصد ، ففكر واهتدى إلى حل وسط ، ألا يقتل أسيره ، وأن يكفى بإعلان موته . وفعلا في ٢٦ أبريل ١٠٠٩ م توفي مسيحي ، أو يهودي ، كبير الشبه بهشام ، فأمر المهدي بحمل جثته إلى القصر سرا ، وأظهره لأشخاص يعرفون هشاما ، وسواء أكان الميت صورة دقيقة من هشام أم لم يكن ، فالذين شهدوه قبضوا ، وأعلنوا أن هذه جثة هشام الخليفة السابق ، ودعا المهدي بالفقهاء وعلية القوم ، وصلى على الميت صلاة الجنائز ، ودفن في مقابر المسلمين ، ن جلال ملكي يليق بخليفة سابق ، بينما هشام الحقيقي سجين في أحد قصور وزرائه .

وبعد ما ظن الخليفة أنه يستطيع أن يصنع أى شيء ، فأودع السجن في شهر مايو واحداً من أبناء عبد الرحمن التاصر ، متقدماً في السن ، يدعى صايان ، دون أن يعرف السبب ، وترك الناس يتحدثون عن رغبته في قتل عشرة من رؤساء البربر ، فتجمع هؤلاء بزعامة هشام بن صايان ، وبايعوه بالخلافة ، واتخذ لنفسه لقب الرشيد ، وأشار ابن حزم إلى ثورته في طوق

الحمامة ، وقد استطاع أن يجمع حوله سريعاً سبعة آلاف مقاتل ، من المناوئين للمهدي ، ومضى بهم إلى فحص السرادق ، شمال قرطبة ، وهناك انضم إليهم البربر ، فسار بهم جميعاً إلى قصر المهدي ، وقد أخطرت الخليفة بالثورة وهو غارق في ملذاته ، وانتزع منها بقوة لكي يواجه الأمر ، فأرسل يسأل : ماذا تريدون ؟ . ورد هشام الرشيد : أنت وضعت والدي في السجن ، وأجهل مصيره . فأطلق الخليفة في الحال سراح سليمان ، وظن أن الجماهير سوف تقنع وتنصرف ، وخذع نفسه ، لأن هشام أرسل إليه يسأله أن يتنازل عن الخلافة .

وأراد المهدي أن يكسب الوقت : فتظاهر بالرغبة في التحدث مع هشام ، وطال الحوار ، ونقد صبر البربر والعمال ، فانطلقوا يعملون دون انتظار لنهايته ، نهبوا حوانيت سوق الحرس وأحرقوها ، وحينئذ حمل القرطبيون السلاح ، دفاعاً عن بيوتهم ، لاعت الخليفة ، وجاء الجنود لمساعدتهم ، واستمرت المعركة يوماً بأكمله ، وفي صباح الجمعة ٣ من يونية ، فر البربر نجاة بأنفسهم ، في فوضى متقطعة النظر ، وقد لاحقهم القرطبيون حتى ضفاف وادي أرملط على حين احتل آخرون منازلهم ، وأخذوا نساءهم ، وأمر هشام ووالده ، وأمر الخليفة المهدي بقطع رأسيهما .

ومالبث البربر أن أعادوا تنظيم صفوفهم ، وأقسموا أن يثأروا لهزيمتهم ، أقوياء وشجعان لكن مهارتهم محدودة ، غير أن زاوي بن زيري كان معهم لحسن حظهم ، وينتمي في قبيلة صنهاجة ، وكانت تحكم جانباً من أفريقية غاصمته القيروان ، وهي أكثر تحضراً ، وأشد ذكاء من بقية أخوتهم . وقد فهم زاوي أن من الضروري قبل أي شيء البحث عن منافس في مستوى المهدي ، لإعطاء التمرد طابعاً شرعياً ، فبحث بين أحفاد عبد الرحمن الناصر عن يصلح لهذه المهمة ، فوقع على سليمان بن الحكم بن سليمان ، حفيد عبد الرحمن الناصر ، وابن أخ هشام الرشيد ، وعرض على رفاقه أن يبايعوه خليفة ، فعارض بعضهم ، لأن سليمان رجل طيب ، ليست لديه

الإرادة ليكون رئيس جماعة، ولا التجربة ليصبح قائد جيش، ورفض آخرون أى رئيس عربى ، ولكن زاوى أقنعهم فاستجابوا له ، وبايعوا سليمان ، واتخذ لقب المستعين ، ومنذ البدء لم تكن له أية سلطة على البربر ، اختاروا قوادهم دون مشورته ، لم يكن بالنسبة لهم غير أمير أموى أعارهم اسمه ليعملوا فى ظله .

ورحل البربر إلى وادى الحجارة ، واحتلوا المدينة ، وعرضوا على واضح أن يعملوا معا ، وأن يفتح لهم أبواب مدينة سالم ، ولكن واضحا رفض ، وتلقى إمدادات من المهدي فهاجمهم ، وطارده ، ولم يسعدوا بانتصارهم طويلا ، لأن واضحا قطع عنهم التموين ، وخلال أسبوعين لم يكن لديهم ما يأكلونه غير الحشائش . ولمواجهة هذا الحصار أرسلوا جماعة منهم إلى شانجه ، كونت قشتالة : يطلبون تدخله ، ويعرضون عليه تحالفهم ، إذا رفض المهدي وواضح الصالح معهم .

وعندما وصل السفراء إلى قصر الكونت وجدوا سفارة من المهدي سبقتهم إليه ، تسوق بغالا وخيولا وهدايا أخرى ، ووعدوه بالتنازل له عن عدد من القلاع والحصون إذا أسرع إلى مساعدة خليفة قرطبة ، وسبحان مغير الأحوال ، لقد أصبح خلفاء قرطبة يتلقون الأوامر من أمراء المسيحيين فى الشمال ، فيما يتولى بأخص شئونهم ، وما يتوقف عليه مستقبل بلادهم ! .

كان شانجه يعرف أخبار جيرانه جيدا ، وأدرك أن بقاء المهدي مرتبط بخيط رفيع ، فوعد البربر بأن يقف إلى جانبهم ، إذا وعدوه بأن يتنازلوا له عن القلاع والحصون التى وعد المهدي بأن يتنازل نه عنها ، فوافقوا ، حيثئذ صرف شانجه رسل المهدي ، وأرسل إلى معسكر البربر ألف ثور ، وخمسة آلاف خروف ، وألف عربية محملة بالأغذية ، وأعد البربر أنفسهم فورا لبدء حملتهم ، وعندما انضم الكونت شانجه إليهم ، أخذوا طريقهم إلى مدينة سالم . وعندما وصلوا أسوار المدينة حاولوا ، ثانية ، أن يكسروا واضحا إلى جانبهم . قام يتألبوا منه أكثر مما نالوا من قبل ، واعتقدوا بحق أن

عليهم ألا يضيعوا وقتهم ، فأخذوا طريقهم نحو قرطبة ، في شهر يولية من عام ١٠٠٩ م ، فتبعهم واضح وهاجمهم ، واضطر بعد أن فقد الكثير من رجاله أن يلوذ بالفرار عائدا إلى قرطبة .

علم المهدي بسير البربر نحو قرطبة ، فجند كل القادرين على حمل السلاح ، ولم ينتظر وصول العدو ، فخرج يبحث عنه ، والتقى الجيشان في قنطيش ، في ٥ من نوفمبر ١٠٠٩ م ، وكانت نتيجة المعركة هزيمة مروعة للقرطبيين ، كانوا حشداً غير مدرب ولا منظم ، ما بين شيخ ضعيف وحدث غر ، فاستطاع ثلاثون فارساً من البربر أن يقتحموا صفوفهم ، إفلوا هاربين لا يابى بعضهم على بعض ، ووضع البربر السيوف عليهم ، وقتلوا منهم خلقاً عظيماً ، وغرق كثير منهم في الوادي ، وفي الجميع إسقوط بعضهم على بعض ، ودخل البربر أرباض قرطبة ، وبات الناس على سطوح إ دورهم في وجل وخوف .

وأدرك واضح في الحال أنهم خسروا كل شيء ، فانسحب مع فرسانه نحو الشمال ، ولاذ المهدي بقصره ، وبعد قليل حاصره البربر ، فظن أنه ينجو بنفسه ، إذ أورد الخلافة هشام الثاني ، فأخرجه من السجن ، وأقعده في مكان حيث يراه الناس ، وأرسل القاضي ابن ذكوان إلى البربر ليقول لهم : إن هشاماً المؤيد لما يزل حياً ، وأنه يعترف به خليفة ، وليس هو إلا حاجباً له . وضحك البربر من الرسول ومن الرسالة ، وردوا عليه : سبحان الله يا قاضي ! يموت هشام بالأمس ، وتصلى عليه أنت وغيرك ، واليوم يعيش ، وترجع إليه الخلافة ! . وخلال المفاوضات كان القرطبيون يرتعشون لمجرد رؤية سليمان المستعين ومعه البربر يهددون أسوار مدينتهم ، فخرجوا للقائه واعترفوا به خائفة .

وبينما سليمان يأخذ طريقه إلى داخل العاصمة ، ارتكب البربر والقشتاليون كل الجرائم التي تخطر على البال ، وأفلت المهدي واختفى في قرطبة ، وطالب شانه من سليمان أن يوفى له بوعده في التنازل عن القلاع والحصون ، واعتذر

سليمان بأنها ليست في يد الان ، ووعده للمرة الثانية بان يتركها له حين تصبح ملكه ، وحينئذ غادر كونت قشتالة قرطبة مع جنوده ، في ١٤ نوفمبر ١٠٠٩ م ، وقد جمعوا ثروات طائلة ، مما نهبوا من أملاك القرطبيين .

وخلال ذلك وصل المهدي إلى طليطلة ، فاستقبله أهلها في حفاوة ، فتبعه سليمان ، وأرسل إلى أهل طليطلة من يحذرهم غضبه إذا استمروا في تمردهم عليه ، ولم يستجيبوا له ، وتحاشى أن يقتحم هذه القلعة الحصينة ، فتجاوزها إلى مدينة سالم ، على وهم أنها سوف تسقط يوماً . وخلال سيره انضم إليه عدد كبير من الصقالبة ، فاستولى على مدينة سالم دون قتال ، لأن واضحاً أخلاها له ، ولجأ إلى طرطوشة ، ومن هناك كتب إلى سليمان أنه يعترف به خليفة طالما تركه باقياً في منصبه ، أراد بموقفه هذا أن يكسب وقتاً ، وأن يفلت من ملاحقة سليمان ، وكان له ما أراد .

حين أطلقت يد واضح تحالف مع أمراء قطلونية ، ووعدهم بكل ما يريدون ، ورحل إلى طليطلة مع جيشه ، وجيش آخر من القطلان ، انضموا إلى المهدي فيها ، وساروا جميعاً إلى قرطبة ، ثلاثون ألف مسلم وتسعة آلاف مسيحي ، وحين علم سليمان استنفر أهل قرطبة للقائهم ، فأظهروا العجز ، وجبنوا ، وطلبوا منه معافاتهم ، وأثر البربر أن يكون لهم وحدهم شرف تحقيق النصر ، والتقى الفريقان في قرية عقبة البقر ، على مسافة غير بعيدة من قرطبة ، في النصف الأول من شهر يونية عام ١٠١٠ م وقد وضع البربر سليمان في ساقة الجيش ، وجعلوا معه خيلاً من المغاربة ، ونصحوه ألا يترك موضعه حتى ولو وطئته الخيل ، ثم تقدموا ، فحمل القطلان عليهم حملة شديدة ، فراجع البربر فلم يتمكنوا منهم ، فلما رأى سليمان خيل الإفرنج خرقت صفوف البربر ، قدر أنهم هزموا فولى هارباً ، على حين كر البربر على العدو . فقتلوا من القطلان سبعين قائداً وأميرهم ، ولما رأى البربر سليمان فارق موضعه انحازوا إلى الزهراء ، وأخرجوا عيالهم وأموالهم ، وفر سليمان إلى شاطبة ، واقتحم عامة قرطبة (م ٨ - ابن حزم) .

مدينة الزهراء ، فنهبروا ما وجدوا فيها ، ودخلوا الجامع ونهبوا حصره وقنادياه ، ومصاحفه وسلاسل قناديله ، وصفائح أبوابه .

• المهدي خليفة من جديد :

ودخل المهدي قرطبة ، وتعرضت المدينة السيئة الحظ لنهب شامل من القطلان ، كما نهبها البربر والقشتاليون قبل تسعة أشهر ، وأخذت له البيعة خليفة للمرة الثانية ، وكان هشام المؤيد أول من بايعه . ثم خرج يلاحق البربر ، وقد انسحبوا نحو الجزيرة الخضراء ، والتقى معهم عند التقاء وادي آره بالوادي الكبير ، على مقربة من رندة ، وفي المعركة حقق البربر نصراً ثأروا به لهزيمتهم في موقعة « عقبة البقر » ، وهزم جيش المهدي ، وقتل عدد كبير من القواد الصقالبة ، وأكثر من أربعة آلاف من القطلان ، ولقى عدد كبير من الجنود حتفهم غرقاً في مياة الوادي الكبير .

وعاد المهزومون إلى قرطبة ، وبلغ الغيظ بالقطلان مبلغه ، فأرادوا أن يثأروا لهزيمتهم من عامة الناس ؛ فقتلوا كل أولئك الذين يشبهون البربر على نحو ما ، وكل من أراد أن ينتقم من شخص صاح فيه هذا بربري ، فيقتل دون أن يسأل ، وأخذ جندي قطلوني ابنة رجل من البادية جميلة ، وعرف أبوها ، فحمل شكواه إلى واضح ، وقال إنها ليست بربرية ، فرد عليه ، دعلك من هذا ، ما إلى ردها إليك من سبيل ، وعلى ذلك عاهدناهم ، فمضى الرجل باكياً إلى الجندي ، وحمل إليه ٤٠٠ دينار ذهبي يفتدي بها ابنته ، فأخذها منه ثم قتله !

وطلب المهدي من القطلان أن يعودوا إلى قتال البربر من جديد فامتنعوا ، زعموا أن ما خسروه من الرجال لا يسمح لهم بالعودة إلى القتال ، وتركوا قرطبة في يوم الجمعة ٨ يولية ، ورغم كل السوء الذي ارتكبه ، حزن أهل قرطبة لرحيلهم ، حتى كان بعضهم يلقي بعضه فيعزبه جزعاً وخوفاً من عودة البربر بعدهم . وبدأ المهدي زحفه نحو البربر ، ولكن جيشه فقد أهميته بعد رحيل القطلان ، وبعد مراحل من سيره تغشاه رعب قاتل ،

وامتلاً داخله خوفاً من البربر ، فعاد إلى العاصمة من جديد ، ينتظر العدو فيها ، وأمر بحفر الخنادق حولها ، ولكن القدر أراد له أن يسقط قتيلاً بيد الصقالبة ، لا بيد البربر .

لقد كان واضح إلى جانب المهدي . ولكن صقالبة آخرين ، مثل خيران وعنبر : ظلوا في الجانب المعارض : وقد أدركوا أخيراً أن عليهم أن يتحدوا إذا أرادوا أن يحققوا مطامعهم ويستولوا على السلطة ، وقرروا أن يلتفوا من جديد حول هشام المؤيد ، ولتحقيق مخططهم ! تولى واضح إثارة السخط بين أهالي قرطبة ، فأرسل الإشاعات تدق كل باب عن حياة خليفة لا يفيق من السكر ، بين ملذاته ونسائه : وأنه يهاجم علناً فوضى الجند واعتداءاتهم ، ويرضى عنها سراً ، بل ويخصمهم عليها . وعندما أتت الإشاعات إلى ما بقي للخليفة من شعبية وهيبة : سارع خيران وعنبر وقواد آخرون من الصقالبة ، كانوا يعملون في جيش سليمان بتقديم خدماتهم للمهدي ، وما إن دخلوا قرطبة حتى بدأوا يعملون على إسقاطه ، وفي يوم الأحد ٢٣ من يولية ١٠١٠ طاف الصقالبة شوارع قرطبة على خيولهم يصيحون : « يحيا هشام المؤيد » ، ثم أخرجوه من سجنه ووضعوه على العرش .

في تلك اللحظة كان المهدي يأخذ حمامه ، وأعلم بما حدث ، فطار إلى

القاعة وجلس إلى جانب هشام . ولكن عنبر شده بقوة ، وحمله ليكون في مواجهته . وقد أنبه هشام في مرارة : وعاتبه على ما ارتكب في حقه ، وما عانى بسببه ، ثم أخذ عنبر من ذراعه ، وشده إلى المنصة ليقطع رأسه ، فأمسك المهدي بيده المشرعة ، وفي اللحظة نفسها سقطت عليه سيوف صقالبة آخرين .

لقد اعتلى العرش بمؤامرة ، ومؤامرة أخرى أنزلته عنه ، وعن الحياة !

مع هشام الثاني ، ضعيف ومحاصر ، أصبح الصقالبة أكثر من أقوياء وتولى واضح منصب الحجابة ، وحاول أن يحكم الأندلس على نحو ما فعل من قبل سيده المنصور بن أبي عامر ، ولم يدرك أن الظروف تغيرت كثيراً ، وأنه ليس المنصور . ولم يجد في البدء معارضة من سكان العاصمة ، وعرضت رأس المهدي في الشوارع دون أن تسمع همهمة واحدة ، فليس ثمذ من يحن إلى أيام هذا الطاغية ، وداعب الأمل واضحاً في أن البربر سوف يعترفون بالخليفة الذي رد إليه تاجه ، وأقنع نفسه بهذا ، وكان واهماً ! . وعندما بعث إليهم برأس المهدي يطلب منهم الولاء لهشام غضبوا ، وتدخل سليمان لحماية من حملوا الرسالة حتى لا يفتكوا بهم ، وبكى سليمان نفسه ، فاضمت دموعه غزيرة . حين رأى رأس ابن عمه ، فأخذها ونظفها وأرسل بها إلى عبيد الله ، ابن المهدي ، وكان قد اتخذ من طليطلة مقاماً .

وجد واضح البربر على غير ما توقع ، وعرف أن له أعداء في العاصمة نفسها ، وأن بعض الأمويين لا يرضون حكم الصقالبة ، ويرون مصلحتهم في أن يؤيدوا سليمان ، وقد أرسلوا إليه سراً أن يعود إلى العاصمة ، وحددوا له يوم ١٢ من أغسطس ، وأنهم سوف يسلمونه المدينة ، ووعدهم سليمان بتحقيق رغبتهم . وعرف واضح المؤامرة ، أعلمه بها خيران وعنبر ، فاعتقل المتآمرين ، وعندما وصل سليمان إلى أسوار المدينة في اليوم المحدد ، واجهه هجوماً عنيفاً فارتد القهقري سريعا .

وظن واضح أن الهزيمة أضعفت البربر ، فعاد يفاوضهم من جديد ، دون أن يحقق شيئاً ، والوقت نفسه كان سليمان يطلب عون شاذي ملك قشتالة ، حليفه القديم ، ووعده بأن يتنازل له عن عدد من الحصون والقلاع على الحدود بينهما ، كان المنصور قد استولى عليها . ووجد الكونت الفرصة مواتية لتوسيع رقعة مملكته دون حاجة إلى القيام بحملات حربية ضد الأندلس ، فأرسل إلى واضح بأن يتنازل له عن هذه الحصون

والقلاع . وكانت في قبضته ، وإلا فسوف يساعد البربر . ولم يجرؤ
واضح على اتخاذ القرار وحده ، فدعا القاضى والفقهاء والعدول ، وأبلغهم
برسالة شانجه ، وطلب منهم الرأى . وأخرس الخوف من روية البربر ،
ومعهم القشتاليون لمساعدتهم ، الإحساس بالشرف القومى فى أعماق هؤلاء
السادة ، فكان رأيهم : أن يستجيب لمطالبه ! . وفى شهر سبتمبر ، أو
أغسطس ، عام ١٠١٠ م ، وقع واضح معاهدة مع شانجه ، تنازل له فيها
عن أكثر من مائتين ، بين قلعة وحصن . واتخذ بقية أمراء الشمال من
المسيحيين الحادث مثلاً يحتذى . لأنهم يستطيعون بشئ من التهديد والصخب
أن يأخذوا ما يريدون من حصون وقواعد ، فأرسل لهم كونت آخر
(يطالب منهم بدوره أن يتنازلوا له عن عدد من الحصون والقلاع . وإلا انضم
لسليمان والبربر ، فلم يجرؤوا على أن يرفضه) له طلباً ولقد ساءت حال
القرطبيين بعد العامرين ، وكان عليهم أن يخنوا رءوسهم أمام أعداء دينهم ،
وأن يعانون من نزوات الحاكم ، صقلياً أو بربرياً ، وأن يتعرضوا
للهب والمظالم من أولئك هؤلاء ، وباختصار أن يتحملوا كل النتائج
التي تعرض للشعوب حين تذهب إلى الثورة ، وتلقى بنفسها فى أنون
الفتن ، دون أن يكون وراءها هدف واضح محدد ، ودون أن تدفعها
أفكار سامية وعظيمة !

ضرب البربر الحصار على قرطبة على امتداد شهر ونصف ، نزلوا
ربضى شقنדה وفج المائدة ، يغيرون على العاصمة ويقتلون ، وواضح وجنده
خلف السور لا يتجاوزونه شبراً ، وأصاب الناس ضيم مروع فى الأنفس
والأموال ، وزاد الحال سوءاً تفشى المرض والوباء . ثم توجهوا إلى
الزهراء ، وأصبحوا سادتها بعد حصار دام ثلاثة أيام فحسب ، لأن قائداً
خان واجبه ، وسلمهم أحد أبواب المدينة ، فى ٤ نوفمبر ١٠١٠م ، وبدأت
المدحجة فى الحال ، قتلوا حرم المدينة بأجمعه تقريباً ، ولجأ سكانها إلى المسجد ،
ولكن حرمة لم تمنع البربر من اقتحامه ، وأتوا ذبحاً على جميع من فيه ، دون
هجرة بين الشيوخ والشباب والنساء والأطفال ، وبعد أن نهبوا المدينة

أشعلوا فيها النار ، ومن ذلك اليوم تحولت هذه القصور ، أفخم ما عرفت أوربا في العصر الوسيط وما بعده ، وحتى أيامنا ، إلى أكوام من الخرائب والأنقاض . وخرب واضح منية الرصافة ، حرقاً وتدميراً ، وكانت من أجمل ضواحي قرطبة ، خيل إليه أن البربر سوف يقتحمونها ، فسبقهم إلى نهبا وتدميرها .

ولم يتوقف البربر عند العاصمة ، فأخذوا يغيرون خلال الشتاء على ماحولها ، ينهبون ويحرقون ويخربون ويقتلون ، ومنعوا دخول الأغذية إلى العاصمة ، ويرسل إليهم واضح كتائب من الفرسان فلا تلقاهم خوفاً ، وإنما ينهبون ما فضل منهم في القرى والأقاليم ويعودون . ونزع أهل الأرباف إلى العاصمة أفواجا ، خوفاً من البربر ، وصاروا أكثر من أهلها ، ومات أكثرهم جوعاً ، أو مقتولاً بخارجها ، وفنيت مواشيم ، وكان من الصعب إيواءهم فمات أغلبيتهم جوعاً ، بعد أن « أكل الناس الدم من مذابح البقر والغنم ، وأكلوا الميتة والجيف ، وكان قوم في السجن فمات منهم رجل فأكلوه ، ومع هذه المحن كانوا يشربون الخمر ظاهراً ، وأصبح الزنا مباحاً ، واللواط غير مستور ، ولا ترى إلا مجاهراً بمعصية » .

وكانت الحكومة في النزاع الأخير ، وباع واضح الجانب الأكبر من مكتبة الحكيم الثاني ، ليحصل على شيء من المال ، وبدأ الناس يترجون إلى السواحل والبوادي ، ووقعت أكثر المدن أهمية في يد البربر ، وتعرض سكانها لما تعرض له سكان الزهراء . وتحولت القرى إلى صحارى مجربة ، وتمضى بك السبل أياماً وأياماً قبل أن تلقى كائناً حياً ، في طرق كانت من قبل عامرة بالذاهبين والبائدين .

وفي صيف عام ١٠١١ م ، أناخ الشقاء بكللها على الأندلس بعامة ، وقرطبة بخاصة ، وأخذ ينمو من جوانبه ويشتد ، فاجتاحها الطاعون ، وحدثنا عنه ابن حزم في « طوق الحمامة » ، وأن أخاه ذهب ضحية له ،

وبدت المدينة النعسة كما لو كانت سجيعة بالامها ، فهي تزيد النار التها ،
والشقاء ضراما ، بما تختلف فيه ، وتكاثفت الطبيعة على تكثيف آلامها ،
فتدافعت السيول ، وفاض نهر قرطبة ، على امتداد أيام ثلاثة ، فهدم في
قرطبة وأرباضها نحو ألفي دار ، وما لا يحصى من المساجد والقناطر ، ومات
فيه نحو من خمسة آلاف ردماً وغرقا ، وذهبت أمتعة الناس وأموالهم ،
وهدم أكثر السور ، وردم كثيراً من الخندق . ونسب الجنود إلى واضح
أنه سبب الشقاء الذي يعانون ، وأدرك آخرون أنه بيت النية على الهروب ،
وأخذ القائد الصقلي ، ابن وداعة ، وكان على شرطة المدينة ويكره واضحاً
من أعماق قلبه ، يغذى هذا السخط ، وأهين واضح علانية ، وحين
أحسن بضعف موقفه عهد إلى رجل يعرف بابن بكر أن يحمل رغبته في
السلام إلى سليمان ، فأثار عمله أقوى موجة من الغضب ، وعندما عاد
ابن بكر من سفارته تلقفته السيوف دون أن يتيحوا له فرصة لإعلان الرد
الذي تلقاه ، اغتالوه بمراى الخليفة ومراى واضح ، واحتزوا رأسه ،
وطافوا به البلد ، وحينئذ قرر واضح أن يلجأ بين البربر . ولكن الجند
بقيادة ابن وداعة اقتحموا عليه القصر في ١٦ أكتوبر ١٠١١م ، وعاتبوه
على ما تكلف من الأموال ، وما عزم عليه من مصالح البربر ، ثم قام إليه
ابن وداعة فضربه بالسيف ، وحمل عليه القوم ، واحتزوا رأسه ، وطافوا
به الشوارع على رأس رمح ، كالعادة ، وألقوا جسده في الرصيف ، إلى
جانب جثتي المهدي وابن عسقلانة .

ومر عام ونصف قبل أن يجيء البربر . لينزعوا من الصقالبة ومن
القرطبيين متعة الاغتيال المتبادل ، وعبر هذه الفترة اشتد ابن وداعة
على أهل الريف ، وهابة الجند وغيرهم ، ودفع بالفقهاء درجات إلى
الوراء ، ودعا إلى الجهاد . ولم يعد لدى القرطبيين أى شك في
المصير الذي سوف ينتظرهم على يد البربر ، فازدادوا كراهية لهم ،
وتعصبوا عليهم ، وقتلوا كل من أتى على ذكر الصالح معهم ، قتلوا في الحال

رجلا من وجوه أهل العلم قال في المسجد الجامع : اللهم أصلح علينا ! ،
وقتلوا آخر في المكان نفسه ، قال : إن الله أحب الصلح وأمر به . ومثل
ذلك كثير .

ثم وقع في أيدي القرطبيين محارب بربري ممتاز ، في شهر مايو من عام
١٠١٢ م ، حباسة بنى ماكسن ، كان قد نزل عن جواده ليستريح بعد
معركة ساخنة ، فأرسل فيه صقلي سهما ، وأطبق عليه صقليون آخرون ،
وأخذوه أسيرا ، وحين عرفوه شفوا غلهم منه ، لطالما احتقرهم وأكثر القتل
فيهم ، احتزوا رأسه وأرسلوا به إلى القصر ، وتركوا جثته لبعث العامة ،
سحلوه في الشوارع ، ومثلوا به ، مزعوه قطعاً ، ثم أسلموه إلى النيران ،
وحاول أخوه حبوس أن يسترد جثته فلم يستجيبوا له وقد حزن عليه البربر
جميعاً ، وعزموا على أن يثأروا له ، وضاعفوا من قوتهم ، ولكن اليأس أمد
القرطبيين بقوة خارقة ، وقادهم ابن وداعة في هجوم قوى ، واضطر
البربر إلى رفع الحصار ، وعرف أيضا كيف يصدhem عن إشبيلية ،
وسرعان ما ظهر البربر أمام أسوار العاصمة من جديد ، وعلى الرغم من
مقاومة القرطبيين المستميتة ، استطاعوا أن يعبروا الخندق ، وأن يستولوا على
الجانب الشرقي من المدينة ، ولكن الحظ ، وللمرة الثانية ، اتخذ جانب
القرطبيين ، فأرغموا أعداءهم على الرحيل عن الحى الذى استولوا عليه ،
وكان هذا آخر انتصار لهم ، ففي يوم الأحد ١٩ من إبريل ١٠١٣ م ،
اقتحم البربر المدينة من الباب المقابل لربض شقندة ، لأن قائدا خائناً باع لهم
نفسه وأسلمهم الباب .

ودفعت قرطبة ثمن مقاومتها أنهاراً من الدماء ، لقد انسحب منها
الصقالية عندما فقدوا الأمل ، واندفع البربر عبر الشوارع في صياح حاقد
ومرعب ، ينهبون هنا ، وينتهكون الأعراض هناك ، ويغتالون في كل مكان ،
وذهب كثيرون من الطيبين والشيوخ ضحية الغضب الأعمى : قتل سعيد بن
منذر شيخ متهالك ، اشتهر بالورع والتقوى ؛ وكان خطيب المسجد الجامع

تند أيام الحكم المستنصر ، وقتل مروان بن يحيى من أسرة بنى حدير الشهيرة ، وكان قد فقد عقله نتيجة إخفاقه في حبسه ، وقتل ابن الفرضى ، صاحب تاريخ علماء الأندلس ، وقاضى بلنسية أيام المهدي ؛ وكان قد سأل الله الشهادة في آخر حجة له ؛ فاستجاب الله دعاءه ، وبلغ الضحايا من الكثرة عدداً كبيراً ، حتى أن أحداً لم يفكر في عددهم ، أو يعط لهم رقماً . وجاءت الحرائق حارة متوهجة ، ساطعة الضوء ، تلتقى بأنوارها على هذه المشاهد المرعبة ، واتخذت لها وقوداً من أعظم القصور فخامة وترفاً ، ومن بينها قصور ابن حزم وآله ، وقد بكأها شعراً ونثراً في صفحة رائعة من كتابه « طوق الحمامة » .

وبعد يومين من احتلال المدينة دخل سليمان قصر الخلافة ، وجاء القرطبيون الذين أفلتوا من سيوف البربر صدفة ، واصطفوا في طريقتهم ، يطل الرعب من عيونهم ، وجرحى في أعماق قلوبهم ، « متلقين له ، ومسلمين عليه » ، فأنشد متمثلاً :

إذا ما رأوني طالعاً من ثنية يقولون : من هذا ؟ وقد عرفوني
يقولون لي : أهلاً وسهلاً ومرحباً ولو ظفروا بي ساعة قتاوني .
وجئى بهشام المزيد ، فاعتذر لسليمان ، وتبرأ من الخلافة ، خلع نفسه ، وسلم الأمر إليه ، وغاب عن الناس خبره ، قيل قضى عليه عند دخوله القصر ، وقيل فر . واستقر البربر بدءاً في مدينة الزهراء ، وسكنوا القصور التي أفلتت من قبضة النيران ، وبعد ثلاثة شهور فاضت بهم ، فزحفوا على العاصمة ، وحكم على القرطبيين بالنفى ، باستثناء الذين يقيمون في المدينة ، وفي الجانب الشرقي ، وصودرت أملاكهم لصالح المنتصرين ، « ولحق بيونات قرطبة معرفة في نسائهم وأبنائهم » .

• • •

منذ بداية الفتنة أعلن عدد من الولاة استقلالهم ، وجاء استيلاء البربر

على قرطبة ضربة قاصمة لوحدة الخلافة الأندلسية ولم تعد سلطة الخليفة تتجاوز خمس مدن : قرطبة وإشبيلية ونبله وأكشنة وباجة. وغاض الأمل في أن تتحسن الحال ، وبدأ البربر يتمتعون بالثروات التي نهبها في قرطبة وغيرها من المدن . ولم يكن سليمان المستعين نفسه محارباً ، رغم أنه اضطر إلى الحرب على امتداد أربعة أعوام كاملة ، ومن سخرية القدر أن يكون رئيس هذه العصابات الشرسة التي مزقت الخلافة أميراً مستقيماً ، حلواً وكرماً ، يهوى الأدب ، ويقرض الشعر ، يذوب صباية ويتغزل عفاً ، ولديه من هدوء النفس ، وفراغ البال ، وسط هذا البلاء ، ما يتيح له أن يعارض أبيات هارون الرشيد الشهيرة :

ملك الثلاث الآنسات عناني وحللن من قلبي بكل مكان
مالي تطاوعني البرية كلها وأطيعهن وهن في عصياني
ما ذاك إلا أن سلطان الهوى وبه قوين ، أعز من ساطاني

وأن يسبقه معنى ونغماً في أبيات طويلة يصفها ابن بسام بأنها « تشعشت بها الكؤوس ، وتهادتها الأنفاس والنفوس » :

عجبا يهاب الليث حد سناني وأهاب سحر فواتر الأجفان
وأقارع الأهوال لا متهيأ منها سوى الإعراض والهجران
وتملكك نفسي ثلاث كالدمى زهر الوجوه نواعم الأبدان
ككواكب الظلماء لحن لناظري من فوق أغصان على كنان
حاكمت فيهن السلو إلى الرضى نقضى بساطان على ساطاني
هذى الهلال ، وتلك بنت المشتري حسناً ، وهذى أخت غصن البان
فأجنح من قلبي الحمى وتركني في عز ماسكي كالأسير العاني
لا تعدلوا ملكاً تذلل في الهوى ذل الهوى عز وملك ثاني
ما ضر أنى عبدهن صباية وبنو الزمان وهن من عبداني
إن لم أطع فيهن سلطان الهوى كلفاً بهن فامست من مروان

لقد كانت غايته فيما أسهم به أن يخفف من قسوة العاصفة ، ولكن فساد قوائمه وسوءها ، وشهد مظلماها دون أن يستطيع لها دفعا ، جعلت منه شخصا بغیضاً إلى الأندلسيين ، لا يرون فيه غير إنسان زنديق وغاصب ، وضعه البربر ومسيحيو الشمال على عرش الخلافة ، وكان القرطبيون يحتفظون لكلا الإثنین ببغض عمیق .

وبعد أعوام ثلاثة ، في ١ من يولية عام ١٠١٦ م ، استيقظت قرطبة على ضجيج غاز جديد ، على بن حمود وحلفائه .

ينسب على في أسرة إدريس الأول ، مؤسس أسرة الأدارسة في المغرب ، وتبررت أسرته بعد إقامة في المغرب تجاوزت المائتي عام ، حتى أن العربية استدارت في لسانه ، وكان حاكماً شبه مستقل على مدينتي طنجة وسبتة ، على حين يحكم القاسم ، أخوه الأكبر ، الجزيرة الخضراء . ولم تكن مطامع على تقف عند حد ، وحدثته نفسه أن يسعى إلى الخلافة ، ولكي يبلغها تحالف مع الصقالبة . وانضم إليه جانب كبير من البربر كان يرى سليمان إنساناً طرياً ، عارياً من المواهب العسكرية ، وهي الشيء الوحيد الذي يقدرونه ، ووجدوه في على ، فهم يحترمون فيه شجاعته وفروسيته . وينظرون إليه كواحد منهم .

جاء على في جموعه ، وخرج سليمان للقائه ، وكانت الدائرة عليه ، وسبق أسيراً إلى جانب أخيه وأبيه ، وكان المنتصرون يطعمون في أن يجدوا هشاماً المؤيد على قيد الحياة ، وقد سئل عنه سليمان فتنبرأ من دمه ، ودعا على بهم ، فضرب عنق سليمان بيده . وأخيه من بعده . ثم أبيهما الشيخ ، وكان تقياً صالحاً ، بعيداً عن السياسة ، لم يتشبت بشيء من الدنيا ! . وحاول على في البدء أن يكون معتدلاً ، واتخذ جانب الأندلسيين ، رغم أنه نصف بربري ، يستمع إلى شعرائهم مهتماً ، على قلة ما يفهم مما يقولون ، ويثيبهم سخياً ، وجلس بنفسه لمظالم الناس . وهو مفتوح الباب ، مرفوع الحجاب ، للوارد والصادر ، يقيم الحدود مباشرة بنفسه ، ولا يجاني أحداً من أكابر

قومه ، ويعارض بشدة ما يقوم به البربر من نهب ، ويعاقب بتسوية على الجرائم ضد الممتلكات العامة مهما صغرت ، وأراد أن يعيد للقرطبيين ما أخذ منهم البربر ، ولكن طموح خيران دفع به إلى أن يغير موقفه .

في الأيام الأولى أخلص خيران العلى ، وكان في مقاطعته المرية يعاقب ويعتقل أولئك الذين يأخذون جانب الأمويين ، ومن هؤلاء ابن حزم على ما يقص لنا هو نفسه في كتابه « طوق الحمامة » ، ولومضى خيران في طريقه هذه ، ووقف عند قدره ، لربما أسهم في استتباب الأمن وعودة النظام ، ولكنه طمح في أن يمثل دور المنصور بن أبى عامر ، ولكن علماً رجل لا يقنع بما قنع به هشام المؤيد ، وخيران يعرف ذلك جيداً ، ومن ثم عزم على أن يعيد الأسرة الأموية ويحكم باسمها ، فبحث عن مطالب منها بالخلافة ، ووجده في شخص حفيد عبد الرحمن الأوسط ، ويحمل اسمه ، ويقع في بلنسية ، ووعده جماعة من الأندلسيين بتأييده ، ومن بينهم المنذر حاكم سرقسطة ، وحليفه ريموندو كونت برشلونة . وعرف على أن رفاقه باعوه ، وأن شعب العاصمة يؤيد عودة بنى أمية ، فقسا عليهم ، ورمى بهم بين أنياب البربر ، وأباح لهؤلاء أن يتصرفوا في قرطبة أحراراً ، كما لو كانت بلداً عدواً فتح عنوة ، وأعطاهم المثل من نفسه ، فصب على القرطبيين ضرباً من التنكيل والمغارم ، وانتزع السلاح منهم ، وهدم دورهم ، وقبض أيدى الحكام عن إنصافهم ، وأغرم عامتهم ، وتوصل إلى أعيانهم بقرم من شرارهم ، فتحوا له أبواباً من البلايا أهلكوا بها الشعب ، وتقربوا إليه بالسعاية ، وفاضت المدينة بالشرطة والجوسيس والوشاة ، وأصبح نصف السكان يتجسس على النصف الآخر ، وباع كثيرون أنفسهم للحاكم ، وساد العاصمة رعب أسود ، وتزامل الفجور والمظالم ، ولزم الناس البيوت ، وتطمروا في بطون الأرض ، وقل ظهورهم بالنهار ، وخلت منهم الأسواق ، فإذا دنا المساء ، وقل الطلب ، انتشروا تحت الظلام لبعض حاجاتهم .

واعتقل الأعيان ، وصادر أموالهم ، وامتنع بعضهم بالضرب ، وفدوا

أنفسهم فأمر بإطلاق سراحهم ، فلما أحضرت دوابهم للركوب استولوا عليها ، وأمرهم أن يعودوا إلى بيوتهم راجلين ، وأقسم أن يدمر قرطبة بعد أن يخليها من أهلها أو يقضى عليهم ، وأعفاه الموت من أن يبر بقسمه ، لأن ثلاثة من غمار صقالبة القصر ، كانوا قبل في خدمة الأمويين ، ويتمتعون بثقة على ورعايته ، قرروا أن يضعوا لطغيانه غير المحتمل حداً ، فقتلوه ليلاً وهو في حمامه ، وأراحو قرطبة منه ، وتردد البربريين مبايعة ابنه حاكم سبتة ، وأخيه القاصم وإلى إشبيلية ، واستقر رأيهم على هذا الأخير ، وبايعه الناس بعد ستة أيام من موت أخيه .

ودعا خيران ومنذر أنصارهم إلى اجتماع كبير عقد يوم ٣٠ أبريل ، ومثل الفقهاء جانباً ملحوظاً فيه ، وقرر المؤتمر أن تكون الخلافة بالانتخاب ، واختاروا عبد الرحمن الرابع ، وتلقب المرتضى ، وكان يقيم في بلنسية . وبعد اتخاذ القرار رحلوا إلى غرناطة ، في طريقهم إلى قرطبة . وعندما وصلوا إلى أسوار المدينة تبادل المرتضى وزاوى بن زيرى حاكم غرناطة رسائل عنيفة ، وانهيا إلى أن يكون السيف حكماً بينهما . وعبر الطريق أدرك خيران ومنذر أن المرتضى ليس الشخص الذى يبحثان عنه . ولم يكن حق الأمويين في الخلافة يعنهما كثيراً ، لئلا يقاتلان من أجل أموى يحكمان باسمه ، والمرتضى دون ما يطمحان ، بل وكان يملئ عليهما آراءه . فبدأ فيها المعركة الغدريه ، ووعدا زاوى بأن يتخليا عنه في اللحظة التى تبدأ فيها المعركة . ولم يقدموا على جريمتها منذ البدء . وقاتلا أياماً ، ولم يستطع زاوى أن ينتصر ، فطلب منهما الوفاء بما عاهداه عليه ، فاستجابا له ، وأسلماه سيفيهما . ولم يوافق القواد على خيانتهم ، وغضب كثيرون . ومن هؤلاء سليمان ابن هود وكان قائد الفرقة المسيحية في جيش المنذر ، وتبعهما البعض ، وانهزم جيش المرتضى بعد أن كان قاب قوسين من النصر وأدنى ، وكان ابن حزم رفقة جيش المرتضى ، ووقع أسيراً . وقاتل المرتضى حتى بعد أن تخلى عنه الجانب الأكبر من قواته ، ودافع في شجاعة نادرة ، وأوشاك أن يقع

في أيدي أعدائه ثم أفلت هارباً ، ووصل إلى وادي آش ، وهناك دس عليه خيران من قتله غدرًا .

وانتهى خيران بأنصار حزبه ، وبجبنه وعار خيانتة ، ولم يعد الصقلية في حالة تسمح لهم بجمع جيش ، وأصبح البربر أعداؤهم سادة جنوب شرقي الأندلس ؛ وحاولت قرطبة أن تأسو جراحها ، تأمل أن تعيش في ظل مطلة أقل طغياناً وأكثر سلاماً ، فقد كان قاسم بن حمود يؤثر السلامة ويميل إلى الراحة ، ولم يصف إلى آلام القرطبيين وتعاستهم مزيداً ، وأرادهم أن ينسوا خلافاتهم القديمة فاستقدم خيران وصالحه ، وأعطى زهيراً ، صقلبياً آخر كان والياً على مرسية ، مقاطعات : جيان وقلعة رباح وبباسة .

كان القاسم شيعياً ، أو على الأقل على صلة بالشيعية ، ولكنه لم يظهر ذلك ، ولا غير على الناس عادة ولا مذهباً ، وأمل الناس معه شيئاً من الهدوء ، وكان يعرف أن شعب العاصمة لا يحبه ، فترك ذلك للزمن يخفف منه أو يأتي عليم .

كان القاسم يشك في البربر ، فبحث عن التأييد بين جماعات أخرى ، اشترى السود الذين كانوا في خدمة البربر والصقلية ، وكون منهم جيشاً يحرسه ، وعهد إلى رؤسائهم بالأعمال الهامة ، فغضب البربر ، وعرف ابن أخيه يحيى كيف يركب روح السمخ فيهم ، وزحف بهم إلى قرطبة ، وأزاح القاسم عنها ، في عام ٨٤١٢م - ١٠٢١م ، وعين نفسه خليفة ، وتلقب المعتلى ، واستقر فيها بعد صراع مرير مع أبناء عمومته ، ثم تركها ولحق بمكانه من مالقة ، ثم رده القرطبيون ثانية وقتل فيما بعد ، وهو محاصر لإشبيلية ، يوم الأربعاء ٨ من المحرم عام ٨٤٢٧م - ١٠٣٥م وانهزم البربر معه .

وظن القرطبيون أن الأمر خلع لهم ، فاتفق رأيهم على رد الأمر لبني أمية ، وفي شهر نوفمبر ١٠٢٣م تألفت اللجان ، وبدأت المناقشات ، ووضع الوزراء أمام الشعب ثلاث شخصيات ليختار الخليفة من بينهم : سليمان

ابن عبد الرحمن الرابع الملقب بالمرتضى ، وعبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار
أخا المهدي ، ومحمد بن عبد الرحمن العراقي ، وظن الزعماء أن سليمان ،
ووضع اسمه على رأس القائمة ، سيكون الخليفة المختار ، فأعد الوزير أحمد
ابن بردة وثيقة البيعة باسمه ، وكان سليمان دون ما تصور أتباعه بكثير ،
وعبد الرحمن فوق ما ظنوا وتخيلوا .

كان عبد الرحمن لبقاً ذكياً ، وأديباً لوذعياً ، في العشرين من عمره ،
ليس في بيته يومئذ أبرع منه منزلة ، نقلته المخاوف ، وتقاذفته الأسفار ،
فتحنك وتخرج وتمرن فيها ، وقد نفاه الحموديون أيام دولتهم ، وسرعان
7 ما عاد إلى قرطبة سرّاً ، فشهد الفتن الحادثة بين البرابرة وأهلها ، وهم
فيها بالوثوب ، وبث دعائه إلى أهلها ، فلم يصح له شيء مما أراد ، وأنكر
الوزراء المدبرون أمره . فتجردوا لطلبه وطلب دعائه ، وسجنوه ولم يخرجوا
من السجن إلا يوم جلوس صاحبهم عبد الرحمن هذا للإمارة . وقد أدرج
اسمه في قائمة المرشحين لأن غضبه يثير عدداً من القرطبيين ، ولم ير فيه
للذين يدبرون الخطط منافسا مخيفاً لسليمان ، ارتفعوا به في أكثر تقدير إلى
مستوى محمد العراقي ، ولم يكن هذا يتمتع بأية شعبية .

أما وقد وثق الوزراء من النصر فقد دعوا الخاصة والجند والعامّة إلى اجتماع
يعقد في المسجد الجامع لاختيار الخليفة . وفي اليوم المحدد جاء سليمان أولاً ،
صحبه الوزير عبد الله بن مخامس ، في ملابس فخيمة ، وعلى وجهه ابتسامة
وضيئة ، واثقاً من اختياره ، وتقدم إليه أنصاره فأجلسوه على مرتبة لا تصلح
لأحد سواه . ثم أقبل عبد الرحمن في خلق عظيم من الجند والعامّة ، وقد تكيفه
أمرا الدائرة محمود وعمر في رجالهما ، شاهرين سيفيهما أمامه . وما أن
تجاوزوا عتبة المسجد حتى نادوا به خليفة وسط التكبير والتهتاف ، فأسقط
في يد الوزراء ، وخذلتهم حيلهم . ولم يكونوا يتوقعون شيئاً كهذا ، ودخل
عبد الرحمن المقصورة فبويع لوقته ، واستدعى سليمان ، وجيء به مهوئاً ،
فقبل يده ، وهناك فأجلسه إلى جانبه ، ثم وافى محمد بن العراقي أيضاً

فقبل يده وبأبعه ، وتمت البيعة لعبد الرحمن في اليوم الرابع من شهر رمضان سنة ٤١٠ هـ = ١٠١٨ م ، وحينئذ محاذ الوزير ابن بردة اسم سليمان من وثيقة البيعة ، ووضع مكانه اسم عبد الرحمن الخامس ، وتلقب بالمستظهر .

كان عبد الرحمن يعتمد على الشباب الصاعد من أبناء الخاصة ، فاختار وزراء له ابن حزم ، وابن عمه عبد الوهاب ، وكانا فيما يقول ابن حيان المؤرخ القرطبي الكبير « من أكل فتیان الزمان فهماً ومعرفة ونفاذاً في العلوم الرفيعة » ، وأبا عامر بن شهيد الشاعر الكاتب . وهؤلاء رغم ما يتمتعون به من مواهب غير شعبيين ؛ وليسوا محبين إلى الفقهاء والمحافظين لارتقاء سلوكهم ، وتحرر أفكارهم ، واحتقارهم للعادات المتخلفة ، ولم يغفر له أنصار سليمان لعبته ، وانتصاره عليهم ، ونقمت عليه طوائف أخرى اعتقاله أقاربه من بني أمية ، ومن بينهم الذين كانوا مرشحين معه لتولي الخلافة .

ومن جانب آخر ساءت الحالة الاقتصادية ، وأغاض الشقاء الشامل كل بوادر الأمل ، وعمت البطالة ، وأصبح عامة الناس على استعداد في أية لحظة أن يأتوا بفئوسهم على بناء المجتمع القديم ، واتخذوا من محمد ابن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر رئيساً لهم ، ورأوه أحق بالخلافة من غيره ، رغم أن اسمه لم ينطق به أحد ولا جرى في خاطر ، لأنه لإنسان عادي ، بلا مواهب ولا ثقافة ، ولا يعرف من الحياة غير الموائد الحافلة والنساء الجميلات ، ويرى في نفسه غير ما يرى فيه الآخرون ، فنقم لأن الخلافة تجاوزته ، وبيت النية على الثورة ، ودفع إليها بالعامية ، وكان قريباً منها ، يخالطها ويتودد إليها ، فهي ترى فحشه تقوى ، وجهالته حنكة ، واستهتاره تحوراً ، وفتح شهيتهم للسلب والنهب ، وكل ما حولهم يجعل منها حقاً مقررأ .

وانضم الخاصة إلى العامة بعد موت سليمان ، جمع بينهما ابن عمران :

شخصية خطيرة ، كان في السجن ، ورد إليه محمد الخامس حريته في لحظة تقوى مفاجئة ، رغم أن أصحابه حنوه منه : « إن مشى ابن عمران في غير سجنك باعاً بتر من عمرك عاما ! » . وبدأ ابن عمران يستميل رؤساء الحرس فاستجابوا له بسهولة ، لأنهم ناقلين على الخليفة ، فقد وصلت فرقة بربرية إلى قرطبة لتقدم خدماتها إلى الخليفة . قبل إطلاق سراح ابن عمران بيومين ، ولأنه أحس بالخطر يحذق به من كل جانب وفي كل لون ، فقد أكرم مثواهم ، وأنزلهم دار الملك ، فأثار ذلك غيرة رجال الحرس ، وزادهم ابن عمران إثارة ، ونزل بهم إلى العامة يقولون : « نحن الذين قهرنا البرابرة وطردهم من قرطبة ، وهذا الرجل يسعى في ردهم إلينا ، وتمكينهم من نواصينا » .

ورغم أن عبد الرحمن لم يكن قد صنع شيئاً بعد ، فقد اجتاحت العامة القصر ، وحرروا الأشراف الذين كانوا في سجنه ، وفهم الخليفة أنهم يريدون رأسه فطلب النصيح من وزرائه ، ولكن هؤلاء كانوا بدورهم يفكرون في حياتهم ، وربما في الجماعة التي من الأفضل لهم أن ينضموا إليها ، وانتصرت الأنانية في أعماق الكثيرين ، فتركوا الخليفة لقدره ، وتسلموا عنه واحدا وراء آخر . وسرعان ما أدركوا أنهم خدعوا أنفسهم ؛ فقد كانت السيوف بالأبواب تنتظر رعوس الخارجين منهم دون تمييز .

وأراد عبد الرحمن أن يخرج من باب الحمام فأظهر له الحراس سيوفهم وأشبعوه سبا . فعاد للقهقري ، وترجل عن فرسه ، وتجرد من ثيابه ، حتى بقي في قميصه واستخفى في موقد الحمام ففقد شخصه ، على حين أخذ العامة والحرس يطاردون البربر في كل مكان لجأوا إليه وبدأ الموت يحصد هؤلاء دون رحمة أو هوادة ، في القصر أو الجامع ، « وفضح حريم عبد الرحمن ، وسبي العامة أكثرهن ، وحملوهن إلى منازلهم علانية ، وجرى عليهن ما لم يجر على حرم سلطان في مدة تلك الفتنة » .

وانتصر محمد ، وبوبع خليفة ، وتلقب المستكنفى ، فى ٨ من يناير ١٠٢٤ م ، وقام محمد وعمر على رأسه بالسيوف مقامهما بالأمس من ابن عمه عبد الرحمن ، وأمر محمد بالبحث عن عبد الرحمن فى كل مكان ، فوجدوه أخيراً فى أبزن الحمام ، قد انطوى انطواء الحية فى مكان حرج ، فأخرج فى قميص مسود بحال قبيحة ، وجئ به إلى المستكنفى فبطش به بعض الرجالة القائمين على رأسه ، فتهالهل وجه ابن عمه ، وأخذ فى تدبير سلطانه .

كانت إمارة المستظهر إلى أن قتل سبعة وأربعين يوماً ، لم تنتشر له فيها طاعة ، ولا التأمت عليه جماعة ، ولا تجاوزت دعوته قرطبة ، وكانت سنة يوم قتل ثلاثاً وعشرين سنة هجرية .

وكان على حدائنه ذكياً يفظاً ، لبيباً أديباً ، حسن الكلام ، جيد القريحة ، مليح البلاغة ، يتصرف فيما شاء من الخطابة بلسنة ورواية ، ويصوغ قطعاً من الشعر مستجادة . وكان فى وقته نسيج وحده ، ختم به فضلاء أهل بيته الناصرين ، فلم يأت بعده مثله ، وأورد لنا ابن بسام فى القسم الأول من ذخيرته طائفة من أشعاره قالها فى « حبيبة » بنت « مشنف » من سليمان بن الحكم ، وكان يحبها ، وحاول خطبتها من أمها فلوته ، وهى أشعار جيدة ورقيقة ، وتعكس نفساً شاعرة حقاً .

حاول المستكنفى أن يصبح شعبياً ، فتلقى جميع الناس بالإبناس ، واستألمهم بالأهوية ، ورأى المال عزيزاً فظن البشر الرخيص يقوم مقامه ، فكان يقول للناس أجمعين : ارتعوا كيف شئتم ، وتسموا من المناصب ما أحببتهم ، فتسمى بالوزارة فى أيامه مفردة ومثناة أراذل الناس ، وأخابث النظار ، وزعانف الكتاب والخدمة ، وأخذ الفقهاء أيضاً يحظهم من هذه المناصب ، وجاءوا فى ذلك بطامة لم تسمع فى الأعصر الخالية ، فأخطأوا وألحقوا بالدين وصمة ، وفتنوا بالمناصب العالية ، وشدوا أيديهم عليها ، واضطربت قرطبة وكثرة ما أصبح فيها من المردة ، وقبض المستكنفى على جماعة من بنى عمه

وحاشيته ، ومستشارى سلفه ، وفيهم ابن حزم ، وابن عمه ، وسجنوا بالمطبق ،
وعاجل ابن عمه عبد العزيز العراقي فخنق ، وأمسى ميتا ، ونعاه إلى الناس
فلم يخف عليهم اغتياله . وهرب آخرون حتى لا يواجهوا نفس المصير ،
ومن بين هؤلاء أبو عامر بن شهيد ، لجأوا إلى مالقة ، وفيها استثاروا حاكمها
يحيى بن حمود لكي يضع حدا للفوضى السائدة في قرطبة .

وفكر يحيى طويلا ، وقبل أن يقرر اندلعت الثورة في العاصمة في مايو
١٠٢٥ ، وانفق الملاح على خلع المستكنسى ، ونصحه الحرس بأن يهرب ،
فاستجاب لهم ، وخرج على وجهه ، وقد لبس ثياب الغايات متنقبا بين امرأتين
لم يميز بينهما لمرانه على التخنيث (التعبير لابن حيان !) ، وخرج عن قرطبة
فمات بأقلش ، فكانت دولته سبعة عشر شهرا ، صعبا نكدات ، سودا
مشوهات ، فنبها استوصل بقية قصور الناصر بالخراب ، وطمست أعلام
قصر الزهراء واقتلع نحاس الأبواب ، ورصاص القنى . وغير ذلك من
الآلات .

وكان المستكنسى على أهل قرطبة محنة وبلية ، غفلا عطلا ، مجبولا
على الجهالة ، عاطلا من كل فضيلة ، عضته الفتنة فأملق حتى استجاز الصدقة
ولم يلحقه الاعتقال على امتداد أيام الفتنة تحقيرا لأمره ، فكان يقصد أهل
الفلاحة أو أن يصممهم لغلاتهم يسألهم من زكاتها تكليما ومخاطبة . وكان
معروفا بالتخلف والركاكة ، مشتهرا بالشرب والبطالة ، سقيم السر والعلاية ،
أمير الشهوة ، عاهر الخلوة ، والجانب الوحيد الذى دخل التاريخ من بابه
هو أنه والد ولادة ، الشاعرة الأدبية ، وصاحبة « النصالون » الأدبي
الشهير في عاصمة الخلافة .

وخلت قرطبة من أى خليفة أو أمير أو حاكم على امتداد ستة شهور ،
نعم كان هناك مجلس للدولة ، ولكن حكمه أقرب إلى السوء منه إلى الإصلاح ،
وما كان لموقف كهذا أن يدوم طويلا ، فالنهاية تقترب ، النظام القديم
يغرق ، والجديد في طور التجربة ، على حين يرى القرطبيون في الخلافة

أنها الشكل الوحيد القادر على إنهاء الدولة من كبوتها ، ولكن من الذي يستطيع أن يقيمه ؟ وأين الأمير الأموى الصالح ؟ لقد حاولوا واختاروا أفضل أموى فى هذا البيت ، عبد الرحمن الخامس ، ومع ذلك فشلت المحاولة . لا بديل إذن عن أمير يعتمد على قوات أجنبية ، يمنع السلب والنهب والاعتقال ، ويفرض الأمن والنظام ويحمى هيبة الدولة ، وليس بين الأمويين من يتوافر على إهانة القوات ، ففكروا أن يعيدوا الخلافة إلى الحموديين وإلى يحيى بن على بن حمود بالذات ، وبدأوا المفاوضات معه ، وكان يقيم فى مالقة ، فقبل عرض القرطبيين دون أن يتحمس له كثير أو ربما داخله شيء من الشك ، فقرر أن يبقى حيث هو ، وأرسل إلى قرطبة قائداً بريراً مع فرقة من الجنود فى نوفمبر ١٠٢٥ م .

وأظهرت الحوادث فيما بعد صدق حدسه ، فكره سكان العاصمة حكم الأمازيغ سريعاً ، وأعاروا أسماعهم لصقالية الشرق ، خيران وإلى الميرية ، ومجاهد وإلى دانية ، وكانوا يرسلون إليهم : إذا أردتم أن تتحرروا فسوف نساعدكم ، ولم تذهب وعودهم عبثاً . وفى شهر مايو ١٠٢٦ زحف هذان القائدان إلى العاصمة فى جند كثير ، وثار القرطيبيون ، وعزلوا قائد يحيى ، وقتلوا عدداً من جنوده ، وفتحوا الأبواب لخيران ومجاهد ، وعندما بدأ الحديث عن الحكومة اختفى كلاهما . خاف خيران من حليفه فخانه وأسرع عائداً إلى الميرية ، وظل مجاهد وقتاً فى قرطبة ، ومالبث أن غادرها دون أن يعيد الخلافة ، وبعد رحيله قرر مجلس الشورى أن يتولى ذلك بنفسه ، رغم أن التجارب السابقة أثبتت فشل المحاولة ، لأن أى أمير أموى يلقي بالخلافة على رأسه ، وسط الجماهير الساخطة ، دون أن تدعمه قوات أجنبية ، مقضى عليه بالفشل مسبقاً .

ومع ذلك رأى المجلس بإيعاز من على بن جمهور أقوى الأعضاء نفوذاً ، أن يقدم الخلافة لهشام ، الأخ الأكبر لعبد الرحمن الرابع المرتضى ، وكان يقيم فى حصن البونت لاجئاً منذ وفاة أخيه . وفى شهر أبريل ١٠٢٧ م بايعه

أهل قرطبة ، وتلقب المعتضد ، أو المعتمد في رواية ، ومرت سنوات ثلاث قبل أن يستطيع التغلب على الصعوبات التي تحول دون وصوله إلى قرطبة ، ظل خلالها ينتقل من مدينة إلى أخرى ، وفي ١٨ ديسمبر ١٠٢٩ م وصلت الأنباء بأن هشاما سوف يدخل المدينة ، فخرج الجند لاستقباله ، وعلت الأصوات مرحبة به ، وامتألت الشوارع التي سوف يمر بها بالجماهير ، توأمل فيه أن يقيم حكرمة قوية قادرة . وما أسرع ما تلاشى الأمل ، لقد دخل العاصمة في زى تقهقهه العين ، وهنا وقلة وعدم رواء وبهجة وعدد وعدة ، فوق فرس دون مراتب الملوك ، بحلية مختصرة ، عار من أية هيبة ، يسير هوناً ، والناس يهشرونه ولا يعلمون ما سبق لهم من المكروه به ، لأنهم يتوقعون أن تنتهى الفوضى معه .

ولكن هشاما الثالث لم يخلق لمثل هذه الآمال العظيمة ، فهو طيب ورقيق الحاشية ، كسول ومتردد وضعيف ، لا يقدر غير لذته المائدة ، وأدرك الذين اختاروه أنهم أخطأوا الاختيار ، وما لبث الجند أن ثاروا عليه وخلعوه ، وأخرج من القصر مع حشمه ، والنساء حاسرات عن وجوههن ، حافية أقدامهن ، إلى أن دخلوا الجامع الأعظم على هيئة السبايا ، فأقاموا هنالك أياماً يتعطف عليهم الناس بالطعام والشراب ، إلى أن أخرجوا عن قرطبة ، ولحق هشام ومن معه بالثغور ، ولم يزل يحول بينها إلى أن لحق بابن هود وكان متغلباً على سرقطة واردة وأفراغة وطرطوشة . فأقام عنده إلى أن مات في ديسمبر من عام ١٠٣٦ م ، ولم يكن لموته أى صدى في قرطبة ، أو في غيرها من المدائن من باب أولى ! .

و بنجاحه انقطعت الدولة الأموية من الأرض ، وانتشر سلك الخلافة بالمغرب ، وقام الطوائف بعد انقراض الخلائف ، وانتشر الأمراء والرؤساء من البربر والعرب والموالى بالجهات ، واقتسموا ، خضتها ، وتغلب بعض على بعض ، واستقل أخيراً بأمرها منهم ملوك استفحل أمرهم وعظم شأنهم ، ولاذوا بالجزى للطاغية (ملك المسيحيين في الشمال) ، أن يظهر عليهم أو يبتز ملكهم ، وأقاموا على ذلك برهة من الزمان ، حتى قطع إليهم البحر ملك

العدوة ، و صاحب مراكش أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتوني ،
فخّاعهم وأخلى منهم الأرض » (١)

ومع سقوط الخلافة أخذت حياة ابن حزم وجهة أخرى ، على نحو
ما أشرنا إليه في حياته ، لونت ذكره بظلال قاتمة ، ومزجت مشاعره
بأحاسيس مريرة ، رغم أنه تخلى عن السياسة والوزارة ، وعكف على الدرر من
والقراءة والتأليف والحوار وطلابه ! .

ابن حزم ... قمة إسبانية

للمؤرخ الإسباني : سانتشيث البرنس

شهد ثورات قرطبة ، وجاءت نتيجة حتمية للاستبداد العامري ، ورأى الحروب الأهلية التي تلتها ، وعاش في إسبانيا ممزقة ، تناثرت دويلات تحمل اسم « الطوائف » ، وفيها صب التيار الذي تكون خلال حكم المنصور بن أبي عامر ، وكان مستبداً ، وعمل والد ابن حزم وزيراً له . ومن ثم قدر لابن حزم أن يواكب فترة حرجة ، شهدت انهيار الخلافة القرطبية ، والانحدار الأندلس تاريخياً . وكما يحدث في أحيان كثيرة عبر التاريخ ، بلغ التطور الثقافي خلال المرحلة السابقة أوجه في عصر الطوائف ، وهو أشد حيوية وأقل صقلا ، ومعاً حدث الانحدار السياسي والتفوق الفكري . وفي قلب إسبانيا هذه ، ممزقة ومشقة ، رفرفت شخصية العلامة القرطبي خنفاة وعالية ، ويمكن أن تقارن بأعظم قمم الفكر الإسباني على امتداد كل العصور .

كان ابن حزم متكلماً وفيلسوفاً ، فقيهاً وباحثاً ، لغوياً ومؤرخاً ، شاعراً وناثراً ، عالم نفس وأخلاق ، ورجل فكر وعمل ، سياسياً وحالماً . ويمكن أن يوضع إلى جانب أعظم كبار المفكرين والشعراء في العصور الوسطى . ولو قدر له أن يكتب في اللغة اللاتينية أو الرومانشية لبلغ اسمه من الذبوع والشهرة ما بلغه دانتي ، أو القديس توماس الإكويني . ولكن على العكس ، ومن الضروري أن نصرح به ، استطاع أن يبلغ هذه المرتبة العملاقة لأنه كان إسبانياً مستعرباً ، ولو كان غربياً خالصاً في الأيام التي قدر له أن يعيشها لكان من الصعوبة البالغة بمكان أن يبلغ القمة التي خلق فوقها فكره ، لأن الثقافة الأوروبية خلال النصف الأول من القرن الحادي عشر ، وانسمت بالمفجأة ، كان ممكناً أن تدمر القدرة الخالقة عند حفيد الإيبيريين الإسبان القدامى : أبناء فرضة نهر ولبة Huelva

إن المعادلة الجبرية بين السلالة والأرض والوعاء الثقافي والتوتر التاريخي والحياة العائلية ، وكلها تلعب دوراً حاسماً في ازدهار شجرة العبقريّة ، معقدة للغاية ، ولأنها اكتملت حول ابن حزم استطاع أن يصبح على نحو ما كان عليه ، ولهذا نستطيع أن نفهمه فحسب إذا وضعناه وسط سلالاته ، وعدنا به إلى أجواء عصره ، وتسربنا إلى أعماق شخصيته .

لقد حاول كبار المستشرقين تحليل هذه العناصر ، وتميز المستشرقون الإسبان من بينهم على نحو رائع ، وبخاصة ميغيل أسين بلاثيوس ، وإمبايو غرسية غومث . ولن أحاول اكتشافه الآن ، وأنا أرزح تحت أعباء سنين طالت ، لأن ذلك يكاد يدفعني إلى حالة من الوجد أمام أعماله ، أودعني تستحوذ على حماسة مبتدئ خطيرة ، وكلاهما - الوجد والحماسة - أفسدا الفكر الحاد لبعض المدركات التاريخية في كتب ابن حزم ، وفي الاعترافات التقية المتأخرة للمفكر الأندلسي العظيم . ومنذ أن نشر أسين بلاثيوس شيخ المستشرقين الإسبان المعاصرين ، ترجمته لكتاب : « الأخلاق والسيرة مداواة النفوس » عام ١٩١٦ ، والجزء الأول من دراسته عن ابن حزم وكتابه : « الفصل في الملل والأهواء والنحل » ونشره عام ١٩٢٧ - وما أكثر الأمسيات التي شهدت فيها أسين بلاثيوس يسود الصفحات البيضاء بترجمته للكتاب ، في مكتبته من شارع أنتشا Ancha ! - أحسست بالأهمية المتزايدة لهذه الشخصية الإسبانية المسلمة المنقطعة النظير ، وإحدى أفكاره عن الحروب الأهلية : « نوار الفتنة لا يعقد ! » باشرت تأثيراً حاسماً على موقفى من حرب الإخوة المتقاتلين في الحرب الأهلية الأخيرة ، ١٩٣٦-١٩٣٩ والتي مزقت وطني في قسوة . وتوارد في ذهني تفكير ابن حزم عنها ، وهو مصيب للغاية ، وجرى به قلمي في مقدمة كتابي : « حول أصول الإقطاع » وكتبته في مدينة بوردو بفرنسا ، بينما الإسبان يتقاتلون في وحشية قليلة النظير . وفيما بعد ، عندما أعددت كتابي عن « إسبانيا الإسلامية » كان على أن ألتقي مع ابن حزم من جديد . واعتزني دهشة قوية عندما

تأكدت لى إسبانية مزاجه وشغلى الأمر مشتاقا ، فعرضت له فى عدد من المحاضرات ، وفى مقالين أو ثلاثة .

أحد كتب ابن حزم ، وهو طوق الحمامة ، ترجم إلى عدد من اللغات الأوروبية الحديثة : الإنجليزية والروسية والفرنسية والإيطالية ، والإسبانية أخيرا . وهذا السلسلة من الترجمات تؤكد الاهتمام الذى أثاره الكتاب فى عصرنا خارج دائرة المستشرقين والعاكفين على الدراسات . لقد استطاع القرطى ، علامة عصر الطوائف ، أن يصبح معاصراً ، وأن يشد انتباه قطاعات عريضة من المهتمين بالظواهر الأدبية ، والمغربين بالمشكلات التاريخية . وتقدم ابن حزم إلى المقام الأول من اهتمام المفكرين والمؤرخين والمثقفين والباحثين ، وحتى من ذواق الأظمة الممتازة العارفين ، بين الآداب القديمة على امتداد كل العصور ، ببر اهتمامى بشخصه وبمؤلفاته ، ومع ذلك فإن أحلل لا هذا ولا ذاك . إن اهتمامى - كمؤرخ - ينصب على انصهار واستمرار ما هو إسباني فيه ، وشدنى إليه ما يثيره من سؤال حين نضعه داخل النمط الحيوى لشبه الجزيرة الإيبيرية ، وارتباطه به ، ارتباطات نستطيع أن نقول إنها دارجة مع إسبان آخرين من عصور متفاوتة جدا ، جاءوا قبل هذا القرطى المسلم ، أو بعده ، بألف عام ، وكتابه عن الحب ، يمكن أن يقرأه اليرم ملايين الغربيين فى لغاتهم القومية . وثمة مشكلة مسبقة تعترض طريقي ، طرحها وعرض لها على طريقته أورتيجا إلى جاسيت .

لقد شرفت دراسة وترجمة «طوق الحمامة» إلى الإسبانية ، والى قام بها غرسية غومس ، بمقدمة للأستاذ العظيم أورتيجا إلى جاسيت ، وحاول فيها أن يقدم تفسيراً حديداً للعصور الوسطى ، وكان قادرا بعمق نظريته ، وحدة ذكائه ، على أن يرى بوضوح ، وسط الضباب الذى يحول بين الآخرين ، وأنا أحدهم ، وبين تأمل أسرار التاريخ والحياة ، وأن يحدد مبدعا مرحلة ذات نتائج مأسوية بالغة الخطورة فى حياة أوربا ، على نحو ما فرضتها العصور الوسطى ، وكان الأمر ، مع ذلك ، مجازفة خطيرة ، وأورتيجا

وحده يستطيع المغامرة بمواجهتها باطف وفي نجاح. نجاح فيما قدم لنا ، وليس مهما أن يكون نظرية لا تقبل الهجوم ، وهو نفسه حدد لنا العلم منذ أعوام بأنه مصباح ينير المشكلات موضع النقاش ، ولكنها أفكار كثيرة خصبة ، على المؤرخين أن يضعوها في حسابهم في قابل الأيام .

لقد حدد أورتيجا فكرته الجديدة عن العصور الوسيطة : « العصور الوسطى الأوروبية لا تنفصل في الحقيقة عن الحضارة الإسلامية ، لأنها تقوم بالدقة على التعايش ، إيجابا وسلبا في الوقت نفسه ، بين المسيحية والإسلام فوق رقعة مشتركة تشربت بالحضارة الإغريقية الرومانية » . لقد كتبت هذه الكلمات التي تشير إلى العصور الإسبانية مندا ما يقرب من ربع قرن ، في مقال لي بعنوان : « إسبانيا والإسلام » ونشرته في مجلة الغرب Occidente التي أسسها أورتيجا إلى جاسيت ، ودعمها على امتداد أعوام طويلة ، وانتهت فيه إلى أن إسبانيا برزت ثمرة اللقاء بين المسيحية والإسلام على أرض شبه الجزيرة في حالى الحرب والسلام على السواء . وأنا لا أنكر خصوصية التعايش بين العالمين الإسلامى والمسيحى في العصور الوسطى ، غير أنى لا أقبل القول بأن المنعطف التاريخى للعالم المسيحى ، بكل ضيابه المتراكم ، تطوره الحاسم ودوره في نهضة أوربا الحديثة ، كان وليد ذلك التعايش . ولكنى أتمنى بقوة أن يكون لهذه الصيحة العالية التي أطلقها أورتيجا دوى وأن تجد لها خارج إسبانيا صدى ، لأن المؤرخين حتى يومنا لا يقدرون الدور الذى لعبه الإسلام في التاريخ الأوروبى الوسيط ، ولا يعطونه ما يستحقه من اهتمام .

وأخشى أن يكون أورتيجا قد ذهب بعيدا حين انتهى إلى أن الجرمانية والعربية كانا « جسمين متشابهين للغاية فيما يتصل بموقفهما الجوهري من الحياة » في بداية العصور الوسطى . لأن من الواضح أنها مختلفتان بدءا ، ولكن أحدا من المؤرخين لم يغامر بإبداء رأيه على غير أساس ، وفي غير أناة ، عن نظرية « عدم المجانسة » إن ازدرأ أورتيجا إلى جاسيت للمؤرخين ظالم ومألوف ، وجاء وليد إطلاق اسم هؤلاء على العلماء الموسوعيين الخالص ، وهؤلاء

تعودوا أن يطلوا على التاريخ من وراء غمام ، كخيل المصارعين حين تظهر في حلقة مصارعة الثيران . ولأنه تعود على الحرية الرائعة لحركة الفلاسفة ، الذين يستطيعون أن يمتطوا اسراعاً صهوة الأفكار المندفعة ، ومن ثم فهو لا يستطيع أن يقيم في دقة مأساة المؤرخين ، تنقيحهم الأحداث التاريخية في قسوة ، أحداث ليست هي التاريخ ، ولكنها تصنعه وتحدده وتعتقه . وإذا كان بيننا كثيرون يستحقون أن يجلدوا بسيوط نقد . فإن ذلك لا يعطيه الحق في أن يلوّح بها ضد الجميع .

ويؤكد أورتيجا ، وتأكيده مقنع ، وواقع أن الشعوب ذات الثقافة البدائية (والتشابه في البدائية لا يعدل — في رأيي — التشابه الجوهرى ، فثمة أنواع كثيرة من الوجود البدائى) كانت تشغل فراغاً اجتماعياً ، على رقعة الإمبراطورية الرومانية ، وسبقها حضارة بلغت قمة الرقى ، وللسبب نفسه كانت أشد تعقيداً وأرقى صقلاً . ولكنه لم يقف عند حد التفرقة بين الاختلافات الكبيرة التى كانت تفصل بين القارتين قديماً ، في عالم العرب والجرمان . اختلافات خصبة ، ذات نتائج تاريخية بالغة الأهمية . ألا يبدو له من الأهمية بمكان أن هؤلاء دخلوا عالماً ثقافياً ، تأثر بالثقافة الجرمانية إلى حد بعيد ، وهى حقيقة لا تقبل المناقشة ، ولا يمكن أن تنسى في عالم اليوم ، وأنهم دخلوها مخلوقات عارية ، تحت راية الرغبة ذاتها ، ووحدها ، وتدفعهم القوة أو الخوف — والخوف ، لكى لا ننسى ، عامل تافه في الحدث التاريخى — دون أن يحملوا على أسنة رماحهم ، أو فى أطراف سيوفهم^٩ ، أى كتاب مقدس ، ودون أن يخفوا منهم القوى فى أن يصبحوا سادة البلاد التى فتحوها ، ودون أن يرفعوا علماً أية فكرة خصبة وجذابة وقادرة على أن تثير الحمية فى نفوس الجماهير الغربية ؟ .

ولم يكن العرب كذلك . لم يتوغلوا في عالم العروبة ، باسم الرغبة الخالصة والوحيدة فى أن يصبحوا سادة بلاد الأعداء ، ولم يدخلوها عراة من الثقافة ، وإنما عبروا حدود الجزيرة العربية ليكملوا وصاة الرسول ،

ولينشروا بحمد السيف عقيدة جديدة، ولأنهم ، بوضوح ، حققوا فتوحاتهم تحت راية عقيدة دينية ، وفتحوا صفوفهم فوراً للراغبين في اعتناق الإسلام من أبناء الشعوب التي أخضعوها . وكانت خلافة دمشق في الحقيقة إمبراطورية سورية ، وخلافة بغداد إمبراطورية عراقية ، وكلاهما محتمة بقبلة الإسلام . ولقد حاول العرب في البدء أن يستردوا دفعة الإسلام السياسية والاقتصادية عن طريق الحرب ، وانتهت بأن أشعل السوريون النار في المدينة المقدسة ، وفيما بعد لم تستطع القلة من العرب التي استقرت في البلاد المفتوحة ، وقد فاضت بسكانها ممن اعتنقوا الإسلام ، دين العرب ، في سرعة عجيبة ، أن تحتفظ إلا بالقليل من تكوينها الحيائي الأصلي . ويمكن القول أن أبناء الشعوب المفتوحة هم الذين صنعوا تاريخ الإسلام ، بينما واصلت أغلبية العرب حياتهم في جزيرتهم شبه الصحراوية ، دون أن يتلقوا الحضارة التي صنعها المشركون من أصلاب الذين انهزموا أمام الإسلام .

لا أستطيع اليوم أن أقف مع الرأي القائل بأن أوروبا الإقطاعية كانت عملاً جرمانياً - كما كان يعتقد قديماً - ولكن من الضروري الاعتراف بأن الجرمان ، بما فيهم أولئك الذين ظلوا في مواطنهم البدائية الأولى فيما وراء نهر الرين لم يكونوا بمنأى عن هذه المغامرة العملاقة الخلافة ، على حين كان عمل العرب الخالص في تكوين حضارة وأسلوب الحياة الإسلامية محدوداً .

وآسف لأنني استخدمت تعبير « أسلوب الحياة الإسلامية » ، لأنني أشك كثيراً في أنه يوجد في الحقيقة أسلوب إسلامي للحياة . وقد دفع اعتبار الإسلام وحدة جوهرية وثقافية بأبيركو كاسترو إلى أن يرتفع ببناء نظرية باللغة الضعيف . ولقد تساءل أورتيجا إلى جاسيت منذ أعوام طويلة : يا إلهي ! ... ماذا تكون إسبانيا هذه ؟ وبالصرخة المأسوية نفسها يمكن أن نسأل : ما الإسلام ؟ لأنني لا أؤمن بوحدة التكوين عند الشعوب التي تعبد الله الرحمن الرحيم . لا أستطيع

أن أوافق أورتيجا فيما وصف به ابن حزم من أنه عربي إسباني ، وأجروا
على أن أناديه بما هو نقيض لقوله : إسباني متعرب .

من الواضح أننا إذا احتفظنا بصفة «إسباني» لمن عاشوا طبقاً لأشكال
الحياة الإسبانية المعاصرة ، فإن مؤلف « طوق الحمامة » ليس إسبانياً . وأسمح
لنفسى أن أرد هنا على التحديد البسيط الذى أعطاه أميركو كاسترو لمفهوم
«إسباني» . إذا أطلقنا لفظ «إسباني» على أولئك الذين فكروا وأحسوا
وعاشوا ، على نحو ما كان شائعاً في فترة ما من تاريخ إسبانيا ، مهما تكن ،
فإن أسلافنا من ثلاثة آلاف يمكن أن ينكروا ، وبحق ، صفة إسباني
على أورتيجا أى جاسيت ، وأميركو كاسترو أو غرسية غومث وأنا . لأننا
لأنفكر ولا نحس ولا نعيش على نحوهم .

أعتقد أن الرجل هو التاريخ ، على حين يرى أورتيجا أن الشعوب تتغير مع حركة
الأجيال السريعة ، وأن الأمس يختلف دائماً عن اليوم ، وأن اليوم يغير الغد .
ولا يوجد عصران إسبانيان متماثلان . وذلك يسمح لنا . بل يضطرنا . أن نعتبر
إسبانيين كل أولئك الذين على امتداد التاريخ ، داخل إسبانيا وخارجها ، فكروا
وأحسوا وعاشوا على نحو ما كان مألوفاً إذ ذاك . في إسبانيا الرومانية . قبل
فرياتو Viriato بزمان طويل . وحتى بعد بريم Prim بقرون عديدة «١» .
وأمر آخر لا يمت لذلك بصفة ؛ أن نتحدد ما إذا كانت هناك ملامح مشتركة
بين إسبانيا الماضى البعيد . وأمس واليوم . والموضوع هام لكى نتحدد بدقة
قدر ما نألف طوق «الحمامة» من إسبانية حقة . وثمة أخبار مثيرة لرحالة
أفريقي من القرن السادس قبل الميلاد . يروى أن سكان مرسيلى كانوا مغربين
بقص الحكايات والروايات . ويمكن أن نجد شواهد أخرى كثيرة مشابهة .

(١) فرياتو أيبرى تزعم الثوار في غرب شبه جزيرة إيبيريا ضد الاستعمار الروماني ،

فدفع الرومان بمن اغتاله عام ١٤٠ قبل الميلاد .

وبريم ، قائد عسكري إسباني ، اشتهر في الحروب الأهلية التي سمت إسبانيا في النصف الأول

(المترجم)

من القرن التاسع عشر .

ومهما يكن عدد الذين يمكن أن يتسع لهم هذا الباب ، فإنى لا أومن بأن للأرض أو السلالة تأثيراً حاسماً عبر التاريخ ، ولا فى استمرار الخصائص الجماعية للشعوب إلى مالا نهاية . إن التاريخ وللدلعة معقدة بين قوى مختلفة ، منها الأرض والسلالة ، وكلاهما يلعب ، بالطبيعة ، دوراً فعالاً . والتركيب الحيوى للشعوب ليس خالداً ، لأنه يرتبط بالتطور التاريخى الخاص بكل شعب : ثباته أو تغير ماورث من مزاج ، واستمرار بعض الملامح المميزة لشخصيته والإيقاع الذى يسير عليه فى علاقته مع الآخرين أخذاً وعطاء .

وليس صعباً ولا أجروء على أن أخط مخاطرة ، لأنها لم تكن كذلك ، فالتاريخ وليس المغامرة هو الذى سهل لطارق بن زياد ، وموسى بن نصير عبور مضيق جبل طارق - أن نوضح أن ، خصائص التاريخ الإسباني الوسيط حددت مسار تقدمنا التاريخى ، وجاء فى زحف الساحفة خلال حرب « الاسترداد » وليغفرلى أورتيجا أن أنقل عنه هذه الاستعارة القديمة التى استخدمها قبلى ، ولو أن محتواها يمكن أن يكون موضع نقاش . فنحن شعب أوربى ، أقرب ما يكون بماضيه المتميز إلى أسلافه القدامى ، وقد مضت عليهم آلاف الأعوام . وهى خصائص حاولت أن أوضحها مفصلة ، وأودعتها كتاباً ضخماً . وحتى خلال الحكم الإسلامى واصل الكثير من هذه الخصائص الإسبانية القديمة حياته ، لأن الإسلام الأندلسى اعتقل فى ماضى سكان شبه الجزيرة الإيبيرية ، لأسباب احتفظ بها الآن .

ليس السلالة أو الأرض إذن هما اللذان صنعنا من مؤلف « طوق الحمامة » إسبانيا ، وإنما صاغه التاريخ من طين ولبة الإيبيرية ، ومن دم إيبيرى يتدفق عبر جلوده المولدين ، وهى حقيقة نسيت ، كما نسى من قبل أن نهر تينتو Tinto أقدم نهر إسباني .

وفى شعب يتقدم عبر التاريخ بخطى بطيئة ، ونقول هذا لإبراء الذمة الإسبانيين ، فإن ثلاثة قرون غير كافية لتغيير التكرين المزاجى للمجموعة ولتحلر من أن تفكر مثل أميركو كاسترو فى أن إسبانيا قد تعربت ثقافياً

وحيوياً بعضاً سحرية منذ لحظة الفتح عام ٧١١ م . لقد كان التعريب الثقافي بطيئاً للغاية ، ويقول غرسية غومث فيما كتب من قريب : « بعد اكتشاف « الخرجات » الرومانشية للموشحات ، وشيء مثير من مخبئات العصر الأدبية » بدأنا ندرك اليوم بوضوح أهمية النتائج التي أدى إليها الازدواج اللغوي في إسبانيا الإسلامية ، وأصبحنا نعرف الرقعة المحدودة التي لاذت بها العربية الفصحى في نطاق الدولة » وأما التعريب الجوى لإسبانيا الأندلس فربما لم يتحقق أبداً ، إذا فهمنا من « التعريب الجوى » شيء يتجاوز اتخاذ العادات الخارجية للحياة اليومية . وفي كل الأحوال رأت إسبانيا الإسلامية شعباً يتحرك في تودة ، ليصبح هجين الفكر على مهل ، وطبقاً لما قاله ، وكرره ، كل المستشرقين ، كانت المسافة واسعة بينه وبين كل ما هو شرقي حقيقى في كثير من مظاهر مزاجه . ولقد أبرز غرسية غومث « غربية » شعور ابن حزم ، وأزاح ابن حزم نفسه الستر عنها حين قال :

أنا الشمس في أفق العلوم منيرة ولكن عيبي أن مطلعى الغرب لا ، في ثلاثة قرون لم يكن مسلمو الأندلس قد أهدروا كل تراثهم من المزاج الإسباني ، ومن ثم كان ابن حزم إسبانيا تعرب ثقافة ، ولم يكن عربياً إسبانياً . ابن أحد وزراء المنصور بن أبي عامر ، ذكنا تور الأندلس ، وكان معاصروه وتلاميذه من شبه الجزيرة يرونه حفيداً لمولدين ، أى أنه ينحدر أباً من أصول إسبانية أسلمت ، وكانت الأم إسبانية على التأكيد ، لأن مسلمى الأندلس ، حتى الخلفاء منهم ، ولدوا لأمهات ينحدرن من سلالات إسبانية عريقة ، فهم من هذا الجانب إسبانيون جميعاً ، ولكن ابن حيان المؤرخ ، وابن سعيد صاحب « المغرب في حلى المغرب » ، يصرحان بأن ابن حزم كان كذلك من جهة الأب أيضاً .

يقول المثل الإسباني : « أنت أشبه بمن تعيش بينهم منك بمن ولدت لهم » ، لو هى فكرة لا عمل ترديدها ، في كلمات أكثر نبلا ، أولئك

الذين يعتقدون أن التربية تنتصر على الدم في تكوين الشخصية الإنسانية .
ولكن حالة ابن حزم تقف عالية في مواجهة هذا القول ، فهو مسلم ومتعرب
حتى الأعماق ، ولكن روحه واصلت إسبانيته دون أن تنحرف . وما نعرفه
عن الداخل الروحي للمفكر القرطبي العظيم قليل جداً ، وقد توقف بإزائه
تلاميذه ودارسوه ، في فطنة أحياناً ، وممزوجة بالغيب أحياناً أخرى .
وكشف هو عنها في كتاباته ، وألف — كما قلنا — حول موضوعات وفيرة
التنوع ، من كلام وفلسفة وفقه وأدب وتاريخ وغيرها . ولكن شخصيته
تبدو في قمة توهجها خلال ثلاثة كتب شهيرة : « طوق الحمامة » ، وفيه
يلتقى الشاعر وعالم النفس ليرسما لوحة جميلة للحياة العاطفية على أيامه .
وكتاب « الفصل بين الملل والأهواء والنحل » ، وهو تاريخ مقارن للأديان ،
وفيه يدل على معارفه الواسعة من الثقافات ، إسلامية وفارسية وإغريقية ومسيحية
ولاتينية ويظهر عمق ذكائه الفلسفي ، وقوة عقائه الخلاق . وكتاب « الأخلاق
والسير في مداواة النفوس » ، وفيه أورد ملاحظاته على نفسية معاصريه
موشاة بحكم أخلاقية ، واعترافات ذاتية صادقة ، تجعله صنو ديمقريط
Democrite ، وسينكا Seneca ، وثارة يشبه القديس أغسطين ، أوبدكر
تيوفراست Teofraste ، أو يسبق في أفكاره بيبكون Bacon أو لا بروبير
La Bruyère ، أو يبدو كما لو كان سلفاً للشاعر الإسباني كيبيدو
Quevedo ، أو مواطنه المفكر أونامونو Unamuno (١) .

(١) . ديمقريط : فيلسوف إغريقي عاش قبل الميلاد ، وتنهض فلسفته على السخرية
من جنون الإنسانية .

• سينكا : (٤ قبل الميلاد - ٦٥ بعد الميلاد) فيلسوف وخطيب ومسرّح إيبيري ،
ولد في قرطبة وعاش في روما ، وترك عدداً من المأثورات الفلسفية والمسرحيات الشعرية وغيرها .
• القديس أغسطين : (٣٥٤ - ٤٣٠ م) ، راهب كاثوليكي ، من شمال أفريقية ،
ولد لأب وثني ، وأبغى شباباً متهتكاً ، ابن من علاقة غير مشروعة ، واتخذ من الرهبنة

وليس من الصعب أن نكتشف في الملامح النفسية التي أوردتها عنه من ترجموا له ، أو تناثر في كتب لنفسه عن نفسه ، أو في اعترافاته ، عمق حيويته الإسبانية ، ولكن ... فلنمض في رحلتنا معه على مهل ! :

• من مدينة الزهراء إلى الإسكوريال :

لطالما وجدته مشدوداً إلى الموازنة بين تاريخ إسبانيا الإسلامية وتاريخها المسيحي ! .

ومنذ سنوات رسمت صورة لحقتين من حياة إسبانيا ، تفصل بينهما قرون عديدة من الزمن ، وألوان مختلفة من الثقافات ، ولقد أبدت اهتماماً كبيراً في دروسي ومحاضراتي بمدينة الزهراء التي بناها عبد الرحمن الناصر تحت جبل العروس ، من قبله الجبل ، شمال قرطبة ، بين عامي ٩٣٦ و ٩٦١م ، أي منذ ألف عام ، وما أكثر ما أشرت إلى بنائها تفصيلاً ، في ضوء المعالم الضافية التي أوردتها لنا ابن حيان ، المؤرخ القرطبي العظيم ، فقد ذكر الأعمدة ، عددها ، والرخام الذي استخدم فيها وثمنه ، ونفقات قطعه وحمله وألوانه ، وعدد العمال الذين كانوا يشتغلون في البناء ، والدواب التي تستخدم

= لباساً ، وأصبح من كبار رجال الدين الكاثوليك ، وبلغ في مجال الكتابة درجة عالية ، ومن أشهر مؤلفاته : إعرافات .

• تيوفراست : (٣٧٢ - ٢٨٧ ق . م) فيلسوف إغريقي .

• بيكون : (١٢١٤ - ١٢٩٤ م) ، عالم وفيلسوف إنجليزي شهير ، صاحب المذهب التجريبي في الدراسة .

• لابروير : (١٦٤٥ - ١٦٩٦) كاتب وأخلاق وروائي ومسرحي فرنسي .

• كيبيلو : (١٥٨٠ - ١٦٤٥) شاعر وكاتب إسباني .

• أوفامونو : (١٨٦٤ - ١٩٣٦) ، كاتب إسباني ، فيلسوف وشاعر ، مسرحي

وروائي ، ومناضل سياسي ، ودنيا واسعة من الثقافة العريضة والعميقة ، غزير الإنتاج ، ويلتقي مع كاتبنا العظيم عباس محمود العقاد في جوانب كثيرة ، ويصلحان موضوعاً شيقاً للدراسة مقارنة (المترجم) .

فى النقل من بغال وجمال ، ومقدار ما تنقل ، وما يدفع لها وللعامل عليها
مع كراء ، نجى وتذهب فى قوافل لا تنقطع بين قرطبة والزهراء ، محملة
بالرخام والحجار والحص والأخشاب ، وكل ما يتطلبه البناء من مادة وأدوات .
ولقد أسعدنى ما أثارته هذه الحقائق من دهشة بين السامعين . ثم وصفت لهم
فخامة قصر الخلافة ، وبنى بأعلى الزهراء ، والحدائق الخضرة تطوق المدينة
من كل جانب ، وتشغل ما بينها وبين مرتفعات الشارات ، وقد اتخذها
الناصر « لنزله ، وكرسيا لمسكه ، وأنشأ فيها من المباني والقصور والبساتين
ما حفى على مبانيهم الأولى ، واتخذ فيها محلات للوحش فسيحة الفناء ،
متباعدة السياج ، ومسارح للطيور مظلة بالشباك ، واتخذ فيها دوراً لصناعة
الآلات ، من آلات السلاح للحرب ، والحلى للزينة ، وغير ذلك من
المهن . وكانت تضم منازل رجال البلاط ، وكبار الموظفين . وتأيت
وأنا أرسم صورة للبهو الأعظم ، وكان معداً لاستقبال السفراء والوفود
وكبار الزائرين ، سقفه من الرخام المذهب ، وفرشت أرضه بالسجاد
الفاخر ، وأقام له فى رأسه كرسيا من الذهب الخالص ، وتوسطته بركة
كبيرة من الزئبق ، « وكان فى كل جانب من هذا المجلس ثمانية أبواب ، قد
انعمدت على حنايا من العاج والآبنوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر ،
قامت على سوارى من الرخام الملون والبلور الصائى ، وكانت الشمس تدخل
على تلك الأبواب فيضرب شعاعها فى صدر المجلس وحيطانه فيصير من ذلك
نور يأخذ بالأبصار . وكان الناصر إذا أراد أن يفزع أحداً من أهل مجلسه
أوماً إلى أحد صقالبيه فيحرك ذلك الزئبق فيظهر فى المجلس كلمعان البرق
من النور ، ويأخذ بمجامع القلوب ، حتى يخيل لسكل من فى المجلس أن
المحل قد طار بهم ، مادام الزئبق يتحرك » . وأنهيت وصفى لمدينة الزهراء
بكلمات دامعة ، وقفت فيها على أطلالها ، وأسفت لتدمير الكثير من
روائعها فى الثورات التى اجتاحت قرطبة بسبب دكتاتورية المنصور وأبنائه
من بعده .

وحدث الشيء نفسه في مدينة بونس أيرس عاصمة الأرجنتين ، عام ١٩٣٣ ، في محاضرة ألقيتها عن « الحياة في قصور خلفاء قرطبة منذ ألف عام » : وفجأة ومض في داخل خاطر ، وقفز فسكرى بعيداً ، في الزمان رنى المسكان ، لسكى أنتقل إلى قصر ملكى آخر ، لأمراء إسبانيين ، أقيم على نعم ، ما فعل عبد الرحمن الناصر في سطح جبل آخر ، قريباً من عاصمة إسبانيا على أيامهم .

لقد خلق بى الخيال عالياً ، ومشدوداً إليه ، يحتاجنى مشاعر وذكريات ركنين في وطنى البعيد والمعبود ، ولحظتان حاسمتان من تاريخه ، وجدتنى أقول :

« لا ترد في خاطرى مدينة الزهراء أبداً إلا وجمع بى حصان خيالى ، والآن ، كما يحدث دائماً ، انطلق بى تذكرها ، بأسرع مما ينطلق الفرس ، أوتندفع الرصاصة ، إلى سلسلة جبال وادى الرمة ، وعبر خيالى ، في رحلة طائفة رائعة ، أشجار سلسلة جبال « مورينا » ، ووديان « لامتشا » ، وقمم جبال طليطلة المتلاحمة ، ومنعطفات نهر « تاجه » تطوق المدينة مثل حمائل سيف مفضض ، وقباب مدريد وغاباتها ، وناطحات سحبها ، لسكنى أنامل في شوق حزين قصور مدينة ملوك إسبانيا من أسرة أستورياس : الإسكوريال ! »

مدينة الزهراء والأسكوريال ! ، وليس ثمة تناقض أشد حدة مما بينهما فإلى جانب قصور خلفاء قرطبة ضوء أندلسى يعشى البصر ، وأرض ذات أصرار ، وخضرة شبة ، وبرتقال وزيتون ، وحول قصور ملوك مدريد بلوط وصفصاف ، وأعشاب وزعر ، وصخور شهباء ، وصقيع وبرد . وفي مدينة الزهراء رخام وفسيفساء ، وزخارف فاخرة ، وبرك وحمامات ، وقاعات مذهبة ، وفي الأسكوريال رخام ومعمار تحكمه هندسة دقيقة ، وصوامع غبرة ، وممرات عابسة ، وعنف . في مدينة عبد الرحمن الناصر قصور ومساجد ، خصيان ونساء ، شعراء وجنود ، موسيقى وألوان

متوهجة ، وسجاد وحرير وعطور ، وأقوام تتحدث العربية ، وفي الإسكوريال . مقر فيليب الثاني ، رهبان وراهبات ، وأغنيات دينية ، ومحادثات هامة كالصلاة ، وأردية سوداء من نسيج قشتالي ، وصمت وهدوء . في « شارات » قرطبة للذاذات وقسوة ، ودم وشهوة ، وعواطف متفجرة ، وفي وادي الرمة الثلج صلوات خاشعة ، ومشاعر مكبوتة وتصوف . وعلى منار مسجد الخليفة صوت المؤذن يدعو إلى الله الرحمن الرحيم ، وألسنة النواقيس في أبراج الدير الملصكي ، في الإسكوريال ، تدعو المؤمنين بآبن الإنسان وآبن الله إلى القداس . ليس ثمة تناقض أشد وحدة مما بين مدينة الزهراء والإسكوريال ، ومع ذلك ، وكما يقول بيت من الأغنية الشعبية الأندلسية ، « ثمة خيط خفى رفيع يصل بين الإثنين » .

نعم ، مدينة الزهراء والإسكوريال ! . كل واحدة منهما تمثل قمة مرحلة في حياة إسبانيا . كانت مدينة الزهراء ، في القرن العاشر الميلادي ، حاضرة الأندلس ، وإسبانيا الإسلامية القوة الأولى في غرب البحر الأبيض المتوسط ، تملك مضيق جبل طارق ، وتسيطر على المغرب الأقصى ، ويطلب صداقتها والتحالف مع خلفائها إمبراطور جرمانيا ، وقيصر بيزنطة ، ويرسلان إليها السفراء والهدايا ، وقرطبة إذ ذاك أكبر مدن الغرب ، وأعظمها ثقافة وأكبرها غنى . وفيها نضجت الثقافة الأندلسية الرائعة ، وستأخذ موضع الأستاذ من أوروبا الغارقة في الظلام ، وتدفع بها إلى أول نهضة أوربية عرفها القرن الثالث عشر الميلادي . وعلى حين يسود في شمال جبال البرانس اقتصاد بدائي ، وكل النشاطات التجارية والصناعية خامدة ، كان يزدهر في شبه جزيرة إيبيريا اقتصاد يستخدم النقود ، وتدعمه حياة ناجحة متحضرة ، وصناعات متنوعة ، وتجارة نافقة يتجاوز الحدود نشاطها .

وعندما ارتفع بناء الإسكوريال ككلا في القرن السادس عشر ، فوق صحور وادي الرمة ، كانت إسبانيا أعظم قوة في العالم ، اكتشفنا

وغزونا أمريكا، وعندما انتصرنا على الأتراك في موقعة لبانتى (١) lopante غيرنا إلى الأبد التكوين الجغرافى للحضارة التى كانت تعيش حول البحر الأبيض المتوسط ، وانحسر الإسلام ، وكان لإحدى القوى العالمية فى مطلع العصر الوسيط ، إلى المشرق وإفريقية ، وبدأت البابوية والإمبراطورية ، شمسا سماء العصر الوسيط ، تدوران فى فلك الشمس الإسبانية ، ففرنسا خصمنا مقهورة وعاجزة ، وتعالى من تدخل مدريد النشيط ، حتى أصبح الجنود الإسبان زينة باريس . وفى سلمنقة فتحت مدرسة فيتوريا Vitoria المحال واسعا أمام حقوق الجماهير ، وفى طلبيلة يرسم الجريكو El Greco ، وفى أبله تكتب سنتا تريزا وخوان دى لاكروث ، وكان ثرفانتيس ولوى دى فيجا فى طو ، التكوين ، وأنقذ علماء اللاهوت والمفكرين الإسبان القيم الأخلاقية الخالدة ، وكان عصر النهضة ممثلا فى شخص مكيا فى Machiavelli ويودين Bodin قد ألقى بها فى القاع ، وأنقذت أيضا سيادة الروح بعد أن هددها انتصار العقل ، وأملت «حركة الإصلاح» فى أن تكون سيطرته على العالم مطلقة . أى أن إسبانيا ولدت الحداثة ، واحتفظت ، مثل ما حدث فى أركا سنتا Arca Santa ، بقوى كانت ضرورية للرجال فى أيامنا هذه ، كترىاق لشفاء العقل الخالص من الضلال (٢)

عرضت لعمتين من تاريخ إسبانيا المنتصرة ، حاكمة الشعوب ، ومبذعة الثقافات ، ولكن مدينة الزهراء والإسكوريال يربطان أيضا ، فى ذاكرتى ، بموازنات أخرى ، تتصل بحياة وموت عدد من الأمراء الإسبان . فعبد الرحمن

(١) معركة بحرية جرت فى خليج لبانتى عام ١٥٧١ ، بين الجيش العثمانى ، وجيوش أوروبا مجتمعة بقيادة دون جوان ملك النمسا ، وقد أنزلت الأساطيل الأوروبية الكاثوليكية المتحالفة هزيمة فادحة بالأسطول العثمانى .

(٢) • الجريكو : (١٥٤١ - ١٦١٤) ، من أشهر الرسامين فى إسبانيا ، ولد فى جزيرة كريت ، وعاش فى إسبانيا ، وتوفى فى مدينة طلبيلة ، وله فيها متحف خاص - به يجمع روائع لوحاته .

الناصر مشيد مدينة الزهراء القرطبية أمر بإعدام ابنه عبد الله ، وفيليب الثاني الذى أقام مدينة الإسكوريال قرب مدريد ، سجن ابنه كارلوس ، وتركه يموت سجيناً ، بل ويمكن أن أقوم بموازنة بين أمراء بنى أمية الأندلسيين فى القرن العاشر الميلادى ، وملوك إسبانيا المنحدرين من أسرة أشتورياس فى القرن السادس عشر . لقد ورث كل من عبدالرحمن الناصر و كارلوس الخامس عن جدودهما ؛ إسبانيا متميزة وفريدة ، وواجه كل منهما مشاكل خطيرة ، وكانا محاربين قوين ، وعاشقين عظيمين ، بحبان الحياة والمتع ، وانتصرا كثيراً فى ساحة القتال ؛ وهربا ، كل واحد منهما ، فى يوم مظلم كى ينقذ حياته وحرية . هرب الناصر فى شمنقش Simancas ، وهرب كارلوس الخامس فى إنسبروك Innsbruck ، ومنذ هذه اللحظة أحسا بالفشل ، وتحررا من الكآبة ، وعاشا ما بقى لهما من الحياة بعدها . وورث كل من الحكم الثانى وفيليب الثانى إمبراطورية قوية عظيمة ، وكانا ينفران من الحرب على نحو متساو ، ولم يحدث أبداً لأى منهما ، وهويدفع بجيشه للمعركة ، أن دفع الضريبة فى ساحة القتال لإله الحرب من دمه وأراحته ، وأسهم فى

- سستا تريزا : (١٥١٥ - ١٥٨٢) ، راهبة إسبانية ، متصوفة وشاعرة وكاتبة ، تعرضت لملاحقة مستمرة من محاكم التفتيش ، وتركت وراءها عدداً من الأعمال الأدبية الجيدة .
- خوان دى لاكروث : (١٥٤٢ - ١٥٩١) ، لاهوت وشاعر ومتصوف إسباني ، تأثر فى فكره بالفلسفة الإسلامية ، بدأ حياته يعمل ممرضاً فى مستشفى ، والتقى بسستا تريزا ، واستجاب لدعوتها الإصلاحية .
- ثرفاتيس : (١٥٤٧ - ١٦١٦ م) ، أعظم روائى إسباني ، وصاحب رواية « دون كيخوته » الخالدة ؛ ذات الشهرة العالمية .
- لوبى دى فيجا : (١٥٦٢ - ١٦٣٥) ، من أعظم كتاب المسرح الإسباني ، وأخصبهم إنتاجاً ، وترك وراءه عدداً كبيراً من المسرحيات تتناول موضوعات مختلفة .
- ميكافيل : (١٤٦٩ - ١٥٢٧) ، كاتب وفيلسوف ودبلوماسى إيطالى ، وأشهر مؤلفاته : « الأمير » ويدور حول مبدأ الغاية تبرر الوسيلة فى الحكومات والسياسة .
- بودين : (١٥٣٠ - ١٥٩٦) ، عالم إقتصاد فرنسى . (المترجم)

فى القتال بنفسه . وكانا يحبان الورق والكتب ، فلم يفارق أولهما مدينة الزهراء ، ولا غادر الثانى قصره فى الإسكوريال ، وكان الحكم المستنصر يبعث فى الكتاب إلى الأقطار رجالا من التجار ، ويرسل إليهم الأموال اشراؤها حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهده ، واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد ممن قبله ولا من بعده .

وأرسل فيليب الثانى أمبروسيو دى مورالس Ambrosio de morales فى رحلة ثقافية عبر شمال إسبانيا فجمع عددا من المخطوطات والمؤلفات والكتب لمكتبة الإسكوريال الغنية . وكلاهما يحب مجالسة الأدباء والفنانين ، وكلاهما حرمه للقدر من ولى عهد قادر على حكم مملكته العظيمة . فهشام الثانى ولى عهد الحكم ، وفيليب الثالث ولى عهد فيليب الثانى ، كانا على السواء تقيين مصلحين ، ضعيفى الإرادة ، حتى أنهما تركا حاشيتيهما تتحكمان فيهما . ولا يمكن أن نقارن بهما المنصور العبقري ، ولا المركز دى ليرما de Ierma الأخرق ، ولكن لا يمكن الإنكار أن خلفاءهما عجلوا بنهاية الأندلس وإسبانيا ، ودفعوها إلى الهاوية والدمار . نعم ، تم ذلك بإيقاع مختلف ، يتناسب مع ما اتصف به كل وزير من عبقرية أو حمتى ، فكان مريعا فى إسبانيا الإسلامية بعد المنصور ، بطيئا فى إسبانيا الكاثوليكية بعد دى ليرما .

مدينة الزهراء والإسكوريال ، عبد الرحمن الناصر و كارلوس الخامس ، الحكم المستنصر وفيليب الثانى ، هشام الثانى وفيليب الثالث ، المنصور بن أبى عامر والمركز دى ليرما ، ثمة خيط رفيع خفى يربط بينهم دائما ، فى ذاكرتى ، ولكن هذا التقارب يأخذ خطا متميزا فيما يتصل بعبد الرحمن الناصر و كارلوس الخامس : كلاهما يفيض قوة واندفاعا ورغبة فى العمل ، دلعتهما الآلهة ، ودللهما الخد ، وعاشا حياة عدنية ، أمضيها وهما فى قمة التمتع بالحلب والرفاهية ، والقوة والثروة ، وقد عاش الأول أكثر من ٧٣ عاما ، بحكم منها ٤٩ سنة ، وترك مذكرة مشيرة ، كتبها بخط يده ، سجل فيها أهام مروره وصفوه وهى لاتزيد عن ١٤ يوما على امتداد حياته . وعزف

الثانى عن المجد أخيرا وسجن نفسه فى « يومست Yuste » بانتظار الموت .

عبد الرحمن الناصروكارلوس الخامس يمثلان علامة معذبة . ماذا ينقصهما ؟ لقد ولدا لأبوين إسبانيين ، ورغم الأصول المشرقية البعيدة لعبد الرحمن الناصر ، والأصل القلمنكى لوالد كارلوس الخامس ، كان يوجه مصائرها روح إسباني أصيل ، تجمعت فيه كل عواصف الروح الإسباني وصراعه الداخلي ، واندفاعه المتصاعد ، وحماسه الفاترة ، ويأسه القاتم . كان يحكم كل منهما روح إسباني عبقري ومعقد . ومن ثم عاشا أسرى رغبة نهمة لا تترتوى ، وقتى دائم لا يتوقف ، وعاشا معركة داخلية معذبة . ماذا ينقصهما ؟ . . . ينقصهما كل شيء ، لأن الإسباني الحقيقي الغارق فى السعادة مظهرا ، يمكن دائما أن يتخذ أحيانا من كلمات شخصه وندو Segismundo (١) المرعبة مثلا ينطبق عليه : « الحياة حلم » .

مدينة للزهراء والإسكوريال ! . لقد نهبت الأولى وأحرقت خلال الثورات القرطبية ، وأصبحت أرضها الحزينة اليوم مرعى للثيران الهائجة ، واستسلمت جدرانها لأساها العميق . بالأمس عظمة وبهجة وروعة ، واليوم خراب وأنقاض وبؤس . ومنذ أعوام اكتشف بقاياها فى سفح « سيرا » قرطبة رجال عصر كان أكثر تطلعا إلى الماضى ، ربما خوفا من الغد ، لهم ملامح قاسية ومؤسفة ، رجال كانوا يبحثون فى الأرض عن بقايا حضارات قديمة منسية ، ربما لأن هاجسا غامضا كان يوشوش فى آذانهم بقرب نهاية عصرهم . أما الإسكوريال فلما يزل قائما . فلتحفظه الآلهة من غضب الرجال ومن حق زمان لا يرحم ! :

• إسبالية ابن حزم :

قاومت مؤلفات ابن حزم عن الزمن أكثر مما قاومتها مدينة الزهراء ، اندثر الرخام وعاشت المخطوطات ، لأن روائع الفكر الإنسانى تتميز بإمكان

(١) بطل مسرحية « الحياة حلم » للكاتب الإسباني كالدرون . (الترجم)

نسخها إلى ما لا نهاية ، وانتقالها وانتشارها عبر القارات والمحيطات ، حتى قبل أن تخترع الطباعة . وللمغامرة طموح ، ذلك أن « طوق الحمامة » ، وقد ترجم اليوم إلى معظم لغات العالم المثقفة ، أنقله من الضياع مخطوطة وحيدة ومشرقة .

ولقد تضاعف وامتد قدر مؤلفات ابن حزم ، والأخبار التي نقلها لنا معاصروه ، والأوفياء له ، عن شخصه ، تسمح لي بالدفاع عن حقيقة إسمائته .

لقد أصبحت الكلمة التي أرسلها عنه أبو العباس بن العريف المري مثلاً شاع عبر العالم الإسلامي كله : « لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان » ، ولأن الحجاج كان أشد قواد بني أمية في دمشق قسوة ، فليس ثمة مدح أعظم لكلمات ابن حزم القرطبي الحادة ، وقلمه الإسباني الصارم من هذه الكلمات .

يقول ابن سعيد (١) ، صاحب المغرب في حلى المغرب : « وكان يجادل عن علمه هذا من خالفه ، على أمر سال في طباعه ، وبذل بأسراره ، واستناداً إلى العهد الذي أخذه الله على العلماء من عباده ، « ليبيننه للناس ولا يكتمونه » ، فلم يك يلفظ بما عنده بتعريض ، ولا يرفه بتدريج ، بل يصك به معارضه صك الجنادل ، وينشقه أحر من الخردل . »

ويقول عنه معاصره ابن حيان : « المؤرخ القرطبي العظيم : « ... حتى استهدف إلى فقهاء وقته ، فمالأوا على بغضه ، وردوا قوله ، وأجمعوا

(١) الواقع أن هذا النص ليس لابن سعيد ، وإنما هو لابن حيان ، وقد نقله عنه صاحب للذخيرة ، ونقله ابن سعيد عن الذخيرة ومنسوباً إليها ، أنظر : .

• المغرب في حل المغرب ، ج ١ ص ٣٥٤ - ٣٥٥ ، طبعة دار المعارف ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٤ .

• ابن بسلام : الذخيرة في بحار أهل الجزيرة ، القسم الأول ، المجلد الأول ، ص ١٤١ (الترجم) .

على تضليله ، وشنعوا عليه ، وحذروا سلاطينهم من فتنته ، ونهوا عوامهم عن الدنو إليه والأخذ عنه ، فطفق الملوك يقصونه عن قربهم ، ويسيرونه عن بلادهم ، إلى انهموا به إلى منقطع أثره بتربة بلده من بادية لبلة ، وبها توفي رحمه الله سنة ست وخمسين وأربعمائة ، وهو في ذلك غير مرتدع ولا راجع إلى ما أرادوا به ، بدت علمه فيمن ينتابه ببيادته من عامة المقتسين منه ، ومن أصاغر الطلاب الذين لا يحدون فيه الملامة ، يحدّثهم ويفقههم ويدارسهم ، ولا يدع المثابرة على العلم ، والمواظبة على التأليف ، والإكثار من التصنيف ، حتى كمل من مصنفاته في فنون العلم وقر بعبر ، ولم يعد أكثرها عتبة باب ، لتزهد الفقهاء طلاب العلم فيها حتى أحرق بعضها بإشيلية ، ومزقت علانية ، ولا يزيد مؤلفها ذلك إلا بصيرة في نشرها ، وجدالا للمعاندين فيها ، إلى أن مضى لسبيله .

« وأكثر معانيه - زعموا - عند المنصف له ، جهله بسياسة العلم التي هي أعرض من إيعابه ، وتخلفه عن ذلك على قوة سبحة في غماره ، وعلى ذلك كله فلم يكن بالسليم من اضطراب رأيه ، ومغيب شاهد علمه عند لقائه ، إلى أن يحرك بالسؤال فيفجر منه بحر علم لا تكدره الدلاء » ، ولا يقصر عنه الرشاء . ويتحدث ابن حيان أيضاً عن تعصب ابن حزم الأعمى لأفكاره .

« ونحاول الآن أن نتعرف إلى عالم قرطبة من خلال كتاباته نفسها ، وإليك الدليل على لداعة قلمه ، يقول : « إن كل مدبر مدينة أو حصن في شيء من أندلسنا هذه ، أولها عن آخرها محارب لله تعالى ورسوله وساع في الأرض بفساد . وينتقد بشدة من يمكن أن نسميهم بالكهنة ، وهم ليسوا كذلك في الحقيقة ، لأن الإسلام لا يعرف نظام الكهنوت ، ولكن يقترب من هؤلاء في واقعهم المسيحي علماء العقيدة أو الفقهاء المسلمين : « فلانغالطوا أنفسكم ، ولا يغرنكم الفساق والمنتمسون إلى الفقه ، واللابسون جلود الضأن

على قلوب السباع ، والمزيتون لأهل الشر شرهم ؛ الناصرون لهم على فسقهم .

ولنستمع إليه يعلن الحرب على النفاق والكذب : « ما رأيت أخزى من كذاب ، وما هلكت الدول ، ولا هلكت الممالك ، ولا سفكت الدماء ظلماً ، ولا هتكت الأستار بغير النائم والكذب ، ولا أكدت البغضاء والإحن المردية إلا بنائم لا يحظى صاحبها إلا بالملت والخرى والذل ، وأن ينظر منه الذى ينقل إليه ، فضلاً عن غيره » ، بالعين التى ينظر بها من الكلب .

ونبرهن على إسبانيته الكيخوتية (١) من قوله : « حد الشجاعة بذل النفس للموت عن الدين والحريم ، وعن الجار المضطهد ، وعن المستجير المظلوم ، وعن الهزيمة ظلماً فى المال والعرض ، وفى مائر سبل الحق ، سواء قل من يعارض أو أكثر ، والتقصير عما ذكرنا جبن وخور ، وبهذا فى عرض الدنيا تهور وحمق » . ثم يضيف : « وأما الذى يعينى به جهال أعدائى من أنى لا أبالى فيما أعتقد حقاً عن مخالفة من خالفته ، ولو أنهم جميع من على ظهر بالأرض ... فهذه الخصلة عندى من أكبر فضائل التى لا مثيل لها » .

ونكتشف مفهومه الإسبانى للعلاقة بين الإنسان والله فى قوله : « إذا لم يكن بد من إغضاب الناس أو إغضاب الله عز وجل ، ولم يكن لك مندوحة عن منافرة الخلق أو منافرة الحق فأغضب الناس ونافرهم ، ولا تغضب ربك ولا تنافر الحق » .

وليك البرهان على احتقاره للعادات الاجتماعية ، ونفوره من خفة الدين

(١) نسبة إلى دون كيخوته (أو كيشوته) بطل رواية ثرفانتيس الخالدة ، وتحمل اسم البطل نفسه ، وهو رجل كان يحلم بإشاعة العدل ، ورفع الظلم ، وتنظيم الكون ، ثم رأى أحلامه تنهاوى حلماء وراء آخر .

يعبدون الشطارة ، وينسون الطريق المستقيم ، إنه يعترف : « إني لا أبالي » موافقة أهل بلادى فى كثير من زبهم الذى قد تعودوه لغير معنى ، فهذه الخصلة عندى من أكبر فضائلى التى لا مثيل لها ، ولعمرى لو لم تكن فى - وأعوذ بالله ! - لكنت من أعظم متمنياتى وطلباتى عند خالقى عز وجل . ويقول أيضاً : « إياك وأن تسر غيرك مما تسوء به نفسك فيما لم توجه عليه عليك شريعة أو فضيلة » . ويضيف : « وأما لإحكام أمر الدنيا والتودد إلى الناس بما وافقهم ، واصلحت عليه حال المتودد من باطل أو غيره ، أو عيب أو ما عداه ، والتحيل فى إنماء المال ، وبعد الصوت ، وتسبب الجاه بكل ما أمكن من معصية ورذيلة ، فليس عقلاً . ولقد كان الذين صدقهم الله فى أنهم لا يعقلون ، وأنخبرنا بأنهم لا يعقلون ، سائسين لدنياهم ، مشمرين لأموالهم ، مدارين للوكلهم ، حافطين لرياستهم ، لكن هذا الخلق يسمى الدهاء ، وضده العقل والسلامة » .

ولنصغ إلى ثنائه الإسبانى حرفياً ، وإلى ثرثرته الإسبانية العادية : « لكل شئ فائدة ، ولقد انتفعت بمحك أهل الجهل منفعة عظيمة ، وهى أنه توقد طبعى ، واحتدم خاطرى ، وحى فكرى ، ونهيج نشاطى ، فكان ذلك سبباً إلى تواليف لى عظيمة المنفعة ، ولولا استشارتهم ساكنى ، واقتداحهم كامنى ، ما انبعثت لتلك التواليف » . ويكتب كاشفاً عن موقفه الإسبانى بإزاء الثروة : « وذمنى أيضاً بعض من تعسف الأمور ، دون تحقيق بأنى أضيع مالى ، وهذه جملة بيانها أنى لأضيع منه إلا ما كان فى حفظه نقص دينى ، أو لإخلاق عرضى ، أو لإتاعاب نفسى ، فإنى أرى الذى أحفظ من هذه الثلاثة ، وإن قل ، أجل فى العوض مما يضيع من مالى ، ولو أنه كل ما ذرت عليه الشمس » .

ويقول معترفاً بغضبه الإسبانى ، وبما يعتمل فى أعماقه من صراع داخل إسبانى : « كانت فى عيوب فلم أزل بالرياضة واطلاعى على ما قالت الأنبياء صلوات الله عليهم ، والأفاضل من الحكماء المتأخرين والمتقدمين

في الأخلاق وفي آداب النفس ، أعانى مداواتها ، حتى أعان الله عز وجل على أكثر ذلك بتوفيقه ومنه . وتام العدل ورياضة النفس ، والتصرف بأزمة الحقائق ، هو الإقرار بها ، ليعتد بذلك معتد يوماً إن شاء الله .

و فنها كلف في الرضا ، وإفراط في الغضب ، فلم أزل أداوى ذلك حتى وقفت عند ترك إظهار الغضب جملة بالكلام والفعل والتخطيط ، وامتنعت مما لا يحل من الانتصار ، وتحملت من ذلك ثقلاً شديداً ، وصبرت على مضض مؤلم ، كان ربما أمرضني وأعجزني ذلك في الرضى ، وكأننى سمعت نفسى في ذلك ، لأنها تمثلت أن ترك ذلك لوئم .

واليك برهان شعري جميل على اعتزازه الإسباني ، في مواجهة الحسد ، وهو إسباني أيضاً :

أنا الشمس في جو العلوم منيرة	ولكن عبي أن مطلعي الغرب
ولو أننى من جانب الشرق طالع	لجد على ما ضاع من ذكرى النهب
ولى نحو آفاق العراق صباية	ولا غرو أن يستوحش الكلف الصب
فإن ينزل الرحمن رحلى بينهم	فحينئذ يبدو التأسف والكرب
فكم قائل أغفلته وهو حاضر	وأطلب ما عنه تبي به السكت
هنالك يدري أن للبعد قصة	وأن كساد العلم آفته القرب
فيا عجباً من غاب عنهم تشوقوا	له ، ودنو المرء من دارهم ذنب
وإن مكاناً ضاق عني لضيق	على أنه فيح مهامه سهب
وإن رجلاً ضيعوني لضيع	وإن زماناً لم أنل خصبه جذب

أثنى المؤرخون الإغريق والرومان على وفاء الإسبان في صداقتهم ، ويقول لنا ابن حزم فيما يتصل بهذا الأمر : « إني جبلت على طبعين لا يهتني معهما عيش أبداً ، وإني لأبرم بحياة باجتماعهما ، وأود التثب من نفسى أحياناً ، لأفقد ما أنا بسببه من النكد من أجلهما ، وهما : وفاء لا يشوبه تلون ، قد استوت فيه الحضرة والغيب ، والباطن والظاهر ، تولده الألفة التي لم تعزف بها نفسى عما درينه ، ولاتنتطح إلى عدم من

صحبته . وعزة نفس لا تفر على الضيم ، مهتمة لأقل ما يرد عليها من
تغير المعارف ، مؤثرة للموت عليه . فكل واحدة من هاتين السجيتين تدعو
إلى نفسها ، وإنى لأجفى فأحتمل ، وأستعمل الأناة الطويلة ، والتلوم
الذى لا يكاد يطيقه أحد ، فإذا أفرط الأمر ، وحميت نفسى تصبرت
وفى القلب ما فيه « ويضيف ، فى نبرة إسبانية أصيلة « الخطأ فى الحزم خير
من الخطأ فى التضييع » . وقد سبق كالديرون بقوله « العرض أعز على
الكريم من المال . ينبغي للكريم أن يصون جسمه بماله ، ويصون نفسه
بجسمه ، ويصون عرضه بنفسه ، ويصون دينه بعرضه ، ولا يصون
بدينه شيئاً أصلاً » ، ويمكن أن نضيف إلى ما قال جملة جاءت على لسان
بطل مسرحية وعمدة السلمية Alcaide de Zalamea ، الخالدة لمؤلفها كالديرون :
« الله وحده يملك أرواحنا » .

لقد أحسست بسعادة غامرة ، لأن غرسية غومث ، وهو ناقد بصير وعلى
معرفة واعية بآبن حزم ، ارتأى إسبانية مؤلف « طوق الحمامة » ، وأنه فى
الحقيقة كان دون كيخوته من القرن الحادى عشر . قلته قديماً ، واليوم
أحاول أن أكتشف الكيخوتية الإسبانية فيه ، قبل أن يعرفها آخرون
من شبه الجزيرة سبقوا ألونسو كيخانو Alonso Quijano ، ومن يسرع لى دراسته
يوفر على عملا يشدنى إليه ، وأشك أننى سأكمله يوماً .

وضع غرسية غومث جملة : « تناقض جوهرى » عنواناً لفقرة فى مقدمته
لترجمة الطوق ، وفيها كتب يقول « هذا التناقض الجوهرى المستمر ،
والإزدواجية غير المنصهرة ، من اللطف والخشونة ، ومن العواطف
الرقيقة والجافية ، ومن النبل والعامية ، تجعل ابن حزم من أحب الشخصيات
إلينا ، لأنها تجعل منه قريباً لعظماء آخرين من مستواه ، عرفهم عصرنا
الذهبي ، وفيهم تبدو الإيبيرية كاملة وقوية ، ولقد أشرنا من قبل عرضاً
إلى جونجورا Gongora وكيبيدو ، ونستطيع أن نذكر آخرين ، ليس من
بينهم ثر فانتيس ، قمة مثل لايتكر ، وفيهم تلتقى تناقضات سلاتنا

الجلدية ، في تركيب إنسانى مفهوم ، حلو وحزين .

وأنا أشارك غومث رأيه ، بعامة ، ولقد ربطت أيضاً بين شاعرنا كيبيدو وبين أديبنا ابن حزم ، وأجروا على أن أقوم بموازنة خاطفة ، فيما بعد ، بينه وبين أونا مونو . لقد وضعت خطأ على مسئوليتى تحت الجملة السابقة من كلام غومث ، والتي تتصل بدور «الإبيرية» ، قديمة وثابتة ، فى أخلاق ابن حزم ، لأنها تقف فى مواجهة فكرة أميركو كاسترو ، التى ترد مثل هذه الانصالات إلى التفاعل بين ما هو مسيحى وما هو إسلامى ، وإليها ينسب تشكىل ما هو إسبانى . لم أكتب كلمات مترجم «طوق الحمامة» إلى الإسبانية ، لأننى لا أعرف ما إذا كان هذا التناقض يمتد إلى أصول بعيدة جداً ، ولكنى حاولت ، على الأقل ، وفيما أعتقد استطعت أن أفهم امتداده خلال ماضينا ، عبر طرق تختلف عن طريق كاسترو ، وهى مشتركة إلى حد كبير ، وفضلاً عن ذلك فلانى أميل إلى عدم الاستخفاف بأن تشابه الصيغ الجبرية ، فى معادلة بين الروح والمشاعر والغرائز ، أو الأرواح الثلاثة بتعبير أورتيجا إلى «جاسيت» ، يولد تقارب الأمزجة عند رجال من لحم وعظم ، والذين هم ، وكانوا ، الفلاسفة والفنانين والكتاب . لأننى أعتقد أن هؤلاء لم يكونوا ، وليسوا دمي يرمى بخيوطها كائن ثقافى مجرد ، ولكن من الواضح أن تكرار عدد من أشكال هذه المعادلة الجبرية ، بين القوى الحيوية الثلاث ، بين أعضاء جماعة تاريخية - والإحصاء المطبق فى التاريخ ، ولو أنه يبدو متناقضاً ، يثبت اتجاهها مزاجياً - يصدر بالضرورة عن ملامح جماعية متأصلة فى التكرين العضوى للشعب ، ون تركيب يرتبط وراثته مع المراحل الأكثر بعداً فى التاريخ ، وتمضى على امتداده ، كما هو واضح ، تغيراً وثباتاً ، فى إيقاع ونتائج مختلفة ، كالأنهار ، تتدفق بسرعة أوبطيئة ، وتمضى مستقيمة أو منعطفة ، وفى طريقها تخلص أو تدمر .

وفى موازنة مع كبار الشخصيات الأدبية الإسبانية فى العصر الذهبى ،

يمكن ، على نحو ما كتب غومث ، أن نجعل له من السكبرياء
الإسباني نصيبا ، وأن نرد إليها أيضا وحدته الآدمية . ويضيف مترجمه :
« لقد عرف مؤلف كتاب « طوق الحمامة » كتاب « الزهرة » لابن داود
الأصفهاني مباشرة . . . ولكن من واجبنا أن نضيف ، أنه بالرغم
من الإشارات الحرفية القليلة ، ومن الاتجاه العاطفي المشترك ، فإن « الطوق »
يدين بالقليل جدا لكتاب « الزهرة » ، لأن النظرية فيه تغربت وتأسبت ،
وفقدت دلالتها الرائع وتحذلقها الخنث ... وما كان يقال في بغداد أنثراً رائعاً
أو شعراً لا ينسب لقائل ، كان يكتبه مؤلف « الطوق » في شاطبة ساخنا
وإنسانيا ، ويتخذ له المثل من حياته ، ومن حياة أصدقائه في قرطبة . لقد مزق
ما فيه من عاطفة وملل إسبانيين السياج الواقى للنبي ، وشربا منه ، كل
على وجهه ، وخلطا هذين المصلين بدمه » .

ياله من برهان بالغ الروعة والجمال ، في جانب إسبانية مؤلف
« طوق الحمامة » ! .

ويدعم غومث رأيه بنقل صفحة من رسالة ابن حزم في
« فضائل أهل الأندلس » ، وهي تذكرنا بلارا Larra (١) وفيها يعلق ،
في مرارة إسبانية ، على فقرة من الإنجيل لوقا (الإصحاح السادس ، الآية
٢٤) : « وقرأت في الإنجيل أن عيسى عليه السلام قال : « لا يفقد النبي
حرمته إلا في بلده » . « ولا سيما بأندلسنا ، فإنها خصت من حسد أهائها
للعالم الظاهر فيهم ، الماهر منهم ، واستقلالهم كثير ما يأتي به ، واستهجانهم
حسناته ، وتبعهم منقطاته وعثراته ، وأكثر ذلك مدة حياته ، بأضعاف
ما في سائر البلاد ؛ إن أجاد قالوا : سارق مغير ؛ ومنتهحل مدع .
وإن توسط قالوا : غث بارد ، وضعيف ساقط . وإن باكر الحيازة

(١) لارا : (١٨٠٧ - ١٨٣٧) ، كاتب إسباني ، نشر كثيرا من المقالات ، بتوقيع
سمار في صحف كثيرة ، وكانت مقالاته نقدا عبقريا ، وداميا للتقاليد المتخلفة في عصره .
(المترجم) .

لقصب السبق قالوا : متى كان هذا ؟ ومتى تعلم ؟ وفى أى زمن قرأ ؟
ولأمة الهبل ! . وبعد ذلك إن ولجت به الأقدار أحد طريقين إما شفوفاً
باتناً يعليه على نظرائه ، أو سلوكاً فى غير السبيل التى عهدوها ، فهنا لك
حمى الوطيس على البائس ، وصار غرضاً للأقوال ، وهدفاً للمطالب ،
ونصباً للتسبب إليه ، ونهباً للألسنة ، وعرضة للتطرق إلى عرضه ، وربما
نحل ما لم يقل ، وطوق ما لم يتقلد ، وألحق به ما لم يفه به ولا اعتقده
قلبه ، وبالحرى وهو السابق المبرز ، إن لم يتعلق من السلطان بحظ أن يسلم من
المتالف ، وينجو من المخالف . فإن تعرض لتأليف غمز ولمز ، وتعرض
وهمز ، واشتط عليه ، وعظم يسير خطبه ، واستشنع حين سقطه ، وذهبت
محاسنه ، وسرت فضائله ، وهتف ونودى بما أغفل ، فتنكسر لذلك همته ،
وتكلل نفسه ، وتبرد حميته ، وهكذا عندنا ، نصيب من ابتدأ يحوك
شعراً ، أو يعمل بعمل رياسة ، فإنه لا يفلت من هذه الجبائل ،
ولا يتخلص من هذه النصب إلا الناهض الفاث ، والمطفف المستولى على
الأمد .

من الضرورى أن يفرك الإنسان عينيه بعد أن يقرأ هذه الصفحة
الحزينة ، ليقتنع فى دهشة بالغة لا يمكن إنكارها ، أنها خرجت من
قلم ابن حزم ، لقد كتبها المفكر الإشباني ، والقلق يغمره ، بين عامى
١٠٣٥ و ١٠٤٠ م ، فجاءت تعكس بدقة المناخ الكريه ، الطافح
بالحسد ، الذى عاش فيه ، وتسابير شموخ إسبانيا المعاصرة ؛ وحتى فى
عصور أخرى كثيرة من تاريخها فى الماضى . لم تزدهر هذه اللبالة
الحبيثة جنوبي جبال البرانس فحسب ، لأنها تنمو سريعاً خلال الأزمات
وفى لحظات السقوط القومى ، فى أى مكان ؛ ولكن لم يحدث أنها
تأصت وترعرعت وآتت أكلها كما فى إسبانيا أمى ؛ مرة أخرى ، ثمرة
مرة للسلالة والأرض الإسبانية ؟ لا إنها مرة أخرى ثمرة فاسدة
لتأثير تاريخنا العريق والفريد فى الإنسان الإشباني منزهراً ، هذا حق !

من طين شبه الجزيرة ودمها . و كل الأحوال ؛ مرة أخرى ، دليل آخر واضح على إسبانية ابن حزم ، والذي كتب منذ قرون مضت ، في مرارة عميقة وتشاؤم أسود ، قبل أن تكون روح الإسبان ، كما يدعى كاسترو ، قد أصيبت بعدوى الحزن والحنق من يهود شبه الجزيرة الإيبيرية ، عدوى يفسرها (أى كاسترو) حتى الشعور بمساوية الحياة عند الإسبان .

• مع ترجمة الطوق :

قلنا من قبل إننا نستطيع اليوم أن نقرأ طوق الحمامة ، جوهرة الأدب الأندلسي ، في اللغة القشتالية بفضل غرسية غومث . لقد عرض ابن حزم نظريته النفسية عن الحب في ثلاثين بابا ، مع ملاحظات دقيقة ، وفكر محلق ، يغزو ويشد على الدوام اهتمام من يطل بين صفحاته رغم أن وراء الكتاب ألف عام من التاريخ ، ووراء قارثه تراث هائل من الثقافة الغربية .

لقد أثار كتاب « الطوق » كثير آ من المشكلات أمام الدارسين المحدثين ، ولكي يهيئ غرسية غومث القارئ لجولة أكثر فائدة عبر صفحات الكتاب ، قدم له بدراسة عن ابن حزم اتكأ فيها على السيرة التي رسمها له العلامة ميغيل أسين بلايوس ، شيخ المستشرقين الإسبان ، وتصرف فيها لإيجازاً أو إطناباً أو تقويماً ، وفي كل الحالات دفع بين سطورها بمزيد من الحياة . لقد أغرانا بالصورة السريعة والدقيقة التي رسمها لابن شهيد طفلاً ، يظهر أمام المنصور بن أبي عامر ، وسوف يصبح فيما بعد شاعراً عظيماً ، وصديقاً حميماً لابن حزم ؛ ورأس جماعة من أبناء الخاصة في قرطبة ، أنيقون يعبدون الجمال ، ويسرحون شعورهم على أحدث نمط ، ويهيمون إعجاباً بكل جديد ، ويعشقون الأدب والفنون الجميلة ، وقد انضم إليهم مؤلف الطوق في اللحظة التي تجاوز فيها سن المراهقة ، ولقد وعدنا غرسية غومث بدراسة عن ابن شهيد ، صديق ابن حزم ، ننتظرها في صبر نافذ .

وقد أوضح لنا المثل الأعلى في الأدب لهذه الجماعة ، ذات الانجاء العربي ،
تحتقر كل ما هو إسباني ، ولكنها قومية ، تحاول التغلب على التقليد الأعمى
لكل ما هو مشرقى .

وعرض غرسية غرمت للأحداث البارزة في حياة ابن حزم ، ورافق
بطله في منفاه ، وفي بريق انتصاره ، وفي أخبية أمله ، وتغيير خط حياته :
ويشير مأخوذاً إلى جهده الثقافي العملاق ، وإلى صراعه ضد العواصف
والأنواء ، وإلى روحيته الصافية ، وتحوله من مُهمِّم إلى مُهمِّم ، وموقنه
مهزوماً مثل دون كيخوته ، وتعاور الحشونة والرقّة عليه ، ونسيان
المفكرين والكتاب المسلمين له ، إلى أن رد له العلم الغربي الحديث
وبحق مكانته .

ثم حلل كتاب « الطوق » متعمقا ، ومحللا بشرطه الدقيق النافذ
مختلف الجوانب التي يمكن أن تساعد على النقاط أسرار الخلق الفني عند
ابن حزم . ودرس اتجاهات المدرسة التي انتمى إليها ، وخطواته الأولى
في عالم الكتابة ، ومن بينها ما كان مينديث بيدال Menéndiz Pidal (١)
يدعوه « المقطعات » ، والطابع الشخصي للطوق ، وما يقدم من سيرة
ذاتية لمؤلفه ، والصدق الأدبي عند مؤلفه ، وما أثاره ويثيره من نقاش ،
وما يتميز به في شعره من زهد وفلسفة ، في نطاق الشعر الغنائي الأندلسي
وعرف بالطيش والشهوة ، والعفة الخالصة المستقيمة وسبق بها الشاعر
الإسباني جونجرة . وهو كتاب عن الحب ، ويجب أن يقرأ بحذر ، رغم
أنه كتب بنية صافية وطاره ، ودون أن يقصد المؤلف من ورائه غرضاً
فاحشاً . ولكن تهب عبر صفحاته رياح من الشذوذ الجنسي ، ويتدفق عليها
نهر صغير من واقعية بذيئة ، وما يمكن أن يحس به بعض القراء المحدثين من
خيبة أمل لزاء أفكار ابن حزم وآرائه ومفاهيمه ، لأنها اليوم عادية وشائعة ،

(١) ميندث بيدال : (١٨٦٨ - ١٩٦٨) ، عالم ولغوى ومؤرخ إسباني ، وله أبحاث
هامة وجادة عن تاريخ أسبانيا في العصر الوسيط ، في جانبيها الإسلامي والمسيحي (المترجم) .

غير أنها كانت شيئاً جديداً وفلذاً على أيامه ، أى منذ ألف عام . وحدة الإحساس بالجمال الحسى ، كقوة مبدعة مجالى الحب والأدب ، والعثور فى « طوق الحمامة » على صدى لأفكار أفلاطونية ، وأصل شعر الحب البغدادى ومفهومه ، أو الحب العذرى العفيف فى المشرق ، وانتشاره فى الأندلس حين التقطه ابن حزم هادياً لفكرته عن الحب ، فيما يرى مترجم « الطوق » ، وما آل إليه ، أمر هذا الحب فيما بعد ، حين غرق سريعاً فى موجة الشهوة العارمة على أيام دول الطوائف .

ولكن دراسة غرسية غومث لابن حزم وكتابه تحتاج إلى شئ من تعليق ، لتعرف على نحو أفضل ما هو إسباني فى المفكر العظيم والشاعر ، والذي ندين له « بطوق الحمامة » ، إلى جانب الشخصيات الإسبانية العملاقة الأخرى ، التى تنتظم فى عقد منذ سينكا حتى أوتامونو .

ويجب أن نشير إلى جملتين مما كتبهما مؤلف « الطوق » ، وقد اقتبسهما غرسية غومث ، ولاتنس الجملة التى وضعت تحتها خطأ فيما مضى ، وهما : « نوار الفتنة لا يعقد » ، ولو أنه لأسباب بيئية (١) لم يوضعها عندما التقطها ، وعلى العكس مر بها سريعاً ، والجمتان تساعدان على فهم ابن حزم ، وفهم إسبانيا الإسلامية أيضاً ، وكل تاريخ إسبانيا على اختلاف مراحله ، وقوله : أنا الشمس فى جو العلوم منيرة . ولكن عيبى أن مطلعى الغرب ولقد جمعت عبارات ليست بأقل منها ارتجافاً فى شعوخها ، كتبها مرسىال Marcial ، وابن قزمان ، ورايموند ال Raymund Lull (٢)

(١) يشير الكاتب إلى أن غرسية غومث كان يكتب فى إسبانيا الفاشية ، وقد انتصرت - مؤقتاً - بعد حرب أهلية طاحنة (١٩٣٦ - ١٩٣٩) دمرت إسبانيا تماماً ، وعلى امتداد أيامها ، التى انتهت الآن بموت الجنرال فرانكو ١٩٧٥ ، كانت الرقابة على الفكر والفن عنيفة وقاسية ، وكان محالاً على غومث أن يوضح فكرته ، على حين أن سانشيث البرنس كان يكتب من منفاه فى الأرجنتين .

(٢) • مرسىال^١ : (٤٣ - ١٠٤ م) شاعر لائى ، وقيق وماجن ، ولد فى مدينة بيبليس ، قلعة أيوب الآن ، فى إسبانيا .

وآخرون من عمالقة الفكر الإسباني ودّبه على امتداد عصوره ، بجملا
كالتى كتبها ابن حزم ، تبين إلى أى مدى كان كبرياء الأقلية الإسبانية
المتنفذة يطاول الحسد الخفير الذى يجعلهم من كل جانب - ولست أدري
ما إذا كان ابن حزم مصدر هذا الجدل الخاقد أو كان رد فعل ضده - فى
البيئة المتأثرة التى وصفتها لنا مؤلف « طرق الحمامة » فى أسبانية قادرة
وممرورة ، عندما سخر من جمود و تصلاب وضيق أفق فقهائ المالكية فى
الأندلس ، وكانت الدولة على مذبحهم تقرباً ، ونعتهم بأنهم « أصحاب
المذهب القديم » . ما الذى كان فى حياة الإسبان الدينية ، قبله ومن بعده ،
ليستحتوا هذا الوصف من ابن حزم ، وكان مؤمناً تقياً ، ومتديناً
غيوراً ؟ .

لقد أبرز غرسية غوث حرص مؤلف « طرق الحمامة » دائماً على شرفه ،
وهذا الحرص حرك فى داخلى سؤالا متآمراً ، وموضوعاً مغريباً ، أما السؤال
فهو : ماذا يفهم المسلمون بعامة من كلمة الشرف ؟ . وأما موضوع الدراسة
الذى عرض لى : إلى أى مدى أثرت غربية ابن حزم فى إحساسه القوى
بالشرف ؟ .

وأشار المترجم ، محتثاً بكتاب ابن حزم ، إلى قضية تأثير الشعر
الأندلسى فى نشأة الشعر الرومانسى ، وهى موضع نقاش دائم ،
وذكر أن المثير على « خرجات » رومانسية فى المرحلات الأندلسية
غير من مادة المشكلة ، ولكنه يصر على ما لطرق الحمامة من قيمة ،
كنص هام للمتماركة بين المدرستين الشعريتين ، ويميل إلى تجنب المبالغات ،

-
- ابن قزمان : (١٠٦٨ - ١١٦٠ م) ، شاعر وزجال قرطبى ، ينتمى فى بيت بنى قزمان
العريق ، وترك لنا ديوان زجل كاملاً ، الوحيد من نوعه الذى وصلنا من تراث الأندلس .
• رايوندىل : (١٢٣٥ - ١٣١٥ م) ، فيلسوف إسبانى من قطونية ، وكان يجيد
اللغة العربية ، وفيها كتب بعض مؤلفاته ثم ترجمها إلى لغته ، وتأثر بالثقافة الإسلامية إلى حد بعيد .
(المترجم) .

ويرفض أن يقبل إنكار الشاكين . وأصاب عندما اتخذ موقفاً متعقلاً ، لأن ظهور كتاب « قصة المعراج Libro de Escala » أكد في فحواه نظرية أسين بلاثيوس عن التأثير الإسلامي في الكوميديا الإلهية لدانتى ، واكتشاف الخرجات ، وما حدى به خوليان ويبرا عن وجود شعر غنائى رومانى فى الأندلس يمكن أن يؤدى إلى نتائج مشابهة .

وقد واجه غرسية غومث أيضاً نظرية أميركو كاسترو عن تأثير « طوق الحمامة » فى كتاب « الحب المحمود » ، وارتأى أنهما مختلفان جداً ، فى خصائص وحياة وأعمال مؤلفيهما : ابن حزم وكاهن هيتا . ووازن بين فقرات من « الطوق » وأخرى من « الحب المحمود » ، ولأن بعض هذه المشابهات يمكن أن نجىء وليد الصدفة ، والبعض الآخر يتصل بالجانب الأكثر إنسانية وشيوعاً فى « الطوق » ، ومن ثم فالقول بتبعية الكتاب الثانى للأول مباشرة ابتسار ومغامرة . وأميل إلى أن أذهب بأبعد من ذلك إنكاراً ، وأشك . أن أياً من الموازنات الخارجية التى قام بها غرسية غومث جاء صدفة ، لأن مصدرها ، فيما أرى ، أن كلا من المؤلفين اندمج فى بيئة حياتية تقرب كثيراً من بيئة الآخر ، إلى ما بين الموضوعين نفسيهما من تشابه . وفى فصل طويل من كتابى الذى أشرت إليه من قبل ، عارضت رأى أميركو كاسترو والرائع والملمهم فى كاهن « هيتا » ، وشرحت رأبى من خلاله ، وازددت به اقتناعاً بعد أن قرأت ما كتب غرسية غومث : « لابد أن كتاب ابن حزم الرائع كان محدود الانتشار ، فهو كتاب خاصة وصعب ، وتفصاه عن كتاب « الحب المحمود » هوى حقيقية ، واختلافات فكرية » ، وهذه الكلمات الدقيقة ، فما يبدو لى ، تعكس رأيه المديد ، وتناقض ترخصاته الجدلية واللطفية ، لأن قلة انتشار كتاب ابن حزم ، وصعوبته وأرستقراطيته ، لا تتفق مع الانتشار الواسع الذى يجب أن يكون عاناه ، عبر طرق ملتوية ، لكن يمكن أن يبلغ كاهن « هيتا » .

وأرفض أيضاً افتراض كاسترو من أن ابن حزم « كان يتحرك فى عالم

مشيع بروحانية متصوفة» وعن الرأى الذى يقول بأن ابن حزم كان يمزج الحب الإلهى بالحب الإنسانى كتب كاسترو : « لا يوجد شئ في كتابات ابن حزم المتصلة بالعقيدة شئ عن الحب الإلهى في مفهومه الدقيق ، بمعنى يلتقى مع مانفهمه نحن من استخدام هذا المصطلح ، ولا يمكن أن تكون في الفقه الظاهرى : ويرى غرسية غومث أننا حتى ولو استبدلنا كلمة «إلهى» بتعبير «وضعى» لا يمكن أن يتفق مع كاسترو ، وأنا أشاركه هذا الرأى . وأعتقد أن رأى غومث في نظرية زميل مدير يد القديم (أى كاسترو) غير كافية ، وأشير إلى ما يظن أنه طريق المسلمين الإسبان بين ظلال ساهرة ، وأفترضه أن مفهومهم للحياة أنها تدفق أو انزلاق بين عالم هراب وظاهرى ، نظرية يدعمها كاسترو ويتخذ لها دليلا من استعارات طوق الحمامة . لما أنا حار أو ابن حزم . والقرطبيون من جيله يتقدمون على صفحات الطوق ، بخطى ثابتة على الطريق ، في جو صحو وشفاف ، وأعين مفتوحة للغاية على الحقيقة ، ومشاعر تنضح دفئا وإنسانية ، بلا سائر ولا ظلال ولا رموز . واستعارات جميلة فحسب ، يلفها بخار رقيق من شعر ، لا بين الإسبان المسلمين ، وقص لنا ابن حزم حكاياتهم الغرامية ، ولكن بينهم وبيننا . ضوء ساطع في مدينة من الجنوب ، وواقعية بذية وتافهة أحيانا ، وذلك هو الجو الحياتى الذى عبر القرطبيون خلاله في « طوق الحمامة » ، والعالم حولهم لا يتلاشى ، لأن حماسة حرة تدعمه ، على نحو ما يريد أميركو كاسترو .

لا أدري ما إذا كنا نحتاج إلى الوقوف طويلا ، وفي تأمل وباهتمام أكبر ، عند افكار ماسينيون عن الإبداع التنى عند المسلمين ، وقد ترجم غرسية غومث هذه الدراسة منذ أعوام ، أفكار ما أكثر ما رجعت إليها ، وأفدت منها ، أفدت منها كثيرا ، وأتاحت لأميركو كاسترو أن يتعمق في بعض القضايا التى درسها ، وربما لغرض لم يتوقف ليشرح مستوعبا موضوع هامين : أهمية طوق الحمامة لمعرفة الحياة في قرطبة على أيام الخلافة ، ونظرية الحب عند ابن حزم والمسلمين الأندلسيين . وقد اهتم المستشرق الفرنسى الكبير ليفى بروفنسال ،

لحسن الحظ ، بالموضوع الأول ، وشغل غرسية غومث ، وأورتيجا
إلى جاسيت ، بالموضوع الثاني ، في مقدمة ترجمة الطوق ، بعمق فكرهما
المعهود .

ولقد سبق ليفي بروفنسال في مقاله : « نزهة بلا رابط خلال طوق
الحمامة » غرسية غومث عندما حاول تحديد الشخصيات الواردة في الطوق ،
الظاهرة والمغمورة ، والنقط بعض الأخبار التي وردت في الكتاب عن تاريخ
الاندلس ، وعن الحياة في قرطبة خلال عصر الخلافة . وليس من أهني الآن
الحديث عن دقة هذا التحديد ، أولقد أظهرت أن ابن أبي عامر المختل
الأعصاب ، والذي رأى فيه أمير كوكاسترو أول « دون جوان » ، لم يكن
حفيداً للمنصور بن أبي عامر ، كما افترض كلا المستشرقين ، ليفي بروفنسال
وغرسية غومث ، نعم تهمة الأخبار الأخرى ، ولقد أنكر أسبن بلاثيوس
أن « طوق الحمامة » دراسة نفسية ، وأوضح قيمته التاريخية وأفاد منها ،
على حين يصغر غرسية غومث ليفي بروفنسال على أنه دراسة نفسية ، وحاولا
أن يفيدا من المعلومات التي جاء بها ابن حزم هنا وهناك ، وحول نفس المسرح
الذي جرت عليه الأحداث ، تراجع لآخرين أولنفسه ، يأتي بهامثلا يدعهم
به تأملاتة الدقيقة عن الحب . ومع ذلك يعترف المستشرقان الشهيران كلاهما
بأن الأخبار التي جاء بها طوق الحمامة عن « عاصمة الخلافة قليلة وموجزة ،
والشيء نفسه يمكن أن يقال عما يقدمه لنا عن الأشياء بعامية . لقد اعتاد ابن حزم ،
خلال أعوام صباه على الأقل ، أن يدق النظر في الرجال أكثر مما يتوقف
عند الأشياء التي يتحرك بينها هؤلاء ، ولم أر واحداً بين كل الذين اقتربوا
من الطوق وقف عند هذه الملاحظة . وواقعيتها ، وكتاب ابن حزم كتاب
واقعي رغم أنه دراسة نفسية ، واقعية روح أكثر منها واقعية أشياء خالصة ،
واقعية عميقة الإسبانية أيضاً . ولقد أبرز دمسو ألوونسو Damaso Alonso (١)
ربحاً ما هو إسباني من هذه الواقعية ، بمناسبة حديثه عن « الأسلوب والإبداع

(١) شاعر وكاتب وناقد ولغوي معاصر ، وهو الآن رئيس المجمع الملكي للغوي الأسباني .

فى ملحمة السيد (١)، ولكنهما لم تكن مصحوبة عند مؤلفنا بقدره متكافئة، لملتقط فى حساسية الواقعة الشفافة للأشياء التى فى عالم ما حولنا. وليس فى « الطوق » فقرة واحدة نستطيع أن نجد فيها حتى ولا ظن واحدة من تلك السهرات الحمراء ، الواقعة التى نصطدم بها أكثر من مرة فى كتاب « الحب المحمود » لكاهن « هيتا » ، رغم محاولة أميركو كاسترو الفاشلة لربط كتاب القسيس القشتالى بكتاب الشاعر القرطبي .

• ابن حزم والحب :

يوكد أورتيجا إى جاسيت أن فقه اللغة العربية لم يصل بعد إلى تحديد دقيق لما يمكن أن يفهم من كلمة « حب » . إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر الميلادى ، وطرح موضوع الحب بوصفه نظاماً واكتشافاً وقواعد إنسانية ، عندما عثر بأبيات ابن حزم الرائعة التى أهداها إلى صديق له ، ويقول فيها :
أودك ودأ ليس فيه غضاضة وبعض مودات الرجال مراب
وأحضتاك النصيح الصريح وفى الحشا لودك نقش ظاهر وكتاب
فلو كان فى روحى هـواك اقتلعتهم ومزق بالكفين عنه إهاب
ومالى غير الود منك إرادة ولا فى سواه إليك خطاب
إذا حزته فالأرض جمعاء والورى هباء وسكان البلاد ذباب
أوافق على أن الرجل تاريخ ، وكذلك أفكاره ومشاعره ، ولكنى أعتقد أنه إلى جانب التغير الدائم فى أفكاره ومشاعره ، هناك بعض الميول الفكرية والعاطفية تتجاوز حدود الزمن والقارات ، وثمة غايات مثالية فى الحياة ، علامات مضيئة تميز الطريق أمام تقدم الرجال التاريخى ، إلى غدا لمسا يزلى بعيدا .

وفى مقابل ما يفصل بين نظرية الحب عند مسلمان الأندلس ، ونظريتنا نحن الإسبان الكاثوليك ، أوضح أورتيجا إى جاسيت عدداً من التوافقات غير قليل : كثير من علامات الحب الكاشفة « بهت يتم ، وروعة

(١) ترجمت نص الملحمة ، وقدمت لها بدراسة مستفيضة ، بعنوان : « ملحمة السيد » ، ونشرتها دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٧٠ (المترجم)

تبدو على المحب عند رؤية من يحب فجأة ، وطلوعه بغتة » ، وتأثير الحب الأول في الغراميات التالية ، والاختلاص قمة الحب ... وبعض هذا التشابه يمكن ، مع أورتيجا ، رده إلى تأثير « مفاتيح الإيماءات الجسمية » ويوجد داخلنا تحت تصرفها لتعبر عن نفسها . ولكن عدداً من هذه التوافقات أو تلك يمكن تحليلها دون أن ترد إلى هذا التأثير . أليس ممكناً أن نشك ، لنكمل نظرية أورتيجا ، ونختار أحياناً ، على العكس من مفاتيح الإيماءات التي تخدم الرجل ليعبر بها عن داخله ، انسجومات مختلفة لكي نحكي بعض هذه المشاعر نفسها ؟ . لأنه فيما عشنا من الحياة ، أورتيجا وأنا ، ولو أن تاريخي - وأستعير الكلمة التي استخدمها أورتيجا عندما وازن بين عمره وعمر غرسية غومث - أقصر من تاريخه ، فقد كان أستاذاً عندما كنت طالباً ، وتعلمت عليه دائماً ، وكلانا شهد تغيرات واضحة في طرائق الحب ، وتجديداً في الإيقاع العاطفي القديم ، ولكني لأدري ما إذا كانت أفكار الحب الجوهرية قد تغيرت حقاً ، منذ أيام شبابتنا - آي ! - البعيدة .

ورغم نائحات التقدم الحالية ، والظن بأن هذا يتم في خط مستقيم ، وليس في نسق تصاعدي مستمر ، فإن الرجل يتقدم ، ومع الرجل أفكاره ومشاعره ، نحو غايات مضبوطة لما تزل بعيدة ؛ وحسبوا وقد تغشاهم مراب أحرق ، أن هذه الغايات الأخيرة في متناول اليد ، تمنحني إليها عبر منحنيات حازونية معقدة ، ولكن دون أن ينحرف بنا الطريق أخيراً . ولو أننا نعتقد أحياناً أننا نتقهقر حتماً نحو مواضع بليدة . وبالطبيعة يحدث هذا في الحب أيضاً ، ويمكن أن يبرهن عليه من يكتب ، في غد أراه بعيداً ، التاريخ المقارن لأفكار الرجال عن الحب ، على نحو ما كتب ابن حزم ، منذ تسعة قرون تقريباً ، تاريخه المقارن عن الأديان .

نظرية ابن حزم ومسلمي الأندلس عن الحب لما تزل تنوء بالشذوذ الجنسي ، هل كان مفهوم الحب هذا عاماً أيضاً على امتداد الخلافة ،

وهي أقل تشبعا بالتقاليد الإغريقية والرومانية ، وأقل عدوى بالمشاعر المنتصرة في بلاط الأندلس ؟ يبدو لي أنها تنتمي إلى مجموعة تقاليد البحر الأبيض المتوسط ، والتي استقرت وتأصلت في إسبانيا الإسلامية على امتداد تاريخها . ولم يدرس المستشرقون ولا غيرهم حتى الآن ، وكاسترو لايشاك في أهمية المشكلة ، السلسلة الطويلة من النتائج التاريخية للإسلام في إسبانيا ، وإسبانيا المسيحية ، التي أدى إليها اعتناق شبه جزيرة إيبيريا عام ٧١١ م . وسط العالم القديم ، وظل أشد سرعة في حياته الألفية ، وكان البحر الأبيض ، ذو التاريخ العريق ، في خدمتها طريقا ومحورا ، وقد جعل منه الإسلام صلة تقارب بعد أن كان الهوة التي تفصل بين عالمين ثقافيين مختلفين خلال قرون . وقد تأقلمت الحضارة الأوربية ، وبقيت إسبانيا متميرة في المنطقة ، لأن الإرث الحيوي الكلاسيكي القديم ، واصل سيره على نحو أكثر تفجراً وقوة . ومن ثم حتى ولا مفهوم الحب المنتصر في قرطبة الخلافة ، على أيام ابن حزم ، يجب أن تكون له بالضرورة أصول عربية ، وتأريخ حيوية ما كان في إسبانيا قبل الإسلام ينتظر من يدرسه . وقد حاولته في كتابي : « إسبانيا لغز تاريخي » ، باستثناء ما يسمى بالحب العذري ، أو الحب البغدادى إذا شئت ، وشق طريقه نحو أقلية رفيعة النوق من عباد الجمال ، ولكنى لا أعرف ما إذا كان الإحساس بالحب ، وعنه كتب طوق الحمامة ، قد تأصل حقاً أم لا .

لكنى انفصل الحب الطروب Cortez . ونشأ في فرنسا مع نهاية القرن الحادى عشر ومطلع القرن الثانى عشر ، عن الحب العذري ، وكان هذا أصلاً لذلك فيما يرى المستشرقون الإسبان ، كتب أورتيجا : « إن الحب الطروب ؛ حتى وهو شعور ناء ، طامح بالأشواق ، لا يتطلب تخلياً ، وإنما يعكس رغبة كاملة » . ولقد قلت في كتابي « إسبانيا الإسلامية » : « توجد مسافة شاسعة بين مفهوم الحب عند ابن حزم والحب الصوفى العذري ، لأن ذلك لا يتطلب المعزوف عن الرغبة » وبعد أن قرأت « طوق الحمامة » في

ترجمته الجديدة ، مازلت عند شكى فى أن مؤلفه كان يطبق الحب العذرى ،
أو البغدادى فيما يقال ، فى حياته الحقيقية ، وإذا شئت لم يتخذ صراحة
حتى ولا فى الجانب الأدبى من حياته ، يقول فى كتابه « طوق الحمامة » :
« إن الوقوف عند حد الطاعة للمدوم إلا مع طول الرياضة ، وصحة المعرفة ،
ونفاذ التمييز ، ومع ذلك اجتناب التعرض للفتن ، ومداخلة الناس جملة ،
والجلوس فى البيوت ، وبالحرى أن تقع السلامة المضغوطة ، أو يكون الرجل
حصوراً لا أرب له فى النساء » . وبعد أن ذكر عدداً من الحالات المثيرة فى
مقاومة الرغبة أضاف : « وقد يعظم البلاء ، وتكلب الشهوة ، ويهون
القيح ، ويرق الدين ، حتى يرضى الإنسان فى جنب وصوله إلى مراده
بالقبائح والنفضائح » . وعن نفسه يقول : « يعلم الله ، وكفى به علماً :
أنى برىء الساحة ، سليم الأديم ، صحيح البشرة ، تقى الحجة ، وإنى
أقسم بالله أجل الأقسام أنى ما حلت مثرى على فرج حرام قط ، ولا يحاسبنى
ربى بكبيرة الزنا منذ عقت إلى يومى هذا » نعم ، إن فقه اللغة لم يحدد
مفهوم الحب فى إسبانيا الإسلامية ، ولكنه سجل موقف الفقه المتسامح
بإزاء الجماع المشروع عند المسلمين ، وقد كتب ابن حزم نفسه يقول :
« لولا مكان هذا العنصر من الإنسان ، وأنه غير مأمون الغيبة ، لما خفف
الله عن البكرين ، وشدد على المحصن » . وفى الباب الذى كتبه فى « الطوق »
يخصه بقبح المعصية ، اعتبر اللواط والزنا فحسب من الكبائر :

ثم يقول فى كتابه « الأخلاق والسير فى مداواة النفوس » : « حد
العفة أن تغض بصرك وجميع جوارحك عن الأجسام التى لا تحل لك
فما عدا هذا فهو عهر ، وما نقص حتى يمسك عما أحل الله تعالى فهو
ضعف وعجز » . وأشار أسين بلاثيوس إلى أن ابن حزم فى معادته
للسوفية يعتبر العذرية عيب ، والرهبة نقيصة .

لو قرر أورتيجا أن يتسرب على مهل ، حاملاً عدسة مكبرة ، إلى كتاب
« طوق الحمامة » مكتشفاً ، ليدرس نظرية الحب فى قرطبة الخلافة ؛

وقد أحس الرغبة في أن يقوم بها ، لحركة النسيج الجوهرى للكتاب ،
فيما أرى ، أن ينظر إلى التفاصيل ، إذن لأنكر على ابن حزم « صفة
عذرى » . ودون عدسة مكبرة يبدو واضحاً أن القرطبيين من عصره لم
يكونوا كذلك أيضاً

لقد وشى ابن حزم نظريته عن الحب بأخبار مختلفة ، اتخذ منها
مثلاً يدعم بها آراءه ، وبأشعار جمية استدعتها المناسبة . و « الأخبار
التي جعل منها نموذجاً يحتذى ، ترك سيرته العاطفية تتحرك حولها ،
وكذلك الحياة العاطفية لأصدقائه ، ولقرطبيين آخرين كثيرين ليسوا
دائماً معروفين له . هذه الأخبار النموذجية التي وشى بها ابن حزم تأملاته
عن الحب ، واتخذ منها مثلاً ، لاتسمح لأميركو كاسترو بتأكيده الغريب
من أن مؤلف الطوق كان يسرب حياته الخاصة من خلال حياة الآخرين ،
وترجمة غرسية غومث تحت إمرة القراء الذين يتحدثون الإسبانية ، ومثلها
الترجمات الأخرى في اللغات : الإنجليزية والفرنسية والإيطالية ، وبوسع
الذين يتكلمون بها ، أو يعرفونها ، أن يعودوا إليها ، وكلها تناقض نظرية
كاسترو المغامرة . إن ابن حزم يذكر في كل خطوة الخبر الذى يمكن أن
بدعم نظريته ، يشير إلى أحداث وقعت في حياته ، أو في حياة الآخرين ،
طبقاً لواقع كل حالة ، ولكن دون أن يتوغل في تراجم بعيدة عن ترجمته ،
ويؤكد صدق الوقائع بشهادة شخصية منه ، لأولئك الذين عرفهم ،
أو يأتي بها متصلة الإسناد حتى يبلغ به من شاهد الحادث الذى ألمح إليه .
وعندما يطل ابن حزم على حياة الآخرين فإنما ليؤكد ، في الواقع ، صدق
ما يروى من أخبار .

ومجموعة الأشعار التي جاء بها في « الطوق » تكون ديواناً كبيراً ،
والجانب الأكبر منها ذو طابع فلسفى عميق ، وتفصلها طبيعة موضوعاتها
الغزلية ، وألف هام من التاريخ ، عما ندين به لأونامونو ، وأحياناً تقرب
منه بثرائها وعمق تفكيرها . ولكن أونامونو لم يقع أبداً على كلمة نائية ،

أو تعبير فاحش ، أو فكرة خارجة ، وهو ما يحدث لابن حزم أحياناً ، فهو مثلاً عندما يشير إلى حفيد الشاعر الجزيري ، يقول عنه ، إنه « رضى بإهمال داره ، وإباحة حريمه ، والتعريض بأهله ، طمعاً في الحصول على بغيته من فتى كان علقه » ، أو « رشا » فيما يقال أحياناً ، وهى لفظة لطيفة ، تردد كثيراً في الشعر العربي ، وتطلق على الغلمان ، فإذا تجاوزنا هذا الفرق فإن عمق الفكرة في القطع الشعرية للأندلسي الإيبيري الذى عاش في القرن الحادى عشر ، ولالإيبيري الباسكى الذى عاش في القرن العشرين ، تكمل التقارب بين هاتين القمتين من قمم الفكر الإسباني .

● غنيت بياقوتة الأندلس :

لقد اقتربنا من الربط بين ابن حزم والقمم الفكرية الأخرى في الأدب الإسباني ، وكما برهنا كان ابن حزم إسبانيا روحاً ودماً ، وجديراً بأن يضم إلى خير من يجسدون الإسبانية ، على امتداد كل العصور . تطلع إلى المشرق كموطن لنسبه وثقافته ، والهب إحساسه ببغض جارف للمسيحية شبه الجزيرة الإيبيرية ، ولأنه إسباني حتى النخاع قفزت سهام فكره ، ونبال مشاعره ، فوق ورعه وتقواه ، لتواصل اندفاعها الثقافي والشعوري إسبانية خالصة ، إسبانية ألفية تضرب جذورها بعيداً في أعماق ما قبل التاريخ — وسأظهر ذلك يوماً — على نحو ما كان عليه ، وأكرر ما قلته وكتبت في مرات كثيرة ، عدد كبير من شخصيات الإسلام العظيمة في إسبانيا ، شخصيات لا يمكن أن تستثنى ، لأنها مسلمة ، من إرثها الفكرى الإسباني .

ولندكر أن الملامح النفسية التى ينسبها لى ابن حزم من كتبوا سيرته ، وللصفحات التى خط عليها نفسه جانباً من سيرته ، تؤكد إسبانيته في عم : الشموخ ، والعاطفة ، والعنف ، وطلاقة اللسان ، واستقامة الكلمة ، والوفاء ، وتحليق الروح نحو الله ، والقسوة في نقد الوطن ، وحب الحقيقة ، وشدة الخلق ، والحماسة التى تبلغ حد التضحية بالحياة دفاعاً عن أذكاره وشرفه ،

والانضال من أجل المثل العليا على نحو ما ناضل «دون كيخوته» ، واحتقاره
للثروة في مواجهة الشرف ، وكراهية النفاق ، واحتقار الملق ، والصلابة
في الشدائد ، وعبادة الصداقة ، وجود يبلغ حد السرف ، وسهولة الغضب ،
والبلاغة ... إنها إسبانية عريقة ، وتؤكد في وضوح ، على الرغم من
أسين بلاثيوس ، صدق ما قاله ابن حيان وابن سعيد عن أصوله الإسبانية ،
وعن جدوده المسيحيين .

كان ابن حزم إسبانياً في أخفى طبقات أعماق روحه ، ومن العدل أن
نضعه بين أسمى قسم الفكر الإسباني على امتداد كل العصور ، لأن حجم
وتعمد ونفاذ إنتاجه الأدبي والفلسفي والفقهى والعقائدى يعطى له
هذا الحق .

ليس ثمة حياة تشبه الأخرى ، إذا درسناها بوعى ناقد وجاد ، نعم ،
توجد بعامة مقابل ذلك أرواح متآخية ، أرواح شقيقة بين كثيرين من كبار
الرجال في كل الأزمان ، وفي كل البلدان . وتتقارب بخاصة أطياف الأبناء الأكثر
عبقرية في كل شعب ، تتقارب في خصائصها الجوهرية ، لأنها عندما
تعرض النفسية القومية ، الدائمة والتميزة ، ونمط حياتها الخاص ، فإنما
تعكس دائماً الصورة نفسها في الجانب الآخر من المرآة .

سينكا مثلاً يشعر أبداً أنه إسباني ، وحتى كتب مرة ضد البطل
القومي الإسباني العظيم فرياتو ، ولكنه ولد في قرطبة ، وأثر أصله الأندلسي
في إرثه المراجي وفي تكوين شخصيته . وترد دراسات مومسن Mommsen
ومينديث بلايو Menéndiz Pilayo ، وجستون بواسيه G. Boissier
ودراسات أخرى معاصرة ، وكلها دققة وموضع ثقة عظيمة ، بعض
خصائص أعمال سينكا إلى أصوله الإسبانية . ويمكن أن نكتشف اليوم
ملامح جديدة لإسبانيته ، حيوية ونفسية ، وأشرت إليها وأنا أدرس لغز
إسبانيا التاريخي . ويتسع الأمر للظن بأن الألوان التي طبعت مذهبه الروافي
تعود إلى إسبانيته هذه ، وأنح على القارىء في أن يعود إلى صفحات كتابي الذي

أشرت إليه ، ومن ثم يمكن إذن أن نبدأ به السلسلة الرائعة لكبار المفكرين
الإسبان والتي تمتد حتى تبلغ في أيامنا هذه أونامونو وأورتيجا
إلى جاسيت .

ستظل هذه السلسلة مقطوعة إذا لم نضمها الحلقات الإسبانية الإسلامية ،
وأحدهم مؤلف « طوق الحمامة » ، ولقد قلت من قبل : لو أن ابن حزم
كتب مؤلفاته في اللغة اللاتينية أو الرومانشية ، للمع اسمه اليوم إلى جانب كبار
الشخصيات الغربية في العصر الوسيط مثل : دانتي وتوماس الإكويني .

وإذا كان ابن حزم يمثل حلقة السلسلة التي تبدأ منذ كتاب إسبانيا
الرومانين حتى المفكرين الإسبان المعاصرين ، فلأنى أتخيل مع ذلك أن هذا
القرطبي المسلم ، وهو شاهد ناطق على أزمة الخلافة الإسبانية في القرن الحادى
عشر ، يقتر بخاصة من أونامونو ، ذلك الياسكى القوى الذى عاصر سقوط
الملكية الإسبانية ، في آخر الثلث الأول من هذا القرن . وأكرر لا توجد حياتان
متشابهتان ، وإنما روحان متآخيان ، ولكن روحى هذين الإسبانين المميزين
كانا توأمين .

تعرف أوروبا وأمريكا الفكر الملهب لكاتب إسبانيا العظيم ، ذو التاريخ
البعيد ، والكلمة المهاجمة ، والمطرقة العنيدة ، والقلم الحاد ، والاهتمامات
الفكرية الحرة والمتنوعة والودود ، وتمكنه المذهل من الموضوعات التى يعالجها ،
وتمكنه من اللغة العربية ، وجدله القوى ، وعشقه للأحاديث الجادة ،
وطلقات هنا وهناك ، وذكاؤه الفطن ، واحتقاره للمسلمات والعادات الاجتماعية
وكرهه القوية للنفاق والرياء ، وأمانته الزوجية ، وحملته على الفجور ،
ورفضه الحاد والدائم ، وإصراره وتشده فى محاربة المظالم كلها ، ومقاومته
للغيفة ، وخلافه مع الذين حوله ، وجهه الحار المتدفق الناقد لإسبانيا .

ومع ذلك ليس صعباً أن نقيم صلة قوية بين روح أونامونو الملهب ، على نحو
ما هو معروف لنا جميعاً ، وبين صورة ابن حزم الخلقة القومية ، كما تظل
واضحة من الآراء المختصرة والناقدة التى سجلها عنها معاصروه ، ومن سلسلة

الاعتراقات الذاتية التي خطتها بقامه. وعلى الجانب الآخر من هذه المرأة المزوجة،
ألا يمكن أن نكتشف في كل خطوة الملاح كثيرة من التحليل النفسى لأونامونو؟
فلنتذكر الإطار الذى يضرب به المثل، لكلمات ابن حزم الصارمة، ولقلعه
الحاد، وثناء ابن حبان وابن سعيد على استقامة سلوكه، وشمول معارفه،
وتطرفه فى نقده الأندلس وطنه، وإخلاصه دون تخفف، ونقده اللاذع،
وتعصبه المنفعل. ونقرأ ثانية الكلمات الحادة للمفكر الأندلسى العظيم ضد
الطغاة والقساة والفقهاء المنافقين، وضد الكذب والرياء، ودفاعه الجارح عن
المثل العليا التى اتهم بها أعداؤه، وسخريته الجارحة من المداهنة والحيل،
واكتشافه الخالص لما يعتمل فى داخله من صراع لكى ينتصر على غضبه، وثناؤه
المستطاب على الصداقة: وكلماته الجميلة تعكس إحساسا مشوبا بكبرياء عنيف
وصارخ. وتصريحه الجلى بأنه انتفع «بمحاك أهل الجهل منفعة عظيمة»، وهى
أنه: توقد طبعى، واحتدم خاطرى، وحمى فكرى، وتهبج نشاطى، فكان
ذلك سببا إلى تواليف لى عظيمة المنفعة: ولولا استثمارهم ساكنى، واقتداحهم
كامنى، ما انبعثت لتلك التواليف». ثم الجملة النبيلة، وتبدو كما لو كانت
قد خرجت من قلم أونامونو: «الخطأ فى الحزم خير من الخطأ فى التضييع».

تقارب هذين الروحانيين الإسمانيين المؤمنين، يفضى إلى ما هو أبعد من
هذا. لقد تربى ابن حزم فى الإسلام المستقيم، واتخذ من الظاهرية مذهبا،
وترى أن أى مسلم مؤمن يمكن أن يستقل فى البحث بنفسه، خلال
النصوص القرآنية، عما يجب أن يعتقد ويعمل به، وهو ما أصبح الدراسة
المستقلة عند أونامونو، ويراها أصل وفتح كل تفكير حر. وكلاهما كان
يفيض داخله بتدين عميق وفاق بهزهما من الأعماق. ولم يحاول عالم القرن
العشرين أن يخفى الصراع الذى يعتمل فى داخله، ويقول عنه الشاعر
متشادو: «أن يكون منشئا ويقول، فيما أرى: الله، ويؤكد الشجاعة
الإسمانية». ولقد اكتشف قضية التدين فى دقة، وتساخ بثقافة واسعة لمواجهة هذه
المشكلة الكبرى. وحاول القرطبى المسلم فى العصر الوسيط قبل الإسلام فى
(١٢٢ - ابن حزم)

المشرق ، وقبل « المدرسية » المسيحية بزمان طويل في الغرب ، وفي دقة عبقرية ، أن يوائم بين العقل والعقيدة في كتابه : « الفصل في الملل والأهواء والنحل » وهو كتاب في تاريخ الأديان المقارن .

والصفة القاسية : « دين القدامى » ، والتي نعت بها ابن حزم الأعمال الخاشعة في عصره يمكن أن نخرج من شفتى أونامونو .

ولإذا كان أونامونو رجل امرأة واحدة ، وأحس بالنفور من « الدون جوانية » ومن الفجور ، فإن الحب الرومانتيكي لابن حزم دفع بالمستشرقين إلى الخلاف حول أصل هذا الحب العاطفي لابن حزم ، ومن على شاكلته . هل هو حب عندي مشرق أم حب إسباني مستعرب ؟ .. وكان هذا الحب بذرة خصبة أثمرت حب الفرسان في العصر الوسيط ، وربما كان ممكناً أن يكتب أستاذ سلمتقة ، أونامونو ، هذه الكلمات التي خطها القرطبي المسلم : « وما أعلم علة تمكن هذا الطبع من النساء ، إلا أنهم متفرغات البال من كل شيء ، إلا من الجماع ودواعيه ، والغزل وأسبابه ، والتآلف ووجوهه ، لا شغل لهن غيره ، ولا خلقن لسواه » .

ويتفقان أيضاً في حب الأبحاث المتصلة باللغة ، وأصبحت المتعة عند أونامونو « رغبة ملحة » وباهظة ، ولم تدع ابن حزم أيضاً يفلت من رشق سهامها ، فخصها مهتماً بالمحادثات نفاذة من فكره . وندين له بالفضل عن المعلومات المتصلة بالخلافات الصوتية للهجات العربية في إسبانيا ، وبتأملات حادة عن أصول اللغات السامية ، وبأفكار عميقة تنصل بها ، وقد أعاد نبريخا Nebrija (١) صياغتها فيما بعد ، في اللغة القشتالية ، ونحن على عتبة المغامرة : « اللغة تسير في ركاب الإمبراطورية » .

(١) نبريخا : (١٤٤١ - ١٥٢٢) ، عالم إسباني متخصص في اللغات القديمة ، وألقى حياته في إصلاح تعليم اللغة اللاتينية ، وكتب حول موضوعات متعددة ، ووضع كتباً عدة في قواعد اللغة الإسبانية ، واللغة اللاتينية ، واللغة العبرية ، عدداً من المعاجم ، ولكن أفضل مؤلفاته : فن تعليم اللغة القشتالية . (المترجم)

وأولامونو يمكن أن يرد على المتعصبين ممن هاجموا كتبه ومنعوا ، على
نحو ما كانت تصنع محاكم الإنقيش ، بما قال ابن حزم من شعر في ظروف
مشابهة :

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذى

تضمنه القرطاس بل هو فى صدرى

يسير معى حيث استقلت ركائبي

وينزل إن أنزل ويدفن فى قبرى

دعوى من إحراق رق وكاغد

وقولوا بعلم كى يرى الناس من بدرى

وللا فمعدوا فى المكاتب بدأة

فكم دون ما تبغون لله من ستر !

لقد أمضى هذان العظماء الإسبانيان شبابهما فى أتون من الصراع الدموى ،
ابن حزم فى قرطبة ، بعد العام الألف من التاريخ الميلادى بسنوات قليلة ،
هزتها الثورات ، ودمرت مدينتى الزهراء والزهرة ، وطوقها البربر فى
ضراوة ، وأولامونو فى « بلباو » فى القرن التاسع عشر ، تحاصرها وتقانها
جيوش دون كاراوس (١) . ولقد عاش رجل الباسك القوى بداية الحرب الأهلية
الإسبانية الأخيرة ، وعانى ويلاتهما ، وشهد القرطبى المسلم من جانبه معارك
المصبر التى لا تنتهى فى سنواته الأخيرة : والى دمرت الأندلس فى النصف الأول
من القرن الحادى عشر . وكان رد الفعل عند كليهما واحداً ، نفس الروح
الذليل فى مواجهة المآسى القومية الكبرى التى عاشها جيلاهما ، وأحس

(١) أحد المطالبين بمرش إسبانيا ، وأمضى سنوات عديدة فى حروب متصلة لا تنتهى فى
شمال إسبانيا ومدينة « بلباو » عاصمة مقاطعة فسكايا فى شمال إسبانيا إحدى ثلاث مقاطعات
للباسك ، أو الباشكنس كما تسميهم المراجع العربية ، وهم من أصل غير لاتينى ويتحدثون لغة غير
إسبانية وغير لاتينية ، ويطالبون الآن بالاستقلال ، ويخوضون من أجله معارك طاحنة مع الحكومة
المركزية . (المترجم) .

كلاهما بالتعاسة نفسها ، مؤلمة وطافحة ، أمام تمزق وطنهما على مرأى
منهما ، أندلس الأول وإسبانيا الثاني . وأصاب الفيلسوف المسلم وفكره
أكثر من مكروب ، حين أدان الخلاف الدموي بين الإخوة ، في عبارته
الجميلة ، والعميقة المعنى في الوقت نفسه ، وقد نقلناها من قبل ، والتي تعجب
المفكر الحر في عالمنا الحديث ، دون ما شك ، إذا عرفها : « نوار الفتنة
لا يعقد » .

وكلاهما ، مسلم قرطبة والبياسكى من بلباو ، أحبا لإسبانيا بعمرى ، على
الرغم من نقدهما العنيف لها ، ويقول متشادو عن أونامونو : « روح جنسه
القاسى لما يزل نائما ، ويمكن أن يستيقظ يوماً تحت طرقات هراوته
الحديدية » ، ويمكن أن يقول الشيء نفسه عن ابن حزم : وكلاهما ،
ابن حزم وأونامونو ، كان واقع إسبانيا يشيع الألم في أعماق قلبه ، وسبق
كلاهما كل شعوب الأرض في كبريائهما المتشابه ، فأونامونو صاح يوماً ،
دفاعاً عن وطنه : « فليخترعوا هم ! » ، والشاعر القرطبي كتب
هذه الكلمات :

ويا جوهر الصبين سحقاً فقد غنيت بياقوتة الأندلس

يا قوتة الأندلس ! ، أصاب ابن حزم كبدا الحقيقة شعراً ، حين شبه
وطنه الإسباني بهذه الجوهرة الكريمة التليدة . بياقوتة الأندلس ! ، شعلة
من عاطفة متأججة ، أو حب ملتهب ، ودم يغلى في العروق يدفع إلى الحياة
والعمل ، وأوراق فوق كل البحار والقارات ، دون كيخوته يدافع عن مثل
عليابجنونة ، ومضات تظهر خطايا الإرادة ، وتحرق في الوقت نفسه حصاد
الفكر . غنيت بياقوتة الأندلس ! ، واجب كل إسباني أن يهتم بها الآن
ولو للحظة ، ففيها شفاء للذين يعبدون كل ما هو أجنبي . بياقوتة الأندلس
ليست بياقوتة المسلمين ولا المسيحيين ، وهي أخيراً ، يمكن أن ترمز إلى
الحياة التي ليست ركوداً شاحباً ، وإنما اندفاع خالق ! .

قلت فيما سبق إن ابن حزم لم يكن الحلقة الإسلامية الوحيدة في السلسلة

التي تبدأ مع سينكا حتى يومنا ، كان ثمة مسلمون كثيرون يمكن أن تضمهم هذه القائمة من التراث الرائع ، أسهموا بما هو إسباني بين أمزجتهم ، في بناء الحضارة العربية وثقافتها العظيمة ، وأكملوا رسالة جوهرية من الحفاظ على الحياة الفكرية وتنميتها في عالم حوض البحر الأبيض المتوسط ، على حين كانت المسيحية تدب بطيئة عبر منظمة مظلمة من منعطفات التاريخ ، ومن ثم فإن ثقافة الغرب لم تخسر كل الجهد الخلاق للمفكرين والفقهاء والشعراء والعلماء في إسبانيا الإسلامية ، لأن هذه وقد تمثلت الثقافة الإسلامية المشرقية ، التي احتفظت بما هو جوهرى من الحضارتين الهلينية والفارسية ، أضافت إليها أفكارها المشبعة بما هو غربي ، وعبرت بها إلى الأقليات المشتقة شمالى جبال البرانس ، بفضل ترجمات « مدرسة المترجمين » في طليطلة ، فقدمت خدمات هائلة لأوروبا ، مصدر ثقافتنا العريقة . وعندما أتأمل سمو الفكر عند ابن حزم ، في كتابه : « الفصل في الملل والأهواء والنحل » ، وسبق به بما يقرب من نصف ألف عام المغامرات الأوروبية الشبيهة ، والأعمال الثقافية الأخرى المماثلة ، أعظماء آخرين من أبناء الأندلس ، مثل ابن حزم إسبانيين أصولاً وروحاً ، يتفرد دائماً في أعماق سؤال محير ، ويؤكد دوماً نظريتي فيما يتصل بالانحراف المنسوى لقدر إسبانيا نتيجة اعتناقها الإسلام ، كلها تقريباً . كيف لا نسال أمام إسبانية ابن حزم الواضحة ، وإسبانيين آخرين في مثل قامته ، وأمام سمو عقرياتهم ، ماذا كان يمكن أن يصبح عليه عمل المفكرين والمؤرخين ورجال العقيدة والفقهاء والعلماء والكتاب من الإسبان ، في إنصاج الثقافة الغربية خلال العصر الوسيط ، لو ظلوا منتهمين لها ولم يبتعدوا عن هذا الجور الثقافي ذات يوم من عام ٧١١م ؟ وعندما أحصى الأعمال التي قاموا بها على امتداد حياتهم ، وكل إسبانيا الإسلامية ، وهم على هامش العالم الغربي المخاور ، وبعيداً عن مركزه ، طوال هصور النياور الحاسمة ، أحس بالغم دائماً ، لأنى أدرك الأذى الذي لحق بوطنى عندما فتحه الإسلام وحكمه .

غراميات ابن حزم ومشكلة الحب العذرى في الأندلس

في عام ١٨٤١ اكتشف المستشرق الهولندي الكبير رينهاردت دوزي Reinhart Dozy (١٨٢٠-١٨٨٣) ، المتخصص في الدراسات الأندلسية ، النسخة الوحيدة من مخطوطة «طوق الحمامة في الألفة والآلاف» لابن حزم ، المفكر الأندلسي العظيم ، بين العديد من المخطوطات العربية والشرقية في مكتبة جامعة ليدين هولندا ، وعكف عليها قراءة ودراسة ، وأفاد منها في كتابه الرائع : « تاريخ مسلمي الأندلس Histoire des Musulmans d'Espagne » ووقف طويلاً عند اعتراف مفصل مثير لابن حزم ، تضمن في صراحة بيئة خطاه الأولى في عالم الحب . وكانت مفاجأة مذهلة ، أفقدت العالم الأوربي الكبير توازنه العلمي ، وربما للمرة الأولى على نحو ما سنرى بعد قليل :

يقول ابن حزم في اعترافه :

« وإني لأخبرك غنى : أني ألفت في صباى ، ألفة محبة ، جارية نشأت في دارنا ، وكانت في ذلك الوقت بنت ستة عشر عاماً ، وكانت غاية في حسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخفرتها ودمايتها ، عديمة الهزل ، منيعة البذل ، بدیعة البشر ، مسيلة السر ، فقيدة الدام ، قليلة الكلام ، مغضوضة البصر ، شديدة الخدر ، نقية من العيوب ، دائمة القطوب ، حلوة الإعراض ، مطبوعة الانقباض ، مليحة الصدود ، رزينة القعود ، كثيرة الوقار ، مستلذة النفار . لا توجه الأراجى نحوها ، ولا تقف المطامع عليها ، ولا معرس للأمل لديها ، فوجهها جالب كل القلوب ، وحالها طارد من أمها ، تزدان في المنع والبخل ما لا يزدان غيرها بالسماحة والبذل ، موقوفة على الجدل في أمرها ، غير راغبة في اللهو .

« على أنها كانت تحسن العود إحساناً جيداً ، فجنحت إليها ، وأحببتها

حياً مفراطاً شديداً ، فسعيت عامين أو نحوهما أن تجيبني بكلامه ، وأسمع من فيها لفظة - غير ما يقع في الحدوث الظاهر إلى كل سامع - بأبلغ السعي فما وصلت من ذلك إلى شيء البتة .

« فاعهدى بمصطنع كان في دارنا لبعض ما يصطنع له في دور الرؤساء ، تجمعت فيه دخلتنا ودخلة (١) أخى - رحمه الله - من النساء ، ونساء فتياننا ، ومن لاث بنا من خدمنا ، ممن يخف موضعه ، ويلطف محله ، فلبثن صدرا من النهار ، ثم انتقنا إلى قصبة كانت في دارنا ، مشرفة على بستان الدار ، ويطلع منها على جميع قرطبة وفحوصها (٢) ، مفتحة الأبواب ، فصرن ينظرن من خلال الشراجيب وأنا بينهن .

« فإني لأذكر أني كنت أقصد نحو الباب الذي هي فيه ، أنسا بقربها ، متعرضاً للدنو منها ، فما هي إلا أن تراني في جوارها ، فتترك ذلك الباب الذي صارت إليه ، فتعود إلى مثل ذلك الفعل من الزوال إلى غيره . وكانت قد علمت كلفى بها ، ولم يشعر سائر النسوان بما نحن فيه ، لأنهن كن عدداً كثيراً ، وإذا كاهن يتنقلن من باب إلى باب لسبب الاطلاع من بعض الأبواب على جهات لا يطالع من غيرها عليها . واعلم أن قيافة النساء في من ميل لاليهن أنفذ من قيافة مداح في الآثار .

« ثم نزلن إلى البستان فرغب عجائزنا (٣) وكرائمنا إلى سيدتها في سماع غنائها ، فأمرتها ، فأخذت العود وسوته في خنجر ونخجل لاعهد لي بمثله ، وإن الشيء يتضاعف حسنه في عين مستحسنة ، ثم اندفعت تغني بأبيات العباس ابن الأحنف ، حيث يقول :

إني طربت إلى شمس إذا غربت	كانت مغاربها جوف المقاصير
شمس ممثلة في خلق جارية	كأن أعطافها طي الطوامير
ليست من الإنس إلا في مناسبة	ولا من الجن إلا في التصاوير
فالوجه جوهرة والجسم عبهرة	والريح عبرة والسكل من نور
كأنها حين تمخطو في مجاسدها	تمخطو على البيض أو حلال القوارير

فلعمرى لكان المضرب انما يقع على قلبي ، وما نسيت ذلك اليوم ،
ولا أنساه إلى يوم مفارقتي الدنيا ، وهذا أكثر ما وصلت إليه من التمكن
من رويتها وسماع كلامها ... (٥)

نقل دوزى النص كاملا ، في فرنسية راقية ، شفافة ومثيرة في كتابه
الذى أشرنا إليه من قبل ، ثم عقب عليه بقوله :

« يلاحظ دون ما شك في القصة التي انتهينا من قراءتها ، ملامح
عاطفة رقيقة غير شائعة بين العرب ، الذين يفضلون بصفة عامة ،
الجمال المثير ، والعيون الفاتنة ، والابتسامة الآسرة ، والحب الذي كان
يحلم به ابن حزم يختلط ، دون ريب بما هو حسي جذاب ، وعند
ما يكون الحبيب المنشود اليوم غيره بالأمس ، يصبح الإحساس أقل قسوة
لكن فيه أيضا ميل إلى ما هو أخلاقي ، من رقة بالغة واحترام وحماسة ،
وما يأسره جمال رائق ودبيع ، فياض بالكرامة الحلوة لكن يجب ألا ننسى
أن هذا الشاعر الأكثر عفة ، وأكاد أقول الأكثر مسيحية ، بين
الشعراء المسلمين ، ليس عربيا خالص النسب ، إنما هو حفيد إسباني
مسيحي ، لم يفقد كاية طريقة التفكير والشعور الذاتية لجنسه ، هؤلاء
الإسبان المنعربون يستطيعون أن يهجروا دينهم ، وأن يتبخلوا بمحمد
بدل المسيح ، وأن يلاحقوا بالسخرية إخوانهم القدامى في الدين والوطن ،
ولكن يبقى دائما في أعماق أرواحهم شيء صاف رهيف وروحي ،
غير عربي (٦) .

نشر دوزى كتابه « تاريخ مسلمي الأندلس » الذي ضمنه هذا الرأي ،
عام ١٨٦١ م ، ولأن الرجل حجة في الدراسات الأندلسية ، وصاغ
القصة في نثر فرنسي بليغ ، فقد أصبح كتابه مرجعا ، ورأيه عقيدة ،
وفكرته الصواب قاطعا ، وتابعه فيه جمهرة الأوربيين من بعده ، إلى
قريب من نهاية الثلث الأول من هذا القرن حين نشر الراهب الإسباني
ميجيل أسين بلاثيوس Miguel Asin Palacios (١٨٧١ - ١٩٤٥)

دراسته العميقة عن العالم القرطبي الجليل، وكان أسين بلاثيوم عالماً ثباتاً وحيجة في الفلسفة الإسلامية ، وقف عليها حياته : نشر مخطوطات ، ودراسة تراث ، وحرر فيها عدداً هائلاً من الرسائل والأبحاث ، وترجم إلى الإسبانية أمهات كتب الفلسفة الإسلامية في الأندلس بينها كتاب : «الفصل في الملل والأهواء والنحل» لابن حزم وجعل من دراسة حياة المؤلف كالمقدمة أترجمته ، وجاءت الدراسة والترجمة في خمسة أجزاء كبار (٧) .

عرض أسين بلاثيوم لفكرة دوزي ، كما أوردناها : وناقشها تفصيلاً ، ووجهة نظره تستحق أن نوردتها كاملة ، ولنا عليهما استبدراك وتعليق . يقول : « الفكرة التي دافع عنها دوزي بوضوح في تعليقه هذا ، وفي أمكنة أخرى من كتابه : « تاريخ مسلمي الأندلس » ، يمكن أن نوجزها ، لتسهل مناقشتها ، في النقاط التالية :

• إن الإطار الذي رسمه ابن حزم لحبه في هذه الترجمة الذاتية ، في لهجة صادقة وسلامة نية نظرية ، يظهر لنا من نفسية البطل شعوراً ممتازاً ، أشد رقة وكمالاً من الحب الحسي غير المحتشم . ويمكن اعتبار ابن حزم في هذا الجانب مثلاً استثنائياً نموذجياً للحب الروحي والعفيف ، الذي يسميه علماء النفس الحب الإفلاطوني أو الرومانتيكي .

• إن النفسية التي تكابد هذا الحب ليست من خصائص الجنس العربي ، ولا الأدب الإسلامي ، وكلاهما في عواطفه الغرامية يستمد إلهامه غالباً من الرغبات الجنسية المبتذلة .

• إن حب ابن حزم الرومانتيكي ، وبالتالي كل جباهه العاطفية ، لا يمكن تفسيرها إلا في ضوء أنها ورائه نفسية ، وارتداد منه لخصائص جنسه المسيحي والإسباني .

« فيما يتصل بالنقطة الأولى من هذه النقاط ، أبادر إلى القول ، قبل كل شيء ، بأن روعة الأسلوب الأدبي لدوزي ، وقد تجلت في ترجمته الجميلة

لقصة ابن حزم السابقة ، مقارنة بترجمة خوان فاليرا (٨) تثير في أعماق روح القارئ العلماني ، ، غير اليقظ ، فكرة أن ابن حزم كان ضحية ذلك الحب الأول لأيام شبابه ، يبكي بلا أمل ، بقية حياته ، المحظ التمس قلبه المصدود . وبمعنى آخر أعطى النغم الرومانتيكي لهذا الحب القصة مزيداً من القوة ، لأن درزي تركنا في مهارة تخيل أنه الحب الوحيد في حياة ابن حزم ، على حين أنه لا يمكن أن يجهل ، وقد استفاد من كل كلمة في النسخة المخطوطة لطوق الحمامة ، أن ابن حزم لم يصبر طويلاً ، وهو يمثل الدور الرومانتيكي لعاشق يائس ، إذ سرعان ما جفف دموعه ، لينسى في حب آخر ، أكثر سهولة ، أحزان حبه الأول ،

يقول : « كنت أشد الناس كلفاً ، وأعظمهم حباً ، تجارية لي ، كان فيما خلا اسمها نعم ، وكانت أمنية الممتنى ، وغاية الحسن خلقاً وخلقة وموافقة لي ، وكنت أباً عذرها ، وكنا قد تكاثفنا المودة ففجعتني بها الأقدار ، واخترمتها الليالي ومر النهار ، وصارت ثالثة التراب والأحجار ، سنى حين وفاتها دون العشرين سنة وكانت هي دوني في السن ، فقد أقيمت بعدها سبعة أشهر لا أنجرد عن ثيابي ، ولا تفر لي دمة على جمود عيني وقلة إسعادها . وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتى الآن ، ولو قبل فداء لفديتها بكل ما أملك من تالد وطارف ، وبيعض أعضاء جسمي العزيزة على مسارعا طائماً ، وما طاب لي عيش بعدها ، ولا نسيت ذكرها ، ولا أنست بسواها ، ولقد عفى جبي لها على كل ما قبله ، وحرّم ما كان بعده .

وليس هذا الحب الثاني هو الأخير لأيام شبابه ، فبعد ذلك بأعوام ، عندما استطاع أن يعود إلى قرطبة وسط مغامراته السياسية الواسعة ، يتحدثنا عن نفسه : وقد ضمنى المبيت ليلة في بعض الأزمان عند امرأة من بعض معارف مشهورة بالصالح والخير والحزم ، ومعها جارية من بعض قرابتها ، من اللاتي قد ضمها معى النساء في الصبح ، ثم غبت عنها أهواها كثيرة ، وكنت

تركها حين أعصرت ، ووجدتها قد جرى على وجهها ماء الشباب ، ففاض
وانساب ، وتنجرت عليها ينابيع الملاحة فترددت وتنجرت ، وطاعت في
سما وجبهها نجوم الحسن فأشرق وتوقأت ، وانبعثت في خديها أזהير
الحمال فتمت واعتمت ... (١٠)

إذن لم يخفق ابن حزم في حبه مرة واحدة ، بل مرات ، ومن هاهنا
الزاوية الجديدة ، التي لم يرد دوزي أن يضعها أمام عين القارئ ، يفقد
الحب الفتي لبطلنا ، دون شك ، درجات من مثاليته وأفلاطونية ، لكن لا يمكن
الإنكار أنه ينطوي على مشاعر رقيقة لم تفقد توهجها بعد ، ولا تعرف ما
هو حسي . ومصدر ذلك تعاسة مزاجه ، أو بمعنى أدق ، جاء نتيجة ميل
فطري عنده ، ويعترف ابن حزم نفسه بأن لديه دائماً قدرة بالغة ، وعزوفاً
عن كل ما هو جنسي (١١) . ويرى أن اجتماع الأرواح ، وليس التقاء
الأبدان ، هو الذي يبقى على الحب (١٢) . لقد كانت روحية عشقه حقيقة
واقعة وظل صداها يتردد ، بعد قرن كامل من وفاته ، في خمريات الشاعر
العريبي ابن قزمان القرطبي ، وهو يصف لنا سهراته ولياليه الحمراء (١٣) :

لكن ليس صحيحاً أن حبه الأفلاطوني يجب أن يعد شيئاً شخصياً ، وطبعاً
يتصل بخلافه ، وأنه استثناء واضح في نفسية الإسلام الإسباني ، ذلك أن
الحقائق التاريخية في كتابه « طرق المحاماة » وهي معام بها وليست موض
شك ، لأن مؤلفه يؤكد ذلك حرفياً في مقدمة الكتاب ، يقول : « كلفتني -
أعزك الله - أن أصنف لك رسالة في صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه
وما يتبع فيه - وله على سبيل الحقيقة ، لامتزياً ولا مفتناً » (١٤) وأغلب
فصول الكتاب تتكون من روايات معاصرة عن شخصيات تذكر بأسمائها
وألقابها وهي شاهد حي على الجذور العميقة التي بثها الحب الرومانتيكي في الأرواح
وتعترضك في كل خطوة ، على امتداد صفحات الكتاب ، أسماء خلفاء
وزراء وقواد ، وشخصيات من أعلى طبقات الأرستقراطية العربية ،
وفقهاء وأدباء وشعراء ورجال ، وباختصار من كل الطبقات المثقفة في

المجتمع القرطبي ، وهم يهتدون في حياتهم الغرامية بهذا الروح المثالي الراقى نفسه ، تشيع البهجة فيهم نظرة عابرة من فتاة أحلامهم ، أو مجرد زيارة شريفة وخفية ، وتبتل صامت إلى المعبود في محراب الروح الخفي وتقديس يكاد يكون دينيا لما خلف من أشياء وحاجات شخصية يحتفظون بها تذكرة . ويبلغ نهاية الطرف المقابل للحب الأفلاطوني ، فيروى بالدموع عند احتداد الخيبة ، رسائل يطلب فيها صدقة من حب ، أو يكتبها بدمه ، أو ينهي في قسوة مأساة حبه المصدود ، مضمينا الحبيب شيئا فشيئا ، أو ينطفيء بغثة نور عقله ، في انشجار غرامى مجنون (١٥) .

عندما نقرأ هذه الصفحات الزاخرة بالشعر ، يمكن أن نفهم من مجموعها نفسية تلك الحضارة القرطبية ، وهي تقدم لنا في قمة قوامها ، الدلائل على رقيها الثقافي والعاطفي ، وهما دائما طلائع أى انحدار . لم يكن إذن حب ابن حزم الأفلاطوني وأيد عدوى سلالية فحسب ، أو أنه تلقاه من نفسية أسلافه المسيحيين ، لأن من أبطال الغزل الرومانتيكيين كثيرين جدا ينحدرون من أصول عربية خالصة ، ولا يمكن أن تجرى في دماهم الخصائص الموروثة التي نفترض أنها عند ابن حزم .

ولقد حفظ لنا «طوق الحمامة» عن الرمادى أبو عمر يوسف بن هارون من كبار الشعراء الغنائيين الملهمين في عصر المنصور بن أبي عامر ، وهو كندى القبيلة ، يمتنى الأصل ، رواية لطيفة ، ثابتة الوقائع ، جديرة بأن تروى لما فيها من عاطفة عميقة : « كان يوسف بن هارون مجتازاً عند باب العطارين بقرطبة ، وهذا الموضع كان مجتمع النساء ، فرأى بجارية أخذت بمجامع قلبه ، وتمخلل حبا جميع أعضائه ، فانصرف عن طريق الجامع ، وجعل يتبعها وهي تاهضة نحو المنطرة ، فجازتها إلى الموضع المعروف بالربض ، فلما صارت بين رياض بنى مروان رحمهم الله ، المبنية على قبورهم في مقبرة الربض ، خلف النهر ، نظرت منه متفردا عن الناس لا همة له غيرها ، فانصرفت إليه ، فقالت له : مالك تمشى ورائي ؟ »

فأخبرها بعظيم بليته بها ، فقالت له : دمع عنك هذا ولا تطلب فضيحتي :
فلا مضجع لك في ألبنة ، ولا ليل ما ترغبه سبيل . فقال : إني أقنع بالنظر .
فقالت : ذلك مباح لك . فقال لها يلسيدتي : أحررة أنت أم مملوكة ؟ قالت :
مملوكة . فقال لها : ما اسمك قالت : خلوۃ (١٦) . قال : ولمن أنت ؟ قالت
له : علمك والله بما في السماء السابعة أقرب إليك مما سألت عنه ، فدع
الحال . فقال لها : يلسيدتي وأين أراك بعد هذا ؟ قالت : حيث رأيته
اليوم ، في مثل تلك الساعة من كل جمعة . فقالت له : أما أن تنهض أنت ، وأما
أن أنهض أنا ، فقال لها : أنهض في حفظ الله . فنهضت نحو القنطرة ، ولم
يمكنه اتباعها ، لأنها كانت تلتفت نحوه لترى أيسايرها أم لا . فلما
تجاوزت القنطرة أتى يقضوها فلم يقنع لها على خبر ، ولا أدري أسماء
لحسها أم أرض بامتها ، وأن قلبي منها لأحر من الجمر . وهي خلوة
التي يتغزل بها في أشعاره ، ثم وقع بعد ذلك على خبرها بعد رحيله في
سبيلها إلى سر قسطة في قصة طريفة (١٧) .

لقد تأثر دوزي بما هو شائع معاد عن حسية الحب عند الجنس العربي
أكثر مما تأثر بما هو حق (ما زال أسين بلاثيوس هو الذي يتكلم)
وهذه الأفكار المطروقة وليدة دراسات جزئية وسطحية وجانبية للأدب
الإسلامي ، وهي مضطربة ، مثالها في ذلك خرافة لا نقل عنها انتشارا ،
وهي عجز الجن من السامى عن الدراسات الفلسفية . لقد كرم الاستشراق
الأوربي أغلب جهده ، في البناء ، بل وحتى كل جهده ، الدراسة
شعراء الجاهلية . وأدباء الإسلام في العصر الكلاسيكي ، وخدع أوائل
الباحثين منهم ، بما كان يتراقص في هذه النماذج من عبادة وثنية للشكل
والجمال الحسى ، دون أن يكون لديهم سمع من الوقت لكي يستوعبوا ،
أو حتى يبدأوا ، تحليل المعاني العظيمة للأدب الإسلامي ، وما زال
مطويلا لم ينشر ولم يدرس بعد . ومع ذلك جرعوا على أن يستخرجوا من
المقدمات الناقصة والحادة نتائج عامة وفيجة ، وأن يرتفعوا بها إلى مرتبة

القانون التاريخي أو الاجتماعي : ولكن خلال قرن مضى (كتب أسين بلاثيوس كتابه عن ابن حزم بين عامي ١٩٢٦ - ١٩٢٨) حلت جوانب جديدة عديدة للنفسية العربية ، ومن الممكن الآن تكوين فكرة أكثر شمولاً ودقة عن ذى قبل .

ومن جانب آخر ، وكمقابل لهذا الاتجاه الحسى ، ظهر منذ العصر الجاهلى لون من الغزل العاطفى ، عفيف وروحى ، كالحب المسيحى ، ففى الصحراء العربية ، قريباً من اليمن ، عرفت قبيلة بدوية كيف تسمو بفهمها إلى أدق ما يمكن أن يتصور من الحب البشرى . فبنو عذرة ينضامون الحزن الحلو المستسلم المشوق فى الحب الأفلاطونى ، على العواطف الحادة للغرائز الحيوانية البهجة ، ويعرفون كيف يموتون من الحب ، قبل أن يدنسوا بالشهوة الملول المشبعة عرس الأرواح العفيفة . لقد تغنى أعظم شعرائهم إلهاما ، فى قصائد تفيض رومانتيكية ، وبالحلاوة المرة ، للرجبة الكظيمة إلى الأبد ، وكان جميل بن عبد الله العذرى ، إلى جانب شعراء آخرين من بنى هذيل ، النموذج الكامل الذى تتحقق فيه العفة المثالية . لقد مات من الحب دون أن يجرو يوماً على أن يمس بيده محبوبته بثينة .

إن عبادة العفة والعذرية ، وهما من خصائص الرهبنة المسيحية الشرقية فى العصور الوسطى ، لا يجب أن تكون بمنأى عن هذه الحركة الرومانتيكية ، والراهب المسيحى شخصية شائعة فى القصيدة الجاهلية ، وكانت الصوامع والأديرة تتناثر عبر صحراوات الجزيرة العربية ، وكان قرى الحجيج فيها تقليداً مرجعياً ، والتعابش والعرفان يؤديان إلى التقايد ، والحق أن شيئاً كثيراً من ذلك تخلف فى الأدب الدينى للقرن الأول الهجرى إن حكايات رهبانية ، ونماذج لأبطال متقشفين مما يوجد فى كتاب « حياة الآباء Vitae Patrum » انتقلت فى مرعة كبيرة للغاية إلى التراث الأدبى الإسلامى . وأحد هذه الأمثلة ، وربما كان أروعها جميعاً ، عبر مرجعاً البلاد الإسلامية التى تفصل موطنه عن الغرب ، حتى وصل

إسبانيا : لأنها حكاية راهب مسيحي من طيبة أحرق أصحابه بالنار ليقاوم محاولة امرأة عارية . وقد قص ابن حزم الحكاية في « طوق الحمامة » ، بعد أن جردها من طبعها المسيحي (١٨) .

« الحب العذري والعفيف لبني عذرة ، والمظهر هكلنا شيئا فشيئا بحرارة الزهد الباوي الإسلامي ، والسابق للصوفية ، أخذ شكاه النهائي في بغداد قريبا من القرن الثالث الهجري ، التاسع الميلادي ، كنموذج مثالي للحب السامي ، وحتى للفضيلة الدينية . وكان البلاط العباسي ، وقد بلغ قدرا عاليا من الثقافة المصقولة ، يعاني في الوقت نفسه من تنافق المشاعر المربضة ، وهو طابع كل المراكز الحضارية الكبرى ، وقد عانت منه قرطبة بعد وفاة ابن حزم بقرن من الزمان . وفي نوادي بغداد الأدبية كانت هذه الرومانتيكية التقليدية تباشر تأثيرا قويا على النفوس ، حيث شاع الحديث المنسوب إلى إني : « من عشق فعمى ومات ، مات شهيدا » . وهذه المثالية العالية ألهمت روحا عظيما واسع الثقافة ، هو ابن داود الأصفهاني ، ابن منشي المذهب الظاهري وخلفه فيه ، فعرف كيف يرفع حينئذ تمثالا أدبيا خالدا للحب الأفلاطوني بكتابه « الزهرة » . وفيه يعترف بالأصل المادي والشهواني للميول العاطفية في الروح الإنساني ، وأنها تخضع لمثير دائم ، يتوقف على قدرها من التركيب الفسيولوجي . ومع ذلك ، عرف كيف يجعل منها مثالا أعلى ، بالعزوف المستمر عن متعتها ، لتصبح الرغبة أملا خالدا .

ومهما تكن خصائص الجنس البعيد لابن حزم ، التي نسبه إليها دوزي ، فقد تهاوت كلها أمام هذا العرض . وإذا كان ثمة أثر من مشاعر مسيحية حقيقية يمكن أن ينبض بها قلب ابن حزم ، العدو للحدود للعقيدة المسيحية ، وللأخلاق الإنجيلية ، فليست بالتأكيد المشاعر التي ورثها عن أجداده عبر دوائهم ، وإنما تلك التي اكتسبها لاشعوريا ، وعلى الرغم منه ، بفعل عدوى لاجيئ عنها ، لجو المثالية المسيحية القوي ، والذي ازدهرت فيه الحياة الأدبية الإسلامية في المشرق طوال حياتها » (١٩)

تلك هي وجهة النظر غير العربية ، كما يعرضها مستشرق هو لندي غير
منهم في حياته ، وعرف بكرهه لرجال الدين ، وبعده عن التعصب . وكما
تصورها راهب كاثوليكي إسباني ، عرف بغزارة علمه ، وتمكنه من العربية ،
وبمعالجته للقضايا العلمية والأدبية في موضوعية لاتحدها إلا رسالته كرجل دين
تخضع كل كتاباته للمراجعة السلطات الكنيسية ورقابتها .

لكن دوزي كان متأثرا بما كان شائعا في أوروبا على أيامه ، من أن السمو
في الحب وليد المسيحية ، فطبق هذا الاتجاه في دراسته لابن حزم ، وكتابه
« طوق الحمامة » . وحاول أسين بلاثيوس ، في مهارة ذكية ، أن يرد الغزل
العذري كله ، لا الأندلسي منه فحسب ، إلى أصول مسيحية .

ونظرية كليهما ينقضها واقع الأندلس ، فهما يعرفان جيدا ، أن مسيحية
الإسبان عند الفتح كانت رقيقة ، وأن علم الناس بها - خارج رجال الدين - كان
مشوشا . وأن جانبها لأبأس به من السكان كانوا وثنيين . وإذا كان من المرجح
أن ابن حزم ينحدر من أصول إسبانية ، فمن المرجح أيضا أن أجداده لم يكونوا
قد اعتنقوا المسيحية عند دخول الإسلام ، لأنه من المنطقة الفقيرة ، في جنوب
غربي إسبانيا ، وغالبية أهلها عند الفتح كانوا من الوثنيين . وعلى أي حال فإن
ما كان يجري في الجانب العربي والإسلامي من الأندلس من مظاهر الحب
الحسي ، كان يجري مثله ، وأفحش منه ، في الجانب الإسباني المسيحي ، ولم
يجر في عروقهم دماء عربية ، ولا اتخذ جدودهم الإسلام دينا .

كان ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وجاء إلى الحياة بعد عامين من وفاة
ابن حزم (ت ١٠٦٣) ، ملكا كاثوليكيًا ، أفنى حياته بقتال من أجلها ودفاعا
عنها ، ولكن الكاثوليكية بطوقسها لم تمنعه من أن يجمع بين ست زوجات ،
في وقت واحد (٢١) . وكان على علاقة جنسية مع أخته أراكة Urraca
وتذكر ذلك المصادر العربية المعاصرة له صراحة (٢١) ، وتحدث عنها الأغاني
الشعبية الإسبانية منكرة أحيانا ، ومتشفية أحيانا أخرى . وكان لإنريك الرابع
ملك قشتالة (ت ١٤٧٤) إسبانيا حتى آخر قطرة في دمه ، كاثوليكيًا من أخمين

قدميه إلى قمة رأسه ، وكان شاذاً جنسياً مخمئاً ، يلاحق من لانبخضعون لرغباته المخجلة من حاشيته بالقتل والسجن والنفي . ولم ير حرجاً في أن يعين عشيقته كثالين سندوفال رئيسة لدبر راهبات القديس بطرس ، في ضواحي طلبطة ، بعد أن طرد رئيسه السابقة . متحدداً أوامر المطران ، وقرار حرمانه من الكنيسة (٢٢) . ومن الثابت أنه كان عقيماً لا يلد ، وأنه طلق زوجته الأولى رغم كاثوليكيته وتزوج ثانية ، وأن زوجته الثانية جاءت به بنت نسبت إليه ، وكان معروفاً أن أباه الحقيقي أحد رجال الحاشية ، ولم يكن لإنريك هذا حالة شاذة ، فهو نفسه يشك أنه ابن حقيقي لأبيه المنسوب إليه : خوان الثاني (٢٣) .

وكان فيليب الثاني (١٥٢٧ - ١٥٩٨) أعظم ملوك أسبانيا ، كاثوليكياً متعصباً ، ضيق الأفق في مفهومه الديني ، وله العديد من العشيقات ، وأولاد كثيرين غير شرعيين ، كما كان أبوه من قبل (٢٤) ، ومن الشائع أن كارلوس بن فيليب الثاني ، كان على صلة غرامية بزوجة أبيه إنزابيل ، ولذلك سمجته ، ومات في السجن في ظروف غامضة ، مسموماً أو مذبوحاً أو مخنوقاً ، فبكته إنزابيل بكاء مراراً ، فأصدر لها فيليب أمراً بإمبراطوريا بأن تكف عن البكاء عليه (٢٥) .

ويقص علينا رحالة المائى طاف بالجانب المسيحي من الأندلس في القرن الخامس عشر . أنه وجد الشذوذ الجنسي شائعاً في قشتالة ، وقشتالة هذه من أشد مقاطعات الأندلس في العصر الوسيط ، وحتى أيامنا هذه ، تعصبا للكاتوليكية ، وتعلقاً بالإسبانية . حتى أن اللغة القومية تنسب إليهم في أحايين كثيرة : فيقال اللغة القشتالية بدل الإسبانية ، لأن ذنبتهم هي التي سادت بعد سقوط دولة الإسلام في الأندلس (٢٦) . ويلاحظ أن من العسير علينا عند دراستنا لهذا الأمر في الجانب المسيحي من الأندلس الحصول على معلومات كافية ، لأنه لم يكن يتمتع بما يتمتع به الجانب الإسلامي من حرية في الإبداع والتسجيل والنشر : لأن التربة الدينية على المؤلفات

كانت عنيفة وقاسية ولا تسمح بالإشارة إلى مثل هذه الأشياء (٢٧) .

* * *

ويقول مؤلف كتاب : « تاريخ إسبانيا وأمريكا ، اقتصاديا واجتماعيا » ،
وصدرت الطبعة الأولى منه في برشلونة بإسبانيا عام ١٩٥٧ ، وخضع
لرقابة الدولة والكنيسة على السواء : « شهد القرنان الرابع عشر والخامس
عشر أشد فساد شهدته الكنيسة الإسبانية ، وبخاصة في مملكة قشتالة ،
والدراسات التي قام بها أوليز روبر Ulises Robert أظهرت الحالة
المؤسفة التي انتهى إليها عدد كبير من الأديرة البندكتية . حيث يعيش
الرهبان مع عشيقاتهم ، ويربون ويعلمون أولادهم في الأديرة نفسها . وثمة
تعليمات أصدرها مطران أوفييدو في القرن الرابع عشر بمنع فيها الرهبان من
السماح لعشيقاتهم ، أو أولادهم ، أو الراهبات ، أن يتواجدن على أبواب
الأديرة ، أو يعشن فيها ضيوفاً على الرهبان . وثمة وثيقة أخرى نشرها
فوشيه دلبوس Fouché-Delbos تشير إلى السمعة السيئة التي كان يتمتع
بها رجال الدين الدومينيكان في القرن نفسه ، مما يؤكد أن الأوامر الخاصة
بالسلوك المستقيم قد تنوسيت سريعا . وفيما يتصل بسلوك رجال الدين خارج
في كل الأديرة ، إلى حد كبير ، وفيما يتصل بسلوك رجال الدين خارج
الأديرة ، هناك أدلة وافية للجزم بأن الفساد كان أكثر شيوعا في قشتالة
منه في أرجون ، والبلاد الأوربية الأخرى . ففي منتصف القرن الثالث
عشر (أي مائتي عام بعد وفاة ابن حزم) شاعت أغان تتحدث عن رجال
الدين ممن فاض بهم الشبق ، وفي كتاب « الحيل » قصة رئيس دير أخفى
عنده امرأة متزوجة ...

« ونعرف من قرارات مجمع شنت ياقب Santiago عام ١٢٨٩ م ، أن
من الشائع بين رجال الدين في المدينة ، أن يعيشوا على نحو ما يعيش العلمانيون ،
يرتدون أفخر الثياب ، ويأكلون في الحانات ، ويلعبون « الزهر » علانية ،
ويحماون الأساحة ، ويأخذون بحظهم من حياة الليل ، ويتشاجرون مع

الأهلى واجنود ، وهذا المجمع نفسه أصدر قراراً بمنع رجال الدين من اتخاذ العشيقات علانية . ومن أن يؤمنوا أنفسهم على كتابة الرقى : أو قراءة الطالع ... » .

« وفى عام ١٣٨٠ م ، أصدر مجلس سورية قراراً يحول بين أبناء الرهبان من عشيقاتهم وبين أن يرثوا آباءهم . لكنى يحول بين نساء أخريات مستقيمات : أرامل وعذراوات ، أن يصبحن لهم عشيقات ، وأن يقعن فى الخطيئة ... » . وبعد سبعة أعوام أصدر مجلس برافيسكا قراراً بمعاقبة أى امرأة تصبح علناً عشيقة لواحد من رجال الدين ... تعاقب فى كل مرة تستسلم فيها له . » .

وتمضى بنا الكتاب إلى القرن الخامس عشر فيقرر : « إن عدداً كبيراً من الأديرة لم يكن إلا موضعاً لحياة اللذذة والمرح ، وعدد كبير من أديرة الراهبات سقط إلى الخضيض . وإذا لم تصبح بيوتاً للدعارة فعلاً ، فقد كان بينها وبين أن تصبح كذلك خطوة واحدة . » وخلال حصار مدينة فوسة Fosa . فى الشمال الشرقى من إسبانيا . عام ١٤٦٢ : وجهت رئيسة الدير تويخا لقائد الجيش المحاصر . لأنه سمح لضباطه بأن ينسوا واجباتهم العسكرية . وأن يمضوا الليل مستمتعين فى دير « سيناكلارا » للراهبات ، وكان خارج أسوار المدينة . وبعد ذلك بأعوام طلب المطران مساعدة الساطات المدنية لسكى تساعده على طرد راهبات هذا الدير بالقوة ، ماعدا الرئيسة ، لأنها وحدها حافظت على كرامتها بين هؤلاء الراهبات للرجسات ، وقد أوقعن الرعب فى قلب رئيسة الدير ، وأصبحت عملياً أسيرة الدين ... » .

« وتكرر فى أديرة كثيرة ، فى قشتالة وأرجون ، المشهد الذى حدث فى فوسة . » . وقد دفع رهبان مسلمة عن أنفسهم مستخدمين كل شىء حتى الأسلحة ، قبل أن يغادروا الدير . بينما الرهبان الفرنسيسكان فى المدينة نفسها خرجوا يحرقون فى الشوارع رفقة عشيقاتهم : أما رهبان طابطة

فقد خرجوا في مشهد ديني ، يطوفون الشوارع ، ويرفعون الصليان ،
ويترنمون بنشيد الخروج .. وأخيراً فإن ما يقرب من ٤٠٠ راهب أندلسي
هددوا بأنهم سوف يهاجرون إلى شمال إفريقيا ، ويعتقدون الإسلام ، قبل
أن يتخلوا عن عشيقاتهم» (٢٨)

ويمضي المؤلف يعدد أحداثاً أخرى كثيرة من هذا القبيل ، ويطول في
الحديث لو أشرت إليها جميعاً ، ولكنني أكتفي منها بما أوردت وأدعها
إلى حديث آخر . ففي العام الذي سقطت فيه دولة الإسلام في الأندلس ،
٢ يناير ١٤٩٢ ، كانت الملكة إيزابيلا تستقبل مغامراً إيطالياً يدعى كولون ،
أو كولومبوس ، يعرض عليها مغامرة يريد لها تمويلاً ، وقبلت الملكة ،
ومضى كولون في مغامرته . وكانت النهاية اكتشاف العالم الجديد ، ومعه
أصبحت إسبانيا أقوى دولة في العالم ، لانغيب الشمس عن أملاكها ، كما قيل
عن بريطانيا فيما بعد ، وتدفق الإسبان على العالم الجديد ، وبخاصة من
مقاطعة الجوف ، في الجنوب الغربي من إسبانيا ، « بعض القرى خلت من
الرجال تماماً ، ولم يعد فيها غير النساء ، يلفها ظلام صيفي : وشقاء
مرعب ، وملل يتجاوز الوصف .. نساء تعسات ، حياتهن جافة
ومنسيات ، لا أمل لهن أن يرين أزواجهن مرة أخرى ، دون أن يعنى
هذا أن إحساسهن بحاجتهن الجنسية قد هدا ، وحوهن في كل مكان
تظاهرات دينية : صلوات ، ودعوات ، وسحر .

والحقيقة المرة أن رجال الدين أصبحوا سادة «الفراخ» ، كثيرون
عرفوا كيف يقاومون الرغبة في داخلهم ، وليسوا جميعاً . . . إن
العناصر التي تركب منها الشهوة بسيطة للغاية ، بسيطة مثل ذكاء أولئك
الأمشقياء أنفسهم : قليل من الدين ، وكثير من الهيجان ، يتخفى
تحت ستار الكهانة ، وجسد يلتهب شهوة ورغبة . وفي مدينة
يرينا Llerena ، وما يتبعها من قرى ، قام ثمانية من رجال الدين ،
في مطلع القرن العاشر ، أطلقوا على أنفسهم اسم «المتنورين» وجوهر محاولتهم

أحط ما عرف من اتجاهات الفرق الدينية ، لأن دعوتهم لا تذهب إلى أبعد من إشباع شهواتهم الحسية ، وقد استطاع أحدهم : الأب تشاميشو Chamizo أن يهلك عرض ثلاثين امرأة ، ممن يبتغين يتلقين على يديه مبادئ السعادة الجديدة ، وربما كان ينقص هؤلاء وغيرهن ممن تلقين المصير نفسه ، القدرة على إدراك الانحراف الذي يكمن وراء هذه الدعوة ، ولكن من المؤكد أنهم وجدوا فيها فسحة ليشبعن رغباتهن ، وقد تركت الأساليب التي اتبعت معهن إصراراً وهوساً واضحاً فيهن جميعاً .

ونبت يرينا كان واحداً من أشد الحالات شهرة ، ولو أنه جاء متأخراً بالنسبة لحوادث أخرى . وكانت قضية هؤلاء « المتنورين » تقلق المسؤولين منذ زمن . وأول « متنور » في زمن الكاردينال ثيسنبروس ، كان من طائفة الكاثوليك الفرنسيين وكان يدعى أوكانيا Ocarana ، وادعى أنه يتلقى الوحي . وأن الوحي أشار عليه بأن يضاجع ألواناً من النساء ، لكي يضمن منه بأنبياء . وقد انتهى به المطاف إلى سجن تحت الأرض ، ومالبث أن سارع بالارتداد عن دعواه (٢٩)

وتكتشف إسبانيا أمريكا . وتصبح هذه من أملاك التاج الإسباني ، ويتدفق عليها الإسبان من كل لون ، مغامرون ومقاتلون ولصوص وجرمون وباحثون عن الثراء ، ومعهم أو حتى قبلهم رجال دين ينشرون الكاثوليكية هناك بين سكان العالم الجديد ، وما كان من هؤلاء فيما وراء الإطلنطي شيء فوق المنصور ، كأنما كانوا غرائز انطلقت من عقلاها : لا تهدهد منها تقاليد ولا حدود ولا قيم . وقد صورت الكاتبة البيروانية كلورندا ماتو Clorinda Matto ، وهي كاثوليكية ، في روايتها : « طيور لاعش لما Aves sin Nido » في دقة واقعية شيئاً مما حدث . فالحداث الرواية تدور في قرية ريفية في بيرو ، وثمة امرأة من هنود أمريكا تعيش في حماية زوجين من البيض ، واسكن القسيس والحاكم والرئيس

السياسي طمعوا جميعاً في زوجة الرجل الهندي وبنتيه ، واستطاعوا أخيراً أن يقنعوا السكان بالمهجوم على منزلهم وتدميرهم ، ودفاعاً عن بيته قتل الرجل الهندي وزوجه ، وخلف وراءه بنتين عشق ابن الحاكم إحداهما ، وعند ما أراد أن يتزوج منها لم يستطع ، فقد اكتشف أنهما أخوان ، لأن القسيس كان أباً لهما ، أباً غير شرعي ، لأنه كان عشيقاً لزوجة الهندي وزوجة الحاكم معا .

تلك وقائع أوردها كتاب إسبان معاصرون وكاثوليك ، ولنا عليها بحفظان : أولهما أن ما كان يحدث أسوأ بكثير مما تحدثوا عنه ، وأعرف قراءة وواقعاً ما هو أشد تهتكاً . وثانيهما أننا لا نقع في الخطأ الذي يقعون فيه تعصياً ، فنرى رجال الدين في المسيحية كلهم كذلك ، إنني شخصياً أعرف بينهم أناساً يملأ الإيمان قلوبهم ، وتميز حياتهم بالظهر ، ووهبوا قواهم ونشاطهم لكل ما هو فاضل وجميل في الحياة .

إن ربط العفة بالمسيحية ، والتبذل بالإسلام ، فضلاً عن مخالفته للواقع التاريخي يتنافى مع بسائط أي منهج عالمي ، مثله في ذلك : القول بأن مسلمي الأندلس الذين انحدروا من أصول رومانية ، كانوا أرقى في عواطفهم من الذين عبروا إليه المضيق فاتحين أو وافدين ، **لأن** المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام في الأندلس ، فقدوا شيئاً فشيئاً الإحساس بأصولهم التي انحدروا منها ، حتى أن بعضهم صنع له شجرة نسب عربية ، ترفعه إلى قبائل معروفة ومشهورة ، مقابل أثمان دفعوها ذهباً . وحافظ آخرون على ألقابهم الرومانية الأولى ، فكان هناك بنو أنجلين Banu Angelino وبنو شبريق Banu Sabrico في إشبيلية (٣٠) . وما كان المرء يستطيع أن يفرق بين الذين صنعوا لهم نسباً عربياً ، والذين احتفظوا بألقابهم الرومانية ، وبين الوافدين على الأندلس ، عرباً أو بربراً ، لقد صنعهم الإسلام على هواه ، وصاغ منهم مجتمعاً متجانساً .

ويأتى أميركو كاسترو Americo Castro ، أحد كبار المفكرين الإسبان المعاصرين ، فيزيد الأمر دقة ووضوحاً : « إن تحليل دم الأندلسيين عمل علماء الأحياء ، وليس من صناعة المؤرخين . فلم يكن الأندلسيون (يعنى بهم الممالك المسيحية في شمال الأندلس) إسبانياً ، ولم يشعروا بهذه الإسبانية أبداً قبل القرن الثالث عشر الميلادى . وكان الذين يتقاتلون أو يتوادون على بطحاء الأندلس ، إما مسلمون أو مسيحيون . » « إن تاريخ شبه الجزيرة الإيبيرية في العصور الوسطى ، لا يمكن أن يرى بوضوح ، مادام ثمة مستشرقون كبار ، وآخرون غير مستشرقين ، يواصلون الحديث عن « جنس إسباني » وأصل وجوده في إسبانيا وراء اثنين هم من دم عربي . » « إن المستشرقين الإسبان يطبقون مفهوم الإسبانية على كل الأندلس ، مهما تكن الأجيال التي تفصل بين الأندلسيين المسلمين وأصولهم المسيحية ، فإذا ذهب مسلمو الأندلس ليقطنوا في المغرب سموهم إسبانياً ، وابن حزم إسباني ، وتغيب هذه الفكرة يعنى أن المسلمين تنقصهم الشخصية التاريخية الصريحة ، فهم جميعاً يصبحون بربراً في المغرب ، ومصريين على ضفاف النيل . » ثم ينتهى إلى هذا القانون الاجتماعى : « الذين يتكلمون لغة جماعة إنسانية ، ويعتقدون دينها . ويطبقون نظمها السياسية والإدارية : يصبحون جزءاً منها ، مهما كانت الظروف التي عاش فيها أسلافهم » (٣١) .

أما قول أسين بلاثيوس بأن الحب العذرى نشأ بين بنى عذرة نتيجة تأثير مسيحي ، فينقضه أن بنى عذرة هؤلاء كانوا بدوا ، يأخذون للدين مأخذاً سهلاً ، وقلماً يبلغ من عقولهم ونفوسهم مبلغاً قريباً يتأثرون به ، ويكتيفون حياتهم وفق مثله ، ولو كانت المسيحية وراء هذه الظاهرة لكان أولى أن تكون على نحو أوضح . وأسبق ، في نجران أو الحيرة أو بين الغساسنة ، حيث استقرت المسيحية زمناً ، وباشرت ساططاتها على النفوس ، وأصبحت دين الأمرة الحاكمة ردحاً من الزمان .

ويبقى بعد ذلك . أن نشأة الحب العذرى في الأدب العربي بعمامة ،

ما تزال أرضاً بكرّاً تنتظر من يبحثها في ضوء مناهج البحث المتطورة ،
علنا نصل فيها إلى جديد مقنع ومفيد .

• الهوامش والتعليقات :

(١) أسرتنا وأسرّة .

(٢) الفحوص : الوديان والسهول والجبال المخضرة التي تحيط بقرطبة .

(٣) لفظ « عجوز » كان يطلق في الأندلس على أية فتاة متزوجة ، حتى ولو كانت
شابة ، وما زال هذا المعنى مستخدماً في كل من المغرب والجزائر وتونس حتى الآن .

(٤) فوز صاحبة عباس بن الأحنف .

(٥) اقرأ القصة كاملة في :

ابن حزم : طوق الحمامة في الألفة والألاف ، ص ١٤٤ وما بعدها ، تحقيق مؤلف هذا
الكتاب ، دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٦ .

(٦) Dozy, R. : Histoire des Musulmans d' Espagne, Tomo
II, pag. 283, Trád. Espagnole, Buenos Aires, 1940 .

(٧) ترجمنا هذه الدراسة إلى اللغة العربية ، وسوف تأخذ طريقها إلى النشر قريباً .

(٨) Juan Valera (١٨٢٧-١٩٠٥) وواثق إسباني ، وقد ترجم إلى الإسبانية
كتاب المستشرق الألماني فون شاك : « شعر العرب وفهم في إسبانيا وصقلية » . وشهرت ترجمته
بأنها ذات لغة رصينة ، وأسلوب أدبي رفيع ، وقد تضمن الكتاب القصة التي نحن بصدها .

(٩) القصة كاملة في : ابن حزم ، طوق الحمامة ، بتحقيقنا ص ١٢٤ .

(١٠) القصة كاملة في المرجع السابق ص ١٦٦ ، ١٦٧ .

(١١) أنظر مثلاً كتاب الأخلاق والسير في مداواة النفوس ، ص ١٠٢ ، وكتاب طوق
الحمامة بتحقيقنا ص ١٦٥ ، ونص عبارته فيه : (إنني أقسم بالله أجل الأقسام أني ما حلت أمزرى
هل فرج حرام قط ، ولا يحاسبني ربي بكبيرة الزنا منذ عقلت إلى يومى هذا) .

(١٢) الأخلاق والسير ، ص ٨٦ .

(١٣) ديوان ابن قزمان ، ج ١ ص ٢٧٢ ، الزجل رقم ٥٣ ، تحقيق غرسية غوث ،
مدريد ١٩٧٢ ، والفقه المشار إليها هي :

بتمجيد ابن حزم وقتاً يشهد

ويستحي كل حيناً يقصد

فمدحى له من سخاه يقولد :

فاز من جمر وندم من قصر

من كان كريماً في ثمناني يظهر

(١٤) طوق الحمامة ، ص ١٦ ، طبعة دار المعارف ، بتحقيقنا .

(١٥) أورد ابن حزم في كتابه (طوق الحمامة) ، في لكل واحدة من هذه الغلات ، أنظر :

فصل ١ ، ص ٥ - ١١ ، والفصل ٩٠ ص ٣٠ - ٣١ ، والفصل ٢٥ ص ١٨ ، ٩٤ ، والفصل

٢٦ ص ٩٥ - ٩٦ . والفصل ٢٨ ص ١٠٧ - ١١٣ .

(١٦) هكذا في الأصل ، وأظنها « حلوة » ، وهذا المعنى الأخير ترجعها أسرين بلايوس .

(١٧) المرجع السابق ، ص ٤١ ، ٤٢ .

(١٨) الأصل المسيحي قصة ورد في كتاب « حياة الآباء Vitae Patrum » من تأليف

Rosweyde ، وأورد ابن حزم مفصلة في كتابه « طوق الحمامة » ص ١٨٥ طبعة دار المعارف

بحقيقنا ويلاحظ أن الذي روى القصة لابن حزم طبيب يهودي .

(١٩) أنظر بقية رأيه في كتابه : ابن حزم القرطبي ، الجزء الأول ، وقد ترجمناه إلى

اللغة العربية وسوف ينشر قريباً .

(20) William C. Atkinson : Histoire d'Espagne et du Portugal.

p. 81. Paris 1995 .

(٢١) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٥١ .

(22) Maranon Gregorio : Ensayo Biologica sobre Enrique

IV, p. 24. 9 edicion, Madred 1960.

(٢٣) المرجع السابق ص ٢٤ ، ٤٩ .

(24) Fornieles Salvador : La Espana del Siglo XVI pag. 88,

Buenos Aires, 1951.

(25) Pfandai Ludwig : Juona la loca, p. 181 ss, Madrid,

1959.

(٢٦) المرجع السابق ص ١٠ .

(27) Maranon, *op. cit.*, p. 107.

(28) Historia de Espana y América : Social y Economica, dirigida por : J. Vicens Vives 3 ed. p. 149 ss., Barcelona 1971.

(29) Fedrico Revilla : El sexo en La historia de Espana, p. 158 ss., Barcelona 1975.

(30) Lévi-Provencal, E. : Espana Musulmana, p. 47. Madrid, 1950 .

(31) Américo Castro : La Realidad historica de Espana, pag. 191 ss., 2 edicion, Mexico, 1962.

مقدمة لطوق الحمامة •

للفيلسوف الإسباني الكبير : أورتيجا إي جاسيت

صداقني إميليو غرسية غوث مترددة : تتأرجح بين أن تكون أخوة وبين أن تكون أبوة ، الأبوة تأتي من أن عمرى أكثر اتساعا من عمره ، وتعود الأخوة إلى أن طريقنا واحدة ، وعندما نتحدث عن فلان نتفق .

وعندما يتفق إثنان أو أكثر في رأيهم عن فلان ، يتفقون فيما عدا ذلك ، والعكس صحيح أيضا ، ولا يتطلب الاتفاق ، وحتى لا يفضل ، أن يكون الرأي متطابقا . ولسنا بصدد اتفاق الآراء ، وإنما توافق الحياة ، فليس في الدنيا من تماثل آراؤه مع آخر ، إذا كانت لديه آراء حقا ، لأن الرأي شيء ذاتي للغاية ، وغير قابل للانتقال . وعندما تكون لدينا فكرة مشتركة تأتي المخاطرة الكبرى في ألا تكون رأيا ، وإنما عكس ذلك تماما ، أن تكون شيئا مكرورا ، والشيء المكرور موضع ، والموضع عام ، إنه المكان الذي يتفق فيه الناس كثيرا ، ويتميزون ، وتختلط عليهم الأمور ، شيء لا يمكن أن يحدث إلا عندما يصبح الأفراد معادن ، ويفقدون صفتهم الإنسانية ، لأن الرجال في أصلهم ، وحقيقتهم ، اجتماعيون إلى حد كبير . وهـ المدرسيون ، أنفسهم ، وإحساسهم يمثل هذه الموضوعات متواضع للغاية ، يعرفون الشخص بأنه غير قابل للانزعاج ، ويرون أن الآراء يمكن أن تختلف إلى حد بعيد ، ولكنها تتفق فيما هو وحيد ومهم : في أنها كانت موضع التفكير من نفس المستوى . وأخيرا فإن معاناتنا عندما نتعامل مع الغير ، تجيء عادة من أننا نفكروا ونشعروا نحن فوق مستويات مختلفة .

• كتب أورتيجا إي جاسيت هذه الدراسة كمقدمة للترجمة الإسبانية ، لكتاب « طوق الحمامة » ، وقام بها المشرق الإسباني إميليو غرسية غوث ، وصدرت الطبعة الأولى منها عام ١٩٥٢ ، وأعاد نشرها في كتابه « دراسات من الحب » ، وهو كتاب واسع الانتشار ، وبلغت طبعاته ، في سلسلة واحدة ، حتى كتابة هذه السطور خمس عشرة طبعة ، فيما أعلم . (المترجم) .

وهذه بالدقة إحدى الهبات السحرية التي يملكها الحب ، ومنها يتحدث هذا الكتاب في عمق . إليه — مثلاً — تعود الظاهرة الرائعة في أن المرأة عشيقة الرجل ، تبدو صفاتها أرفع بكثير من صفاته ، ولا ندرى كيف ، ألحجود أنه عاشق يرتفع إلى مستواها ، أو العكس . وقد التقط الشاعر الألماني الكبير جوته ، في بيتين من شعره ، في نهاية كتابه الخالد « فاوست » صورة هذا المستوى . فالأنوثة الخالدة حقيقة مخلقة ، وعندما يحب الرجل يرتفع إلى مستواها ، لا بقوة الصعود نفسها ، وإنما بقوة الجذب ، فهو مجذوب إلى عالم أكثر سمواً . ولا ينكر أحد على أن المرأة ، إذا كانت شيئاً ، تكرر جذابة ، جذابة بالضرورة ، ولكن جوته يسترعى انتباهنا بأن جاذبيتها دائماً ، دائماً ، قمة .

ما هو أنثوى

يجذبنا إلى أعلى

وبذلك سقتنا من باب مسحور في عمق هذا الكتاب ، وقد بذل إميليو غرسية غوث جهداً كبيراً ومضنياً في ترجمته ، وهو دين في عني الإسبانيين نهض به متعاونين ، لأن هذا الكتاب أروع ما خط عن الحب في الحضارة الإسلامية ، ولأنه وليد فكر وحياة إسبانيين ، وكتبه عربي « إسباني » على أرض إسبانية ، وقد ترجم من زمن إلى لغات أخرى ، ولكن أحداً لم يجرؤ قبل غرسية غوث على أن يمسك بمادته ، ويدفع بها خلال اللغة الإسبانية .

ومن الواضح أنني حين أدعوا بن حزم عربياً إسبانياً ، فإنما أنسبه إلى العربية جادا ، وإلى الإسبانية بصورة غير جدية ، ودون أن أحول بين الآخرين وبين أن يصنعوا ما يخطر لهم ، ولست مستعداً من جانبي أن أغامر فأدعو « إسبانيا » في جدية كل من يولد على أرض شبه الجزيرة الإيبيرية ، حتى ولو كان من دم إيبيري أصلاً ، وحتى لو كان قد عاش فيها كل حياته . فالأرض والجبلية للدموية تأتي في آخر قائمة الخصائص التي يمكن أن تحدد قومية الإنسان . لأن هذه خلاصة الواقع التاريخي ، وإنما تكون لها فعالية فحسب ، حين تحتلان منه المكان الأول ، قبل كل الخصائص الأخرى . والدليل عليه ، بسيطاً وشهيراً ،

يتمثل في أن بالإمكان أن يصبح المرء إسبانياً . بأقصى ما تختمله الكلمة من معنى ، دون أن يكون قد رأى الأرض الإسبانية مطلقاً . وعلى النقيض ، يمكن أن يكونه ، وبالمستوى نفسه ، دون أن تجرى في عروقه نقطة من دم جنسنا ، أو فيه منه شيء قليل للغاية .

وبصدق ذلك في عصرنا الآن ، لأن إسبانيا ، منذ وقت طويل ، حققت كامل قوميتها ، أعظم بكثير جداً عما كانت عليه خلال القرنين العاشر والحادي عشر ، عندما بدأ الشيء الذي يدعى «إسبانيا» ينبثق فحسب . وكل هذه الصفات القومية تعني ، إذا أخذت بمعناها الدقيق ، الانتماء الأصيل لمجتمع محدد ، وكان مجتمع الأندلس العربي مختلفاً ، وشيئاً آخر غير المجتمع ، أو المجتمعات غير العربية ، التي كانت تسكن إسبانيا إذ ذاك (١) .

ولكن ذلك لا يلغي ، كما قلت ، علاقاتنا مع عرب الأندلس ، أو الإسبانيين ، ولا يعفيها من بعض الواجبات فيما يتصل بتاريخهم : واجبات عمادها ، في النهاية ، الفائدة التي تعود علينا من وراء القيام بها ، لأننا بهذا نغذي ذات جوهرنا ، ونثرى حاضرنا ، ونعلى من قدر إسبانيتنا . لأن مجتمعنا عايش على امتداد قرون طويلة هذا المجتمع الأندلسي ، وجهاً لوجه ، في احتكاك مباشر ، من القبلات والمهام ، والأخذ والعطاء ، والتأثير والتأثر : وإحدى المخجلات الكبيرة التي تعيب الدراسات التاريخية أنها في أوج تقدمها ، لم تستطع أن تجاو ، ولو من بعيد ، حقيقة العلاقات بين كلا المجتمعين : وذلك هو سبب التراجع المتطرف بين الآراء ، عن التأثيرات بين جانب وآخر ، والذي أشار إليه غرسيه غومث في مقدمته . ومن الحق أن نعترف بأن المستشرقين الإسبان ، ابتداء من خوليان ريبيرا ، تقدموا خطوات هامة على طريق المحاولة ، وأظهروا في دقة كبيرة كيف تعايش

(١) لكي لا يتبقى الفكرة غامضة ، أضيف أنني أنهم من «المجتمع» مجموعة من البشر يحكمها نظام معين من العادات .

الأندلسيون والإسبان ، ولكن القضية لا يمكن أن تتقدم كثيراً إذا لم نؤخذ على نحو أكثر عمقاً : ومن الضروري بمكان في الحقيقة أن نحدد بالدقة تركيب المجتمعين ، تحديداً منفصلاً وجيداً ، لكي نستطيع فيما بعد أن نظهر التكامل والتلاقى بينهما :

ومع ذلك ، لا يمكن أن نفهم بالقضية عند حدود إسبانيا وحدها ، فهي أكثر اتساعاً ، لأن الجانب الأكبر من أوروبا كانت له أيضاً صلات مستمرة مع الحضارة العربية ، وتجاور مباشرة معها ، ولكن المؤرخين الأجانب أيضاً لم يسكبوا شيئاً من الوضوح فوق هذا العمل ، وهو إحدى الحقائق الكبرى في تاريخ الغرب ، وكان ذلك التقصير أحد الأسباب الجوهرية التي عاقت الذكاء الأوروبي الوسيط . وليس ممكناً أن نفهم حدثاً تاريخياً ، مهما يكن ، إذا لم ننجح في تأمله من وجهة النظر التي تظهر ، على نحو أفضل ، معناه الأكثر دقة ، أى من تلك التي تدرك متذوقة ، وبكل طاقتها ، مساحة الواقع الإنساني التي ينتسب إليها الحدث التاريخي . وكل نظرة إلى الواقع من خلال مساحة جزئية ، مهما تكن عميقة ، بشوهه أو يزيفه آلياً . وعلى أية حال فنحن أعوام طويلة ، وإميليو غرسيه غومث شاهد عظيم على ، وأنا أرى أن العصر الأوروبي الوسيط لا يمكن أن يرى بوضوح إذا نظرنا إليه وقد ركزنا تاريخ تلك القرون في تطور المجتمعات المسيحية وحدها .

إن العصر الأوروبي الوسيط ، في حقيقته ، لا ينفصل عن الحضارة الإسلامية ، لأنه يقوم بالدقة على التعايش ، إيجاباً وسلباً في الوقت نفسه ، بين المسيحية والإسلام ، فوق رقعة مشتركة : مشبعة بالحضارة الإغريقية الرومانية ، ومن هنا فإن وجهة النظر الوحيدة المناسبة من عدم المبالاة أمام هذين المتحدرين من حياة العصر الوسيط ، متأملين ظاهرها المزدوج ، واختلافها وحدة واتفاقاً ، يحملان في داخلهما نموذجين مختلفين : والسبب القوي في هذا أن كلا العالمين المسيحي والإسلامي وجهان لعالم جغرافي واحد ،

يشكل تاريخياً من الثقافة الإغريقية الرومانية ، والإسلام نفسه يحيى امتداداً للمسيحية (وناسخاً لها !) (١) ولكن هذا الامتداد ما كان ممكناً أن يتضح بدوره لو لم تتلاقى الشعوب الأوربية والشعوب العربية ، على مساحة احتلتها الإمبراطورية الرومانية على امتداد قرون من الزمان . فاعرب والجرمان شعوب خارجية ، تعيش على حافة هذه الإمبراطورية ، وتاريخ العصور الوسطى هو تاريخ ما يجري بين هذين الشعبين ، تبعاً لتوغلهم في عالم الإمبراطورية الرومانية ، مقيمين فيه ، وممتصين جوانب من ثقافته ، جاسمة ونخرة . والعصر الوسيط ، في جانب منه ، نشق من التلقى للعراق . تلقى الشعوب ذات الثقافة البدائية للثقافة القديمة ، والموايق المسيحية للإسلام ليست إلا حالة خاصة في مجال هذا التلقى ، أحداثته نفس الآلة التاريخية التي حملت عرب القرن التاسع على تلتقي أرسطو وأبقراط وجالينوس وإقليدس وديوفانوطلميوس ، ربما أكثر ما ننسى أن العرب قبل محمد عاشوا سبعة قرون تحيط بهم من كل الجوانب شعوب كانت ، في قليل أو كثير ، مشبعة بالثقافة الهلينية ، وعاشت تحت الإدارة الرومانية ، لا في سوريا فحسب ، حيث هبت فوق العرب عاصفة القديم الكبرى ، وإنما في فارس وبكراتيا والهند . وعلى النقيض من ذلك ، ظلت أوروبا في جانبها الشمالى متحررة من التأثير الإغريقي الروماني ، واستطاعت أن تحتفظ لزمن أطول بأصولها البدائية سالمة .

أطوار هذا التلقى تشابه في البدء كثيراً ، والاختلاف الوحيد في تلك الفترة ، وهو مهم دون شك ، يتمثل في أن العرب تقبوا (القديم) في شكله الإمبراطوري الروماني الشرقي ، وتلقاه الأوربيون في صيغته الإمبراطورية الرومانية الغربية ، وأدى هذا - مثلاً - إلى أن العرب استطاعوا في مرحلة فائقة أن يكون لهم أرسطو الخاص بهم ، وعلى النقيض

(١) الإضافة التي بين القوسين من عندى . لتوافق الجلسة وجهة النظر الإسلامية (المترجم) .

فإن المسيحية التي جاورت الإسلام كانت النسطورية ، ومسيحية القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح ، وهما وجهان قدمان للعقيدة المسيحية . وفي الأطوار التالية أخذ التلقى شيئاً فشيئاً ملامح أكثر تميزاً ، إلى أن توقف في القرن الثالث عشر بين العرب ، فجفت حضارتهم وتحجرت ، وقنعت بالقرآن ، وركنت إلى الصحراء ، ولأن الصحراء تطوق العالم الإسلامي من الشرق والجنوب كانت تدفع فوقه من حين لآخر بموجات من التمسك العنيف بالدين ، وكان البدو حملتها ، وآخر الموجات وصولاً ، وحدثت من قريب حركة الوهابيين في نجد ، وقد أطبقت بانتهااء الحرب العالمية الأولى ، وبقيادة ابن سعود ، على الجزيرة العربية ، واستولت على مدينتي مكة والمدينة .

فكرت في إذن أنه عندما بدأ ما يدعى بالعصر للوسط ، كانت الجرمانية والعربية جسمين تاريخيين متجانسين إلى حد بعيد ، فيما يشكل اللبنة الأولى لحياتهما ، وفيما بعد ، شيئاً فشيئاً ، أخذتا يتمايزان تدريجياً إلى أن وصلا في هذه القرون الأخيرة إلى تباين جذري . والرأي المعارض ، وهو الشائع دفع به جيل ثلثاني بلا تفكير ، وهو شيء يحدث كثيراً في عالم المؤرخين ، لأنهم رسموا لتلك القرون صورة بالغة الخلف عما نجده الآن عند مجموعة هذه الشعوب أوتلك . ولكن ذلك بدوره ما كان يقع لوتعمت تحليلاً عملية إعادة بناء التركيب الأسامي للحياة الإنسانية في العصر الوسيط ، إذن لبدأ لهم ساعتها إلى أي مدى كان حاسماً ، في تكييف سلوك الإنسان وفي الحياة ، واقع أن شعبياً ذات ثقافة بدائية واحدة ، جاءت لتعيش في حيز اجتماعي ، حيز الإمبراطورية الرومانية ، حيث سبقت إلى الوجود حضارة وصلت إلى آخر مراحل نموها ، وبالتالي أوج تعقدها وصقائها . ولحسن الحظ فإن هذه الحضارة توقفت نموها ، وشاخت ، وبلغت قدراً كبيراً من الانحطاط ، وبالتالي فقدت بالضرورة جانباً كبيراً من ثرائها الوفير ، وعادت اختصاراً لما كانت عليه في سابق أيامها . نذكر مثلاً ، في المجال الثقافي ، الثقافة

الإغريقية الرومانية قريباً من القرن الخامس الميلادي ، لقد انحصرت وتركزت
الملخصات والموسوعات والمناجم ، ولولم تكن هكذا لأصبح الصدام ،
وبدءه اليوم علماء الأجنام البشرية من الأجلاوسا كسون الاصطدام
الثقافي ، مفرطاً وغنيماً ومختلف النتائج إلى حد بعيد ، ولضاعت الشعوب
الجديدة كما لو كانت في غابة مرعبة من فيض الحياة الكلاسيكية . ولحسن
الحظ ، وأعيد القول ، فإن هذه تعرضت للاختصار ، على نحو مافي طبعات
الدفين ، سواء أكان الدفين عربياً أم جرمانياً (١) .

ونصل الآن إلى الملاحظة المشمرة حقاً ، ومعها نضع يدنا على مفتاح
ذكاء العصر الوسيط ، ولم نر أبداً من عبر عنه . فالثقافة الكلاسيكية حتى
وهي متقلصة ، وجفت أنسجتها ، كانت ترمز إلى مجموعة من أشكال حياة
بالغة التعقيد إلى حد بعيد ، وأرق من الحياة التقليدية لتلك الشعوب المغيرة ،
ولم يستطع الجرمانى ولا العربى فهمه جيداً ، لا لأنهما معتدة ورقيقة
فحسب ، ولكن لأنها انحدرت من أصول بعيدة عنهما ، أوحى بها
تجارب تاريخية تختلف عن تجاربهما ، ولكنها من جانب آخر فرضت عليهما
في بعض المجالات لأسباب عميقة ، كما في الإدارة ، ودائماً بسبب مكانتها
الفريدة . ولست أعرف ، أخيراً ، ما إذا كان يمكن القول بأن الإمبراطورية
الرومانية كانت الحدث الأعظم أهمية في التاريخ حتى وقتنا هذا ، ولكنى
لا أرى مبالغة القول بأن ما كان لها من مكانة ، وقوة شديدة التماسك لما يزل
يلقى بثقاه عالياً . ويمكن القول أن هذا أدى إلى ازدواجية درامية في أسمى
حياة العصر الوسيط نفسها ، عندما التقى الجرمانى والعربى في مجموعتين
مختلفتين من الأشكال أمامه ، وكل واحدة منهما مثل مجرى ، تغرى الإنسان

١ - الدفين لقب كان يطلق في فرنسا الملكية على ولي العهد منذ عام ١٤٣٩ م ، ثم
أصبح يطلق على الضباط الممتازة الأدب الكلاسيكى اللاتينى التى تطبع ليستخدمها الدفين ،
ابن لويس الرابع عشر ، وكانت تحذف منها النصوص ذات المجون الشيق ، وتطلق
الآن سخوية على الطبعات التى تخضع لرقابة الكنيسة أو غيرها .

بأن يتدفق معها عبر سلوكه الحيائي. والأنماط الموروثة من ماضيه تكشف ،
على الأقل ، عن حياته اليومية ، ولكن هذه لا تترك الأثر بأنها «حياة» ، لأنها
عادة خالصة ، وعندما نخرج عن عاداتنا التي اكتسبناها عن طريق العادة
الخالصة فحسب ، ولا نقف عندها آلياً ؛ نصنع قضية «الحياة» ، وعندما
نبحث عن النقيض المقابل «للحياة المعتادة» نبحث عن «الحياة كما يجب» .
وأشكال الحياة الإغريقية الرومانية تبدو ، لمكانتها ، أمام الشعوب الجديدة
في ملامح «الحياة كما يجب» في مواجهة «الحياة كما هي عادة» ، ولهذا
كانت الحياة في العصر الوسيط باللغة الإنارة . لأنها حياة من طابقين : دون
انسجام كاف بينهما ، فهناك في أسفل طابق العادات القديمة المتأصلة ،
وفوقها طابق السلوك النمذجي ، ذلك يعاش حقيقة ، وتلقائياً ، وهذا
سلسلة اندفاعات مقلدة ، والعلاقة بين الإنسان وما يصنع ليست في التلقائية ،
ولا في هذا الإحساس الصادق ، وإنما في الرغبة أن يكون غير ما هو

كائن . فالجرمان والعرب عكفوا على تقليد الإغريق والرومان ، في
محاولة لصياغة أشكال حياتهم في الإدارة والقانون ومفهوم الدولة والعلم
والشعر (١) . والدين نفسه أخذ عندهم جوانب مثيرة من الانسجام مع
البيئة . فالإسلام امتداد للمسيحية ، بطريقة مختصرة للدلفين الذي يعيش
في الصحراء ، ومسيحية الجرمان أيضاً ليست إلا تقليداً لمسيحية آباء
الكنيسة .

هذا التركيب الأساسي لحياة العصر الوسيط كان وراء حدث بالغ
الإنارة والروعة ، وراء «المدرسين» مثلاً ؛ أعنى وراء الفلسفة التي غرسها
الجامعات الغربية بقوة خلال ذلك العصر ، وهو حدث مازال ينتظر من
يجلو غوامضه ، لأن أحداً لم ينتظر إليه حتى الآن في ضوء «فلسفات

١ - لا أود بهذا أن أقول أن كليهما متساويان في الإفادة من هذه الفروع ، فكل
حين أن العرب - مثلاً - تشربوا العلوم الهلينية في الحال ، ظلوا جامدين في مواجهة
الشعر القديم ، وكان الأوربيون على النقيض منهم تماماً .

مدرسية ، أخرى كثيرة . وما شهر بهذا الاسم ليس إلا حالة خاصة في طبقة تاريخية واحدة ، من المدرسية في طابعها الشامل ، وأثمرت ولا تزال تعطى ثمارها في كثير من العصور والأمكنة . وتطلق المدرسية على كل فلسفة متلقاة ، في مواجهة كل فلسفة مبدعة ، وأطلق لفظ « متلقاة » على كل فلسفة تنتمي إلى محيط ثقافي يختلف ، ويبتعد في الحيز الاجتماعي أو الزمن التاريخي ، عن الفلسفة التي يتعلمها أو يطبقها .

والذين يجهلون من أبة مادة تتكون الآراء يعتقدون في سهولة تسربها من شعب إلى آخر ، ومن عصر سابق إلى عصر لاحق ، يجهلون أن ما هو أطول حياة في هذه الآراء ليس ما نفكر فيه بوضوح ، ثم يجي ثمرة الإحساس بالتفكير فيه ، وإنما الغاية التي نفكر في ظلها ، ومما يبقى مما ذكرنا عند استخدامها . وهذه العناصر غير المرئية ، والخفية ، هي أحياناً نسيج شعب تكون خلال آلاف الأعوام . وهذا العمق النابض بالآراء ، والذي يبقى عليها فياضة ومغذية ، لا يمكن أن ينتقل ، كأى شيء هو حياة إنسانية حقيقية . إن الحياة لا تدنل أبداً ، إنها قدر تاريخي !

الانتقال الكامل للآراء خادع إذن ، إنما ينتقل « الساق » ، و « الزهر » فحسب ، وربما متديلاً من الأغصان ، ثمرة تلك السنة ، وهو الشيء النافع منها في تلك اللحظة مباشرة . ولكن في تربة المصدر ما هو حي من الآراء ، يبقى جذرها ، والنبت الإنساني أقل قابلية للانتقال من الأشجار بكثير ، إنه تحديد مرعب ، ولكنه حتمي ومأسوي ! .

والادعاء بأن أولئك الرهبان من ذوى الرءوس الخليفة ، كانوا قادرين على إدراك المفاهيم الإغريقية ، كفكرة الوجود مثلاً ، جهل بالبعد المأسوي الذي يصحب الحدث التاريخي كأنخيط الأحمر يخضى مع كل جبال البحرية البريطانية . وعندما تتلقى فلسفة بعيدة عنا ، فإن الجهد العقلي يستغل قيادته ويعمل ، لا لكي يفهم المشكلات ، والأشياء كما هي ، وإنما لكي يصل

لهم ما فكر فيه آخرون حولها ، وعبروا عنه في تعريفات معينة . والتعريف ليس كلمة من اللغة ، وإنما رمز مصطلح ، ولهذا لا يفهم دون زيادة . وقد وضع بمقتضى تحديد ما ، ويجب أن نصل إليه وفي ذهنتنا هذا ، وهو بدوره مكون من ألفاظ ، ومن هنا فإن « المدرسية » كلها ليست إلا تجريداً للمعرفة لتصبح مجرد مصطلح (١) .

ولم يكن أوائل « المدرسين » رهبان الغرب ، وإنما حرب المشرق ، فقد تعلم توماس الإكويني على أرسطو عن طريق ابن سينا وابن رشد ، وفضلاً عن ذلك فإن ملامح المدرسية أشد وضوحاً في الحضارة الإسلامية منها عند الشعوب الأوروبية الوسيطة . وهذه الشعوب ، حتى وهي في دور المراهقة ، كانت تملك منذ زمن مبكر جداً ، ربما بفضل تركيبها الجرمانى ، أسلوباً خالقاً لم يكن عند العرب أبداً ، ولهذا تجمد هؤلاء في اللحظة التى توقفوا فيها عن التلقى . وما يهمنا هنا إبراز الطابع المدرسى المشترك بين الحضارتين ، والذي يعود إلى التكوين المزدوج ، غير الطبيعى ، للحياة الإنسانية خلال العصر الوسيط . ليس من الحتم ، إذن ، أن نبعث عن سبب هذا الطابع فى نزوعات سلافية مزعومة ، لأن « النوع » فى إحدى المجموعتين من الشعوب ، يختلف عنه فى المجموعة الأخرى ، ولكن كليهما خضع لضغط الظروف الأساسية نفسها : ظروف الحياة فوق تربة تحملها ثقافة عظيمة ، وغربية عليه .

هذا الرأى عن الحياة فى العصور الوسطى هو ، لا أكثر ولا أقل ، ما يجب أن يكون عليه أى رأى ، أى مشروع مربعات هائلة ، علينا أن نخلط فوقها واقع الحياة العربية الأندلسية ، وليست إلا كتاب الحب هذا ، وقد نسجته براع ابن حزم . لأن الكتب ، بالمعنى الدقيق للكلمة ، أعمال الرجال ،

١ - أستخدم هنا فقرات من كتابي « فكرة المبدأ عند ليبنتز وتطور نظرية الاستدلال » ومن ثم فإن « الإنسانية » عدوة « المدرسية » لم تكن بدورها إلا مدرسية ، ذات شعار مختلف ، ولكن النتائج متشابهة ، ولا تزال تلقى بثقلها على العقل الأوربي .

وليس زوائده نباتية في الأشجار ، أو رواسب جوية : وقد وقف الكتاب على الحب ، وفي منهج حديث ، على نحو ما أَدْعُو وأصر عليه من زمن طويل ، وأول ما يتطلبه الكمال أمام نص أن تضع نفسك في موقف واضح من الشيء الذي يتحدث عنه . من الضروري أن ننتهي من هذا التحديد اللغوي الحرفي الخالص ، واعتقد أنه أدى مهمته في ربط نص بآخر ، وهكذا إلى ثم ما لا نهاية ، ونحن نطلب تحديداً لغوياً عملياً ، ومن ثم يجب أن نبدأ ، أمام هذا الكتاب المتيقن : وقد شغل بالمهمة الإنسانية العظمى ، التي تسمى الحب ، بأن نوضح قليلاً ما هيته هذا الشيء . ولكن ذلك مستحيل الآن ، وهنا ، لأنه يحملنا بعيداً فحسب ، وليس من المناسب كتابة رسالة أخرى عن الموضوع الذي تعمق فيه القرطبي الصالح ، بل لأن كثيرين من حولنا الآن مقتنعون تماماً بأن العالم خلق ليصالح الراهبات ، والحديث عن الحب حرام Tabu ، كما لو كان شيئاً شاذاً ، مرضاً تفجر في هذا العالم ، وهؤلاء الناس يزعمون السيطرة عليه لصالحهم ، ووفق طموحهم .

أول فضول أحسست به ، وأنا أطل بين صفحات « طوق الحمامة » ، تقصى ما إذا كان الحب عند العرب نفس الحب الذي بيننا . والظن بأن ظاهرة كالحب ، موعظة في الإنسانية ، وجدت دائماً ، وتوجد إلى الأبد ، على صورة مماثلة ، خطأ فادح ، كالاعتقاد بأن الإنسان ، مثل المعدن والنبات والحيوان ، له طبيعة ثابتة ودائمة ، وجهل بأن كل شيء فيه تاريخي . نعم ، كل شيء فيه ، حتى ما ينتمي منه فعلاً للطبيعة ، كما هو الحال فيما ندعوه غرائز .

وليس ثمة شك أنه يوجد في الإيمان - وشكراً لله ! - مجموعة باقية من الغرائز ، بينها هذه الجاذبية الجنسية المهيبة بين شخص وآخر . ومن الواضح أن ذلك موجود دائماً ، ولكن من الضروري أن نضع في حسباننا أن بقية الغرائز حتى ولو كانت فعالة في الإنسان ، لا تؤثر ولا تعمل منفصلة أبداً . وحتى غريزة « حفظ النوع » ، وهي الأقوى بين كل الغرائز ، تبدو متداخلة مع أشد المواضع غموضاً وإنسانية في نوعيتها ، كالشرف والإيمان بعقيدة

دينية واليأس ، وتستطيع هذه أن توقف عمالها . وهذا التوافق بين ما هو
طبيعى وما هو ثقافى يجعل الغريزة متناقضة ، ويحوّلها إلى عظمة تاريخية ،
تولد يوماً لتختفى فى يوم آخر ، وبينهما تعانى من أشد التغيرات عمقا .
ولسوء الحظ- فإن فهم هذه الحقيقة مضطرب ، ولأنها أساسية يجب
أن تكون متألفة ، وقد جرت العادة ، معيبة ومتأصلة ، أن نطلق كلمة
الحب وحدها على أشياء بالغة التباين ، وهو نفس الخطأ حين نطلق كلمة
شعر فحسب على ما أبدع هوميروس ، وما أنشد فرلين ، على حين أننا ، فى
الحقيقة ، بصدد اهتمامات لا تكاد تتساوى . وفى الحالة التى نحن
بصددنا نجد الموقف اللغوى تعسفاً على وجه خاص ؛ لأن كلمة حب amor
تطلق فى اللغات الرومانشية romances على هذه المجموعة من المشاعر ،
وهى كلمة ، بالنسبة لنا غامضة إلى حد بعيد ، لأنها تنحدر عن أصل ميت
لا معنى له ، أخذته لغاتنا من اللاتينية ، ولكن الكلمة ليست لاتينية ،
لأن الرومان تلقوها بدورهم من لغة الإيتروسك Etrusco (١) ، وهى
اليوم لغة مجهولة وغامضة . وهذا الواقع اللغوى بليغ جداً بنفسه . ماذا
يعنى أن يطلق الرومان على حقيقة بالغة الشفافية ، وإنسانية عالماً ، فيما يبدو ،
مثل التوتر العاطفى ، كلمة ذات أصل أجنبى ؟ هل يعنى هذا أن الرومان
قبل أن يحضرهم الإيتروسك لم يكونوا يعرفون هذا الشيء الذى كان
هؤلاء يطلقون لفظ « حب » ، ومن ثم كان هذا بالنسبة لهم نظاماً جديداً ،
شيئاً يشبه تغير النسق فى الحياة الخاصة ؟ لو أن شيئاً حدث شبيهاً بهذا ،
يصبح دليلاً على أن هذا الحديث لغوى ، وحينئذ يسأل كل واحد منا نفسه ،
أى شيطان هذا الذى اخترعه الإيتروسك ، وانكب عليه وصقله أوثاق
الذين تلقوه عنهم ، ولأسباب ترتبط بمعانى الكلمات ، ونخفى علينا ،
فإن لفظة « حب » تطلق على هذا الهدف السامى . والتاريخ ، إذا عرفنا
كيف ننظر فيه ، ملئ بأبواب مسحورة مثل هذه . وما يعرف من حياة
الإستروك يوضح فى كفاية أن « الحب » كان فى حياة ذلك الشعب شىء

(١) الإيتروسك : شعب مجهول الأصل عاش فى توسكانيا فى نهاية القرن الثامن قبل الميلاد.

يختلف للغاية عما سوف ينتهى إليه بيننا ، وربما عندما نطلق لفظ «حب» على مشاعرنا الأكثر دفئاً وصفاء تجاه امرأة ، نطلق عليها دون أن نعرف شيئاً قبيحاً . وكان شعب الإيتروسك واحداً من أشد الشعوب شهوانية على ظهر البسيطة ، وكانت شهوانيته مرعبة ، مغیظة وبائسة ، ولدى أفراد عبقريه أن يموتوا من شدة الشهوة .

فى صفحة ١٥ من كتاب ابن حزم نقرأ هذه الأبيات (١) :

أودك وداً ليس فيه غضاضة	وبعض مودات الرجال مراب
وأحضنتك النصيح الصريح وفى	الحشى لودك نقش ظاهر وكتاب
فلو كان فى روحى هواك اقتلعت	ومزق بالكفين عنه إهاب
ومالى غير المود منك إرادة	ولا فى سواه إليك خطاب
إذا حزته فالأرض جمعاء والورى	هباء ، وسكان البلاد ذباب

والقارىء غير المشول ، وهو الأكثر شيوعاً ، ينزلق بعينه عبر هذه الأبيات ، ويعتقد أنها مفهومة ، لأنها لا تضم رموزاً رياضية مبهمه ، ولكن القارىء الجيد ينتهى من قراءتها ولديه انطباع ، يكاد يكون دائماً ، أنه لم يفهمها تماماً . والحقيقة أن هذه الأبيات لا يمكن أن تفهم بدقة ، لأننا لا نعرف ماذا يريد المؤلف بكلمة «حب» ، أو «ود» .

لا أظن أن فقه اللغة العربى أصبح على قدر من التقدم والدقة فى دراسة معانى الألفاظ ، وأنتا نستطيع معه أن نصل إلى تحديد ما كان يفهمه المجتمع الأندلسى من كلمة «حب» فى القرن العاشر الميلادى ، عندما يسمع هذه الكلمة أو يقرأها ، لأنها ، وأعيد القول ، كانت تعنى شيئاً مختلفاً إلى حد بعيد . يكفى أن نلاحظ أن الشاعر يتوجه بهذه

(١) أرقام الصفحات فى الأصل تشير إلى الترجمة الإسبانية ، أما هنا ، وفى المواضع التالية ، فقد جعلتها تعود إلى (طوق الحمامة) فى نصه العربى ، طبعة دار المعارف بتحقيقنا ، للقاهرة ١٩٧٥ .

الآبيات إلى رجل ، وطبعاً أعرف أنه يوجد بيننا أيضاً حالات من الشذوذ الجنسي ، حب الرجل لرجل ، ولكن المسلم به في أوربا أن كلمة « حب » تعني أولاً ، وبالتحديد ، شيئاً يودعه الرجل في المرأة ، ونرسله المرأة إلى الرجل ، أما حب الرجل لرجل ، والمرأة لامرأة ، فلا نفهمه ، دون أن أزيد شيئاً . بل علينا أن نمارس عملية صعبة تقوم على تجريد الكلمة من معناها الأول ، وأن نحاول خبط عشواء أن نلبسه معنى آخر مختلفاً ، لكي نتصور عشق الرجل لرجل ، وقد أثبت غرسية غوث في مقدمته لهذا الكتاب أن الحب لا يبالى بالتباين الجنسي ، وذلك كاف لكي نتصور الحب العربي حقيقة شديدة الاختلاف عما باشرناه ، ونباشره ، معشر الغربيين . وأيضاً لا يمكن القول أنه يشبه الحب الذي وصفه أفلاطون ، لأن الحب عند أفلاطون لا يدير ظهره للجنس ، ومعناه الأصلي عنده حب الرجل لرجل ، وهو - أي أفلاطون - على النقيض منا ، لا يفهم جيداً ما يمكن أن يكون حب رجل لامرأة .

لست أهدف من وراء كل هذا ، إلا أن أدفع بمزيد من الحيوية ، بأشد الطرق إيجازاً ، إلى الإحساس بأن موضوع الحب هذا خطير للغاية ، ولا يوجد حب طبيعي نضع في مواجهته ، كمتقابل له ، الغراميات الشاذة ، نعم ، يستطيع الذين يتخذون الرأي المقابل لهذا الحكم ، الزهو إلى حد كبير بمعتقدهم الأكثر سمواً ، وبدل أن يحتملوا في طبيعة مفترضة ، تنصح بحب تراه طبيعياً ، وترفض أنواعاً أخرى منه تراها شاذة ، أن يتحدثوا في حماسة عن ألوان معقولة منه ، وألوان أخرى غير صحيحة ، عما هو مستقيم وما هو غير أخلاقي ، والحب ، كما ألححت من قبل ، نظام وابتداع إنساني ، وليس ابن عم المضم أو زيادة الكلور في المعدة .

هذا الكتاب ذو العنوان الجميل (١) يبدأ بأفكار فلسفية مختلفة عن الحب ، ذات طابع «مدرسي» ، خائض ، وكان يمكن أن يقال بعد ذلك بقرن ونصف من الزمان ، في لاتينية هزيلة ، على لسان أي راهب في الغرب . ففي صفحة ٢١ نلتقي عنده بأفكار استعصاها مما قال أرسطو ، وفي صفحة ٢٢ نصطدم «بمدرسية» تقليدية متحذقة ، وفي صفحة ٢٣ يحدد لنا أسباب الحب ، فيأجأ إلى الجانب الآخر من المدرسية ، أعني الأفلاطونية . ومن المؤكد أن ابن حزم في هذه النقطة صوب فكر ابن داود ، وقد سبقه في محاولة وضع «نظرية الحب» ، ويتيح لنا هذا التصويب إدراك التقدم الذي أحرزته الأوساط العربية في معرفة أفلاطون ، على امتداد قرن ونصف من الأعوام . وفي الحق أن ابن داود ، ويدعي أنه أفلاطوني ، ارتضى في جد مضحك القولة الساخرة لتفسير الحب ، ووضعها أفلاطون على لسان أرسطوفان البالغ السخري ، وطبقاً له : «أن الله ، جل ثناؤه ، خلق كل روح مدورة الشكل على هيئة الكرة ، ثم قطعها أيضاً فجعل في كل جسد نصفاً ، وكل جسد لقي الجسد الذي فيه النصف الذي قطع ، من النصف الذي معه ، كان بينهما عشق للمناسبة القديمة ، وتتفاوت أحوال الناس في ذلك حسب رقة طبائعهم» (٢) .

(١) فيما يرى غروية غومث فإن كلمة «طوق» تعني عقد ، ولكن أليس من الأنفل أننا بصدد ما يدعى في الغرب ، منذ الإغريق ، «عق Cuello الحمامة» ، وكان رمزاً لثروة لا تنفد من الألوان ؟ ففي صفحة ١٠٩ أجد هذه الفقرة : «إنما قصدنا التكلم فيما رغبته من أمر اللعب فقط ، وهذا أمر كان يطول جداً ، إذ الكلام فيه يتفنن كثيراً» .

(٢) آثرت أن أجزم بنسب ابن داود كاملاً ، لتبدو فكرته ، أي فكرة أفلاطون ، أكثر وضوحاً ، وقد نسبها ابن داود إلى «بعض المتفلسفين» ، دون أن يذكر اسم أفلاطون صراحة . أنظر :

• كتاب الزهرة : النصف الأول ، ص ١٥ ، الطبعة الأولى ، تحقيق لويس نيكول وإبراهيم طوقان ، بيروت ١٣٥١ هـ = ١٩٣٢ .
(المترجم)

وقد اتخذ ابن حزم الأندلسي من هذا الكلام « المدرسي » المطروق إطاراً فحسب ، هالج من خلاله موضوع العشق في دقة ، وهو في هذا ليس « مدرسياً » على الإطلاق . وتفيض كتابات ابن حزم بذكرياته الذاتية ، وذكرياته عن غيره ، يقصها بطريقة مباشرة دقيقة وقوية ، ويحلل في مواطن أخرى ، واضحاً وفطناً ومدهشاً ، مواقف مختلفة تتصل بالحب . وليس مهماً أن أنقل هنا فقرات من النصوص التي سوف يجرى بينها القارئ ، وأكتفى بأن أشير من بينها إلى عدد من الفقرات يبدو مفيداً أن أوصي بها : في صفحة ٧ مجموعة رقيقة من الأشياء التي تدل على أن اثنين في حالة عشق ، وفي ٧٩ نلتقي بأسباب تمكن الحب من النساء ، لمن ، فيما يرى ابن حزم : « متفرغات البال ، إلا من الحب ودواعيه ، والغزل وأسبابه ، والتألف ووجوهه ، لا شأن لمن غيره ، ولا خلقن لسواه ، وفي صفحة ٤٤ حديث عن تفاوت رد الفعل عند ممارسة الحب ، وما يترتب على ذلك سلباً وإيجاباً ، وهي مشكلة حقيقية ، وشائعة بين الجنسين ، وتهم أطباء اليوم كثيراً . وفي صفحة ٤٧ إشارة إلى تأثير الحب الأول في الغراميات اللاحقة ، مما يعيد إلى الذاكرة ما ذكره ديسكارت Descartes (١) عن نفسه ، وكيف أنه أحب أول مرة حواء ، فظل يشعر دائماً بالميل والاهتمام بكل النساء الحوليات ، وفي صفحة ٩٠ إحساس واضح بما للحب من تأثير نافذ على الكيان الإنساني لا يدانيه شيء . وتذكر معي في صفحة ٩١ أن الجلسة في الوصل قمة الحب - زيا لها من حقيقة كبرى ! - وفي صفحة ٩٦ وصف رائع للقاء غير متوقع بين حبيبين ، يحكيه صاحبه وأعضاؤه تضمحك كلها بهجة ، وفي صفحة ١٧٢ قصة البحار وآلته وسكينه ، وللعادات من الحج .

لا يمكن أن نستقصي أفكار ابن حزم ، وهو يعرض لنا ما كانت عليه ملامح الحب الأندلسي في أيامه ، ولا أن ندرك حقيقتها التاريخية ،

(١) فيلسوف ورياضي وعالم طبيعة فرنسي (١٥٩٦ - ١٦٥٠) (المترجم) .

ولا نستطيع أن نقارن بينها وبين الحب عند شعوب أخرى . إنما علينا أن
 نتمتع جيداً ما يقصه علينا ، وفيها يجدده لنا ، وفي الملامح المميزة لطريقة
 الحب تلك ، وسوف يبدو لنا للوهلة الأولى ، أنه لا يوجد خلاف ،
 وهو نفس ما يحدث لنا عند نقرأ الكتاب الوحيد ، الدقيق والحجة ،
 عن الحب عند شعب بدائي : « الحياة الجنسية عند البدائيين » ، لمؤلفه
 مالتوفسكى Malinowski (١) ، ونعرف منه أنه لا يكاد يوجد خلاف
 بيننا وبين « تروبريانند Trobriand » ، شعب بدائي للغاية يعيش في
 في جزيرة غينيا الجديدة ، في الواجبات العاطفية ، أكثر من أنهم
 يجهلون ، مثل شعوب آسيا ، تأثير القبلة الحلو ، وعلى النقيض يستأندون
 حضن الأهداب ، أمراً يبدو لنا غريباً وغير مألوف . وهذا الظاهر ،
 وهو ذاتي بحث إلى حد كبير ، يدفع إلى عقولنا بتحذير جوهري ، في
 أن العواطف الإنسانية ثرية بقدر هائل لا يصدق ، في نباتها وفي حيوانها ،
 ولكن لا نستطيع وفقاً لطبيعتها أن نعبر عن نفسها ، وإنما تعتمد على الأعمال
 واللامح الجسدية ، ومجموع مفاتيح هذه الملامح الجسدية التي نجد لها
 عواطفنا تحت تصرفها ، لتعبر بها عن نفسها ، محدود للغاية إذا قورن
 بالتنوع الوفير لأشكال الحياة في مشاعرنا . ومن هنا عليها مع الملمح
 نفسه أن تظهر حقائق حنوناً ، بليغة التباين ، رغم أن كل الغراميات
 إذا تأملناها من بعيد تبدو متشابهة .

أعمال قليلة ، كهذا الكتاب ، أتاحت لي متعة عظيمة ، ولقد
 اقتنحت صفحاته بمجهر أحاول ، مبتدئاً بما يقصه علينا وما يفسره لنا ،
 الوصول إلى صيغة مميزة لما كان عليه الحب عند هؤلاء العرب المصقولين
 في القرن العاشر الميلادي ، وما تعلى بالنسبة لنا ، وهو موضوع يحتاج
 إلى مزيد من الوقت ومن الفراغ ، لأنه يستطرد بنا إلى موضوعات
 تنتمي إلى عالم العلاقة بين الرجل والمرأة ، وعنهما ، ولو أنه يبدو
 أكثوبة ، كل شيء تقريباً في انتظار من يدرسه أو يقول عنه شيئاً .

(١) عالم أجناس بريطاني الجنسية ، بولندي الأصل (١٨٨٤-١٩٤٢) (المترجم).

وإذا أردنا أن نضرب مثلاً بالغ الروعة للإهمال الذى تعانیه هذه النماذج الإنسانية من الحب ، يكفى أن نتوقف لحظة عند الكلمات الأخيرة للفترة السابقة : « ما يكون الحب اليوم بالنسبة لنا » . عن أى « يوم » يتحدثون هنا ؟ لأننا لا نستطيع أن نقول إن العشاق الأوربيين منذ خمسين عاماً وعشاق اليوم شئ واحد أو متطابق ، رغم أن المسرح واحد ، وأن البعد بين الاثنين قصير جداً ، ومع ذلك فإن مسافة الخلف بين حب تلك الأيام وحب الأجيال الجديدة واسعة إلى حد بعيد .

لقد تسلطت الحروب والثورات على عقول الناس ، فلم يعبروا اهتمامهم الموضوع واضح ، وهو أن التغيير الأبعد غوراً فى شكل الحب الأوربي ، منذ القرن الثانى عشر الميلادى ، حدث فى هذه المسافة القصيرة ، وفسدت خلالها ، فى كثير من الحالات ، التقاليد العالمية المتنوعة ، وربما كان أبلغها فساداً ، ووقع صامتاً دون دوى ، وعلى نحو لم يحدث مع أى شئ آخر ؛ وبطريقة جذرية عنيفة ، ما حدث فى أساليب الحب . ومنذ تلك الأيام أخذت نماذج الحب تتطور على نحو مستمر ودقيق ، كجنس أدبي ، وهو كذلك على نحو ما ، حتى بداية هذا القرن . ولهذا مرت العلاقة بين الرجل والمرأة بعصر من الاضطراب العنيف ، وليس من موضوعنا هنا أن نتمتع فيها دراسين .

لكى نعرف جيداً ما هية الأشياء يجب أن نمشى معها على مهل وأن نضع بعضها فى مواجهة البعض الآخر ، ومع المقابلة تتوهج خصائص كل واحدة . وهكذا من الأوفق لنا الآن أن نضع طرائق الحب التى اكتشفها ابن حزم ، والذى ندعوه بالحب الأندلسى ، فى مواجهة حب البدو ، وينشر بين القبائل التى تحتفظ اليوم بأصولها العربية فى نقاء كامل ، وتعيش فى الصحراوات العطشى لشرقى شبه الجزيرة العربية ، على ضفاف الخليج العربى . لقد نشر ديكسون H.R.P. Dickson فى ١٩٤٩ م كتاباً مفصلاً وممتعاً عن الحياة بين هذه القبائل ، وقد ولد ديكسون فى سورية ، وأرضعته بدوية تنتمى لهذه القبائل ، واعتبر كواحد من أبناء القبيلة الأقوى نفوذاً ، وهو يحدثنا كيف

أن هذه المنطقة من الجزيرة العربية ، وعلى نحو ما كل شبه الجزيرة ، لا تعرف الحياة الزوجية . صحيح أن سهولة الطلاق لا تدع فراغاً يمكن لهذه أن تأوى إليه ، ومن جانب آخر تمنح المرأة محجبة ، وقد أخفت رأسها تماماً ، ولا يستطيع من يصنف نفسه حبلياً لها أن يعرف منها أكثر من مجرد رؤيتها على هذا النحو ، وإلا فسوف يرى نفسه مضطراً لأن يشك فيها ، فالمرأة إذن تدخل عالم الحب مثل كائن مجهول ، ولهذا لا مجال للدهشة إذا انطورت ليلة الزفاف على كفاح عنيف بين الزوج والزوجة ، عنف يبلغ حد أن تتعرض الزوجة غالباً لكسر واحد من أضلاعها أو أكثر .

كيف يمكن أن يكون الحب الذى يتحرك بين مثل هذه العادات ؟ والمملك الحالى للجانب الأكبر من الجزيرة العربية ، ابن سعود العظيم ، وهو مسلم متشدد ورئيس الوهابيين المتشددين ، قص على ديكسون أن عنده ، حتى وقت الحديث ، أكثر من أربع مئة امرأة ، لم يزوج واحدة منهن . وبالنسبة لنا معشر الغربيين ليس سهلاً أبداً أن يكون حب بدون وجه ، لأن الوجه بالدقة هو المكان حيث يتدفق الحب الحقيقى ، ومن ثم وجب أن يعنى كثيراً بظاهرة أن الوجه الأنثوى لا يثير للشهوة فى الرجل ، على حين أن بقية جسمها كانه ، حتى البدن ، يمثل دائماً إثارة خطيرة ومريعة . وربما كانت الشفاه تقوم بواجب يتجاوز حد الحنان ، ولكنها تقريباً تأتى فى المقام الثانى ، عندما تكون الشهوة قد اندفعت عبر مجالات عاطفية .

والقضية التاريخية الكبرى التى تتخذ من هذا الكتاب منطلقاً ، يجب أن يكون واجها مهاجمة القول بتأثير العرب فى شعر الغزل الأوروبى الوسيط بهامة ، وفى شعر وتقاليد التروبادور بخاصة ، وهى نظرية شائعة ، وموطن نقاش فى الوقت نفسه . وهذه القضية عشت زناييز لم يحاول أحد حتى الآن أن ينظمه .

أففى نهاية القرن الحادى عشر ، ومطاع القرن التالى ، بدأت فى فرنسا طريقة لإحساس الرجل بالمرأة ، ليس لها صلة مباشرة لا بالثقافة القديمة ،

ولا يقرون العصر الوسيط السابقة ، يسعد الرجل حين يعتبر المرأة شيئاً أسمى منه ، ويخضع لها خاشعاً ، وتقوم العلاقات العاطفية بين الجنسين على فكرة « الفتى » ، الذى يبدأ فى اللحظة نفسها بإعلام المجتمع ، والمرأة سيدة ، والرجل تابع لها ، والشهوانية التى تتناثر هنا وهناك فى أشعار الغزل ؛ تأخذ فى أسلوب شعراء التروبادور بعامة طابعاً شارباً فحش ، وعلمنا أن نوكد ذلك إزاء إصرار بريفو Briffautl على النقاط النصوص الجريئة (١) . ومشاعر التروبادور نحو المرأة تتطلب البعد ، فيما يبدو من نصوصهم ، وتبدو الحبيبة بالضرورة نائية المقام ، ويتردد بكثرة أنها كالشربا بعدا ، وليست فى متناول اليد ، وبالتالي ليست موطن مداعبة ، ليست شيئاً يداعب ويستمتع به ، وإنما شيء يبتعدون عنه فى ألم ، ويشتاقون إليه دائماً . ومن ثم يزهر شعر التروبادور الأنين والشكوى ، ويعرض الحب كآلم للذيد ، أو جرح محظوظ ، ويقول شاعر التروبادور جيوفروى رودال Geoffroi Rudal فى بساطة إن حبه « حب الأرض للقمر » ! .

ملاحظ حب التروبادور هذه لها خصائص أخرى كثيرة ، لا أستطيع أن أضيفها هنا ، وكانت سبباً فى أن نبحث لها عن أصل فى صورة الحب الذى أزدهر بين العرب قبل ابن حزم بقرن من الزمان ، ويطلقون عليه عادة « الحب البغدادي » . ولكن حب بغداد هذا ليس إلا واحداً من التأثيرات التى حدثت فى جماعات كبيرة ، وأنحمت ثقافة على مائدة الأفلاطونية التى شاعت فى ذلك القرن ، وبين هذه الجماعات تشكلت أسطورة قديمة تتحدث عن قبيلة بنى عذرة ، وفيها يموت الرجال من الحب ، لعزوفهم عن التمتع بالمحبة . هل يمكن حقاً تفسير الحب عند التروبادور بما يقابله من أشكال الزهد المنتظرة ذات المحتوى العاطفى ؟ وهنا يحق لى أن أشكو من الطريقة التى عولجت بها كل القضايا التى

(١) Robert Briffaut, Les Troubadoudrs et Le Sentiment romanesque , 1945 , pp. 92 - 94 .

تتصل بالشعر في القرون الثلاثة : الحادى عشر ، والثانى عشر ، والثالث عشر . فمن الواضح أنه قبل أن نقارن بين شعر الغزل الأوربى فى هذه القرون ، وبين نماذج منه عند الشعراء العرب ، من الأوفى أن نحدد فى دقة خصائص كل منهما ، ولو تحقق هذا لرأينا أن شعر الغزل الأوربى رغم أنه مشاعر تنأى عن « الحنين والشوق » ، إلا أنها لا تتطلب العزوف ، بل على النقيض ، ترغب فى كل شىء ، ولكن من بعيد . وهو ما يفسر لنا النصوص التى تنضح أدباً جنسياً ، والتى التقطها بريفو ، ومن يدرى ربما كانت الشهوة الإنسانية الحقبة ابنة التناهى ، ولا تنبثق أو تزدهر إلا مع بعد الغاية ! :

مـزاج ابن حزم

من خلال للطوق

صورة له بقلمه

لست أعرف فقهاً كابن حزم ترك الآخرين بدسون عيونهم وعقولهم في أعماقه ، لبروا على هدى من اعترافاته ، وفي ضوء ما عمل لهم من حياته كيف هو ومن يكون . ولقد حطم كل الحياء المصطنع ، وأتى على كل الأسوار العالية ، التي تعزل الفقه عن الحياة ، حين يقول الفقهاء للناس شيئاً ويصنعون شيئاً آخر ، أوجع بمسكون بخناق النامس تضيقاً ، جرياً وراء فهم قاصر ، أو نفاقاً للسلطان ، أو بحثاً وراء زائل من عرض الدنيا ، ويجعلون من سماحة الشريعة قيوداً ، ومن وعها جوداً ، وكان هذا هو الفارق الكبير بين ما يجري في الحياة الإسلامية واقعاً ، وما يكتبه الفقهاء في مؤلفاتهم تشريعاً ، أو يلقونه في حلقاتهم درساً ، أو يبشرون به بين الآخرين واعظين .

لقد تركنا ابن حزم نطل على حياته من خلال مؤلفاته كلها بعمامة ، وعرى نفسه في كتابين محددين بخاصة ، خط أحدهما وهو في ريعان الشباب ، يفيض تحدياً ويلتهب حماسة ، ويعترض بكل ما أوتي من قوة أحداثاً كباراً تجرف في طريقها الخلافة ، نظاماً وأشخاصاً ، وكان يراها شرعة قائمة ، يلوذ بها الخائف ، ويستظل فيها المظلوم ، ومعها تقوم الدولة ، وتنظم الجماعة ، وتتطور الحياة ، فدافع عنها ، عن الشرعية الدستورية في لغة السياسة الحديثة ، بكل قدرته ، وبما هو فوق طاقته ، ثم رآها تنهار ، وينهار معها المجتمع والدولة وكل القيم الجميلة ، فأشعل الحرب على كل أمير خائن ، وكل فقيه مرتش ، وكل شاعر منحل ، ولم يلق السلاح إلا جديناً محمولاً على الأكتاف ، إلى رحاب الله الواسعة ، وكان هذا الكتاب هو : طرق الحمامة .

أما الكتاب الثاني فقد خطه حين أدار ظهره لعالم الخديعة حوله ، وقد أنقل كماهله التفضال على كل الجبهات ، ورأى القيم التي عاش لها وعليها تنهاى واحدة وراء أخرى ، فلم يستسلم لها ، وانسحب إلى قريته منت لشم ، من بادية لبلة ، وقنع بعلمه وكتبه وطلابه ، وكان بين ما خطه منها ، في هذه الأيام ، كتابه : « الأخلاق والسيرة في مداواة النفوس » ، وهو مجموعة رائعة من الاعترافات الذاتية ، خطها ابن حزم وقد حنكته التجربة ، وصقلته الأحداث ، وصهرته المعاناة ، وهدهد الزمن من جموحه . ولأنها لمنعة رائعة حقاً أن يقارن الإنسان بين تجارب وأفكار ابن حزم في « طوق الحمامة » ، ولما يتجاوز الثمانية والعشرين من عمره ، وبين أفكاره شيخاً على أبواب السبعين ، وسنضع يدنا على الحقيقة بوضاء ناصعة : إن أفكار وآراء ابن حزم على امتداد نصف قرن من الزمان تقريباً ، رغم كل ألوان المعاناة ، لم تتغير شيئاً .

ليس من قصدي هنا الموازنة بين الكتابين ، ولا أنا بصدد دراسة الكتاب الثاني ، فذلك مكانه من فرصة قادمة إن شاء الله ؛ وإنما أحاول أن أعرض صورة لجانب من مزاج ابن حزم ، في زهوة شبابه ، كما رسمه لنا بقامه ، في كتابه « طوق الحمامة » .



لا تكاد تمضي خطوات مع ابن حزم في طوق الحمامة حتى نجد نفسك أمام فيض من ذكرياته ، عن نفسه وعن أصدقائه ، وآخرين مجهولين ، وكلهم من العشاق ، زفراتهم حارة ، وأحاسيسهم صادقة ، يخلطون المداد بالدمع أو الرقيق ، ويستخدمون في الرسائل الحمام والعيون والرسول ، ويعانون من الوشاة ، ويموتون من الحب . وهو إلى جانب ذلك معرض حافل بالحديث عن شيوخ ابن حزم ، والشخصيات العامة في قرطبة ، وبالإشارات التاريخية ، والأحداث الهامة : والحفلات الخاصة ، وتخطيط العاصمة ومعمارها ، ومساكن آل حزم ومستواها ؛ وكلها تتحرك نابضة

بالحياة ، وتمضى مناسكة مثل عنقيد العنب ، وهو قبل ذلك كله سيرة ذاتية للمؤلف ، خطها بقلمه ، واعترافات مغلصة ألقي بها في جرأة وصدق غير معهودين في الفكر العربي على أيامه وما بعدها إلى أيامنا .

هل تصلح اعترافات ابن حزم وثيقة لتصوير ما كان عليه مزاجه ؟ . لا يمكن القول بداهة أن ابن حزم حدثنا عن كل شيء في حياته ، لأن هناك منطقة في حياة الإنسان تظل مرآة مكتومة إلى الأبد ، لا تتجاوز طبقات ضميره ، ويحملها معه إلى القبر ، نجد ذلك عند ابن حزم ، وعند غيره ، وكل ما هناك أنها تضيق عند البعض ضيقاً كبيراً ، فلا نتمس إلا أشياء محدودة مغرقة في الخصوصية ، وتتسع عند آخرين حتى تشمل كل شيء في حياتهم ، ومن جانب آخر لم يكن قصد ابن حزم بكتاب «طوق الحمامة» أن يكتب سيرة حياته ، وإنما عرض لجوانب منها تتصل بموضوع الكتاب . والواقع أن أياً من أشد خصوصه ، وفي أعنف المعارك التي خاضها ، لم يجرؤ على تكذيبه ، وواقع حاله ، مؤرخاً وفقهاً ، يدعم صدقه فيما يقول ، وتاريخ حياته شاهد على ما حدث به عن نفسه . ولم يكره ابن حزم في حياته شيئاً كما كره الكذب والكذابين ، وأدان هذه الحصلة اللئيمة بأعنف ما يملك من وسائل التعبير .

يقول عن نفسه : « وما أحببت كذاباً قط ، وإنى لأسامح في إخاء كل ذي عيب وإن كان عظيماً ، وأكل أمره إلى خالفه عز وجل ، وآخذ ما ظهر من أخلاقه ، حاشى من أعلمه يكذب ، فهو عندي ماح لكل محاسنه ، ومعف على جميع خصاله ، ومذهب كل مافيه ، فما أرجو عنده خيراً أصلاً ، وذلك لأن كل ذنب فهو يتوب عنه صاحبه ، وكل ذام فقد يمكن الاستئثار به ، والتوبة منه ، حاشى الكذب فلا سبيل إلى الرجعة عنه ، ولا إلى كتمانته حيث كان . وما رأيت قط ، ولا أخبرني من رأى ، كذاباً ترك الكذب ولم يعد إليه ، ولا بدأت بقطعة ذي معرفة إلا أن أطلع له على الكذب ، فحينئذ أكون أنا للقاصد إلى مجانبته ، والمتعرض لمشاركته » .

وهو يرتفع بالكذب إلى مرتبة الكفر ، بل إن شئت يرى الكفر شعبة من الكذب ، لأنه لإخبار عن الله بغير ما هو عليه ، ويورد ، على غير عادته ، الكثير من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، الدالة على فضل الصدق وبشاعة الكذب ، ويأتى بشواهد تاريخية ، ويعدد أفراداً شهروا بالكذب على أيامه . ويرى الواشى والناقل والنمام شر جميع الناس ، وإن النميعة لطيع يدل على نقيض الأصل ، ورداءة الفرع ، وفساد الطبع ، ونخب النشأة ، ولا بد لصاحبه من الكذب . والنميعة فرع من فروع الكذب ، ونوع من أنواعه ، وكل نمام كذاب . وهو أصل كل فاحشة ، وجاب كل سوء ، ولا يتف ابن حزم بدوره عند الأفراد ، وإنما يتجاوزهم ، في نظرة متقدمة ، ليدرك دوره في تدمير حياة الأمم والجماعات : « وما رأيت أخرى من كذاب ، وما هلكت الدول ، ولا هلكت الممالك ، ولا سفكت لدماء ظلماً ، ولا هتكت الأستار بغير النمام والكذب » .

ويفرق الناص بين الناصح والنمام ، وهما صفتان متقاربتان في الظاهر ، متعاونتان في الباطن ، أحدهما داء والآخرة دواء ، والثاقب القريحة لا يخفى عليه أمرهما . فليس ناقلًا من نبيه غافلاً ، أو نصيح صديقاً ، أو حفظ مسلماً ، أو حكى عن فاسق ، أو حدث عن عدو ، مالم يكن يكذب أو أو يتعمد للضغائن . « لكن الناقل من كان تنقله غير مرضى في الديانة ، وتوى به النشئيت بين الأولياء ، والضريب بين الإخوان ، والتحريش والتوبيش والرقيش » .

وهو رجل مجدد ، يكره التقليد ، ويعتد أن يسير في طريق سار فيه الآخرون ، ومن هنا كانت صرخته في بداية الكتاب : « دعني من أخبار الأعراب والمتقدمين ، فسدياهم غير مديانا ، وقد كثرت الأخبار عنهم ، وما مذهبي أن أنضى مطية سواء ، ولا أتحملى بحلى مستعار » .

وكان إحساس ابن حزم بطبقته واضحاً ، إذ تحدث عن أبيه ذكر : « أيام وزارة أبي ، أو إلى أن توفي أبي الوزير رحمه الله » ، « وأيام

دولتنا وامتداد ظلنا . . وعندما يعرض لواحد من أبناء الخلفاء بلحقها بقوله وهو صادق فيما يقول ، وكان لى صديقا ، وعندما يتحدث عن أبى عامر ، حفيد المنصور بن أبى عامر ، يقول : إن دارهم ملاصقة لدارنا ! ولأنه كان من أبناء الصفوة لم يهتم أبداً بالطبقة الدنيا فى قرطبة ، ولم يلق بالآلى حياة المستعربين أو المولدين ، أو الطبقات الشعبية باختصار ، ولم تنسرب إلى كتابه طوق الحمامة ، لفظة رومانسية واحدة . والمرة الوحيدة التى عرض فيها لواحد من غير طبقته كانت فى نهاية الكتاب ، فى الجامعة منه ، حين احتاج لمثل يضربه فى الصبر على المكاره ، وتحمل شظف العيش ، فذكر أن ميسورا البناء جارهم فى قرطبة ، يصبر عن الماء أسبوعين حمارة القبط ، ويكتفى بما فى غذائه من رطوبة . ومع ذلك فالبناء ، كبقية الحرفيين فى عاصمة الخلافة ، يقف على أكتاف الطبقة الدنيا ، ونحت أقدام الطبقة الوسطى ، يهرب من الأولى ، ونصده الثانية ، فلا ينسب واقعاً فى أى منهما .

وكان ابن حزم حفيهاً بالصدافة ، يرى فيها السند عند الشدة ، ورواء للروح لحظة البهجة ، أصدقاؤه لداته ، فى عمره ومن طبقته ، أبناء كبار الموظفين والبيوتات العريقة ، ومرت على قلبه ألوان منهم : هناك من عرفهم ، أو عرفوه ، شهرة وتراسلا ، فلما التقيا تأكدت بينهم المودة واتصلت وتمادت ، ومن كان له على ود أكيد ، وخطاب كثير ، وما تراءباً ، ثم منح الله له لقاءه ، فما هى إلا أيام قليلة حتى وقعت المنافرة عظيمة ، والوحشة شديدة ومتصلة . ومنها ما بدأ منافرة ووحشة وانتهى صداقة وودا ، كالذى جرى بينه وبين أبى عامر ، حفيد المنصور بن أبى عامر ، وكانت الكراهية شديدة بينهما فى البدء ، ولم ير أحدهما الآخر ، وكان أصل ذلك تنقبلاً يحمل إليه غنى ، وإلى عنه ، ويؤكد انحراف بن أبونا لتنافسهما فيما كانا فيه من صحبة السلطان ، ووجاهة الدنيا ، ثم وفق الله الاجتماع به فصار لى أود للناس ، وصرت له كذلك ، إلى أن حال بيننا الموت .

ولم يكن أصدقاؤه من معدن واحد ، في فترة قلقة سياسياً واجتماعياً ،
تهبط بالمرء في لحظات من العرش إلى اللحد ، وترتفع به من عامة الناس إلى
قمة المحد ، فمنهم من تغير مع الدنيا ، أقبلوا عليه حين كانت منه مقبلة ،
وأعرضوا عنه حين أدارت له ظهرها ، لقد اتصل به محمد بن وليد ،
وانقطع إليه حين كان أبوه وزيراً ، فلما اقتحم البربر قرطبة ، وتغيرت
الأحوال ، خرج محمد بن وليد إلى بعض النواحي ، واتصل بصاحبها ،
وعرض جأه ، وحدث له وجأه ، وحالة حسنة ، وحل ابن حزم تلك
الناحية في رحلة له ، فلم يوفه حمة ، وثقل عليه مكانه ، وأساء معاملته
وصحبته ، وكلفه حاجة فلم يقم فيها ولا قعد ، واشتغل عنها بما ليس
في مثله بشغل . ومن الوزراء من عرض جأه فأمسك عن ابن حزم ،
فلما ذهب أبامه ، وانقضت دولته ، عاد يبدى له من المودة والأخوة
غير قليل .

وكان يرغب في أن يكون أصدقاؤه معه ، إلى جواره ، في أي
المواقف يختار ، وعتب على أبي السري عمار بن زياد صديقه ، لأنه أكثر
من عدله في نحو نجاه ، وأعان عليه بعض من لأمه في ذلك للوجه ، ويعقب
ابن حزم على ذلك الموقف : « وكنت أظن أنه سيكون معي ، مخطئاً أو مصيباً ،
لو كبد صداقتي ، وصحيح أخوتي به » ، ولقد تمسك بالصدقة رغم كل
الهزات التي تعرض لها ، والتي جعلت جانباً من الذين أحاطوا به ينفضون من
حواله ، نجا بأنفسهم أو تقيّة أو بحثاً عن الجاه والمغانم ، وكان يأخذ من أصدقاؤه
ما ظهر له من أخلاقهم ، فلا يلتصق بهم عيباً لا يراه ، ولا يؤاخذهم بنقصه
لا تمسه ، وبحسن الرأي فيهم دائماً ، متمثلاً بقول عمر رضى الله : « ضع
أمر أخيك على أحسنه ، حتى يأتيك على ما يغلبك عليه » . ويبقى على أمرارهم
معه ، حتى ولو جاءت الظبيعة ، وسقطت المئونة ، وأفشى صاحبه بما يعرف
من أمرار عنه .

كان أبو بكر محمد بن إسحاق أظهر أصدقاء ابن حزم ، ويتردد في

صفحات الطوق كثيراً، ويروى عنه ابن حزم عدداً من الأحاديث والأقاصيص ،
 ويدعوه دائماً : « صاحبي » ، وكان أبوه فيما يبدو ، مثل والد ابن حزم ،
 من وزراء المنصور ، ولا نجد له في كتب التراجم ، التي بين أيدينا ، غير
 سطرين خصهما به الضبي في كتابه « البغية » ، وإليه توجه ابن حزم برسالته :
 « فضائل أهل الأندلس » ، وفيها يناديه : « أما بعد ، يا أخى أبا بكر ،
 سلام عليك سلام أخ مشوق طالبت بينك وبينه الأميال والفراسخ ، وكثرت
 الأيام والليالي ، ثم لقيك في حال سفر ونقلة ، ووادك في خلال جولة ورحلة ،
 فلم يقض من مجاورتك أرباباً ، ولا بلغ في محاورتك طلباً . . » وقد صاحب
 ابن حزم في هجرته من قرطبة مضطهداً ملاحقاً ، حينما اقتحم البربر العاصمة
 ونهبوها ، ومعهما صديق ثالث لهما ، أبو عامر الذي أشرنا إليه من قبل ، وكان
 ثرياً وجيهاً ، شريفاً ونبيلاً ، تضرب به قرطبة المثل في الملاحة فيقال : « أجل
 من وجه أبي عامر » . ويقص علينا ابن حزم في الطوق مشهداً إنسانياً مؤسماً
 ومؤثراً : لقد فر الثلاثة بحياتهم وحررتهم من قرطبة ، ثم استقر بهم المقام
 في مالقة ، وفي هذه المدينة آثر ابن أبي عامر أن يرحل إلى شرق الأندلس ،
 وتخلف أصحابه فيها يدبران أمرهما ، ولحظة الفراق وقفا على شاطئ البحر
 الأبيض بلوحان له مودعين ، وفي أعماق كل منهما ، والحوادث الهوج
 تعصف بالأندلس ، أنهما لن يرياها ثانية ، فجعل أبو بكر يبكي لحظة وداعه
 وهم وقوف على ساحل البحر ، ويردد بيت أبي عطاء السندی متعملاً :

ألا إن حيناً لم تجد يوم واسط عليك بباقي دمعها لجمود

وجعل ابن حزم يكثر التفجع والأسى ، وعينه لا تساعده ، فأجاب
 أبا بكر ببيت له ارتجله :

وإن أمراً لم يفن حسن اضطباره عليك وقد فارقه لجليد

وكان ابن حزم شحيح الدمع ، وبعلل ذلك بأنه أصيب بخفقان في القلب ،
 فأدمن على السكندر ، فإذا عرضت له المصيبة الفادحة تفطر قلبه ، وفاض

بغصة أمر من العلقم ، تحول بينه وبين توفية الكلام حق مخارجه ، وتكاد تشوقه نفسه أحياناً ، والكن عينه لا تستجيب له أئنة إلا في الندرة ، بالشيء اليسير من الدمع .

وابن حزم رقيق الإحساس ، سريع التأثر ، بهي الشكل الجميل ، أو الصورة الحسنه فيما يقول ، وبهي جيداً ما يحدثه في الأرواح من هزة ، وما يثيره في النفوس من رجة ، لأن النفس الحسنه تواع بكل شيء حسن . ويرى في إثارة الجمال سلطاناً لا يقاوم . والقرآن الكريم يحدثنا عن افتتاح المصريات بالجمال الذي كان عليه يوسف ، وما أحدثه في أعماقهن من أثر . لقد راودته امرأة عزيز مصر ، « التي هوى في بيتها عن نفسها ، وغلقت الأبواب وقالت : هيت لك ، قال : معاذ الله إنه ربي ، أحسن مثواي » ، « ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه » ، وشاع خبرهما ، « وقال نسوة في المدينة : امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسها ، قد شغفها حباً ، إنا لنراها في ضلال مبين . فلما سمعت بمكرهن ، أرسلت إليهن ، وأعتدت لهن متكأ ، وآتت كل واحدة منهن مكيئتها ، وقالت أنخرج عليهن ، فلما رأينه أكبرنه ، وقطعن أيديهن ، وقنن : حاش لله ، ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم » .

ولقد عاش ابن حزم في بيئة عامرة بالصبايا الجميلات ، وأحب في سن مبكرة للغاية ، صبا قلبه ولما يتجاوز الخمسة عشرة من عمره ، وكان في حبه غريباً عصرياً للغاية ، يتميز عن الروح الشرقي والعربي تعاماً ، فلا يؤمن بالحب مع النظرة الأولى ، ويعجب ممن يدعى أنه يحب من نظرة واحدة فقط ، ولا يكاد يصدق ، ويجعل مثل هذا الحب ضرباً من الشهوة ، لا ينفذ إلى حجاب القلب ، ولا يتمكن من صميم الفؤاد ، فالشهوة تسقط على المرء مع أول نظرة ، والحب يحتاج إلى زمن ومعاينة وفهم متبادل ، ويقول عن نفسه معترفاً : « مالصق بأحشائي حب قط إلا مع الزمن الطويل » . فلا شهوة تعدد باختلاف ما تقع عليه العين من أشكال الجمال ، والحب

متوحد دائماً ، فإذا رأيت من يحب اثنين في الوقت الواحد ، فاعلم أنها الشهوة ، تسمى على المحازحياً .

والتمفرقة بين الحب والشهوة نظرة عصرية للغاية ، وما زال في ذهني صور من أيامنا الأولى في إسبانيا ، عرب وشرقيون ، نطل على عالم جديد لم تكن لنا به صلة من قبل ، اللقاء فيه سهل ، والاختلاط متاح ، والحلوة ممكنة ، وإذا بالواحد منا يقول لأول فتاة جميلة يلقاها : إنني أحبك . وتنظر إليه في دهشة : كيف وما النقيض إلا منذ ساعات ؟ تقصد تشهيني ؟ ، ذلك شيء مختلف . ولم تكن قد قرأنا ابن حزم بعد ، لأن أحداً لم يهتدنا إليه في دراستنا ، لم يشر به أحد علينا ولو كصديق نقرأه أو نعود إليه في أبحاثنا ، ربما لأننا مع التخلّف نراه كتاباً لا يصح أن يقرأ ، ولأن أحداً لم يعرفني به قبل أن أذهب إلى إسبانيا دارساً ، لم أكن أعرف أن ما قالته لي أول فتاة إسبانية عرفتها ، قاله ابن حزم قبلها بما يزيد عن تسع مائة عام .

وما من ضرورة تدعو إلى أن يهرب المحب بأشواقه ، أخوف أن يعم نفسه بهذه السمة عند الناس ، لأنها بزعمه من صفات أهل البطالة ، يفر منها ويتفادى ، وليس هذا بصحيح ، فبحسب المسلم أن يعرف عن محارم الله عز وجل التي بأنّها باختياره ، وبحسب عليها يوم القيامة ، وأما استحسان الحسن ، وتمكّن الحب ، فطبع لا يؤمر به ولا ينهى عنه ، إذ القلوب بيد مقلبيها ، ولا يلزمه غير المعرفة والنظر في فرق ما بين الخطأ والصواب ، وأن يعتقد الصحيح باليقين ، وأما المحبة فخلق ، وإنما يملك الإنسان حركات جوارحه المكنسية . ولم نجد ابن حزم حرجاً في أن يعرف بعدد من غرامياته ، على غير ما هو معمول في أيامه وما بعدها ، وحتى يومنا هذا . حدثنا عن حبه لنعم ، جاريته الشفراء ، أكثر من مرة ، مصرحاً باسمها تارة ، أو مفهماً أخرى ، ومن خلال قصائده أحياناً وبدأ حياته العاطفية معها في سن مبكرة ، وكانت فيما يبدو لي أول من أحب ، وأصبحت الفتاة امرأة على يده ، فيما يقول عن نفسه : وكنت

أبا عنذرهما!! ، وتكافأت المحبة معه ، وتركت في أعماقه ذكريات لا تنسى ،
وز صد بأخرى زمناً طويلاً ، ولم ينته حبه إلى غاية ، وخشى مع الثالثة
أن يقع في مهاوى الفتنة فأمسك عن التردد على بينهم .

وأعطانا ، خبيراً ، ومجرباً ، صورة دقيقة للسعادة التي تغمر أعطاف
المحب الناجح ، وما في الدنيا حالة تعدل محبين إذا عدما الرقباء ،
وأمنوا الوشاة ، وسلموا من البين ، ورغبوا عن الهجر ، وبعدوا عن الملل ،
وفقدوا العدل ، وتوافقوا في الأخلاق ، وتكافوا في المحبة ، وأتاح الله
لهما رزقاً داراً ، وعيشاً قاراً ، وزمناً هادياً ، وكان اجتماعهما على ما يرضى
الرب من الحال ، وطالت صحبتهما ، وانصلت إلى وقت حلول الحمام
للذي لا مرد له ، ولا بد منه ، ولقد وطئت بساط الخلفاء ، وشاهدت
محاضر الملوك ، فما رأيت هيبة تعدل هيبة محب لمحبوبه ، ورأيت
تمكن المتغلبين على الرؤساء ، وتحكم الوزراء ، وانبساط مدبري الدول ،
فما رأيت أشد تبجحاً ، ولا أعظم سروراً بما هو فيه ، من محب أبقن
أن قلب محبوبه عنده ، ووثق بيمانه إليه ، وصحت مودته له .

ويدعنا نفهم دون مواجهة ، وفي غير مواربة ، أن حبه ليس عندياً
وكلمة عندي لا ترد على امتداد كتابه ولا مرة واحدة ، وليس فاجراً في
الوقت نفسه ، ولقد اعترف بأنه بلغ مع نعم غايته ، وكان في غرامياته نهماً
لا يتوقف عند حد ، يقول :

« مارويت قط من ماء الوصل ، ولا زادني إلا ظمأ » ، ولقد بلغت
من التمكن بمن أحب أبعد الغايات التي لا يجد الإنسان وراءها مرقى ، فما
وجدتني إلا مستزبداً ، وحين يكون مع من يحب لا يحول بخاطره فن من
فنون الوصل ، إلا وجدته مقصراً عن مرادى ، وغير شاف وجدى ، ولا قاض
أقل لبانة من لباناني ، ووجدتني كلما ازدددت دنواً ازدددت ولوعاً ،
وقد حث زناد الشوق نار الرجاء بين ضلوعي . ويرى التوافق في ممارسة
الحب يقويه ، « إذ الأعضاء الحساسة مسالك إلى النفوس وموئدات نحوها » .

ويرد العفة إلى أسباب موضوعية ، إلى طبع يعميل بالرجل أو المرأة إلى غير هذا الشأن ، وامتنحكمت معرفته بفضل سواء عليه ، فهو لا يجيب دواعي الغزل في كلمة ولا كلمتين ، ولا في يوم ولا في يومين . ولو طال على هؤلاء الممتحنين ما امتحنوا به الجادات طباعهم ؛ وأجابوا هاتف الفتنة ، ولكن الله عصمهم بانقطاع السبب المحرك . وإما بصيرة حضرت في ذلك الوقت ، وخاطر تجرد انقمعت به دواعي الشهوة .

ويقرر حاسماً وصريحاً : « وبالجملة فإني لا أقول بالمرأة ، ولا أنسك نسكاً أجمعياً ، ومن أدى الفرائض للأمور بها ، واجتنب المحارم المنهى عنها ، ولم ينس الفضل فيما بينه وبين الناس ، فقد وقع عليه اسم الإحسان » . ورأى ابن حزم أن يقطع السبيل على كل راغب في النيل منه ، أو متخذاً من اعترافه سبيلاً إلى آثامه ، فكان بيانه القاطع : « يعلم الله ، وكفى به علماً ، أني برىء الساحة ، سليم الأديم ، صحيح البشرة ، نقي الحجرة ، وإني أقسم بالله أجل الأقسام أني ما حللت مثزرى على فرج حرام قط ، ولا يحاسبني ربي بكبيرة الزنا ، مذ عقلت إلى يومي هذا » .

وكان ابن حزم يحترم أسرار الناس ، أو ما نسميه في عصرنا بالحياة الخاصة للآخرين ، فلما كلفه صاحبه أن يكتب له في الحب ، وأدرك أن ذلك يحتاج إلى أمثلة وشواهد يلتقطها مما رأى بعينه ، وأدرك بنفسه ، وحده به الثقات من أهل زمنه ، لم يترك نفسه على سجيته في رواية الأحداث ، لأنها تمس الجانب الشخصي للبحث من حياة الناس ، وهو ملك لأصحابه وحدهم ، ليس من حق أحد أن يشاركهم فيه ، أو يطل على داخلهم منه ، ويربأ بالحياة الخاصة لرجال الدولة ، من الأمراء والخلفاء مما يتفردون به في قصورهم مع عيالهم ، أن تكون مجالاً للقول . ولكنه ذكر من لا ضرر في تسميته ؛ ولا يلحقه والمسمى عيب في ذكره ، إما لأن الخبر ذاع واشتهر فطيه لا يغني عنه شيئاً ، أو لأن الخبر منه راض بظهور خبره ، غير منكراً لنقله ، أما الآخرون فقد أكنى عنهم ، لأن في ذكرهم

عورة لا يستجيز كشفها ، أو لأتباعها صديقاً ودوداً ، أو رجلاً جليلاً .

وهو يقدر معن الله من العاطفية ، ويردنا مثلاً ، وقد يذكر معها أسماءهم ، ولكنه لا يشترط فيهم ، ولا يجدها وسيلة للنيل منهم ، والواع في أعراضهم ، أو النظر عن عيبهم بالصالح والفتى ، ويورد قصص أولئك الذين اشتهرت بهم عواطفهم ، يشتمون صورة الجمال الكامل في وجوه الغلمان ، فلا يرفع في رجوعهم صورة الفارع ، أو يلاحظهم بالنسب القارص ، ولا يزياد قوله عن : وعنه الله عن الجميع .

ويقيم ابن حزم على الوفاء لمن عرف ، ويعمد لأصحابه حبيل الود وإن أساءوا إليه ، أو قابوا له ظهراً الخن ، ويمن إلى كل عهد تقادم حتى ليغصه بالطعام ، ويشرقه بالماء ، ولا يمل شيئاً إذا عرفه ، ولا يسرع في أنسه مع أول لقاء ، ولا يميل إلى استبدال ما يآلف من الأخوان ، أو الأشياء من مركوب ومطعم ، وراثته المبادرهم في بلاط مغيب ، وقد أخبر بانتهاب البربر لها ، مثال صادق لهذا الشعور ، إلى ما فيه من تصوير دقيق للمنازل آل حزم ، وما آلت إليه . وما تعكس من حنين جارف وارتباط بالمكان . ويرى الوفاء فضيلة يزهو بها : « تقدم منحنى الله عز وجل من الوفاء لكل من تمت إلى بالمية واحدة ، ووهبني من المحافظة لمن يتدغم منى ولو بمحادثته ساعة حظاً . ويقع فراق الأجابة من نفسه موقفاً أليماً ، ويعترف : « ما انتفعت بعيش ، ولا فارقت الأطراف منذ ذقت طعم فراق الأجابة ، وإنه لشجى يعتادني ، وواع هم ما ينفك بطرقتي ، ولقد نغص تذكرى ما مضى كل عيش أستأنفه . » وإذا نهي إليه من يحب ، وواجه الفراق الأبدى ، وكان نازحاً وحيداً ، فرب نفسه إلى المقابر بمشى بينها ، ويتعزى بأبيات من الشعر يترنم بها .

وظل يعاني مما يفرضه عليه الوفاء ، مما يصطدم أحياناً بعزة نفسه ، واحترام ذاته وكرامته ، « وعنى أخبرك : أنى جبت على طبعين لا يهتني

معهما عيش أبداً ، ولانى لأبرم بحياتى باجتماعهما ، وأود التثبت من نفسى
أحياناً ، لأفقد ما أنا بسببه من النكد من أجلهما ، وهما : وفاء لا يشوبه
تلون ، قد امتوت فيه الحضرة والغيب ، والباطن والظاهر ، تولده الألفة
التي لم نعزف بها نفسى عماد ريته ، ولا نتطلع إلى عدم من صحبته . وعزة
نفس لا تفر على الضيم ، مهتمة لأقل ما يرد عليها من تغير المعارف ، مؤثرة
للموت عليه ، فكل واحدة من هاتين السجينتين تدعو إلى نفسها ، ولانى
لأجفى فأحتمل ، واستعمل الأناة الطويلة ، والتلوم الذى لا يكاد يطيقه أحد ،
فإذا أفرط الأمر ، وحميت نفسى ، نصبرت .

وما شئ أثقل على نفس ابن حزم من الغدر ، ولعمري ما سمحت
نفسى قط - فى الفكرة فى إضرار من بينى وبينه أقل أقدام ،
وإن عظمت جريرته ، وكثرت إلى ذنوبه ، ولقد دهمنى من هذا
غير قليل فما جزيت على السوءى إلا بالحسنى .

وابن حزم واسع الصدر فى القضايا العلمية والاجتماعية ، عند
الحوار ، يناقش ويدلى برأيه ، ويسمع وجهة نظر معارضه ، لا يضيق
بها ، ولا يفقد هدوءه بإزاء محدثه ، يفاتش أبا عبد الله من أهل القيروان ،
وكان طويل اللسان جداً ، مثقفاً للسؤال فى كل فن ، أبام كان لاجئاً فى
المرية ، حول الحب ومعانيه ، وماذا يصنع محب كره المحبوب لقاءه ،
وتجنب قربه . يرى ابن حزم : « أن تسعى فى إدخال الروح على نفسك
ب لقاءه وإن كره . ويرى أبو عبد الله : « بل أوتر هواه على هواى ،
ومراد على مرادى ، وأصبر ولو كان فى ذلك الخيف . وبمضى
الحوار على النحو الذى أورده ابن حزم فى الطوق ، عالم قرطبة يقف على
أرض صابة من الواقع ، وأدب القيروان ينشبت بما هـ - ونظرى ومن
صنع الخيال ، ويفقد صبره فى مواجهة ابن حزم ، وبصبح به : « أنت
رجل جدلى ، ولا جدل فى الحب .

وكان ابن حزم يفرق بين الصلات الشخصية ، والخلافات الفكرية

والعقائدية ، لقد تعرف خصال إقامته بالمربية على طبيب يهودى ، يدعى إسماعيل بن يونس ، وتعود أن يختلف إلى دكانه ، ويصف اليهودى بأنه كان بصيراً بالفراسة محسناً لها . وأثبت أشك في أنه تعرف بها إلى يهود آخرين ، فقد كانت المربية فى تلك الفترة من التاريخ ، أى النصف الأول من القرن الحادى عشر ، موطناً لحركة ثقافية وأدبية مزدهرة ، وموطناً لليهود كثيرين ، علماء وأغنياء . وأرجح أنه تعرف فيها إلى صمويل ، أو إسماعيل ، بن النغلة ، قبل أن تؤمنه مواهبه العالمية لأن يصبح وزير باديس بن حبوس أمير غرناطة . وسيطر على مصائر الدولة دونه ، ثم يورثها ابنه يوسف من بعده ، فيثير جمهرة المسلمين بحمقه وتحديه واستهتاره ، فتأتى عليه وعلى نفوذ اليهود ثورة عارمة ، لعب الشعر فيها دوراً رئيسياً (١) . وقد وقف ابن حزم موقفاً متشدداً من اليهود ، حين طما طغيانهم السيامى ، وتجاوزوا أحد الأدب فاستطالوا على المسلمين ، واستباحوا مقدساتهم ، وناقش اليهودية كعقيدة وواعياً عنيفاً ، وأميل إلى أن بداية دراسته لليهودية بدأت فى هذه المرحلة من حياته .

وكان له فى المرأة رأى عرضنا له من قبل ، ويعرف ابن حزم للأستاذية جلالها وقدرها ، فلا يتحدث عن أبى القاسم عبد الرحمن بن أبى يزيد المصرى ، إلا وأردف قائلاً : أستاذى .

وبرئ ابن حزم من عادة الشراب ، وكنت شائعة على أيامه ، ووجد كثيرون مندوحة لهم فى المذهب العرافى ، وأوجز ابن عبد ربه اتجاههم فى بيته الشهير :

ديننا ، فى السماع ، دين مدينى ، وفى شربنا الشراب عرافى
وجاء رفضه له عرضاً حين تحدث عن مذهب الشعراء المحددين فى ذم
البكاء على الدمي ، والثناء على اللذات ، وأن الحسن بن هانى ، أبانواس ،

١ - أنظر : غرضية غوث ، مع شعراء الأندلس والمتنبي ، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكي ،
صفحة ١١٧ زما بعدها ، القاهرة ١٩٧٤ .

أكثر في هذا الباب وافتخر به ، « وهو كثيراً ما يصف نفسه بالغدر الصريح
في أشعاره ، تحكماً بلسانه ، واقتداراً على القول » . ثم يشجذ ابن حزم
قريحته بأبيات على مذهب أبي نواس فيقول :

نخل هذا ويادر الدهر وارحل في رياض الربى مطى الغفار
واحدها باليديع من نغمات الـ عود كجا تحث بالمزمار
إن خيراً من الوقوف على الدا ر وقوف للبنان بالأوتار
وبدا الزجس البديع كصب حائر الطرف ماثلاً كالمدار
لونه لون عاشق مستهام وهو لاشك هائم بالبحار

ويعقب على هذه الأبيات بقوله : « ومعاذ الله أن يكون نسيان ما درس
طبعاً لنا ، ومعصية الله بشرب الراح لنا خلقاً ، وكساد الهمة لنا صفة ...
ولكن شدوذ القائل للشعر عن مرتبة الشعر خطأ » . والحق أن الطوق عرض
لألوان من الحب مقبولة وشاذة ، حلالة ومحرمة ، ولكن حديث الشراب
ومجالسه وألوانه لا ترد فيه أبداً .

المرأة في قرطبة

من خلال طرق السمامة

مع قلة الوثائق وغيبة الشواهد تختلف الآراء حول المرأة الأندلسية اختلافاً بيناً ، وفي دوائر المستشرقين بخاصة ، لأن أبحاث الدارسين العرب في مجال الأندلسيات لما تنزل محدودة ، وقليل جداً بينها من يقول شيئاً نافعاً ، أو يضيف إن ما نعرف جديداً ، لأن الاهتمام بالأندلس ، تاريخه وحضارته وأدبه ، جاء متأخراً ، والقائمون عليها الآن ، وهم قلة ، أمامهم سنوات مضنية من العمل ، لكني يزيحوا عن هذه المنطقة من تراثنا غبار الإهمال ، ويعبدوا أمام الأجيال القادمة طرائق البحث ، من نشر المخطوطات ، وتوفير المصادر ، ودراسة اللغة الإسبانية ، وكل تخصص في مجال الأندلسيات دون التمكن منها ، ثماره عقيمة ، وحظه من النجاح محدود .

حاول المستشرقون إذن أن يدرسوا وضع المرأة الأندلسية ، وبذلوا جهوداً طيبة ، وقد أختق بعضهم : على ما سنعرف ، في جانب من آرائه ، قليل أو كثير ، لأن عقدة التعالي على العرب ، أو البغض للإسلام ، كانت تحكم أبحاثه . وضل الطريق آخرون ، لأن دلالات النصوص البعيدة ، والتي تعتمد على تدقيق اللغة ، وإدراك الدروق الدقيقة بين معاني الألفاظ المختلفة ، كانت تغفل منهم ، وهو شيء طبيعي ؛ فأدى بهم ذلك إلى أحكام خاطئة وجائرة أحياناً ، ولكنهم في كل الأحوال أسندوا إلى هذا التراث بدا ، يستحقون عليها أن نقول لهم شكراً ، ومن عمل وأخطأ ، خير ممن لا يعمل شيئاً على الإطلاق .

ليس في نيتي ، ولا بإمكانني أيضاً ؛ أن أتبع آراءهم جميعاً ، ولكني سوف أحاول أن أعطي صورة لهذه الاتجاهات المختلفة ، في خطوطها العامة ، موجزة نعم ، ولكنها كافية لكي نعرف كيف يفكرون في هذا الجانب ، وأين نفخ منهم .

كان المستشرق الألماني ، البارون فون شاك Von Schack أول من تحدث في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في كتابه : « شعر العرب وفنهم في إسبانيا وصقلية Poesie und Kunst der Araber in Spanien und sicilien » وصدرت الطبعة الأولى منه في برلين عام ١٨٦٥ م ، عن المرأة الأندلسية ، وجاء حديثه عنها كققدمة للفصل الرابع من الكتاب ، وأوقفه على دراسة شعر الغزل في الأندلس ، وانتهى فيها إلى « أن وضع المرأة في إسبانيا كان أكثر رراً عما كان عليه في بقية الشعوب الإسلامية الأخرى ، فأسهمت بمجهداتها في كل ألوان الثقافة المعروفة على أيامها ، وليس بقليل عدد أولئك اللاتي بلغن شهرة واسعة لدورهن في مجال العلم ، أو مزاحمتن الرجال في قرص الشعر : وفي ظل هذه الحضارة الراقية بلغن في إسبانيا احتراماً لم تعرفه المرأة أبداً في المشرق الإسلامي . فعلى حين أن الحب هناك ، باستثناء حالات نادرة ، ينهض على الشهوة ، كان هنا ينطلق من تعاطف رومى عميق ، وعلاقة نبيلة بين المرأة والرجل ، وكثيراً ما كانت عبقرية المرأة وثقافتها أشد جاذبية للعاشقين من جمال جسمها وسحر مفاتها ، وعادة يكون الميل المشترك إلى الشعر أو الموسيقى الخيط الرفيع الذي يربط بين قلبين عاشقين » .

ثم جاء المستشرق الإسباني الجليل خوليان ريبيرا (١٨٨٧ - ١٩٢٧ م) فعرض لجانب من قضية المرأة ، في بحثه الذي ألقاه في المجمع الملكي الإسباني : عند اختياره عضواً فيه عام ١٩١٢ م ، وكان عن « ديوان ابن قزمان » : ولم تكن المرأة موضع دراسته بدءاً ، وإنما عرض لها عند حديثه عن اللغة التي كان يتكلمها سكان الأندلس ، وهو أول من اكتشف بين الباحثين المحدثين أن الأندلسيين كانوا يتكلمون لغتين عاميتين مختلفتين معاً ، العربية والرومانشية ، وإذا نحينا المبالغات التي شابت بحثه ، وكان فيه رائداً ، وتحكمه حماسة مخلصه وصادقة ، فإن النتائج التي انتهى إليها كانت فتحاً جديداً في عالم الأندلسيات .

تحدث ريبيرا عن دور المرأة البالغ الأهمية في أسبنة المسلمين القدامين من

المشرق أو من شمال إفريقيا ، وفي إشاعة اللغة الرومانشية والإبقاء عليها ،
والحفاظ على الخصائص البيولوجية الإسبانية ، والتقاليد التي كان عليها الإسبان
قبل الفتح الإسلامي بعامه ، وفي مجال الحياة العاطفية والأميرية على نحو خاص .
لقد جاء العرب أو البربر جنوداً فائزين ، أو أفراداً مهاجرين ، وتزوجوا
في الأندلس من نساها ، جواري أو حرائر ، وفي كل الأحوال كن ينحدرون ،
في الأعم الأغلب ، من أصول إسبانية ، ونشأ أولادهم هجاء في بيت مختلط ،
يعيشون طفولتهم على الأقل في مناخ إسباني . ويمضي ريبيرا بعيداً مع فكرته
لينتهي بها إلى أن العرب القادمين إلى الأندلس فقدوا خصائصهم السلالية
كجنس سامي ابتداء من الجيل الثالث ، واتخذ من الأمويين أمراء الأندلس
وخلفائه مادة لتحليله ومثلاً .

ولأحد يشك ، فيما يقول ، أن الأمراء الأموية التي استولت على الإمارة
في إسبانيا تنسب إلى أعرق الأصول العربية ، وإذا حاول متخصص في علم
الأنساب أن يقيم نسباً لهشام الثاني المؤيد فسيلتقي بقائمة طويلة من الأسماء
العربية . إلى أن يبلغ بها أكرم القبائل وأعرقها في الجزيرة العربية ، بل
وسوف تتصل بنسب الرسول عليه السلام ، فهو هشام الثاني ، ابن الحكم
الثاني المستنصر ، ابن عبد الرحمن الثالث الناصر ، ابن محمد ولم يتول الإمارة ،
ابن عبدالله ، ابن محمد الأول ، ابن عبد الرحمن الثاني ، ابن الحكم الأول ،
ابن هشام الأول ، ابن عبد الرحمن الأول الداخل ، ابن معاوية بن هشام
ابن عبد الملك بن مروان ، حتى نهاية السلسلة ، أي أننا إذا نظرنا إلى هشام
الثاني المؤيد من خلال نسبه الأبوي فحسب ، وجدناه عربياً خالص النسب
تماماً .

ولكن الطبيعة تسلك طريقاً آخر غير طريق الزهو الإنساني ، لأن أي
وليد ليس نتاج أبيه فحسب ، وإنما لأمه نصيب منه أيضاً ، ونصيب أكبر
بالتأكيد ، لأنها حملته في بطنها تسعة أشهر وأرضعته عشرة . ولو أعددنا سلسلة
النسب من جانب الأم ، لخرجنا بالطبع آخر مختلف للغاية .

« نحن نعرف يقيناً أن كل الأمويين الذين تولوا الإمارة في الأندلس ينحدرون من أمهات عشيقات أو جوار ، أى من نساء لسن من أصل عربي ، وطبيعي ألا تولد الجوارى من السلالة الحاكمة ، وإنما بين السلالات المغلوبة ، من الشعوب التي فتحها الإسلام : كان عبد الرحمن الأول الداخل ، ابناً لجوارية بربرية ، وهشام ابنه ولداً لجارية إسبانية ، أهدتها إلى أبيه ابنة يوسف الفهري ، وعلى هذا النحو نلتقي بهم جميعاً ،

« وإذا أردنا أن نحدد للعنصر السلالي بطريقة رياضية ، وأخذنا في اعتبارنا جانب الأم ، أضفنا إليها ما يعادلها من جانب الأب ، نجد أن نصف عبد الرحمن الداخل كان بربرياً والنصف الآخر عربياً ، هذا إذا افترضنا نقاء سلالة السابقة تماماً ، وبلغت الأرقام يصبح ٥٠٪ منه عربياً ، و ٥٠٪ منه بربرياً ،

« وابنه هشام الأول ابن جارية غير عربية ، فيه ٥٠٪ من سلالة أمه ، و ٢٥٪ من بربرية أبيه و ٢٥٪ فحسب كل ما تبقى له من العروبة .

« وإذا مضينا مع أحفاده على هذا النحو ، فس نجد أن الحكم الأول ليس فيه من العروبة إلا ١٢,٥٪ ، وعبد الرحمن الثاني ٦,٢٥٪ ، ومحمد ٣,١٢٪ ، وأخوته المنذر وعبد الله ١,٥٦٪ ، ومحمد ولم يتول الإمارة ، ٠,٧٨٪ ، وعبد الرحمن الناصر ٠,٣٩٪ ، والحكم المستنصر ٠,١٩٪ ، فإذا وصلنا إلى هشام المؤيد تهبط بنا النسبة إلى ٠,٠٩٪ ، أى أن نسبه يحفل بالأسماء العربية ، أما إذا درسنا الأمر رياضياً فليس فيه من السلالة للعربية ما يصل إلى المليم جرام واحد .

وقد تساءل خوليان ريبيرا عن السلالة التي ينتمى إليها الأمويون في ضوء نظريته هذه ، فدرس في أناة وثائق بيع الرقيق ، ووجد أن الغالبية العظمى بينهم من شمال إسبانيا ، من غاليسية ، أو جليقية في المصادر القديمة ، أو من مقاطعة ليون ، أو من أشتورياس ، أو من قطلونية ، وانتهى إلى أن هؤلاء الأمويين كانوا ، طبقاً لنظريته السابقة ، إسبانيين دماً ، ولم لا ؟ ألم يكن

عبد الرحمن الناصر أحمر الوجه ، أشقر الشعر ، أزرق العينين ؟ !

وهي دراسة فيها الكثير من المتعة ، ومن رياضة الذهن ، ولكنها تبسط الأمور بأكثر مما يجب ، ومما تجعل ، وتعمل من التفضايا الاجتماعية المعقدة المشابكة شيئاً ذهنياً مجرداً ، كما لو كانت لعبة شطرنج أو تمارين هندسية . من الذي قال - مثلاً - إن الإبن يأتي إلى الدنيا حاملاً من خصائص أمه وأبيه نسبة متساوية ، ٥٠٪ لكل منهما ؟ . ليس هناك قاعدة علمية واحدة تحكم هذه الظاهرة ، فيما أعلم ، والذي أعرفه أن الطفل يأخذ من أبيه ومن أمه بنسب متفاوتة ، أحياناً ، إلى حد كبير . لصالح الأب أو لصالح الأم ، وأحياناً تعود به هذه الخصائص ، من لون العينين ، وطول القامة ، وشكل الوجه ، وأشياء أخرى جسمية أو نفسية ، إلى أفراد سبقوا في نسبة الأموى أو الأبوى ، دون أن يكون في أبيه أو أمه شيء مما فيه . ونعرف أن المناخ الاجتماعى بجنونه المختلفة ، والظروف الطبيعية في مظاهرها المتعددة ، تلعب دوراً هاماً في حقل هذه الخصائص وتطورها ، حتى البيولوجى منها .

نحن إذن مع شوليان ريبيرا في الدور الذى لعبته المرأة الإسبانية ، بوصفها هذا ، في مجال الحياة الأندلسية ، وكان واضحاً ومقدراً ، لكننا لانتابعه في لعبة الأرقام التى اعتمد عليها ، وأدارها في مهارة ، وسذاجة في الوقت نفسه ، لأن العلم والشواهد التاريخية ، والظواهر النفسية والاجتماعية ، تقف في الجانب المقابل منها .

أما سانفشيث البرنس فيصدر في دراساته لتاريخ الأندلس ، وهي كثيرة وعميقة ومتنوعة ، عن روح قوى متشدد ، يفضل معه أحياناً جادة للصواب ، ولست أريد أن أعرض لكل ما قال ، ودراساته تقوم على أن المسلمين جاءوا الأندلس خلواً من كل شيء ، وأن الذين كانوا يقيمون على بطحاء شبه الجزيرة الإيبيرية قبل مجيء المسلمين ، ورتبهم أرقى ثقافة وعادات وتقاليدها ، هم الذين أعطوها الصورة الوضيفة خمارها المزهرة والراقية ،

وبحسبي أن أشير إلى كتاب محدود الحجم بين دراساته ، نافع ومفيد ، وزجمه بمصادر لا حاد لها تتجاوز مادة الكتاب نفسها ، عن « إسلام إسبانيا والغرب (El Islam de Espanay el Occidente) » ، ونشره تحت صور مختلفة ، وآخر طبعة له فيها أعلم صدرت في مدريد عام ١٩٧٤ ، في السلسلة الثقافية الشهيرة : « مجموعة أو سترال » ، التي تصدرها دار « إسباسا كالي » ، وكان قبلها محظورا على الناشرين في إسبانيا ، أن يطبعوا أو ينشروا له شيئا ، لأنه جمهوري ، وكان رئيس حكومة الجمهوريين في المنفى .

تدور مادة الكتاب كلها عن إسبانيا ما قبل الإسلام ، وما أسهمت به إسبانيا الإسلامية في مجال الثقافة والمعمار والموسيقى في إنهاض أوروبا والعالم المسيحي في الغرب ، ولن أقف عند هذا كله ، لأنه خارج عن نطاق القضية التي أعرض لها هنا ، إنما يهمني منه إشارته إلى قضية المرأة في الأندلس ، ويعرض لها قليلا ، وإشاراته إليها عابرة ، ولكنه يأتي بها في صورة قاطعة ، وهنا موضع للخطورة . فهو يرى أن الأندلسيين « كانوا يتيحون للمرأة حرية فريدة في خروجها للشارع » ، من الصعب ربطها بالعادات الإسلامية ، والدليل عليها ما أورده ابن حزم في كتابه « طوق الحمامة » ، وروايات تاريخية أخرى معروفة ، فهم يحترمونها ويضعونها موضع التقدير ، وكلاهما إرث إسباني خالص . وقد أشار هنري بريس إلى موقف المرأة المسلمة المتميز بالنسبة للمرأة المشرقية ، وبلغ الأمر بلفي يروفسال أن صرح بأنهم كن في أيامهن تلك ، على نحو ما يعترف به لمن اليوم في المغرب الأقصى ، بين البيوت الإسلامية ذات الأصل الإسباني ، من حق مشاركة الرجل في كل تصرفاته ، وكما بلغ التأثير مسامي شبه الجزيرة الإيبيرية أدرك المسلمين الإفريقيين ، وعلى العكس يزيد الأمر وضوحاً ما نعرفه عن دور المرأة في إسبانيا البدائية .

وكان المستشرق الفرنسي هنري بريس أكثر تعفلا من غيره ، فقد

تحدث عن « المرأة والحج » في فصل خاص من كتابه القيم : « الشعر الأندلسي حتى القرن الحادى عشر : جوانبه العامة ، وموضوعاته الرئيسية ، وقيمه وثيقه » ، وحاول فيه أن يستنطق قصائد الشعراء وإشاراتهم ، وانتهى إلى أن الإسلام استطاع أن يسم المجتمع الأندلسي « بطابعه في بعض مظاهره الخارجية دون أن يشككه بعمق » ، واستطاعت المرأة رغم كل الضواغط الدينية أن تنعب دوراً رئيسياً ، أوضح مظاهره هذا القلق الذي تثيره « فكر الرجل » . ولم تكن المرأة الأندلسية « منزوية على نحو ما كانت نظم الإسلام تريدنا أن نراه في كل امرأة مسلمة . وثمة وقائع عديدة تؤكد ما نشعر به من خلال أحاسيس الشعراء القوية . فالرمادى يتجول في يوم الجمعة ، بين رياض بنى مروان في قرطبة ، ويلتقى بفئة شابة تأخذ بجامع قلبه فيحادثها ، ولا بدعها تمضى إلا بعد أن يحصل منها على موعد بلقاء في يوم الجمعة التالية . وكانت هذه الفئة الشابة تسمى « خلوة » ، وكانت تضع خماراً على التأكيد ، ولكن كيف تنصور رجلاً يستطيع أن يتحدث طويلاً وعلانية إلى امرأة ، على قاعة للطريق ، دون أن يتعرض لنظرات شدة ، لو لم يكن الجنس اللطيف يتمتع بحرية حقيقية ؟ ، ويستشهد بوقائع متعددة ، في قرطبة وغيرها ، وردت في طوق الحمامة ، أو نفح الطيب ، أو قلائد العقبان ، وفي مصادر أخرى ، دون أن يحزم برأى قاطع . ودعا إلى التفرقة بين ما هو غربي أصيل ، وما هو شرقي وافد ، ورد عدداً من مظاهر حرية المرأة إلى المناخ المسيحي الذي تحرك عليه الإسلام في أرض شبه الجزيرة الإيبيرية .

وموقفنا من مثل هذه الآراء أن إلغاء أحكام عامة ، في قضية اجتماعية كهذه باللغة التعقيد ، تمنح مجتمعاً متعدد السلالات والأديان والطبقات ، عرضة للأخطأ الجسم ، فالمرأة اليوم في مصر وبلاد عربية أخرى تتمتع بحرية واسعة إلى حد كبير ، تذهب إلى الجامعات ، وإلى بلاد أجنبية لتتعليم ، أو لتاجر ، أو لسياحة ، وتلبس أحدث نماذج الأزياء ، دون نظر لغير متطلبات العصر ، وثمة فتيات أخريات قعيدات البيت ، يوثرن الانزواء ، أو يراد لهن ، بغطين الرأس ،

ويلبس الساتر من الثياب ، ويرين مخاطبة الرجل لئماً ، فهل يعقل
أن نرسل عن الأندلس حكماً عاماً ، استناداً إلى رواية وردت في كتاب ،
أو بيت من الشعر جاء في قصيدة ؟

وإذا أخذنا العربية السعودية ، وأخالها من أشد البلاد العربية محافظة
في قضية المرأة ، وبراها المستشرقون مثلاً أبلغ لما هو أسوأ من المحافظة ، وتجاوزنا
للسطح إلى العمق ، الشكل الخارجي إلى واقع الحياة ، فسنجد من الخطأ
إرسال حكم عام عليها ، لأن المرأة في البادية غيرها في الحاضرة ، وهي
داخل الجزيرة غيرها في الخارج . ولقد أتيج لي في بعض رحلاتي إلى أوروبا
أن التقي بفتيات سعوديات ، كن مثلاً حاليًا في الشخصية والثقافة والأناقة
والجمال ، في مستوى أرقى ما وصلت إليه المرأة في عالمنا المتحضر .

إنما نجيء أخطاء المستشرقين من المقارنات الخاطئة ، ومن دراسات
تهوم في جلها على كتب للفقه ، وهي لا تقدم ما يحدث في واقع الحياة ، وإنما
تعكس في الكثير من الحالات مطامع أصحابها وعقلياتهم وانحرافاتهم أيضاً .
ولورجعوا إلى واقع المرأة العربية ، في حياتها اليومية ، خلال عصر النهضة
الإسلامية ، قبل أن تزحف على الإسلام ظلمات الفكر الأوربي الوسيط ،
لوجدوها تعمل إلى جانب الرجل ، وموضع الرعاية والتكريم منه ، وعلى
مستواه من حماية القانون ، واذا فالقول برفق المرأة الأندلسية لأنها تنحدر
من أصول غير عربية فيه مجافاة للواقع ، وعدوان على العقل .

والذين يلمحون لأسباب دعائية غير علمية إلى أن المسيحية كانت وراء
هذا القدر من الحرية ، يفتنسون عامدين أن إسبانيا لم تكن وحدها البلد
المسيحي الذي اجتاحه الإسلام ، فمثلها كان الشام والعراق ومصر وشمال
إفريقية ، في جوانبه الساحلي على الأقل ، والذين يتشبثون بأسباب الحضارة
الرومانية ، ينسون أيضاً أنها كانت في الشام والإسكندرية أوضح منها في
إسبانيا ، ولهذا إذا سلمنا جدلاً ، وهو أمر غير مسلم ، أن مستوى المرأة

في الحضارة الرومانية كان أرقى منه في الحضارة العربية أو الإسلامية ، وهو أمر ليس عليه شاهد من أحداث التاريخ .

وإذا أخذنا لذلك مثلاً من مقاطعة بروفانس ، في جنوب فرنسا ، على أيام ابن حزم ، ومستصبح أرقى بلد أوربي في تلك الفترة ، وبثأثير أندلسي ليس هنا مجال درسه ، فسنبجد مثلاً أن « الزواج يتم بين السيدين ، في ضوء مصالحهما الإقطاعية ، أكثر منه تحقيقاً لرغبة الشاب أو الفتاة ، ومع الزواج يملك الزوج جسد الفتاة كله ، ولم يكن في حاجة أبداً لأن يترضاها في شيء يملكه قانوناً ، وله حق تأديبها مادياً ، بضربها حين لا تقبل أو امره ، أو تثيرة ثم تزعجه ، شريطة أن يكون هذا باعتدال ، وألا يؤدي إلى موتها . وكانت التقاليد قاسية جداً على المرأة في حالة الخيانة ، فالمرأة المخونة تسجن في اللدير طوال حياتها ، وإذا ضبطت متلبسة ، فإن الزوج يأتي بأولادها ليشهدوا لحظة إعدامها . أما للزوج المخطئ فكان على التقيض ، يخرج سالماً من أوسع الأبواب ،

وكان العصر الأوربي الوسيط ، بـتأثير المسيحية ، عدواً للدودا للمرأة ، ولم يعطف عليها رجال الكنيسة أبداً ، ولا تأتي في كتاباتهم إلا مقرونة بوصف مسيء : فهي : ذكرى مزعجة ، والطريق إلى النار ، وصلاح الشيطان ، وحارس جهنم المتقدم ، وشيخ إبليس ، وسهم الشيطان ، وغيرها من الذمات ، نجد ذلك عند سان يوحنا ، وسان أنطونين ، وحننا الدمشقي ، والقديس جيروم ، وغيرهم . وسار على طريقهم من بعدهم كل الدعاة ، ورجال الأخلاق ، وهكذا ظلت قلوب رجال الدين طوال العصور الوسطى مغلقة في وجه المرأة ، ومغلقة بالقسوة ، وكان الفرسان الحديديون ، العائدون من الشرق الأوسط ، بعد الحروب الصليبية ، أو من الأندلس بعد غاراتهم أو رحلاتهم أو مساعلتهم لرفاقهم في الدين هناك ، أول من اعترف بها إنساناً لطيفاً . لقد عاش هؤلاء يتفنون بالجميلة ، لا يشغلون أنفسهم بغيرها ، حتى ولا ما اتصل منها بالدين نفسه ، وإذا لم تؤد الحروب الصليبية إلى

النتائج المنتظرة من الاستيلاء على الأرض المقدسة ، وامتلاك بيت المقدس ، فقد أدى الاصطدام بين الشرق والغرب إلى نتائج هائلة ، في المجالين الاقتصادي والاجتماعي على الأقل ، فترك الشرق ، وكان أغنى ثروة وأرق حضارة ، تأثيراً واضحاً في حياة الصليبيين ، وصرعان ما تهذبت هذه الأعداد الكبيرة ، بقدر لا يتصور ، فدرجت على تذوق الترف ، وتفتح عقلها ونخبها على ألوان من الحياة الراقية كانت تفتقدها تماماً . وفي حروب دينية كهذه لم يعفوا عن حمل الثروات والغنائم ، وما أسرع ما غيروا عاداتهم عندما عادوا إلى أوطانهم . وعاصرت الحروب الصليبية نمو التجارة في البحر الأبيض المتوسط ، وفي الموانئ الإيطالية بخاصة ، وشهدت أيضاً ازدهار المعارض التي تحمل كل منتجات الشرق : السجاد والمرايا والتوابل والأقمشة الجميلة ، ونحمل اسم دمشق موطن صنعها .

وشهدت بداية العصر الوسيط احترام المرأة في أوروبا ، وارتفاع الكنيسة إلى مستوى الفرسان ، وشعراء التروبادور من هؤلاء هم الذين انتقلوا بها من مخلوق لا يلعب في الملاحم وفي الحياة دوراً أكثر من عبادة الله والسيد والوطن ، إلى شيء جميل يحترمونه ، ويتغنون به ، ويغنون له ، ويعتبرون التسامى به ، والتذلل له ، والذوب صباية في حبه ، خلقاً كريماً ، وعادة مرغوبة ، وشرفاً لا يبلغه غير الفرسان .

* * *

كيف وجد المسلمون المرأة في شبه جزيرة إيبيريا غداة الفتح الإسلامي ؟ سؤال من الصعب الإجابة عليه ، لأننا تفتقد الوثائق التي تساعدنا على تحديد موقف المرأة ، والبناء الأسرى الذي كان سائداً في المجتمع الغربي بين القرنين الثامن ، وتم الفتح الإسلامي في بدايته ، والقرن الحادي عشر وعاش فيه ابن حزم جل حياته ، ومعه بدأت دول شمال الأندلس المسيحية تأخذ شكل مجتمع متميز ، رغم حاجتنا الشديدة إلى هذه المعرفة ، ذلك أن المرأة الأندلسية في جمهورتها الغفيرة هي أولاً وقبل كل شيء

إسبانية ، سواء أكانت حرة أم رقيقة ، زوجة أم عشيقة ، مولدة أم مستعربة . والقليل الذى وصلنا عنها ناقص ومضطرب ومتناقض .

والخصارات التى تركت فى أوروبا تأثيراً واضحاً ، وهى : ما قبل الرومانية والرومانية والجرمانية والمسيحية كانت توجه المجتمع الغربى نحو التضييق على المرأة ، وتضع عليها قيوداً لن تلتقى بها فى الحياة الأندلسية فيما بعد ، وكلها تؤكد تميز للرجل ، فالفتاة تخضع لأبيها ، وإلى الأكثر قرباً عند غيابها ، ثم لزوجها فيما بعد ، وفضلاً عن ذلك كانت روما تعرف وأد البنات . ويبدو أن المرأة تمتعت بين القرط ، وهم الذين حكموا الأندلس لحظة الفتح الإسلامى ، بقدر أكبر من الاحترام ، فنعرف أن من الرشد لها فى القرن السادس الميلادى كان مساوياً لسن الفتى ، وأنها أهل لأن تتولى الوصاية على أبنائها إذا كانت أرمل ، وأن تزوج ثانية إذا أرادت ، ويتوقف الزواج على موافقتها ، ويصبح المهر الذى يقدمه الزوج حقاً لها ، ومنذ القرن السابع نجدها فى القانون القوطى تتساوى مع الرجل فى الميراث . ومن المؤكد أن هذه الحقوق ظلت نظرية فى جانب منها ، واقتصرت فى جملتها على طبقات اجتماعية معينة وتجدر الإشارة إلى أن هذه الحقوق دون ما تمتع به المرأة العربية والمسلمة ، واقعاً ونظرياً بكثير . وينبغى ألا ننسى أن المنصر العربى على قلته ، أعطى إسبانيا اللغة والعادات والنظم والدين ، ونماذج الحياة المشرقية ، ولون المجتمع الأندلسى بمذمه ، وكلها عربية ، وفيما يرى أمير كوكاسترو : « التعريب اللغوى يحمل معه التشريق الخلقى والعقلى ، وعلمنا أن نضع فى الاعتبار دائماً أن تطبيق لغة سامية وانتشارها ، وإجلالها طجة مشتقة من اللاتينية ، لا بد أن يزدى إلى عدد من النتائج من بينها تطوير العقلية » .

* * *

بماذا نحدثنا نصوص « طوق الحمامة » عن المرأة ؟ . لقد عرض الباحثون الكتاب كثيراً بوصفه درامة فى الحب وعن الحبين ، لكن أحداً لم يقف

طويلاً لزاماً يمكن أن يضيفه إلى معرفتنا بالحياة الاجتماعية في الأندلس خلال النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى ، وسندرس هنا صورة المرأة فى قرطبة من خلال الطوق لالكى ندهم فكرة أوتناهنض أخرى ، وإنما لنصل إلى تصور قريب عما كان عليه حالها واقعاً فى الحياة على أيام ابن حزم :

وعندما يتحدث ابن حزم عن المرأة فى قرطبة فإنما يفعل ذلك خبيراً بهن ، عالماً بأمورهن ، فهو فيما يحدث عن نفسه : « شاهدت النساء ، وعلمت من أسرارهن ما لا يعلمه غيرى ، لأننى ربيت فى حجورهن ، ونشأت بين أيديهن ، ولم أعرف غيرهن ، ولا جالست الرجال إلا وأنا فى حد الشباب ، وحين تغيب وجهى ، واهم بالبحث عن أخبارهن ، وأنس منه الكتمان فكشفن له عن أسرارهن ، وأطلعنه على غوامض أمورهن ، وأشرف من أسبابهن على غير قليل ، فشب يعرف الكثير من دخائل القصور ، وموآمرات النساء ، وحيل الجوارى ، وأكسبه ذلك شكاً فيهن ، وسوء ظن فى جهتهن . ولكنه لم يورد لنا كل ما عرف ، ولم يحدثنا بكل ما سمع ، فأبقى على عورات يستعاذ بالله منها فى طى الكتمان ،

وأول ما نلاحظ فى حديث ابن حزم أنه يقف عند نساء الطبقة العالية ، أى فتيات الأسر التى ينتمى إلى طبقها ، وحتى الجوارى منهن يتصل حديثهن برجال هذه الطبقة ، ولم يعرض لنساء مشرقيات إلا نادراً ، فى مجال الموازنة ، أو بالدقة فى ثلاث حالات هى وجه الحصر : عرض لقصة جرت فى القاهرة ، حين أحب العزيز الفاطمى خليفة مصر ، جارية شغلته عن مولد ابنه المنصور ، والذي سيصبح فيما بعد خليفة مصر ، ودخل التاريخ تحت اسم الحاكم بأمر الله ، وحكاية موجزة لقرطبي كان فى بغداد ، هام بعراقية ، وتزايد عليه أسرها ، وخشى الفتنة ، فخرج إلى البصرة ومات بها عشقاً . والحكاية الأخيرة رواها أبو بكر محمد بن بقرى الحجري عن نفسه ، فقد التقى فى

بغداد بابنة وكيلة الخان الذي ينزل فيه ، فأحبها وتزوجها ، ولما سكنها فارقت
لسبب لا أرى ذكره مناسباً هنا (١) .

ولم يتعرض للمرأة في الطبقة الوسطى أو الدنيا ، ولا نجد لديه ولا إشارة
واحدة ، حتى ولو من بعيد ، عن المرأة المستعربة أو اليهودية ، وهو أمر
غريب من رجل لا يكتب بحثاً ، وإنما يدفع بذكرياته ، وما رأى أو سمع ، من
خلال دراسته عن الحب ، وما كان لأى من هاتين الطبقتين أن ترتفع إلى
مجلس ابن حزم ، خارج نطاق الدرر ، ولم يجلس فيه أستاذاً إلا بعد سنوات
من تأليفه « الطوق » ، أو يبرأ أحداثها نصيباً ، من اهتمامه ، وبداهة كانت
تحب وتعشق وتتحرك في حياتها العاطفية داخل قيم ، قد تلتقي أو تختلف مع
مثل الطبقة العليا ، ولما كانت متأثرة على التأكيد بوضعها الاقتصادي والطبقي
الذي تعيش فيه .

يهدف كتاب « طوق الحمامة » إلى تحليل المشاعر العاطفية ، ومواقف
العشاق ، ويأتى الحديث عن المرأة فيه بوصفها طليقة في هذه القضية ، وليدعم
ابن حزم آراءه بأورد عدداً من الوقائع الغرامية حدثت فعلاً ، ولو أنه يصعب
علينا في أحوال كثيرة أن نحدد نوع المحبوب : أهو فتاة أم غلام ، أو نعرف
ظروفه الاجتماعية ، وأحياناً ترد القصص فضفاضة ، يعسر علينا أن نستنتج
منها شيئاً محدداً ودقيقاً ، ويعتمد ابن حزم ذلك ، حفاظاً على أصرار الناموس ،
واحتراماً لحياتهم الشخصية ، وكثيراً ما يكنى عن الأسماء ، لأنها « إما حورة
لا نستعجز كشفها ، وإما نحافظ في ذلك صديقاً ودوداً ورجلاً جليلاً » ،
واكتفى بأن يسمى من لا ضرر في تسميته ، ولا يلحقه والمسمى عيب في
ذكره ، « إما لاشتهار لا يغنى عنه العلم وترك التبیین ، وإما لرضا المخبر
عنه بظهور خبره ، وقلة إنكاره منه لنقله » .

وللقصص المتصلة بالحوارى أكثر من تلك التى يرد فيها ذكر الخرائر ،
وكلمة «جارية» فى كتاب «الطوق» تستحق وقفة مستأنية . لقد وقف
أورتيجا إى جاسيت فى مقدمته التى ترجمناها ، وأوردنا فيها ما مضى من صفحات
عند كلمة « الحب » ، وتعامل عما إذا كان فقه اللغة العربية قد توصل إلى تحديد
دقيق لمفهوم اللفظ عند حرب الأندلس فى القرن الحادى عشر ؟ . وبدورى
أوجه السؤال نفسه : ترى ما هو مفهومهم ، ومفهومنا ، لكلمة «جارية»
عند ما ترد فى نصوص «طوق الحمامة» ؟ .

نجى المرأة القرطبية محبوبة خلال «طوق الحمامة» فى ثلاثين موقفاً ،
وكلهن يتبعن إلى الطبقة العليا دون شك ، وفى خمسة وعشرين منها نجد
أنفسنا . بإزاء حب المؤلف نفسه ، أو حب واحد من أصدقائه ، أو شخصية
معروفة له ، لواحدة يصفها بأنها «جارية» ، وفى الحالات الخمس الباقية
يشير إلى نساء حرائر صراحة ، من الطبقة نفسها ، على قدر كبير من الثقافة
والرقى والصقل ، لا يقل عما كانت عليه الحوارى ، ويلعبن فى الحياة العاطفية
والاجتماعية دوراً ملحوظاً ومتقدماً . وفيما يتصل بالأحداث العاطفية المتصلة
بالحوارى نحن بإزاء لونين منهن : حالات ينص فيها ابن حزم صراحة على
أنهن جوارى تجرى عليهن أحوال البيع والشراء ، أو يدعنا نفهم ذلك بقينا ،
وفى حالات أخرى صمت وتركنا فى حيرة ، ولو أن جو الأحداث يجعل
من المؤكد أن «الجارية» فى مثل هذه الروايات فتاة حرة ، وأن اللفظ يجرى
صفة لها ، إيماء إلى ما هى عليه من ثقافة وصبى وجمال ، وأحياناً تأنى فى
سياق من المستحيل معه أن تكون أمة رقيقة . والسكررة الغالبة من المستشرقين
أقامت دراستها على أن لفظ «جارية» يعنى دائماً أنها رقيقة مشتراة ، والقلة
تجاوزت اللون الأخير ، الذى عرضنا له ، دون أن تتوقف عنده أو تنبى
عليه حكماً .

إزاء هذا الواقع بدالى من المفيد أن نحدد أولاً معنى كلمة «جارية» .
إذا عدنا إلى المعاجم العربية ، وهى بداية طريقنا لتحديد المحتوى ، وجدنا

أبها معنى في القاموس المحيط للفيروزبادي : « فتية النساء » ، وفي ديوان
الأدب للفراري : « التي نهدت عليها » ، ونوسع المصباح المنير للفيومي ، ونميز
من بين كل المعاجم بأنه يشير إلى الدلالات الفقهية للألفاظ ، فذكر أنها
« الشابة لخمها » ، والجارية السفينة ، سميت بذلك لجريانها في البحر ، ومنه
قيل للأمة جارية ، على التشبيه ، لجريانها مستسخرة في أشغال موالها ،
ثم توسعوا حتى سموا كل أمة جارية ، وإن كانت عجوزاً لا تقدر على
السعي ، تسمية بما كانت عليه . فأنت ترى أن كلمة جارية يراد بها لغة ،
في الأصل : « الفتاة السكاعب الشابة » ، وأضيف أنا ، أنها كانت تطلق
في قرطبة على الفتيات والشابات ، من العرائر أيضاً ، ممن يجمن هذه
الصفات ، وصفات أخرى ارتبطت بالجوارى في تلك الأيام ، من التربية
العالية ، والثقافة الواسعة ، والعواطف الدافئة ، والتسكن من الموسيقى ،
عرفاً وتذوقاً ، ومعرفة الغناء ، وحفظ الشعر ، وألوان من الجمال الحسى ،
كيباض البشرة ، وشقرة الشعر ، وزرقة العينين ، مما حدثنا عنه ابن حزم
نفسه ، وصنعرض له فيما بعد .

إذن ليست كل جارية « رقيقة » في كتاب الطوق ، وتجاهل هذه الحقيقة
أدى إلى أخطاء فادحة في تقويم وضع المرأة الأندلسية ودورها ، وغرايبات
ابن حزم الثلاثة ، التي تحدث عنها في الطوق ، تدور حول جوار . في
إحداها يقول : « أحببت في صباى جارية ... » ، ثم يضيف : إنها
نشأت في دارهم ، ولسكننا سوف نجد في منتصف الطريق من القصة ،
أنها لم تنتقل معهم ، حين تركت أسرته منية المنيرة إلى مساكنهم القديمة في
بلاط مغيب ، لأسباب لم يفصح عنها ، واكتفى بقوله : « ولم تنتقل بانقلنا
لأمور أوجبت ذلك » .

أما في القصة الثانية فيقول : « كنت أشد الناس كلفاً وأعظمهم
حباً بجارية لي ، كانت فلما خلا اسمها نعم ... » . وتلاحظ هنا أنه أضاف
الجارية لنفسه ، وأعطانا اسمها ، وتركز عنهم في لياقة أنه بلغ بحبه لها غايته ، فحرف

الحياة معها لأول مرة ، وأصبحت هي على يده امرأة ، وكانت المودة بينهما متكافئة ، وأن الموت اخترمها منه فتية ، كان حين ماتت في سن العشرين ، وكانت هي دونه ، وأقام بعد وفاتها سبعة أشهر حزناً عليها ، لا يتجرد عن ثيابه (١) ، وأنه بكأها طويلاً ، على شحيح دمه ، وجمود عينه .

وأما القصة الثالثة : فجرت في بيت امرأة من معارفه مشهورة بالصلاح والتقوى ، ومعها « جارية من بعض قراباتها . . . » من اللائي قد ضمها معه النشأة في الصبا ، ثم غاب عنها أعواماً ، تركها حين أعصرت ، وعاد فوجدها جرى على وجهها ماء الشباب ففاض وانساب ، وتفجرت عليها ينابيع الملاحظة فترددت وتجمرت ، وطلعت في وجهها نجوم الحسن فأشرقت وتوقدت ، وانبعثت في خديها أزهار الجمال فتعت واعتمت ، وكانت من أهل بيت صباحة ، وظهرت على صورة تعجز الوصف ، وطبق وصف شبابها قرطبة ، وبات عند المرأة التي يعرفها ثلاث ليال متوالية ، ولم تحجب عنه الجارية ، على جاري العادة في التربية ، وكاد قلبه أن يصير ، ويثوب إليه مرفوض الهوى ، ويعاوده منسى الغزل ، وامتنع بعد ذلك من دخول هذه الدار ، خوفاً على لبه أن يزدهيه الإحسان ، رغم أنها وجميع أهلها ممن لا تتعدى الأطماع إلين ، ولكن الشيطان غير مأمون الغوائل .

قابن حزم ، كما ترى ، يستخدم في مغامراته الثلاث لفظاً واحداً ، ومع ذلك فأنت لا تشك أنك في المغامرة الثانية أمام جارية أمة ، أحبا وتركت في أعماقه ذكرى آسية ؛ ولكنها ذكرى موصول استمتع ، حزين على ماضح منه . على حين يتحدث في الثالثة عن فتاة حرة يقينا ، تنادى جارية دلالة ،

(١) التعبير لابن حزم ، ومعناه في لغة للمواطن ، الخاصة غير ما يفهم من ظاهره تماماً ، إنه يعنى أن ابن حزم لم يمارس . الحب طوال هذه الشهور السبعة ، على نحو حلال طبعاً ، مع زوجة له ، أو جارية ملكتها يمينته ، وليس المراد منه ، كما يفهم من حرفيته ، أنه لم يغير ثيابه طوال هذه المدة . والتعبير مستخدم حتى الآن بين عدد كبير من القبائل العربية المقيمة في أهل صعيد مصر ، وبعضها قدم من المغرب .

لأن الجارية لا تعجب ، وهي مريض الطمع ، وليست لها عائلة تنسب فيها ، وإنما لها سادة ينصرفون في شأنها ، وقتها هنا على التقيض من ذلك كله ، من بيت كريم ولها أهل ، وليست مضطراً لأحد ، فاختصر الطريق وأمسك بنفسه عن الزلل ، وامتنع من التردد على بيتهم . ويرجع بك الظن في الأول رجحاناً لا يبلغ حد اليقين ، أن الجارية فيها حرة وليست من الإمام ، لأن ابن حزم اشتراها ، وتابعها في إصرار ، وصدته في لطاف ، وبقي على الرغبة فيها عامين كاملين ، ولو كانت من الجوارى حقاً ، تباع وتشترى ، لاشرائها لنفسه ، أو لاشرائها له أبوه ، أو لأفصح عن رغبته هذه على الأقل ، ولقد عرض أكثر من مرة لبيع وشراء الجوارى العاشقات أو المعشوقات .

وقد تتبع استخدام اللفظ ، في وقتنا الحاضر ، في بعض مناطق من العالم العربي ، فوجدت القبايل العربية التي استقرت في أعلى الصعيد من جنوب مصر ، قادمة من المغرب في القرن الحادى عشر الميلادى وما تلاه ، والأندلسيين الذين استقروا في الجزائر أو المغرب أو تونس ، بعد طردهم من وطنهم عام ١٦١٣م ، ما زالوا يستخدمون الكلمة في حياتهم الأسرية ، ينادى بها الرجل زوجه تدليلاً لها وتودداً إليها : يا جارية ! .

وتحدث ابن حزم أيضاً عن فتيات حرائر ، يذكرهن بأسمائهن حيز لابسىء ذلك لانهن ، ولايمس القاعدة التى اختطها لنفسه في أول الطوق ، وأشرنا إليها من قريب ، وكنهن ينتسبن في الطبقة العالية التى ينتمى إليها ، ونعرف من روايته أنهم لمن دون الجوارى ثقافة وتمكناً من المعارف العامة ، وإجادة لل فنون الجميلة وإقبالاً عليها ، فهو يحدثنا عن ضنى العامرية ، كريمة المظفر عبد الملك بن أبى عامر ، التى ولت الخجاية بعد أبيه ، وكان يقرب منه هيبه ونفوذاً وإن قصرت أيامه ، ونعرف أنها تعزف الموسيقى ، وتصنع الألحان لنفسها وتطلب من ابن حزم أن ينظم لها شعراً تلحنته ، وتتغنى فيه .

وعرض ابن حزم مرة واحدة لحالة فى أسرهم ، وذكرها بالاسم ،

حين حدثنا عن الحب العنيف المتبادل بين أخيه أبي بكر ، وزواجه عاتكة بنت قند ، وكانت فيما ، يقول : لا مرمى وراءها في جمالها ، وكرم أخلاقها ، وكان أبوها قائد الشجر الأعلى على أيام المنصور ابن أبي عامر ، وقد شفها حبه ، وأضناها الوجد فيه ، وأحلها شدة كلفها به ، وكانا في حد الصبا وتمكن سلطانه ، لا يلها من الدنيا شيء ، ولا تسر من أموالها على عرضها ونكائرها بقليل ولا كثير ، إذا فاتها اتفاقه معها ، وصلامته لها . فلما توفي في الطاعون الذي اجتاحت قرطبة عام ٤٠١ هـ - ١٠١١ م ، وهو ابن اثنتين وعشرين سنة ، لفها السقم والمرض والذبول إلى أن ماتت بعده بعام . ولم يكن له قبلها ولا معها امرأة غيرها ، وهي كذلك لم يكن لها غيره .

وتستطيع المرأة في المجتمع القرطبي إذا فاضت مشاعرها أن تعشق ، وأن تعبر عن عشقتها ، وأن تأخذ زمام المبادرة ، وأورد لنا ابن حزم مثالين لهذا ، فتاتين حرتين ، وكلتاهما من طبقة على جاري عادته ، ذكر أمم الأولى ومن أحبته ، لأن غرامهما انتهى بالزواج ، وفارق الزوج والزوجة هذه هذه الدنيا في زمن متقارب ، قبل أن يحرر كتابه بسنوات ، فلم يجد في ذكر الأسماء حربا ، وهي عاتكة بنت قند وأخوه أبو بكر ، على نحو ما ذكرنا من قريب . أما المثال الثاني فعن فتاة من ذوات المناصب والجمال والشرف من بنات القواد ، وأطلق عليها لفظ « جارية » ، رغم أنها حرة أكيدا ، لأن صاحبها كانت فيما يبدو على قيد الحياة ، وهو يكتب « طوق الحمامة » ، فلم يرد أن يكشف حالها ، ولأن الشاب الذي عشقته كان أكثر من صديق ودود لابن حزم ، فهو يصفه بأنه : « من إخواني جداء » ، وكان الفتى من أبناء الكتاب ، وبلغ بها حبه مبلغ هيجان المرار الأسود ، وكادت تختلط ، واشتهر الأمر وشاع جداء ، حتى علمه الأبعاد ، إلى أن تدوركت بالعلاج :

وكان الذين يجمعون إلى المركز الاجتماعي المرموق ، صباحة الوجه ، ورجاحة العقل ، واكتمال الصورة ، وارتقاء السلوك ، يصبحون مهبط

الأطماع ، وقبلة الفتيات ، ومحدثنا ابن حزم أن أبا حامر ، ابن المظفر عبد الملك الحاجب الثاني للعامريين ، وحفيد المنصور بن أبي حامر ، كان جاراً لهم ، وبينه ملاصق إيتهم ، حين كان آل حزم يسكنون منية المغيرة في الجانب الشرقي من قرطبة ، ويصفه بأنه « من أهل الأدب والحذق والدكاء والنبيل والحلاوة والتوقد ، مع الشرف العظيم ، والمنصب الفخيم ، والجاه العريض » ، وحسن الوجه ، إذا صار إلى بيتهم تحفظته عيون الفتيات ، وتزاحمن على رؤياه ، ومات كثيرات من محبته ، لأنهن علقن أوهامهن به ، وخانن ما أملنه فيه ، ويقدم لنا ابن حزم واحدة منهن ، جارية تسمى عفراء ، عرفها وعهدا لا تنسُر بمحبته حيث جلست ، ولا تحجب دموعها ، ويضيف أن أبا حامر أخبره بأنه « يمل اسمها فضلاً عن غير ذلك » .

وبقص حديث امرأة مربية النشأة ، عالية المنصب ، غايطة الحجاب ، رأت فتى من أبناء الكتاب عابراً قرب منزلها ، فعلقته وعلقها ، وتهادياً المراسلة زماناً على أرق من حد السيف ، وبتركنا ابن حزم عند هذا القدر من القصة لا يزيد شيئاً ، لأن بطليها معاصرين له ، والمعاصرة حجاب ، وبه تدر لنفسه : « لم أقصد في رسالتى هذه كشف الحجب وذكر المكائد » ، ويدعو الله لهما ، ولجميع المسلمين ، أن يسبل عليهم ستره .

كانت المرأة الأندلسية إذن تتمتع بقدر من الحرية لا بأس به ، إذا قيس الأمر بأحوال تلك الأيام ، وهى حرية تتحرك في نطاق تقاليد العصر نفسه ، ومن الخطأ أن نوازن بينها وبين واقع المرأة في العالم المتحضر على أيامنا . مثلاً لم يكن طابع الحياة الاجتماعية يسمح بالاختلاط في دائرة واسعة على النحو المهود بيننا ، ولكن الرجال والنساء كانوا يلتقون في ساحة الدرس ، وفي السمر العائلي ، وفي الحفلات الاجتماعية ، وأعجبني ابن حزم حين رد حجب الفتيات عن الفتيان الأجانب عن الأمرة في البيوت (١٧٢ - ابن حزم)

للى جارى العادة وحدها ، فهو يقول عن الغزاة الجميلة الى التفتى بها عند
سيدة من معارفه بأنها : « لم تحجب عفى على جارى العادة فى التربية » ،
والعادة تختلف من طبقة الى أخرى ، وتنمايز بين جماعة وجماعة ، وتفاوت
من جبل الى جبل ، وهو نفسه يحدثنا عن جارية اشدد وجدها بغنى من
أبناء الرؤساء ، « خفيف ومتصاون وبعيد عن المعاصى ، ولا هلم عنده ، وكثر
غمها ، وطال أسنها ، وضعت بحبه ، وهربغارة الصبا لا يشمر ، ويمنعها
الحياء من إبداء رأيا إليه » ، وكانا ألفين فى النشأة ، فلما تهادى الأمر
شكت ذلك الى امرأة صائبة للرأى ، كانت تنق بها لأنها قامت على تربيتها ،
فقصحتها بأن تعرض له بالشعر ، ففعلت المرة بعد المرة وهو لا يابى بها ،
إلى أن عيل صبرها ، وضاق صدرها ، ولم تملك نفسها فى فعدة كانت لها
معه ، فى بعض الليالى منفردين ، فلما حان قيامها عنه ، بدرت إليه فقبله
فى فمه ، ثم ولت ولم تكلمه ، تهادى فى مشيا ، فبغت وسقط فى يده ،
وفت فى عضده ، وكان هذا بدء الحب بينهما دهرآ ، إلى أن جذت جملتها
بد التوى :

وسيدات الطيبة الى منها ابن حزم وخبرها « مقصورات » « ومحجوبات »
على حد تعبيره ، ولكن كلمة « مقصورة » أو « محجوبة » لا تعنى
أنهن بمعزل عن الرجل ، وأن أسواراً عالية وصفيفة من المنفرة تقوم بينهما ،
ولنما تشير إلى مركزهن الاجتماعى من الثراء والرفاهية ، فهن لا يفارقن
البيوت عاملات أو ساعيات فى طلب الرزق ، ولهن من الخدم والأعوان
ما يغنيهن عن الخروج ، فهن يقضين حياتهن فى البيوت — وأى بيوت !
يملسن جماعات ، تأتين الأخبار ، ويتبادلن آخر الإشاعات ، ويحببن على
الوصف « أقاربهن من الرجال ، وحب النساء فى هذا أثبت من حب
الرجال » . وبقص علينا ابن حزم خير صديق له من مروات الرجال ،
دهى بمحبة جارية مقصورة ، وهام بها ، وقطعه حبه عن كثير من مصالحة ،
إلى أن كانت هى التى تعذله على ما ظهر منه ، ومما يقوده إليه هواه . فكيف

تأتى لهذه « المقصورة » أن تعذله له لو لم تكن تلقاه. وتحدث إليه ؟

ويدرك ابن حزم واعياً دور الفراغ والتبطل ، والتعرف مع القدرة ، والسلامة والصحة ، في حياة المرأة ، وكيف يصبح الزواج معها مطمناً وغاية وجهة ، وإليها يرد دوران أفكارها حول الجنس ، وإلحاحها عليه ، « وما أعلم عاة تمكن هذا الطبع من الذماء ، إلا أنهم متفرغات البال من كل شيء ، إلا من الجماع ودواعيه ، والغزل وأسبابه ، والآلف ووجوهه ، لا شغل لمن غيره ، ولا حزن لسواه . والرجال مقتنون في كسب المال ، وصحبة السلطان ، وطلب العلم ، وحيطة العيال ، ومكابدة الأسفار ، والصيد وضروب الصناعات ، ومباشرة الحروب ، وملاقة الفتن ، وتحمل المخاوف ، وعمارة الأرض ، وهكذا كله متخيف للفراغ ، صارف عن طريق البطل » . وهى لفظة هصرية ، رغم ألف عام مضت عليها ، تحسب لابن حزم ، وتلتقى مع أحدث نظريات علم النفس الحديث .

وقدم لنا ابن حزم عرضاً ، وفي إلماحات خاطفة ، أواناً من المهن التى أسهمت فيها المرأة أو اختصت بها ، من غير طبقته بالطبع ! ، فهى تعمل مربية ومدرسة لأبناء الطبقة العليا ، وتربى هونفسه على يدها ، تعلم معها القرآن ، وأجاد الخط ، وتذوق الشر ، ومنهن كانت الطيبة والحجامة ، والمراقبة والدلالة ، والمباشطة والناتحة ، والمغنية والكاهنة ، والمعلمة والمستخفة ، والصناع فى المغزل والنسيج ، وما أشبه ذلك . ومن نافلة الحديث القول بأن المرأة فى الطبقة العليا كانت تحسن الموسيقى ، وتعزف ألوانها المختلفة ، وتجيد الغناء فى ألحان تصنعها أو تصنع لها ومن بينهن الثريات اللاتى تتميز أملاكهن عن أملاك أزواجهن ، ويدرنها لحسابهن ، أملاك هريضة وواسعة ومن الحوارى من كانت للبهجة والمعاشرة ، فهى مثقفة قارئة ، تغنى وتجيد الموسيقى ، وتقرض الشعر ، وتنشده لغيرها إن لم تحسن نظمه ، ومنهن التى ليست على شيء من ذلك ، أو حظها منه قليل ، فهن للخدمة وما شق من أعمال البيت .

وكانت المرأة تراسل مع من تحب ، وتلقى رسائله أيضاً ، وقدم
لنا ابن حزم ألواناً من هذا التراسل ، صوره وطرائقه وحيله وكيف
يجرى ، فالرسالة تسمى في (لطف الأشكال ، وجنسه أملح الأجناس)
وهي لا تعنى أن اللقاء بين الاثنين عسير دوماً ، فقد تكتب لهذا السبب ،
أو لأنها أبلغ تعبيراً في بعض الأحيان ، لخصر في الإنسان ، أوجاء أو هيبة ،
وبعض أهل المحبة ممن كان بدرى ما يقول ، ويحسن الوصف ، ويعبر عما
في ضميره بلسانه عبارة جيدة ، ويجيد النظر ويدقق في الحقائق ، لا يدع المراسلة
وهو يمكن الوصول ، قريب الدار ، أنى المزار ، ويحكى أنها من وجوه القلة
ويحمل الرسائل عادة النساء من ذوات المهن الثلاثي أشرت إليهن من قريب ،
وكان دخولهن إلى البيوت سهلاً وميسوراً ، إلى جانب من لا يخشى خطره ،
ولا يلفت النظر إليه ، لأنه خامل لا يؤبه به ، ولا يهتدى للحفاظ منه ،
من الصبيان وأصحاب الهيئة الرثة ، أو البذاذة في الطلعة ، ومن لا يلحق
الشك به لنسك يظهره ، أو سن عالية قد بلغها ، ويبدو أن دور النساء العجائز
بين هؤلاء كان أكثر شيوعاً ، ينفدن إلى الحجب المصونة ، ويحترقن الأستار
الكثيفة ، والمقاصير المحروسة ، والسدد المضبوطة ، ويعرف ابن حزم أمثلة
واقعة لكل هذا ، ولكنه لا يذكر أسماء أصحابها ، ولا يزيد الأمر توضيحاً حتى
لا يئنه عليها ، ويكتفى بأن يؤكد على ذوات العكاكيز والتساييح ، والتوبيخ
الأحمرين ، ، ويشير إلى أن الفتيات الشابات كن يتلقين التحذير منهن ،
ويحدث أحياناً أن تستخدم المرأة أو الرجل حاملاً للرسالة ذا قرابة من المرسل
إليه ، لا يضمن معها عليه بهذا العون . وكان المقتدرون يستخدمون الحمام
لتراسل أحياناً ،

وكان العشاق يتبادلون الهدايا ، هل قدر متساو بين المرأة والرجل ،
نعرف ذلك من ألوان الهدايا التي ذكرها ابن حزم ، ويبدو أن الأمر كان
شائعاً ، فقد جاء به عالم قرطبة الكبير مؤكداً في أسلوب القصر :

« وما رأيت قط متعاشقين إلا وهما يتهاديان خصل الشعر بمبخرة بالعنبر ،
عرشوشة بماء الورد ، وقد جمعت في أصلها بالمصطكى ، وبالشمع الأبيض
المصفى ، ولفت في تطاريف الوشى والخز ، وما أشبه ذلك ، لتكون
تذكرة عند البين . وأما تهادى المساويك بعد مضغها ، والمصطكى إثر
استعمالها ، فكثير بين كل متحابين حذر عليها اللقاء . »

ونعرف أن الزواج كان يتم في سن مبكرة للغاية ، فقد تزوج أبو بكر ،
أخو ابن حزم ، في الرابعة عشرة من عمره تقريباً ، على ما نفهم من قصة له
في الطوق ، ونفترض أن زوجته كانت في مثل هذه السن تقريباً ، إن لم تكن
صغير قليلاً ، فقد توفي في الطاعون الذي اجتاح قرطبة في يولية من عام ١٠١١م ،
في الثانية والعشرين من عمره ، بعد زواج استمر ثمانية أعوام . والعجائز كن
يلعن دوراً في نهضة الظروف بين الخطيبين ، فالمرأة إذا أسنت وصاغت ،
وانقطع عندها الرجاء ، انصرفت إلى العبادة ، ونسكت بعمل الخير ، فهي
قذلل العوائق ، وتحمل الرسائل ، وتحفظ السر ، وأحب الأعمال لإيها ،
أو أرجاها للقبول ، صعباً في تزويج يتيمة ، أو إغارة ثيابها وحليها لعروس مقلدة ،
ويؤثر أبناء الطبقة العليا أن يتزوجوا من فتيات ينسبن في طبقتهن أنفسها ،
على جانب ما ينسرون ، وتدخل الأم إذا حاد ابنها عن هذا النهج ، ويقص
عليها ابن حزم أن يحيى بن محمد بن عبدة ، وهو من بيت قرطبي حريق ،
أراد أن يتزوج من جارية كانت في بيتهم ، فباعها أمه على غير إرادته ،
وذهبت إلى إنكاحه من بعض العامريات ، ففقد عقله ، وأصيب بالجنون ،

ونعرف من « الطرق » أن رجال الطبقة العالية يفضلون الشقراوات ، وكن
للعنصر الغالب بين نساء الأندلس فيما يبدو ، وكانت نعم صاحبة ابن حزم التي
عرضنا لها من قل شتراء ، ولم يكن يرضى بغير الشعر الذهبي بدبلاً حتى ولو
كان على الشمس ، أو على صورة الحسن نفسه ، ويجد ذلك في أصل تركيبيه ،
ولا تواتيه نفسه على سواه ، ولا يحب غيره ألبتة ، وجاء في هذا على مذهب
أبيه كما يقول . وكان أراء الأندلس زخلفائه محبوبين على تفضيل الشقراوات ،

لا يختلف في ذلك منهم مختلف ، وكانوا أنفسهم شقراً نزاعاً إلى أهماتهم ، وترك ذلك الاتجاه بصماته واضحة في شعر الغزل الأندلسي بعمامة ، وعند أبي عبد الملك مروان المعروف بالطلبى بعمامة ، وكان أشعر أهل الأندلس على زمانه ، وجاء شعره الغزلى كله في شقراوات (١).

وكانت عادة التيسرى واتخاذ الجوارى إلى جانب الزوجة شائعة ، لأن ابن حزم حين أراد أن يثني على الحياة الزوجية لأخيه قال إنه لم يكن له قهاها ولا معها امرأة غيرها ، وبالمثل يمكن القول ، وهو رد فعل طبيعي ، أن الرجل حين لا يقع بزوجه ، ولا يخلص لحياة أسرته ، أن تمد الزوجة رغبتها إلى غيره ، ويذكر ابن حزم أيضاً ، في مقام الثناء على زوجة أخيه ، أنها لم يكن لها غيره . ولكن الجارية تستطيع أن تصد سيدها عن الاستمتاع بها ، وبخاصة إذا كانت نبيت على حب قديم ، ويحدثنا ابن حزم عن جارية رائعة جميلة كانت في دار ابن الركيعة ، محمد بن أحمد بن وهب ، سبق لها مولى ، وجاءته المنية ، وبيعت في تركته ، فأبت أن ترضى بالرجال بعده ، وما جامعها رجل إلى أن لقيت الله ، وكانت تحسن الغناء فأنكرت علمها به ، ورضيت بالخدمة ، والخروج عن جملة المتخلطات للنسل واللذة والحال الحسن ، وفاء منها لمن ذهب ووارثه الأرض ، والتأمت عليه الصفائح ، ولقد رامها سيدها المذكور أن يضمها إلى فراشه مع صائر جواريه ، ويخرجها مما هي فيه ، فأبت ، فضربها غير مرة ، وأوقع بها الأدب ، فصيرت على ذلك كله ، وأقامت على امتناعها .

وكانت المرأة صاحبة الرأي في زواجها ، ويحدثنا الطوق ، عن جارية جميلة كانت لسعيد بن منذر بن سعيد ، صاحب الصلاة في جامع قرطبة ، على أيام الحكم المستنصر ، أحبها وتعلق بها وعرض عليها أن يعتقها ويتزوجها ، فطلبت منه ساخرة أن يتخفف من لحيته ، وكانت طويلة كثرة ، لأنها تستبشع

(١) أنظر دراسة كاملة عنه في : غرسة غرمت : مع شعراء الأندلس والمنهج ، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مسكى ، ص ٨٢ ، مكتبة وهبة ، القاهرة ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م .

ضمخامتها ، فأعمل فيها الجلامين ، على حد تعبير ابن حزم ، حتى لطفت ، ثم دعا بجماعة أشهدهم على عنتها ، وحين خطبها لنفسه لم ترض به ، وكان في جملة من حضر أخوه حكيم بن منذر ، فأمر إلى واحد في المجلس أن يعرض عليها رغبته في خطبتها لنفسه ، فرضيت به ، وتزوجته في ذلك المجلس بعينه ، وكرهت قرطبة هذا الموقف من الحكم ، على نسكه وورعه واجتهاده ، ولكن الجارية أنفدت رأيها ، وما كانت تستطيع لو لم يكن لها ذلك حقاً مقررأ .

وقد حرص الجادون من الكبار والقادة على أن يقيموا دون حياتهم الخاصة أسواراً عالية ، وأستاراً صفافاً ، يناون بها عن أحداث السمر ، ويجلون أشخاصهم أن تصبح موضع القال ، ولقد تغزل شاعر من قرطبة في السيدة صبح أم هشام المويذ ، وكانت في فترة من حياتها على صلة بالمنصور بن أبي عامر ، ودفع بالشعر على لسان جارية تغنى في مجلسه ، فلإن غنت به ، حتى أمر بقتلها . وكان البيت المالك بنأى بفتياته أن يصبح حديثاً يدور على ألسنة الشعراء تغزلاً وإعجاباً ، وحين تغزل أحمد بن مغيث ، وينسب في أمرة قرطبية عريضة ، بإحدى بنات الخلفاء ، ولم يفصح لئلا ابن حزم عن اسمها ، كجاري عادته في مثل هذه الموقف ، قتل وأبعدت أسرته عن المناصب العامة ، وكان ذلك سبباً لهلاكهم وانقراض بيتهم .

ويقدم لنا ابن حزم صورة دقيقة ومفصلة للمرأة حين ترغب ، ولها حين تكره ، ولقد رأيت امرأة كانت مودتها في غير ذات الله عز وجل ، فعهدها أصفى من الماء ، والطف من الهواء ، وأثبت من الجبال ، وأقوى من الحديد ، وأشد امتزاجاً من اللون في الملون ، وأنفذ استحكاماً من الأعراض في الأجسام ، وأضوأ من الشمس ، وأصح من العيان ، وأنقب من النجم ، وأصدق من كدر القطا ، وأعجب من الدهر ، وأحسن من اللبر ، وأجمل من وجه أبي عامر ، وألد من العافية ، وأحلى من المنى ، وأدنى من النفس ، وأقرب من النسب ، وأرصح من النقش في الحجر .

وتم لم ألبث أن رأيت تلك المودة قد استحوالت عداوة أقطع من الموت ،
 وأنفذ من السهم ، وأمر من السقم ، وأوحش من زوال النعم ، وأبج من
 حلول النقم ، وأمضى من عقم الرياح ، وأضر من الحمق ، وأدمى من غلبة
 العدو ، وأشد من الأسر ، وأقسى من الصخر ، وأبغض من كشف الأستار
 وأنأى من الجوزاء ، وأصعب من معاناة السماء ، وأكبر من رؤية
 المصاب ، وأشنع من خرق العادات ، وأفظع من فجأة البلاء ، وأبشع
 من السم الزخاف ، وما لا ينولد مثله عن الذحول والقرات ، وقتل الآباء
 وسبي الأمهات .

وتبقى نظرة ابن حزم إلى المرأة . هل أستطيع القول أنها نظرة الكثرة
 الغالبة من طبقته وفي جيله ؟ . مهمت أن أرجح ذلك ، لولا أن ابن حزم
 حرر كتابه ولما يتجاوز الثامنة والعشرين من عمره ، وهي سن تغلب فيها
 الحماسة والاندفاع والانفعال ، فيجئ حصاها الفكرى متسما بالقوة والتوهج ،
 ولكنه أقرب إلى الذاتية المنفعلة منه إلى الموضوعية المتألمة ، ولعله فيما عاش
 من أعوام امتدت به حتى قاربت السبعين ، طامن من حدته ، وأعاد النظر في
 أفكاره ، ولو أنها في جوهرها ظلت صحيحة وصليحة دون ما شك . وقد
 أنصفها في مواطن كثيرة ، فيرى أن الرجال والنساء سواء في قمع الشهوات
 والميل إليها : « وما رجل عرضت له امرأة جميلة بالحلب ، وطال ذلك ،
 ولم يكن ثم مانع ، إلا وقع في شرك الشيطان ، واستهوته المعاصي ، واستفزه
 الحرص ، وتغوله الطمع . وما امرأة دعاها رجل بمثل هذه الحالة إلا وأمكنته ،
 حتما مقضيا ، وحكما نافذا » . « وشئ أصفه لك تراه عيانا ، وهو أنى ما رأيت
 قط امرأة في مكان نحس أن رجلا يراها ، أو يسمع حسها ، إلا وأحدثت
 حركة فاضلة كانت عنها بمعزل ، وأنت بكلام زائد كانت عنه في غيبة ،
 مخالفين لكلامها وحركتها قبل ذلك ، ورأيت اللهم لخارج لفظها ، وهيتها
 تغلبها ، لا تخافها ، ظاهرا عليها ، لا يخفاه به . والرجال كذلك إذا أحسوا
 بالنساء » .

«ولست أبعد أن يكون الصلاح في الرجال والنساء موجوداً ، وأعوذ بالله أن أظن غير هذا ، وإنى رأيت الناس يغلطون في معنى هذه الكلمة ، أعنى الصلاح ، غلطاً بعيداً . والصحيح في حقيقة تفسيرها أن الصالحة من النساء هي التي إذا ضبطت انضبطت ، وإذا قطعت عنها الدرائع أمسكت ، والفاسدة هي التي إذا ضبطت لم تنضبط ، وإذا حبل بينها وبين الأسباب التي تسهل الفواحش تحيلت في أن تتوصل إليها بضروب من الحيل . والصالح من الرجال من لا يداخل أهل الفسوق ، ولا يتعرض إلى المناظر الجالبة للأهواء ، ولا يرفع طرفه إلى الصورة البديعة التركيب . والفاسق من يعاشر أهل النقص ، وينشر بصره إلى الوجوه البديعة الصنعة ، ويتصدى للمشاهد المؤذية ، ويحب الخلوات المهلكات . والصالحان من الرجال والنساء كالنار للكامنة في الرماد ، لا تحرق من جاورها إلا بأن تحرك ، والفاسقان كالنار المشتعلة تحرق كل شيء ، »

ويرى أن المعاناة اليومية إذا جارت ، والخدمة إذا تجاوزت الحد ، والغذاء إذا قل ، تذهب بجمال المرأة وتأتي على نضارتها ، «ولما النساء رياحين متى لم تعاهد نقصت ، وبنته متى لم يهتبل بها استهدمت . ولذلك قال من قال : إن حسن الرجال أصدق صدقاً وأثبت أصلاً ، وأحق جودة ، لصبره على مالقى بعضه وجوه للنساء لتغيرت أشد التغير ، مثل الهجير والسموم والرياح ، واختلاف الهواء وعدم الكن . » ولست أرى الأمر كذلك ، فالحن أن الرجل والمرأة في هذا سواء أيضاً .

ولم يكن ابن حزم يرمى في سماع الغناء ، ولو من امرأة ، أو الموسيقى ، شيئاً يكره ، أو يخالف قواعد الشريعة ، مادامت المتعة تخرج من الفن وحده ، دون أن تحرك المرأة كأنثى في أعراق الرجل للذات الشهوة ، ويقول عن نفسه : «وإنى أذكر أنى دعيت إلى مجلس فيه بعض من تستحسن الأبصار صوته ، وتألف القلوب أخلاقه ، للحديث والمجالسة دون منكر ولا مكروه ، فسارعت إليه ، وكان هذا سحراً . » لقد استجاب ابن حزم للدعوة ، ولكنه أمسك عن الذهاب ، بعد أن صلى الصبح ، وأخذ زيه ، لأن فكراً طرقة ، فستحت له أبيات من الشعر ، فبقى معها حتى أكملها ، ثم كتبها ودفعها إلى صديق كان معه .

ولم يكن ابن حزم يحسن الظن بالمرأة كثيراً ، وهى تديجاً طبيعية لما مر تحت عينه من تجارب وأحداث ، حين كان صبياً ، أو فى سن فتية ، فلم يستطع لها تعليلاً علمياً ، ولا ردها إلى أسبابها المنطقية ، ولا نسي شيئاً مما رآه بينهن ، فأدى ذلك إلى غيرة شديدة طبع عليها ، وسوء ظن فى جهنهن فطر عليه ، وقد أشرف من أسبابهن على غير قليل .

ونلاحظ فى نهاية المطاف أن ابن حزم على امتداد كتابه أمسك عن أية إشارة تتصل بحياته الأسرية ، ولم يعرض لأية أحداث تتصل بعائلته ، فلا نعرف شيئاً ، ولو عارضاً ، عن زوجه أو أمه ، خارج اعترافاته الذاتية عن غرامياته ، ولم ينته فى أى منها إلى زواج ، وعدا حديثه عن أخيه أبى بكر وزوجه عاتكة . ولا نجد بين صفحات الكتاب صدى لولادة بنت المستكفى ، وعاصرت ابن حزم ، وكانت حديث قرطبة ومنتدياتها ، لأن ولادة أخذت طريقها إلى الشهرة والتحرر بعد وفاة والدها الخليفة المستكفى عام ١٠٢٥م ، وهى على أبواب السادسة عشرة من عمرها ، طرية الإرادة ، فقلا من التجربة تشق طريقها إلى المحبة خائفة وجللة ، وسط أحداث صاخبة ، وفى عاصمة قلقة ، تبيت على فتنة وتصبح فى بركان . ومع خطاها الأولى لم يكن ابن حزم فى قرطبة ، كان خارجها ملاحقاً ومضطهداً ومنعياً ، وقبل هذا التاريخ لسنوات ثلاث تقريباً كان فى شاطبة يحرق رسائله ، ولم يكن ساعته فى حياة ولادة ما يرفعها إلى مرتبة أن تصبح واحدة من بطلات الطوق ، وأن تدخله تاريخاً يروى ، وحدثاً يسجل ، وعرفها ابن حزم على التأكيد طفلة ، كما عرف أبوها ، وكان قد ألقى به فى « المطبق » أقسى سجون قرطبة ، مع ابن عمه (١) أبى المغيرة واحتفظ له ابن حزم بكرامية عميقة واحتقار شديد ، ولا يعرض الكتاب لغير نساء الطبقة العليا من قريب أو بعيد ويحى حديثه عن المرأة أصلاً فيما يتصل بموقفها محبوبة أو حاشقة ، وهو الموضوع الذى أدار عليه رسائله ، ويحى غيره قليلاً وعرضاً ، للتأكيد أو التذليل أو التوضيح ،

(١) أنظر صفحة ٦٦ من هذا الكتاب .

مؤلفات فى الحب

سبق طوق الحمامة

شغلت قضية الحب العرب علماً مع بداية الازدهار الثقافي ، من مطلع القرن التاسع الميلادى ، حين وضع كل شئ على بساط البحث ، وتعرضت كل الآراء لسهام النقد ، ونظر الباحثون فى كل المسلمات ، وشغل العصر بألوان من الفكر والجدل ، والإيمان والإنكار ، على نحو لا تتسع له الحياة إلا حين ترقى ، وبه حسابك أن حياتنا الإسلامية الآن ، بعد ألف عام كاملة من الزمان ، لا تتسع لمثل هذه الألوان من الدرس ومن الخلاف .

يذكر المسعودى فى الجزء الثانى من كتابه « مروج الذهب » : « تنازع الناس فى ابتداء وقوع الهوى وكيفية ، وهل ذلك من نظر وملمع واختيار واضطرار ، وما عاد وقوعه بعد أن لم يكن ، وزواله بعد كونه ، وهل ذلك فعل النفس الناطقة أو الجسم وطباعه » (١) .

وتضم طبعة باريس منه ، فيما يذكر المستشرق جوستاف فون جرنباوم ، حديثاً مفصلاً عن مجلس فى قصر يحيى بن خالد البرمكى ، ضم اثنى عشر مسلماً وموبذاً واحداً ، قدم كل واحد منهم رأيه فى طبيعة العشق ، فى جمل محكمة ، تتفق جوهرها ، وإن اختلفت شكلاً وتركيباً ، وجملة مارأوا : أن الحب ثمرة المشاكلة بين المحب والمحجوب ، ولا يكون إلا بازدواج النفسين ، وامتزاج الشكلين ، وهو دليل على تمازج الروحين . ومن اعتدال للصورة ، وتكافؤ فى الطريقة ، وملاءمة فى الهمة ، ويتخلل فى القلب كما تتخلل قطرات المطربين ذرات الرمل . وهو سحر ، أخفى وأحرمن الجمر ، والمحب جواد مشرق الطبيعة ، فائق للشمائل ، وينبعث من نجانص الأرواح نور ساطع نهز لإشراقه طبائع الحياة ، فيصير من ذلك الملح نور خالص ،

لاصق بالنفس ، متصل بجوهريتها ، يسمى عشقاً . والعشق نار تأنجج في القلب ، يعقد اللسان ، وبه يصبح المحب عبداً مملوكاً ، ولا ينجح فيه علاج ، والإفراط فيه يحطم الجسد ، ويعانى المحب من اللوعة والأرق ، و صومه البلوى ، وإفطاره الشكوى ، وهو أشرف سبب للفناء .

وهؤلاء الرجال كما سماهم المسعودى (١) :

• على بن المهيم ، ولم أذكر له على ترجمة فيما بين يدي من المصادر

• أبو مالك الحضرمي ، وليست له أية ترجمة فيما رجعت إليه من

المصادر .

• محمد بن الهذيل العلاف ، أبو الهذيل ، ولد حوالي سنة ١٣٥ هـ -

٧٥٢ م ، وتوفي ٢٢٦ أو ٢٣٥ هـ - ٨٤٠ أو ٨٥٠ م ، وكان مولى لقبيلة

عبد القيس ، وتلميذ عمرو بن عبيد ، وهو مولى كذلك ، وعرف بالصلاح

والتقوى ، واشتهر بالزهد والورع ، واعتنق رأى واصل بن عطاء في

الاعتزال ، وألف كتباً كثيرة لم تصلنا . وبعد أبو الهذيل من كبار المعتزلة ،

وهو المؤسس الحقيقي للتأليف في علم الكلام .

• هشام بن الحكم الكوفي ، المتوفى نحو عام ١٩٠ هـ - ٨٠٥ م ،

متكلم مناظر ، كان شيخ الإمامية في وقته ، ولد بالكوفة ، ونشأ في

واسط ، وسكن بغداد ، وانقطع إلى يحيى بن خالد البرمكي ، فكان القيم

بمجالس كلامه ونظره ، وصنف كتباً منها : الإمامة ، والقدر ، والشيخ

والغلام ، والرد على المعتزلة في طلحة والزبير ، والرد على الزنادقة ، وغيرها .

وكان حاضر الجواب ، مثل عن معاوية : أشهد بدرا ؟ فقال : نعم ، من ذاك

الجانب ! ، ولما حدثت نكبة للبرامكة استتر ، وتوفى على إثرها بالكوفة ،

ويقال عاش إلى خلافة المأمون .

• إبراهيم بن سيار النظام ، أبو إسحاق ، كان من أعظم تلاميذ محمد بن

١ - فون جرفباوم ، دراسات في الأدب العربي ، ص ٨٧ وما بعدها ، ترجمة إحسان

حياتى وآخرين .

المذليل العلاف ، ترك البصرة موطن نشأته إلى بغداد بعد مدة ، وتوفى بها في
حنفوان شبابه ، بين سنتي ٢٢٠ و ٢٣٠ هـ - ٨٣٥ و ٨٤٥ م ، ووقف حياته
على مقاومة الدهرية والذهبانية ، أو بمعنى آخر ضد الفلاسفة الهلينيين ، والتي
أثرت على الرخم من هذا في بناء مذهبه الديني تأييداً حاسماً ، ودافع عن
القول « بخان القرآن » ، وحارب قول الخنقية « بالرأى والقياس » ، وكان
إلى جانب ذلك بارعاً في اللغة والجدل وقول الشعر ، وكان الجاحظ من أظهر
تلاميذه ومريديه ، وقد تعارفا في البصرة في مجلس أبي المذليل العلاف ، رغم
أن التلميذ كان يكبر أستاذه بعشرين عاماً ، إلا أن الأستاذ كان يتمتع بميزة
عالية في علم الكلام ، وبمكانة اجتماعية رفيعة .

• علي بن منصور ، ولم أعثر له على ترجمة فيما بين يدي من المصادر ،
المعتمر بن سليمان بن طرخان ، أبو محمد ، ولد سنة ١٠٠ هـ - ٧١٨ م
وتوفى عام ١٨٧ هـ - ٨٠٣ م ، كان وأبوه من العباد التمسك ، ومن حفظة
الحديث في البصرة ، انتقل إليها من اليمن ، وكان ثقة ، حدث عنه كثيرون
منهم أحمد بن حنبل ، وله كتاب في المغازي .

• بشر بن المعتمر ، أبو مهمل ، المتوفى عام ٢١٠ هـ - ٨٢٥ م ، ينحدر
من الكوفة ، ولكنه استوطن بغداد ، ونظم تعاليم المعتزلة في شعر لتشييع بين
الناس ، وكان من أنصار الإمام علي رضي الله عنه ، على النقيض من
معتزلة الكوفة ، فوضعه هارون الرشيد في السجن ، غير أنه عاد فاكسب
نفوذاً قوياً في عهد المأمون وانتهت إليه رئاسة المعتزلة في بغداد ، وكان إلى
جانب ذلك شاعراً ، وله قصيدتان تعليميتان أوردهما الجاحظ في كتابه الحيوان
وشرحهما ، وألف هارون الرشيد « صحيفة » في البلاغة أوردها الجاحظ
في كتابه « البيان والتبيين » .

• ثمامة بن أشرس النعمري ، مولى بني نمير ، كان زعيماً للتدرية في
زمان المأمون والمعتصم والوائقي ، وهو الذي دعا المأمون إلى الاعتزال ،
وتروى عنه قصص تشبه إلى استغفافه بالدين ، من ذلك أنه رأى الناس

يوم الجمعة يتعادون إلى المسجد الجامع خوفاً من فوت الصلاة ، فقال لرفيق له : أنظر إلى هؤلاء الحمير والبقر ! ، ثم قال : ما صنع ذاك العربي بالناس ، وقتل ثمانية في زمن الوائتق ، وقيل توفي عام ٢١٣ هـ — ٨٢٨ م .

• السكال ، من الإمامية ، ولعله محرف عن « السكاك » ، وهو الذي جادل جعفر بن حرب ، وتوفي عام ٢٣٦ هـ — ٨٥٠ م ، وصاحب هشام بن الحكم ، ولم أجد في كتب التراجم ما يلقى على شخصية المزيدي من الضوء .

• الصباح بن الوليد ، من المرجئة ، ولم أعثر له على ترجمة فيما بين يدي من المصادر .

• إبراهيم بن مالك ، فقيه بهري ، جدل لا يعرف له مذهب ، ويظن جرنباوم أنه : إبراهيم بن مالك بن بهبود البزاز ، المتوفى عام ٢٦٤ هـ — ٨٧٧ م ، ولم أجد في كتب الترجمات التي بين يدي ما يدعم هذا الكلام ، أو ينقبه ، أو يضيف إليه جديداً ، انتهى على شخصية الرجل مزيداً من الضوء .

• والشخصية الأخيرة هي المويدي ، أي قاضي الجوس ، واكتفى المسعودي بوظيفته دون أن يقدم لنا اسمه ، أو من يكون .

فأنت ترى أننا أمام حشد من رجال الفكر ، يمثلون مختلف جوانبه ، فيهم المسلم والمجوسي ، والمتكلم والفيلسوف ، والأديب والفقهاء ، ويكاد اجتماع هؤلاء في مجلس واحد أن يكون ضرباً من المستحيل ، ولكنه دون شك يقدم لنا تصوراً دقيقاً وموجزاً لما كانت عليه أفكار العلماء ، في البيئات الثقافية المختلفة . عن الحب ومشاكله ، ونجد صداها واضحاً عند بعض الشعراء المعاصرين لهم ، وبخاصة عند المباس بن الأخنف ، وفي مؤلفات الدارصين من تلاميذهم ، ومن جاءوا بعدهم .

• • •

كان الجاحظ (٧٦٧ — ٨٦٨ م) ، فيما أعلم ، أول مؤلف عربي كتب في الحب الإنساني ، وقد عاصر بعض من ذكرنا في الفترة السابقة ، وتعلم

على البعض الآخر ، وجاء حديثه عنه مختلفاً عن الجميع ، مستمداً من منهجه في الكتابة ، فهو يجمع بين القسوية والمسامرة ، والإفادة والتعليم . ولقد عرض له في موضعين ، أولهما في كتابه « الحيوان » ، حيث أفاض القول عن الجانب العملي منه ، ما يحسن ويسعد ويجمل ، وما يكون في صالح طرف دون الآخر ، فيؤدى إلى الملل والنفور والتعاسة . ووازن بين ألوان ممارسته عند الشعوب المختلفة ، وبين المخاوف غير الإنسانية ، وخلال ذلك كله يلقي بتجاربه وملاحظاته ، وهي مفيدة ومتقدمة ، وتقع من العلم الحديث موقع الرضى ، ويتحدث عنها صريحاً ، لا يتحرج ولا يوارى ولا يكفى . وكان « الحيوان » مما كتب في أواخر حياته ، فجاء حافلاً بالمعارف الصادقة في هذا الباب .

وأما الكتاب الثانى فرسالة صغيرة « فى العشق والنساء » ، وهى فيما يبدو مقتطفات من كتاب لم يكن الجاحظ راضياً عنه كلى الرضى ، أو لعله رأى فيه ما يثير مشاعر المحافظين ، « وكان يحرص دوماً على أن تكون حياته الخاصة ملكاً له ، لا يجاهر بمعضية ، ولا يباهى بنخطيئة ، يؤثر السر ، ويتعد عن مواطن الإثارة ، ولا يرى فى مداراة العامة عيباً ، ويتخذ من مرضاتها مذنباً ، ما دام ذلك لا يجعله على غير ما يرغب فيه من الأفكار والعادات » (١) ويقول فى خاتمة الرسالة ، معذراً عن الإطناب فيها : « فمنع من ذلك فرط الكبر ، وإفراط العلة ، وضعف المنة ، والتحلال القوة ، فلما وافق هذا الكتاب منا هذه الحال ، وألقى قلوبنا على هذه الأشغال ، اجتنبنا أن نقصد من جميع ذلك إلى فرق ما بين الرجل والمرأة ، فلما اعتزمنا على ما ابتدأناه ، وجدناه قد اشتمل على أبواب يكثُر عددها ، وتبعد غايتها فرابتنا - والله الموفق - أن تقتصر منه على ما لا يبلغ بالمستمع إلى السأمة ، وبالمألوف إلى مجاوزة القدر » .

(١) الدكتور الطاهر أحمد مكى ، دراسة فى مصادر الأدب ، ص ١١٢ ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٦ ، وقد نُظِّدَت والطبعة الرابعة قيد الصدور .

واختتم الجاحظ رسالته ، بما ابتدا به ابن حزم وغيره كتبهم ، معتذراً عما فيها ، « وليس ينبغي لكتب الآداب والرياضيات أن تحمل أصحابها على الجدل العرف ، وعلى العقل المحض ، وعلى الحق المر ، وعلى المعاني الصعبة ، التي تستكد النفوس ، وتستفرغ المجهود ، وللصبر غاية ، وللإحتمال نهاية ، ولا بأس بأن يكون الكتاب موشحاً ببعض الهزل . » على أن الكتاب إذا كثر هزله مخفف ، كما أنه إذا كثر جده ثقل ، ولا بد للكتاب من أن يكون فيه بعض ما ينشط القارئ ، وينفي النعاس عن المستمع . ولم يصلنا الكتاب الأصلي فيما أعلم ، ولم أجد بين من درسوا الجاحظ من وقف عند المشكلة وأبدى فيها رأياً ، ويبدو وقوع الجاحظ في الرسالة مختلفاً ، غامضاً ومضطرباً ، وملتقى به في السطور الأولى كمن يكمل حديثاً ليس بين أيدينا بدايته ، ويرد على قوم لا تعرف دعاوهم ، ونحن معه بين مترادفات لا تنهى إلى شيء واضح ومحدد ، وتدور الرسالة إجمالاً حول محورين

• المرأة ، ويتحدث عن مكانتها ، ويرأها أرفع حالاً من الرجل في أمور منها : « أنها التي تخطب وتراد وتعشق وتطلب ، وهي التي تغدى وتحمي ، » مما يستدل به على تعظيم شأن النساء أن الرجل يستحلف بالله الذي لا شيء أعظم منه ، وبالمشي إلى بيت الله ، وبصدقة ماله ، وعق رقيقته ، فسهل عليه ولا يأنف منه ، فإن استحلف بطلاق امرأته تروى وجهه ، وطار الغضب في دماغه ، ويمنع ويعصى ، ويفض ويأبى ، وإن كان المحلف سلطاناً مهيباً ، وإن لم يكن يحبها ولا يستكثر منها ، وكانت قبيحة المنظر ، دقيقة الحسب ، خفيفة للصداق ، قليلة النشب ، وليس ذلك إلا لما قد عظم الله تعالى من شأن الزوجات في صدور الأزواج : « ولنا نقول ، ولا يقول أحد ممن يعقل ، إن النساء فوق الرجال أو دونهم بطبقة أو طبقتين أو بأكثر ، ولكننا رأينا ناساً يزرون عليهم أشد الزراية ، ويحتقرونهن أشد الاحتقار ، ويخسونهن ، أكثر حقوقهن ، وإن من العجز أن يكون الرجل لا يستطيع توفير حقوق الآباء والأعمام إلا بأن ينكر حقوق الأمهات والأخوال ، »

ويقدم صورة مفصلة للمرأة المفضلة على أيامه عند عامة الناس ، من البصراء بمجواهر النساء ، وجهابذة الأمر ، فهم يقدمون المجدولة ، والمجدولة من النساء تكون في منزلة بين السمينه والمشوقة ، ولا بد من جودة القد ، وحسن الخط ، واعتدال المنكبين ، واستواء الظهر ، ولا بد من أن تكون كاسية العظام ، بين المتلينة والقضيفة . وإنما يريدون بقولهم مجدولة : جودة للعصب ، وقلة الاسترخاء ، وأن تكون سليمة من الزوائد والفضول . ولذلك قالوا : خمصانة وسيفانة ، وكأنها جان ، وكأنها جدل عنان ، وكأنها قضيب خيزران . والثنى في مشيها أحسن ما فيها ، ولا يمكن ذلك من الضخمة والسمينة ، وذات الفضول والزوائد ، على أن النحافة في المجدولة أعم ، وهى بهذا المعنى أعرف . . . وقد وصفوا المجدولة بالكلام المنشور فقالوا : أعلاها قضيب . وأسفلها كتيب .

• والمحور الثانى الحب ، ودوره فى حياة الناس ، وما يملية من مواقف أو يفرضه من سلوك ، وثمة رجلان لا يعشقان عشق الأعراب : أحدهما الفقير المدقع ، فإن قلبه مشغول عن التوغل فيه وبلوغ أقصاه . والملوك للضخم الشأن ، لأن فى الرئاسة الكبرى ، وفى جواز الأمر والنهى ، وفى ملك رقاب الأمم ، ما يشغل شطرقوى العقل عن التوغل فى الحب ، والاحتراق فى العشق .

ويقسم الحب إلى مراتب ثلاث : الحب والهوى والعشق ، فالحب أصل الهوى ، ومن الهوى يتفرع العشق ، والعشق ما يهيم له الإنسان على وجهه أو يموت كدأ على فراشه . ويعرض لبعض ما يعترى العشاق والمحبين من الغضب والنفور والسلو والحنين ، ومن الرغبة والعجز والحاجة إلى إشباع الغريزة ، وسيطرة المرأة على الرجل ، واستحواذها على جانب من فكره ، على الرغم من المشاغل التى تزحم حياته ، وتستغرق فكره ، والسعادة التى تحب نوال العاشق معشوقه ، وهى سعادة ، فيما يرى الجاحظ ، لا تعدلها سعادة . ثم يقارن بين لذة الظفر بالعدو ، ونيل العاشق ، فيرى (١٨م - ابن حزم)

الثانية أقوى أثراً ، وأبلغ متعة : « فتأملنا شأن الدنيا فوجدنا أكبر نعيمها ،
وأكمل لذاتها ، ظفر المحب بحبيبه ، والعاشق بظليبه » .

والرسالة قصيرة ، لا تتعدى عشر صفحات في طبعة حسن السندوبى
لمجموعة « رسائل الجاحظ » (القاهرة ١٣٥٢ هـ = ١٩٣٣ م) ، ويغلب
على الشكل الذى جاءت فيه الطابع الإنشائى ، والملاحظات العجلة ، لا يقف
معها الجاحظ عند أية فكرة مستغرقة أو معللاً ، ولا يلتقط لها مما حواه
شاهدأ ، على جارى عادته ، إلا فى حالة واحدة :

وقد دخلت كتب الجاحظ الأندلس فى زمن مبكر ، فى حياة الجاحظ
نفسه ، فنحن نعرف أن فرج بن سلام لقى الجاحظ ، ووثقت للصلة
بينهما ، وجعتهما صداقة وطيدة ، وجاء بكتبه إلى الأندلس ، ومن بينها
« البيان والتبيين » ، أكيداً ، لكن لا يمكن الجزم بأن رسالته « فى العشق
والنساء » كانت بينها ، لأن الجاحظ فيما يبدو لم يكن راضياً عنها ، ولا حفيظاً
بها ، وأبعد منه أن تقول أن ابن حزم عرفها ، أو أفاد منها ، لأن
المنهج عند كليهما مختلف ، والنظرة متباينة ، ولا نلمح لها فى « طوق
الجمامة » أثراً .

وفى الفترة نفسها هاش أبو يوسف يعقوب ، الشهير بالكندى (٨٠٣ -
٨٧٣ م) ، وتميز بين فلاسفة عصره فى الشرق بأنه من سلالة عربية أصيلة ،
ومن ثم أطلق عليه لقب فيلسوف العرب ، وهو أول ، وآخر ، تلحيد
لأرسطو عربى الأرومة فى خلافة المشرق ، وكان انتقائياً فى فلسفته ، فحاول
على طريقة الأفلاطونية الحديثة أن يوفق بين آراء أفلاطون وأرسطو ،
ويرى أن رياضيات فيثاغورس الجديدة أساس كل العلوم . وقد جمع إلى
الفلسفة معرفة واسعة بالنجوم والكيمياء والنظريات البصرية ، والموسيقى ،
وينسب إليه عدد لا يقل عن ٢٦٥ مؤلفاً ، من بينها رسالة فى « العشق » ،
ولكنها ضاعت ، شأن معظم مؤلفاته الأخرى ، وقد شاعت كتبه فى الشرق
والغرب ، وقرأ روجر بيكون كتابه فى البصريات فى ترجمته اللاتينية ،

وباشرت تأثيراً واضحاً عليه ، ولقد حفظت لنا الترجمات اللاتينية ، ومن بينها ما قام به جبرار الكريموني ، نسبة إلى كريمونافى إيطاليا ، عدداً من مؤلفات الكندي أكثر مما هو موجود فى أصولها العربية . ورغم ذلك لا يمكن الجزم بأن مؤلفاته دخلت الأندلس صريحة ظاهرة بوجه مسفر ، وربما دخلت إليه كغيرها صريحة العلوم التطبيقية من فلك ورياضة وطب ، أو تسربت إليه مستترة فى ثنايا الاعتزال ، ولم يصلنا شيء من رسالته فى « العشق » ، ولعلها استقرت مترجمة إلى اللاتينية فى خزانة كتب مغمورة ، فى جانب من أوربا ، ننتظر اليد التى تزيح عنها الغبار . وأتصور أنها دراسة فلسفية تتناول الأمر من جنباته النظرى ، المصطل بالأكرواح والآلهة ، وليس فى « الطوق » ، ولا فى حياة ابن حزم ، ما يرجع أنه رأى الرسالة أو أفاد منها .

• • •

ثم نلتقى بعد الكندي بأبى بكر محمد بن داود الظاهرى (٨٦٨-٩١٠م) ، فى كتابه « الزهرة » ، ومن المؤكد أن كتباً أخرى ، غير ما ذكرنا ، سبقته ، ضاعت ولم تصلنا ، لأنه يذكر فى مقدمة كتابه : « وقد رأيت ممن ينسب نفسه إلى الأدب ، ويتحقق بتأليف الكتب ، قصد فى مثل هذا الكتاب إلى مقصد بعيد به عندى من الصواب ، ابتداءً بذكر من عشق من المتقدمين حتى ارتقى إلى ذكر بعض الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ، وذكر أنهم كانوا من أتباع الهوى على حال لا يجوز أن يضاف مثلها إليهم » . وهى إشارة لا يمكن أن تنصرف واقعا إلى رسالة الجاحظ ، لأنها على غير ما يصف أبو بكر ، ولا تصوراً إلى رسالة الكندي ، لأن هذه فلسفية وتلك أدبية تاريخية .

يصف أصحاب التراجم أبا بكر بأنه كان عالماً أديباً ، شاعراً ظريفاً ، من أذكى زمانه ، لى الجانب مصقول المواهب ، وكان رفاق صباه ينادونه « عصفور الشوك » لنحافته وصفوته ، وخلف والده فى رئاسة المذهب الظاهرى ولما يبلغ من العمر ستة عشر عاماً ، وتولى التدريس ، وألف فى

الفقه الظاهري وفي الأصول . وكانت بغداد على أيامه مزدهرة للثقافة ،
تدافع فيها الحركات الفكرية بكل ألوانها ، ترجمة وتأليفاً وحواراً ،
تظلمها حماية الدولة ، وتغذيها حرية واسعة بلا حدود ، أشبه بما كانت عليه
أثينا أيام سقراط ، أو الاسكندرية في عهد البطالسة ، أو فلورنسة تحت حكم
آل مديتشي ، بل إن بغداد وجدت في شخص الخلاج الصوفي الشهير
سقراطها أيضاً ، ولعب ابن داود دوراً في محاكمته ، ولكنه توفي قبل أن
أن يشهد لإعدامه في عام ٣١٠ هـ - ٩٢٢ م .

كان ابن داود حاد العاطفة منذ صغره ، ويقول عن نفسه : « ما انفكت
عن هوى منذ أن دخلت الكتاب » ، وعرف بالتقوى في الوقت نفسه ، وقاسى
من إلحاح الرغبة ومقتضيات العفة ، ومن ثم وجد متنفسه في البحث عن
مثل أعلى في الحب وفي الحياة ، تستطيع رغباته المكبوتة أن تعبر عن نفسها
من خلاله ، فبدأ يؤلف كتاب الزهرة منذ حداثة ، ولما يزل تلميذاً يتردد
على الكتاب ، وأطلع أباه على أكثره ، وإذا عرفنا أن الأب توفي عام ٨٨٣ م ،
أدركنا أن ابن داود كتب الجانب الأكبر من كتابه ولما يتجاوز السنة عشر
عاماً من عمره ، ولو أن ذلك لا يعني بالضرورة أن الكتاب أخذ شكله النهائي
في هذه السن ، وربما كان اختيار الأشعار يعود إلى هذه الفترة ، أما المقدمات
والأفكار وترتيب الأبواب فجاء في مرحلة تالية . وقد شهر صباه بالميل
إلى محمد بن جامع الصيدلاني ، وعمل كتاب « الزهرة » بسببه ، فيما يروى
الخطيب البغدادي ، وإليه توجه بالحديث في المقدمة دون أن يشير إلى اسمه ،
أو يوصي إلى صفات تحدده .

مهد أبو بكر لكتابته بمقدمة مسجوعة ، ثم عرض لمنهجته ، فلذكر أنه
استودعه مئة باب ، ضمن كل باب مئة بيت ، ذكر في الخمسين باباً الأولى
منها جهات الهوى ، وأحكامه وتصاريفه وأحواله ، وجعل الأبواب المنسوبة
إلى الغزل أمثالا ، ورتبها على ترتيب وقوعها حالا فحالا ، فقدم وصف
الهوى وأسبابه ، وبسط ذكر الأحوال العارضة فيه بعد استحكامه ، ومن

الهجر والفراق وما توجه غلبات التشوق والإشفاق ، ثم ختمها بذكر الوفاء بعد الوفاة ، بعد أن أتى على ذكر للوفاء في الحياة ، ووضع لكل باب عنواناً مسجوعاً ، مثلاً محكمة ، يومئ إلى محتواه ، مثل : « من كثرت لحظاته دامت حمراته ، العقل عند الهوى أسر والشوق عليهما أمير ، من تداوى بدائه لم يصل إلى شفائه ، ليس بلييب من لم يصف ما به لطيب ، إذا صح الظفر وقعت الغبر » وعلى هذا النحو يمضي في بقية الأبواب .

أما الخمسون باباً الأخرى فأفانين من الشعر ، اقتصر فيها على قابل من كثير ، وقع من كل فن باليسير ، وأشار إلى منهجه فيها عند نهاية القسم الأول ، وجاءت أبوابه على النحو التالي : « ما قيل في تعظيم الله ، ما مدح به النبي وما استشهد به وأشد بين بدبه ، ما قاله شعراء الإسلام في أهل بيت النبي ، مرأى الملوك والسادات وأهل الفضل والرياسة ، نوح الأهل والأخوان على ما قتلوه من الشجعان ، ذكر النوح على من مات من الأبناء والقربات ، ذكر من جزع فاحتاج إلى تعزية أوليائه ومن رزق الصبر فاستغنى بحسن عزائه ، ذكر التزهيد فيما يفنى والترغيب فيما يبقى ، ذكر أشعار الظرفاء من الملوك والخلفاء ... » ويمضي المؤلف في عناوين أبواب النصف الثاني على هذا النحو . وهذا القسم ليست له أية صلة بموضوع العشق ، وإنما هي مختارات شعرية تتناول قضايا عامة ، مما يدور حولها الشعر العربي عادة ، وتعرض لها كتب السمر والمختارات ، يعلق عليها بر أي مقتضب له ، أو يتمثل عن غيره ، ومن بين الشعراء الذين تتردد أسماءهم كثيراً : عمرو القيس وأمية بن أبي الصلت ، والناطقة الذبياني ، والقطامي ، والحطيئة ، وأبو تمام ، والبحري ، وبشار بن برد ، وجميل بن معمر ، والحسن بن الضحاك ، وفخر الرمة ، ومجنون بني عامر . ولم يهمل الآحاد غريب المشهورين من الرجال والنساء ، المعاصرين له أو الذين بلغته الرواية عنهم ، على غير السائد في عصره ، وبين المؤلفين على أيامه .

لقد وصف المستشرق الفرنسي ماسينيون في كتابه « محنة الحلاج »

كتاب الزهرة « بأنه كتاب رائع عن الحياة للعاطفية في تلك الأيام ، ومعرض غنى بآراء المفكرين والأدباء في بغداد ، وما كان يدور بأذهانهم عن موضوع الحب » ، ويمكن أن نقول : « إنه أول مجموعة من الشعر ، تدور حول الحب الأفلاطوني ، قيلت في اللغة العربية في بغداد خلال النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي » .

وصل كتاب الزهرة إلى قرطبة ، كأشياء كثيرة من المشرق ، في زمن مبكر ، مبشراً بالحب العذري بين الأندلسيين ، وبعد ثلاثة أرباع القرن من تأليفه ، أثناء خلافة الحكم الثاني ٩٦٦-٩٧٦ ، ألف ابن فرج الحبانى ، ويجب أن يكون قد مات في السجن عام ٣٦٦ هـ = ٩٧٦ م ، كتاب الحداثى ، مختارات من شعر الأندلسيين ، نحا فيه منحى ابن داود في كتابه الزهرة ، وحاول أن يبزه ، فجعل « الحداثى » في مائتى باب ، يضم كل باب مائتى بيت من الشعر ، ليس منها باب تكرر اسمه لأبى بكر ، ولم يورد فيه لغير أندلسى شيئاً ، ويبدو أنه لم يقف بتقليده عند الشكل ، وإنما تجاوزه إلى المحتوى ، فقد حفظ لنا اللذين نقاوا عنه قصيدة له تفيض عذوبة وتنضح عذرية :

وطاعة الوصال عقت عنها	وما الشيطان فيها بالمطاع
بدت في الليل سافرة فباتت	دياجى الليل سافرة للقناع
وما من لحظة إلا وفيها	إلى فتن القلوب لها دواعى
فملكك النهى جمحات شوق	لأجرى في العفاف على طباعى
وبت بها مبيت السقب يظما	فيمنعه الكهام من الرضاع
كذاك الروض ما فيه لمثل	سوى نظر وشم من متاع
ولست من السوائم مهملات	فأتحذ الرياض من المراعى

ولم يصلنا كتاب « الحداثى » لسوء الحظ ، فلا نعرف عنه إلا القليل جداً الذى نقله عنه من جاءوا بعده ، وضاعت معه ثروة هائلة من الشعر الأندلسى تباع أربعة عشر ألف بيت ، في هذه الفترة المبكرة من الحياة الأدبية في الأندلس ، فلم يكن قد مضى على فتحه غير قرنين ونصف من الزمان .

أخذ كتاب الزهرة شعراً وانجماً جانب الحب العذرى ، (وهو موقف ،
فما يرى غرسية غومث في مقدمته لترجمة الطوق إلى الإسبانية ، يمثل ثورة
حقيقية ، لانعرف بالدقة حجم صداها في واقع الحياة ، لكن دورها في
شعر الغزل الأندلسي ، على الأقل ، كان واضحاً وملحوساً . لقد كان
الشعر قبله قصائد تدور حول الأغراض التقليدية المعروفة ، أو مقطعات
كثيرة ذات نغم فظـ وشبق ، مثل ما نجد في شعر الغزال ، شاعر إسباني
كبير من القرن التاسع الميلادي . وقد وجد هذا التجديد الثائري في شعر الغزل
أنصاراً متحمسين خلال فترة الحجابة العامرية ، وتبنته أخيراً أقلية من
الشباب ، يوجهها ابن شهيد وابن حزم ، وجعلته بين دعائم منهجها
الجمالي ، ووجدت في الأخير خير من يدافع عنها ، وربما واحداً من قلائل
حاول احتضانها في حياته ، وأعطاهم للطابع الأدبي النهائي بكتابه « طوق
الحمامة » ، بمزوجة باللفظ ولون فريد من العفة ، ويمكن أن تدعوها
إفلاطونية ، كما يقال عادة وفي تعبير شائع .

لقد عرف ابن حزم كتاب الزهرة لابن داود مباشرة ، وهي حقيقة
لما ندرس كما يجب ، ذلك أن الأديب القرطبي عرف للفكر الظاهري في
زمن مبكر ، سبق بكثير مما يظن عادة ، وقد ارتبطت نظرية الحب
للبيغدادى المصقول ، إلى حد ما ، بوجود المذهب الظاهري ، غير أنه من
الضروري أن نضيف ، إنه على الرغم من وجود إشارة نصية بسيطة ،
ومن التوافق في الاتجاهات العاطفية ، فإن « الطوق » لا يكاد يدين « الزهرة » ،
بشيء ، أو إن شئت يدين لها بشيء محدود للغاية . لقد تغربت النظرية
وتأسبت ، وفقدت نكلفتها الواضح ، وتحولت إلى الخنث ، وما كان يقال في
بيغداد نراً رقيقاً ، أو شعراً ملتقطاً ، أخذ ابن حزم بقوله في شاطبة ،
دافئاً وإنسانياً ، عن نفسه وعن أصدقائه في قرطبة ، وأنت العاطفة
واللهفة ، وهما خاصيتان إسبانيتان ، على أسوار القلعة التي تحول دون

تدفق النبع ، فارتووا من أعماقه ، ولكنهم مزجوه بدمائهم . إن الزمن لم يذهب عبثاً ! .

إجمالاً أنا مع غرمية غومث فيما ذهب إليه ، لأن النقاء ابن حزم ، كما سترى ، مع ابن داود في أكثر من فكرة لا يقلل من أصالته ، لأنه تناول الأمر على نحو مختلف تماماً ، وإن اتفقا في رأس الموضوع وعنوانه .

أول ما نلاحظ من اتفاق بينهما أن كليهما استجاب في تأليف كتابه لعاطفة دافعة ، ميل ودود عند ابن داود لشخص لم يصرح به ، وذكر المؤرخون اسمه ، « شكاً إليه عدم وجود نديم بأنس به في الخلوات ، ويجد عنده العزاء عن النقايات ، يورد له الأخبار ويكتم عليه الأسرار ، فلما رأى ما به من غلبة الاشتياق ، ومن مبل إلى تعرف أحوال العشاق ، عزم على أن يوجه إليه نديماً يشاهد به أحوال المتقدمين ، ويحضره أخبار الغائبين ، ينشط بنشاطه ويعمل بملاله ، إن أدناه دنا ، وإن أقصاه نأى » . وصداقة متينة عند ابن حزم وربطته بشخص من المرية لم يصرح باسمه ، ولم يحفظه لنا التاريخ ، لقيه فيها أيام أن هبطها لاجئاً ، مهبط الجناح وحيداً ، إلا من رفقة مواسية ، وما لبث أن لحق به ، بابن حزم حين ترك المرية إلى شاطبة ، كتب إليه أولاً ، ثم شخص إليه ثانية : « فلن كتابك وردني من مدينة المرية إلى مسكني بمحضرة شاطبة ، تذكرك من حسن حالك ما يسرني ، وحمدت الله عز وجل عليه ، واستمدته لك ، واستزدته فيك ، ثم ألبث أن اطاع على شخصك ، وقصدتني بنفسك ، على بعد الشقة ، وتناى الديار ، وشحط المزار ، وطول المسافة ، وغول الطريق ، وفي دون هذا ما سلى المشتاق ، ونسى الذاكر ، إلا من تمسك بحبل الوفاء مثلك ، ورعى مآلف الأذمة ، ووکید المودات ، وحق الشاة ، ومحبة الصبا ، وكانت مودته لله تعالى » . « وكلفتنى - أعزك الله - أن أصنف لك رسالة في صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه ، وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة ، لا تزيد ولا نقصاً ، لكن مووداً

لما يحضرنى على وجهه ، وبحسب وقوعه ، حيث انتهى حفظى وسعة باعى
فما أذكره ، فبدرت إلى مرهوبك ، ولولا الإيجاب لك لما تكلفته .

وكلاهما دافع عن نفسه فى مواجهة اتهام بعض معاصريه له ، أن
الكتابة فى العشق أمر لا يلقى بأولى الفضل ، يرفع ابن داود فى وجهه ،
معارضيه رأيه : « ونحن لو شئنا أن نذكر من كتاب الله جل وعز ،
ومن أخبار المتقدمين من أنبيائه ، وأيضاً نخبر من أوليائه ، ما يسهل
صيل الهوى على من أنكرها ، ويتربها من فهم من لم ير أثرها ،
من حيث لا يستوجب به من عاقل أنكار ، ولا يلحق بأحد من
الأئمة فيه عار ، لرجونا بإذن الله أن لا نقصر عن ذلك . غير [
أن هذا الأمر ليس من أمور الديانات التى لا تثبت إلا بالاحتجاجات ، وإنما
هو شئ يختص به قوم بركة طبعهم ، وتآلف أرواحهم ، فن كان مثلهم
فهو يعذرهم ، ومن خرج عن حدهم هان قوله . ويرد ابن حزم على
ناقديه : « وأنا أعلم أنه سينكر على بعض المنعصبين على تأليفى لمثل هذا ،
ويقول : إنه خالف طريقته ، ونجافى عن وجهته ، وما أحل لأحد أن
يظن فى غير ما قصدته . »

وفى يتعلق بذكر أسماء العشاق ، يتحرك ابن داود فى نطاق دينى
خالص ، فيرفض ما يلهج به الناس على أيامه من عشق الأنبياء ،
وأنهم كانوا من أتباع الهوى ، على حال لا يجوز أن يضاف مثلها إليهم ،
لأن « إذاعة تلك الأخبار على العامة ونشرها بين الناس خطأ ،
فإن العامة قد تفهمها على غير وجهها ، وتستند إليها فى التفریط والعصيان
أو تضعها موضع الإنكار ، ولبيبون عليهم السلام ، والصالحون من أئمة
أهل الإسلام ، يحل مقدارهم عن أن تذكر للعوام أخبارهم ، فيضعوها فى غير
موضعها إن قبلوها ، أو يكذبوا حاكبيها إن أنكروها . » ولم يكن فى حاجه
لأن يوضح موقفه من غير هؤلاء ، لأنه لم يعرض لأحد من معاصريه ،
إلا ما كان فصيحاً شائعاً ، يتناشده السمار . ويصدر ابن حزم فى هذا

الجلاب من منطلق رفيع ومتحضر ، يأخذ الشواهد مما رأى وسمع وحدث له ، ولكنه يلزم نفسه الكتابة عن الأسماء ، « فهي إما عورة لا نستجيز كشفها ، وإنما نحافظ في ذلك صديقاً ودوداً ورجلاً جليلاً ، وبحسبي أن أسمى من لا ضرر في تسميته ، ولا يلحقنا والمسمى عيب في ذكره ، إما لا شهر لا يغني عنه الطي وترك التبيين ، وإما لرضا المخبر عنه بظهور خبره ، وفلة إنكار منه لنقله » . ويرفض أن يقحم نفسه في الحياة الخاصة لأمراء عصره ، « وإنما هو شيء كانوا ينفردون به في قصورهم مع عيالهم ، فلا ينبغي الإخبار به عنهم » ، لأن « حقوقهم على المسلمين واجبة ، وإنما يجب أن نذكر من أخبارهم ما فيه الحزم وإحياء الدين » .

وقد يتفق العنوان عند الإثنين ويختلف المحتوى : فكل الإثنين ، ابن داود وابن حزم ، خص الرقيب بباب خاص ، ولكن شتان بين معالجة الإثنين ، الأول غرق في مختارات من الشعر بعد خمسة سطور ، على حين عرض ابن حزم لأمر الرقيب في جوانبه المختلفة ، وقدم عليه شواهد من عصره ، ومختارات من شعره ، ولو أن حديثه أيضاً كان قصيراً نسبياً .

والشيء نفسه يمكن أن يقال عن « الرسول » ، وهو السفير عند ابن حزم ، قدم ابن داود لهذا الباب بحكاية عن جميل ، يغلب عليها طابع القصة المخترعة ، دون أن يزهد شيئاً ، بينما تحدث ابن حزم عن دور السفير وهيئته وصفاته ، وما يجب أن يتحقق فيه من شرائط ليؤدي مهمته على أكمل الوجوه ، وعدد من كانوا يقومون بهذه المهمة حرفة أو تطوعاً . وكان فيه ، كالعادة ، موقفاً يقف على أرض الواقع ، ونلاحظ أن ابن حزم فرق بين الرسول ، وأسماء السفير ، وهو من يقوم بالمهمة بنفسه شخصياً ، وبين المراسلة وتم غن طريق تبادل الرسائل ، مما ينبغي أن القراءة والكتابة كانت شائعة في الأندلس بين الرجال والنساء ، وعند كل الطبقات ، ويبدو أنها لم تكن في بغداد على هذا المستوى ، لأن ابن داود لم يعرض لهذا الضرب منها ، لا في باب « الرسول » ولا في باب آخر مستقل بها .

وكلاهما أوقف على الوشاية باباً مستقلاً . وكسره ابن داود على ثلاثة أقسام : سعاية المتحابين إلى غيرهما ، وسعاية المحب إلى محبوبه ، وسعاية المحبوب لمحبه ، وهي قسمة تانح فيها جانب المنطق الشكلى ، لأنها الصور العقلية للقضية ، دون أن يعنى ذلك أن لها الطابع نفسه فى واقع الحياة . وجعل التأثير بالوشاية على ضربين ، لأنه يختلف تبعاً لأحوال العشاق : « فالعشاق المتحمسون لا يقبلون قول الوشاة بل لا يسمعون ، لأن الثقة منهم بأحبائهم ماحية لقول من وشى بهم . » وأما أهل الوله المتوهمون فيقبلون مالا يسمعون فضلاً عما يسمعون . وعرض ابن حزم للوشاية فى حديث مستفيض ، قسمها من حيث الغاية على ضربين : واش يريد القطع بين المتحابين أذية ، وثان يسعى للقطع بينهما لينفرد بالمحبيب ويستأثر به ، وألحق بهما ثالثاً يسمى بهما جميعاً : ويعرض لوسائل الوشاي وألوانها تفصيلاً ، فى حديث طويل يتناول فيه الكذب والخيلة ودورهما فى إفساد المجتمع بعامه ، ويفرق بين الخيلة والنصح تفريقاً جميلاً ، ويحمل عليهما بشدة ، ويستشهد على ما يقول بالآيات للقرآنية ، والأحاديث النبوية ، وأشعار له ، وأمثلة لما يعرف مما حدث فى مجتمعه . قالون شاسع بينهما أن هذا الباب أيضاً ، ولا يدين أديب قرطبة ولا يسطر واحد مما كتب لأفكار فقيه العراق .

ويلتقيان فى موضوع الهجر ، واختار له ابن داود عنواناً مسجوعاً على عادته : « بعد القلوب على قرب المزار أشد من بعد للديار من الديار » ، واختار له ابن حزم عنواناً موجزاً ، كلمة واحدة : « الهجر » . وتناولهما للموضوع مختلف جداً ، فابن داود يجعل أضرب الهجر فى قسمة عقلية أربعة : هجر ملال ، وهجر دلال ، وهجر مكافأة على المنوب ، وهجر يوجهه البغض المتمكن فى القلوب ، : على حين يلتقط ابن حزم مادته من حياة العشاق نفسها ، فيجعلها : هجر يوجهه تحفظ من رقيب حاضر ، وهجر يوجهه التذلل ، وهجر يوجهه العتاب ، وهجر المال ، وهجر القلى ، وهجر الجفاء . وقد التقى ابن حزم مع ابن داود فى أقسامه وزاد عليها ،

ولكنهما اختلفا فيها هو أهم ، ألقى ابن داود بأقسامه الأربعة ثم مضى إلى ما استعذب من شعر غيره ، جرياً على عادته والتزاماً بمنهجه ؛ أحياناً وراء أخرى ، دون تعليق منه . وفصل ابن حزم القول في كل قسم من هذه الأقسام ، عوارضه ونتائجه ووقعه في القلب ، وضرب الشواهد من حياته نفسه ، ومن أحداث صحبه ، ووشاه بأبيات من شعره منشداً أو منكرأ .

واستشهد ابن حزم بالقرآن والحديث كثيراً : لأنه عرض للكذب والفجور والغدر والنميمة ، وأدانها بشدة ، وأوقف باباً على « قبح المصيبة » ، وآخر على « فضل التعفف » ، ومادة كليهما دينية ، تنهض على أساس من القرآن والسنة ، على حين لا تظهر في كتاب ابن داود ولا آية قرآنية واحدة ، والحديث الوحيد الذي أورده : « الأرواح جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » ، نلتقى به في « طوق الحمامة » أيضاً ، وهو حديث نبوي متواتر يجري على الألسنة دواماً ، ولا يحتاج ابن حزم لأن ينقله من كتاب « الزهرة » ، أو يحفظه عن طريقه .

وعلى النقيض من ذلك ، تجمد الفلسفة اليونانية صدى أكبر في كتاب ابن داود ، فقد كانت بغداد على أيامه موطناً لترجمة الفكر الإغريقي إلى اللغة العربية ، وتمتعت بغداد في عصره بحرية فكرية أوسع بكثير مما تمتعت به قرطبة على أيام ابن حزم ، فكانت مسرحاً لآراء متطرفة وعنيفة في شتى المجالات ، دينية وفلسفية وسياسية ، ووجدت الفلسفة من الدولة رعاية وتشجيعاً ، على حين سيطر المذهب المالكي على عاصمة الخلافة في الأندلس ، واقام دون الأفكار الأخرى صعباً بليغاً ، ولم تصبح الفلسفة أمراً محبباً ومرغوباً فيه ومنداولاً بين عامة المفكرين ، إلا في فترات محدودة ، وعلى نحو متواضع . ومن ثم تردد في كتاب الزهرة أسماء عدد من فلاسفة اليونان ، ينقل لنا عن بطليموس رأيه في الصداقة والعداوة ، وعن جالينوس « أن المحبة قد تقع بين العاقلين من باب تشاكلهما في العقل ، ولا تقع بين الأحمقين من باب تشاكلهما في اللحم » ، لأن العقل

يجرى على ترتيب فيجوز أن يفتق فيه على طريق واحد ، والحق لا يجرى على ترتيب فلا يجوز أن يقع به اتفاق بين اثنين . ويحكى عن أفلاطون قوله : « ما أدري ما الهوى ، غير أنى أعلم أنه جنون إلهى ، لا محمود ولا محمود » . وأخذ على نحو جاد التفسير البالغ السخرية الذى وضعه أفلاطون على لسان أرسطوفان لتفسير ظاهرة الحب ، ولكن دون أن ينسبه إلى أفلاطون : « وزعم بعض المتفلسفين أن الله جل ثناؤه خلق كل روح مدورة الشكل على هيئة الكرة ، ثم قطعها أيضاً فجعل فى كل جسد نصفاً ، وكل جسد لقى الجسد الذى فيه النصف الذى قطع من النصف الذى معه ، كان بينهما عشق للمناسبة القديمة ، وتتفاوت أحوال الناس فى ذلك على حسب رقة طبائعهم » . ونسب إلى بعض المتطبيين : دون أن يفصح من هم ، رأياً فى « أن العشق طمع يتولد فى القلب ، وتجتمع إليه مواد من الحرص ، فكلما قوى ازداد صاحبه فى الاحتياج والاضجاع وشدة القلق ، وكثرة الشهوة ٠٠٠ » ، وأرجع أيضاً أنه ينقل هنا عن طبيب يونانى .

وكان ابن حزم أيضاً على وهى بالفلسفة اليونانية ، واستخدمها على نحو أقل من ابن داود ، وصحح له ما نقل عنها ، حين أخذ رأى أفلاطون فى تفسير ظاهرة الحب ، فهو يرى « أنه اتصال بين أجزاء النفس المقسومة فى هذه الخليقة فى أصل عنصرها الرفيع ، لاعلى ما حكاه محمد بن داود رحمه الله عن بعض أهل الفلسفة : الأرواح أكر مقسومة لكن على سبيل مناسبة قواها فى مقر عالمها للعلوى ومجاورتها فى هيئة تركيبها » . وأورد حكاية نسبها إلى أفلاطون حين سجنه بعض الماوك ظلاماً ، فلم يزل يحتج عن نفسه حتى أظهر براءته ، ثم يعضى مع الحكاية إلى نهايتها ، يدعم بها رأيه فى تفسير ظاهرة الحب ، ولم يهتد أحد إلى مصدر هذه الفقرة التى أوردها لنا ابن حزم . ثم نقل قول أبقراط الطبيب : « ما أحبنى أحد إلا وقد وافقته فى بعض أخلاقه » ، وهذه للفقرة أيضاً لا ترد فيها بين أيدينا من التراث اليونانى . ويستشهد بأفليمون صاحب الفراسة ، فى أن العين باب إلى القلب ،

ومنا فذ نحو النفس ، ويجيء عنده بطليموس في بيت من الشعر ، مؤداه :
لو عاش بطليموس لشهد بمهارته في رصد جرى الكنس . وكان ابن حزم
في كل هذه الحالات أصيلاً في ثقافته ، ولم ينقل عن ابن داود ، ولا أفاد
شيئاً ، وارتضى أن يصحح له ما خالفه فيه .

ويمكن القول إجمالاً ، أنه ابن داود وابن حزم يتفقان في عدد من رموس
القضايا المتعلقة بالحب ، ولكن النبع الذي يصدران عنه مختلف جداً ،
فابن داود متأثر بالصور المنطقية لكل قضية ، وبما قرأ أودر س حوله ،
يأتي بها في أول الباب موجزة ، ثم يلحقها بما يناسبها من أشعار في حدود
المئة بيت ، كما اختط لنفسه منذ البدء ، وغلب الشعر على كتاب «الزهرة»
وقلت الأخبار فيه ، وحتى ما ورد به من حكايات فإنما هي قصص لمشاهير
العشاق ، أخذت طابعاً شعبياً ، وخضعت لقواعد الأسطورة ، وكل جماعة
تلونها بما هو أقرب إلى ذوقها ، فأنت معها لا تدرى أين تبدأ الحقيقة وأين
ينتهي الخيال ، مثل مجنون ليلي ، وأخبار جميل بثينة ، وكثير عزة ، وعروة
وعفراء ، وغيرهما . أما ابن حزم فيصدر عادة عن تجربته الذاتية ، أو تجارب
معاصريه التي شهدوها أو عرفها ، وربما تجد في «الطوق» صدى قراءات
بعيدة ، في ثقافات مختلفة ، ولكنها خافتة ، وتأتي ممزجة بترية الأندلس ،
ومن خلال عادات أهله وحياتهم وتقاليدهم . فكتاب ابن داود مجموعة
رائعة من شعر الغزل ، لا تنتمي إلى عصره ، وإنما تعود إلى شعراء عاشوا
قبله بقرن أو قرنين من الزمان ، صنفها على أبواب ارتضاها ، دون أن
تعكس في شيء نبض المجتمع حيث يعيش الحب واقعاً ، أما كتاب «طوق
الحمامة» فللحظات واقعية لحركة مؤلفه ، والذين حوله ، في مجالات العاطفة ،
حية ودافئة ، وتنضح لإنسانية في كل جوانبها .

• • •

وهناك آخرون عاصروا ابن داود ، وبالتالي سبقوا ابن حزم ، وعرضوا
لموضوع الحب أيضاً ، وهم : أديب ، وشاعر ، وجماعة «أما الأديب

فهو : محمد بن أحمد بن إسحاق الوشاء ، أبو الطيب (٨٦٠ — ٩٣٦ م)
في كتابه « الموشى » ، وشهر باسم : « الظرف والظرفاء » ، وإن أقف عنده
هنا ، لأن المستشرق الإسباني غرسية غومث عرض له في دراسة ترجمتها ،
وخصتها هذا الكتاب ، وجاءت فيه تحت عنوان : « كتاب سبق طوق
الحمامة » ، وآخر جاء بعده ، وفيها الغناء ، أو إن شئت ، ليس عندي
من أضيقه إليها الآن .

وأما الثاني فهو الشاعر العبدى الشهير : أبو نعيم بن المعز
(٨٦٠ — ٩٠٨ م) ، وولد في بيت ملك ، وتلقا أنجاد الخلافة . ورى
في بركة النجم وموطن الخلافة ، فلما نبيل النفس ، دقيق الخس ، قوى
لشهور الجلال ، ولو عا بالآدب والموسيقى ، شغله الأدب والطرب واللعب
عن دسائس القصر ، ومطامع الحكم ، فلما ولي المقتدر ابن هـ ٢٩٥ هـ =
٩٠٨ م ، وترك تدبير الحكم وأمر السياسة لأمه ومن حولها من النساء
والخصيان ، التفت الحائقون حول ابن المعز فخلعوا المقتدر وبايعوه ، فاتبوا
الخلافة غير يوم وليلة : لأن أعوان المقتدر لم يستسلموا ، وحاربوا خصومهم
وقهروهم ، وأعادوا المقتدر إلى عرشه ، واختفى ابن المعز في دار ابن
الخصص التاجر الجوهري ، ولكن أعوان المقتدر صرعان ما اهتدوا إليه
واحتقلوه ، ودفعه المقتدر إلى مؤنس الخازن فخنقه وسلمه إلى أهله
ملفوفاً في كساء .

كان ابن المعز شاعراً رقيق اللفظ ، سهل العبارة ، بليغ الاستعارة ،
رائع التشبيه ، بريئاً من كذب المدح وذم الهجاء ، وبعبكس في شعره
ما كان يعم به من ترف للعيش ، ورفاهية النشأة ، وتتجلى فيه معارفه
الواسعة من فلك وتنجيم وفلسفة ، وقد أمعن في اتباع مذاهب القدماء في
الشعر ، ولكنه تأثر بخطى أن نواس إلى حد بعيد ، وبرع في وصف
الطبيعة ، ومطاردة الصيد ، ومراسلة الإخوان ، وإلى جانب الشعر له
مؤلفات أخرى هي : البديع ، والجوارح والصيد ، وأشعار الملوك ،

وطبقات الشعراء ، والزهر والرياض ، وكتباً أخرى ضائعة . ويزكر الأستاذ هلال ناجي ، تقلا عن الدكتور صلاح المنجد ، أن له كتاباً « في العشق » ، توجد مخطوطته في مكتبة طشقند في الاتحاد السوفيتي ، ولا أعرف مصدراً آخر من الدارسين أو فهارس المؤلفين أو المكتبات أشار إليها ، وأجهل محتواها تماماً ، وأتصور أن فيها ما يفيد البحث ، وبضيف إلى سلسلة الكتب التي تدرس الحب جديداً ، وتلقى أضواء كاشفة على طبقة ، وعلى ما بين أيدينا من مصادر أخرى ؟

وفي غيبة النص لا يمكن القطع ، أو حتى الترجيح ، بأن ابن حزم قد قرأ الرسالة وتأثر بها ، ولكننا نعرف على وجه اليقين أن ابن المعتز كان معروفاً في الأندلس ، ومعروفاً لابن حزم بخاصة ، عرض له في رسالته « فضائل أهل الأندلس » ، حين وازن بينه وبين الشاعر الطليق : « أبو عبد الملك » هذا في بني أمية ، كابن المعتز في بني العباس ، ملاحه شعر وحنن تشبيه . وكان في تراث ابن المعتز ، وفي حياته ، الكثير مما يعجب به ابن حزم ويحرص عليه ، وأقف بالاحتمال عند هذا القدر ، إلى أن يتاح لي أن أقف على رسالة ابن المعتز « في العشق » أو أقرأ عنها ما يعين على اليقين .

وأما الجماعة فلاخوان الصفا ، وهي مدرسة فلسفية ازدهرت في البصرة قريباً من نهاية القرن العاشر ، حوالى عام ٩٧٠ م ، وتميل إلى الفيشاغورية ، وكان لهم فرع في بغداد ، ولم يكونوا جماعة فلسفية فحسب ، وإنما لهم ميول سياسية ودينية ، ذات ميول شيعية متطرفة ، ربما كانت إسماعيلية ، وتشكلت من هدمن كبار العاهاء والفلاسفة هالمهم ضعف الخلافة ، وفساد الأخلاق ، وقرر الشعب ، فحاولوا تجديد السياسة والأخلاق عن طريق الانفتاح الثقافي ، لأن الحقيقة تنضج وتزدهر في لقائها وصيراعها مع الأفكار الأخرى ، فإذا ما عزلت ، أو انعزلت ، تطرق إليها الوهن والعفن والفساد . وكانوا يتناولون في حرية كاملة كل القضايا الجوهرية ، أو يرمون إلى إسقاط الحكم القائم على أيامهم عن طريق تربية الشعب عقلياً ودينياً ، وفي هذا

ما يفسر الغموض للذى أحاط بالأعضاء ونشاطهم .

كتب إخوان الصفا مجموعة من الرسائل مرتبة على غرار الموسوعات ، وبعض المقالات ملئيل بأسماء غير معروفة ، وتبلغ هذبتا اثنتين وخمسين رسالة ، تعالج الرياضيات والفلك والجغرافيا والموسيقى والأخلاق والفلسفة ، ونظم كل المعلومات والمعارف التى يتطلب عصرهم من الرجل المثقف أن يلم بها . وقد خصصوا الرسالة السابعة والثلاثين ، وهى السادسة بين مجموعة الرسائل الخاصة بالعلوم الطبيعية وعلم النفس ، وفيها عرضوا للعشق ، وعجبة النفوس ، والمرض الإلهى . وأوردوا طرفاً مما قالت الحكماء والفلاسفة فى ماهية العشق وكمية أنواعه ، وكيفية نشوئه ومبدئته وعمله المرجبة له ، والأسباب الداعية إليه ، والغرض الأقصى منه ، ووقفوا عند الحكماء الذين ذموا للعشق وذكروا مساوئ أمته وقبح أسبابه . ومازعموا من رزيلة فيه ، وعند الحكماء الذين قالوا إن العشق فضيلة نفسية فمدحوه ، وذكروا محاسن أهله ، وزينوا أسبابه ، وعند أولئك الذين لم يفتقروا عند أسرارته وعمله وأسبابه ، وحققوها ودقة معانيها ، فزعموا أنه مرض نفسى ، أو جنون إلهى ، أو همة نفس فارغة . أو فعل المتبطلين لا شاغل لهم ، ولا همة عندهم . وقدردت الرسالة على هؤلاء جميعاً :

« ولعمري إن العشق يترك النفس فارغة من جميع الهمم إلاهم المعشوق ، وكثرة الذكر له ، والفكرة فى أمره . وهيجان الفؤاد ، والولع به وأسبابه ، ولكن ذلك من فعل البطالين الفراغ ، كما زعم من لا خبرة له بالأمور الجفمية ، والأسرار اللطيفة ، ولا يعرف من الأمور إلا ما تجلى للحواس وظهر للمشاعرة . وأما الذى يدرك منها بصفاء اللهن . ووفرة التمييز ، وكثرة الفكر ، وشدة البحث ، ودقة النظر ، فهم بمنزل : وذلك أن الذين زعموا أن العشق هو مرض نفسانى ، أو قالوا إنه جنون إلهى ، فلما قالوا ذلك من أجل أنهم رأوا ما يعرض للعشاق من سهر الليل ، وتحول الجسم ، وغرور العين ، وتواتر النبض ، والأنفاس الصعداء ، مثل ما يعرض لمرضى ، فظنوا أنه مرض نفسانى . »

« وأما الدين زعموا أنه جنون إلهي فلأنما قالوه من أجل أنهم لم يجدوا لهم
دواء يعالجونه ، ولا شربة يسقونها إياهم ، فيبرؤون مما هم فيه من المحنة
والبلى ، إلا الدعاء لله بالصلاة والصدقة والقرابين في الهياكل وورق الكهنة ،
ما شاكل ذلك ، كما حكى العاشق بقرائه ، وهو عروة بن حزام
قتيل الحب :

بلدت لعراف اليمامة حكمه وعراف نجد ، إن هما شفياني
فما تركا من ملوة يعرفانها ولا رقية إلا بها رقياني
فقالا : شفاك الله والله مالنا بما ضمنت منك الضلوع يدان

وكان أخوان الصفا ، فيما يبدو ، يميلون في تفسير ظاهرة العشق
إلى أنه هوى غالب في النفس ، نحو طبع مشاكل في الحسد ، أو نحو
صورة معاملة في الجنس ، وربما كان هذا التفسير دليلاً تؤكده شدة
الشوق إلى الاتحاد ، وامتزاج الروح بالروح ، كما قال ابن الرومي :

أعانقها والنفس بعد مشوقة إليها ، وهل بعد العناق تداني
وأنم فاما كى تزول صبا بتي فيزداد ما ألقى من الهيمان
كان فؤادى ليس يشفى غليله سوى أن يرى الروحين يمتزجان

وأفاضت الرسالة في تأكيد هذا الوجه ، وتعرفت أسبابه منه يبدأ
نظرة عجلة ، أو التفاتة سريعة ، إلى أن يصبح تفانياً ، وتحدثت عن
الاشتياق والهيام ، وأن كل محب لشيء من الأشياء مشتاق إليه ،
هائم به ، وأنه متى وصل إليه ، وتال من بهواه منه ، وبلغ حاجته
من الاستمتاع به ، والتلذذ بقربه ، فإنه لابد يوماً من أن يفارقه
أو يمله أو يتغير عليه ، وتذهب تلك الحلاوة ، وتتلشى تلك البشاشة ،
ويحمد لهيب الاشتياق ، إلا المحبين لله تعالى من المؤمنين ومن عباده
الصالحين : وهنا تعرض الرسالة للعشق الصوفي ، والغاية من وجود
العشق في جملة النفوس و محبتها الأجساد ، استحصانها لها ، وتفسره بأنه تنبيه
لنفوس من نوم الغفلة ، ورقدة الجهالة ، ورياضة لها ، وتعريج بها ،

ونوعية من الأمور الاجتماعية المحسوسة إلى الأمور النفسية المحسوسة ،

وتتلى الرسالة على مذبح لآله من خلال نموذج كلف فيه من المذبح
والذكر ، وتنحصر لنا ظاهرة نفسية واضحة طالما تحدث عنها الشعراء ،
ووقد أحياها ملهولين ، وشذلت حياً واضحاً من الأدب العربي ،
فتشير إلى معرفة من عشق يوماً من أيام عمره لشخص من
الأشخاص ، ثم تسلى عنه أو فقده أو تغير عليه ، ثم إنه وجدته من بعد ،
وقد تغير عما كان عليه وعهده من الحسن والجمال ، وتلك الزينة والمحسن
التي رأينا على ظاهر جسمه ، فإنه متى رجع عند ذلك ، فنظر إلى تلك
الرسوم والصور التي هي باقية في نفسه منذ العهد القديم ، وجدها مجالها
تلك ولم تتغير ، ولم تتبدل ، ورآها برمتها ، فتشاهد النفس في ذاتها حينئذ
من تلك المحاسن والصور والرسوم والأصباغ ما كانت من قبل تراها على
غير تغير ، وتجده في جوهرها ما كانت قبل ذلك تطلبه خارجاً عنها ، فعند ذلك
تبين له وعلم أن المعشوق والمحبوب بالحقيقة إنما هو تلك الرسوم والصور التي
كان يراها على ذلك الشخص ، وهو اليوم يراها منقوشة في نفسه ، مرسومة
في جوهره ، مصورة في ذاته ، باقية لم تتغير ،

والرسالة على الرغم من صغرها تثير جوانب كثيرة من المسائل المتعلقة
بالعشق ، ونظرة الناس إليه ، وقد حاولت تقديم الدراسة للنفسية العميقة
لتعليل للظاهرة من خلال الثقافة التي كان العصر يزخر بها ، وقد حددت
معظم كل اتجاه من الاتجاهات وفق الصورة التي تراها ، وفي محاولة لارد
على هذه الاتجاهات حددت النظرة العملية ، وأكد إخوان الصفا على الجانب
الاجتماعي للحب ، واهتدوا إليه من خلال استيعاب ظواهره ، نفسية واجتماعية
ودينية وفلسفية وحسية ، وحاولوا تفسيره وربطه بالفكر الإسلامي ، من خلال
مشهدهم وحده ، دون أن يعرضوا للرأي الآخرين فيه ، من خلال
كتاباتهم ومؤلفاتهم .

ومن المهم أن نشير إلى أنهم وقفوا بدراساتهم عند نزعة الحب ، والأسس

النظرية التي تقوم عليها هذه النزعة ، ولم يعرضوا للجانب الأدبي منها ، ومع ذلك كان لهم دورهم الواضح في توجيه الأذهان نحو الحب العذري ، وبخاصة حيث لا يشاءون ، فنحن نعرف أن أبا حيان التوحيدي (ت ٤١٤-١٠٢٣ م) وكان تلميذاً للجماعة ، وإن لم يكن عضواً نشطاً فيها ، يعزو الفدهور في أيامه ، ومالحق الناس من غابة الشهوات المادية على نفوسهم ، إلى انصرافهم عن مذهب الهدى والعشق ، أو مائدعوه الآن بالحب العذري .

دخلت رسائل أخوان الصفا في الأندلس ، على يد العالم الرياضي مسلمة الخربطى ، أبو القاسم ، المتوفى عام ٣٩٧ هـ - ١٠٠٧ م ، إثر عودته من رحلة دراسية قام بها في المشرق ، ولهذا يذكر في بعض المخطوطات على أنه مصنفها ، والحق أنه اختصرها ، وتوجد مخطوطة مختصرة في مكتبة الإسكوريال : وكان مسلمة معاصراً لابن حزم ، وأورد عنه خبراً عاطفياً برواية أبي دلف الوراق ، ولعمته بالفيلسوف المعروف ، وما أشك في أن ابن حزم قرأ رسائل أخوان الصفا التي جعلها مسلمة ، وأرجح أنها كانت وراء اختياره « طوق الحمامة » عنواناً لتكابه : ذلك أن إخوان الصفا ، فيما يرى الباحثون ، أخذوا اسمهم من باب « الحمامة المطوقة » في كليله ودمته ، حيث يطالب دبلشليم الملك من بيدبا الفيلسوف أن يحذره ، إن رأى ، « عن إخوان الصفاء كيف يبتدأ تواصلهم ، ويستمتع بعضهم ببعض » ، فليس يبعد أن يكون ابن حزم استلهم عنوانه من هذا الباب أيضاً ، متأثراً بكليته ودمته مباشرة ، أو عن طريق « إخوان الصفا » ، والباب يدور حول ما يصنعه الود في إنقاذ من التقوا على الحب في لحظات الخرج والضييق : وكذلك يمكن القول أن فلسفتهم أعانت ابن حزم في تكوين نظريته الفلسفية عن ظاهرة الحب وتفسيرها ، دون أن تتجاوزها إلى تأثيراته في الحياة ، وجوانبه وظواهره ، وفي أمثاله وشواهد ، فقد جاءت هذه في كتاب «طرق ذاتية مصفاة ، وأندلسية خالصة .

ويأتى ابن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٧ م) بعده هؤلاء ، وقد جاء بعده ابن داود وقبل ابن حزم ، وهو أشهر شخصية في عالم الطب العربي ، بعد الرازي ، ويسميه العرب الشيخ الرئيس ، وفيه تجمعت عدة علوم عربية ، فكان طبيباً وفيلسوفاً ولغوياً وشاعراً ، وتبلغ ببساطة مؤلفاته ٩٩ كتاباً ، بينها عدد من الرسائل أو الكتب الصغيرة ، وكان رائداً عظيماً بلغ الغاية ، ولم يكن مقدمه اللاتينيون بعده بقرنين من الزمان على أنه الفلسفة « المدرسية » إلا موجزاً لما انتهى إليه في فلسفته « ما وراء الطبيعة » ، وكتاباه : « الشفاء » و « القانون » يمثلان الآن فروة الفكر في العصر الوسيط ، ويشكلان فيما يقول المستشرق للفرنسي جاك م . ريسلر « محاولة من أعظم المحاولات الموسوعية في تاريخ الحضارات » . وبهنا من بين كل مؤلفاته هنا رسالته « في العشق » ، وهي أقل كتبه شيوعاً واعتناء من المدارس في العالم العربي ، على حين أنها تجد في الغرب عناية أكبر ، وقد ذهب الأب إسكندر ديزومي أخيراً ، وهو يبحث عن الأصول العربية للحب العنيف في الغرب بعامة ، وعند شعراء التروبادور بخاصة ، إلى أن هذه الأصول يجب البحث عنها في الفلسفة العربية ، وبالذات عند ابن سينا في رسالته : « في العشق » ، فقد « أعطى للحب البشري ، أي لعشق القوى الحيوانية ، دوراً إيجابياً ، يسهم به في توجه النفس نحو الحب الإلهي والاتحاد مع الله » . أي أن ابن سينا تغلب على الهوة التي تفصل نشاط النفس الحيوانية عن نشاط النفس الناطقة في الإنسان ، وبذلك استطاع أن يصل بين طرفي الحب الطبيعي والروحي ، وبذلك « أعطى للنفس دوراً من المشاركة مع النفس الناطقة العاقلة فجعل حب الجمال الظاهري ، أي الحب الجنسي ، دوناً في الاقتراب من الإله ، فإذا انضمت النفس الحيوانية إلى الناطقة اكتسبت من اتحادها هذا تلك القوة السامية ممراً وشرفاً » . ومن ثم تهتم الدرجة الحقيقية في الحب الإنساني على مدى ما يبين به الإنسان الانتماء بالخير المطلق . يقول ابن سينا : « ما مهيأ له الحب المصورة المايعة باعتبار عقله ، على ما أمره الله ، عد

ذلك وسيلة إلى الرفعة والتماهی فی الخیریه ، لو لوجه بما هو أقرب فی التأثير من المؤثر الأول والمعشوق المحض ، وأشبهه بالأمور العالیة الشریفه .

« وواضح من هذا أن تفكير ابن سینا لا يتناول من الخصائص الأربع للحب العفيف ، تناولاً مباشراً ، إلا القول بأنه قوة تسمو بالنفس ، مع أننا لو تتبعنا فكرة « الحب من أجل الحب » وإعلاء شأن المحبوبة ، لوجدناهما متوفرين فی الأدب العربی ، لا فی الفلسفة العربیة ، منذ قرنين أو أكثر قبل ابن سینا . أما القول بأن الحب رغبة لا یرجى لها أن تتحقق ، فإنه موجود ضمناً فی الشعر وإن لم يصنعه الشعراء فكرة أو يجعلوا منه مبدأ . وهو أيضاً ينطوی فی الفكرة التي ترى أن « الرغبة » قوة دافعة لتطهير النفس وصعودها نحو الإله ، تلك الفكرة التي تمثل محور فلسفة الأخلاق فی الأفلاطونية الحديثة . فإذا تحدث ابن سینا عن الحب الأرضی ونسب إليه أثراً خلقياً ، ولا أقول تهديبياً ، فلما لا نبعد عن الصواب إذا رأينا فی اتجاهه هذا توسيعاً فی فكرة اشتیاق النفس للاتحاد بالله ، وهذا الشوق ، فی رأى أفلوطين ، كامن فی النفس منذ الأزل ، ويمثل حاجتها إلى أن تصعد من خلال التكيف الروحاني فی مراتب الوجود ، وتنتأى عن موضعها الغامض فی هذه الحياة إلى التأمل المستمر فی الواحد أو فی الوجود ذاته » (١) .

وواضح من هذا أن تفكير ابن سینا لا يتناول من الخصائص الأربع للحب العفيف تناولاً مباشراً ، إلا القول بأنه قوة تسمو بالنفس ، وليس فی رسالته : « فی العشق » ما يوحى بأنه یقیم أساساً فلسفياً للحب العذرى ، وليس فيها شاهد واحد على أنه كان یوجه نظره إلى الأدب ، بل إن الإحكام الدقیق فی عرض آرائه ینبئ بأنه كان یطبق مبدأه العام فی النفس وأجزائها على مشكلة أو ظاهرة بعینها ، ويحاول أن یجد لها مكانها الصحيح فی نظامه الفلسفی ، وهو فی كل الرسالة یعالج مبادئ عالجها على نحو أكمل فی

١ - جوستاف فون جرنباوم ، دراسات فی الأدب العربی ، ص ٨٣ وما بعدها ، ترجمة إحسان عباس وآخرین .

مؤلفات أخرى . والحق . أن الحب في ذاته لا يمثل نقطة انطلاق في تفكيره ،
 وحين يعرض له لا يتناول صورة نزعة الحب في الأدب ، ولكن دراسته
 تقدم من بعض الوجوه الأسس النظرية التي تقوم عليها هذه النزعة الإنسانية .
 كان ابن سينا معاصراً لابن حزم ، وأسبق منه بسنوات . وأقطع بأن
 العالم القرطبي لم يكن عرف رسالة ابن سينا « في العشق » حين حرر كتابه
 « طوق الحمامة » ، حتى لو افترضنا أن ابن سينا حرر رسالته في بدء
 حياته ، وهو افتراض مشكوك فيه إلى حد كبير .

• * •

تلك هي الكتب التي عرضت لموضوع الحب قبل ابن حزم ، لا يعرض
 الأديب القرطبي لأى منها في كتابه ، غير إشارة جاءت في مقام التصحيح
 لابن داود ، وبقيتها ربما كانت قد قرأ وتمثل ، ومن المحتمل أنها تركت
 شيئاً في أعماقه ، ولكنه في كل الحالات كان سيد قضيته وموضوعه ، لا يستلهم
 شيئاً غير فكره الخالص ، وأحاسيسه الذاتية ، وتجاربه الشخصية . وقبل
 أن نتابع دور الطوق في كتب الحب ، سابقاً ومؤثراً في هذه المرة ، أَدْعُ
 الفرصة للمستشرق الإسباني إميليو غرسيه غومث ليحدثنا بدوره عن
 كتابين ، سبق أولهما ابن حزم وجاء الثاني بعده .

كتاب سبق طوق الحمامة

وكتاب جاء بعده

المستشرق الإسباني : إميليو غرسية غومث

• من مجلة الأندلس ، المجلد ١٦ ، سنة ١٩٥١ ، ص ٣٠٩ - ٣٣٠

- ١ -

كتاب الموشى للوشاء (١)

يحدث أحياناً في مجال الأدب العربي أن المؤلفات الأشد انزواءً ، هي التي تأخذ طريقها إلى النشر قبل غيرها ، وتفسر هذا التناقض الظاهري والطريف أن الاستعراب علم حديث النشأة نسبياً ، وأن حجم الكتب المخطوطة غير المنشورة مازال يتجاوز الحصر ، ومن ثم اتجه اهتمام المختصين إلى المخطوطات ، وابتعدوا عن الكتب المطبوعة ، إلا في حالات نادرة تعود إلى أهميتها أو طابعها العملي ، لأن هذه ، على النقيض من تلك ، لاتقدم الصورة المثيرة لأمر كن مجهولاً . ولاشئ غير هذا يفسر لنا الظلام النسبي الذي يلف كتاب « الموشى » ، لأبي الطيب محمد بن أحمد بن إسحاق الوشاء ، وعاش تقريباً بين ٨٦٠ و ٩٣٦ م ، على الرغم من أنه طبع في ليدن بهولندا ، في مطبعة بريل عام ١٨٨٦ م ، بتحقيق رودولف ل. برونوف R. E. Brünnow ، وعن هذه الطبعة طبع مرتان في المشرق ، إحداها في القاهرة عام ١٣٢٤ هـ ، في مطبعة التقدم ، بعنوان : كتاب الظرف والظرفاء ، (٢) ، والملاحظات

(١) القسم الأول من هذا المقال ترجم إلى الفرنسية بعنوان : المصادر الشرقية لكتاب طوق الحمامة لابن حزم القرطبي : كتاب الموشى للوشاء ، وقرأه في الجلسة التي عقدت في يوم ١٧ سبتمبر ١٩٥١ ، في المؤتمر الدولي للمستشرقين الثاني والعشرين ، وقد اجتمع في اسطنبول ، خلال الأيام من ١٥ إلى ٢٢ سبتمبر ١٩٥١ .

(٢) أنظر : مقدمة برونوف - وبروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ج ١ ص ١٢٤ ، والملحق ج ١ ص ١٢٤ ، وإحالاته على : ابن النديم ، وابن الأنباري ، وياقوت ، والسيوطي ، وفلوجل ، وفوستنفلد .

التالية تنور حول الموازنة بين هذين الكتابين وكتاب آخر استفاد منه ، وكان هذا ، على العكس من الأول ، قد نال شهرة مستبضة ، بلغت قدراً لا يناقش ، وهو كتاب « طوق الحمامة » لابن حزم القرطبي (٩٩٤-١٠٦٣م) ، ويعتبر حجر الزاوية في موضوع تأثير الأدب العربي في الأدب الأوربي ، وكتاب قمة في الأدب الأندلسي ، وقد درس وصحح مراراً ، وطبع نصه أربع مرات (٥) ، وترجم حتى الآن إلى اللغات : الإنجليزية والروسية والألمانية والإيطالية والفرنسية (١).

وفي مقدمة ترجمة سادسة للطوق ، إسبانية في هذه المرة . وقد أنهيتها وتظهر هذا العام (٢) ، حاولت أن أضع كتاب ابن حزم الشهير في مكانه بين بقية الكتب المماثلة ، وهو يمثل فيما أرى ، إلى جانب كتابات أبي عامر ابن شهيد (٩٩٢-١٠٣٥م) ، خير ما أبدعت المدرسة الأدبية التي يمثلانها ، وتنسب إلى عالم الخلافة الأموية في قرطبة ، ذلك أن التوجه الأدبي يجرى على الدوام متأخراً بالنسبة إلى التوجه السياسي ، توجه سرعان ما انطفأ لانتشار عقد الخلافة مربعاً ، وعلى غير توقع . ولذا بد لنا أن نحدد في إنجاز عاجل ملامح هذه المدرسة أمكن أن نقول إنها :

- أرسنقراطية الحياة ، تطابق الاتجاهات الفكرية الجديدة للنظام القائم ،
- عربية الولاء ، أي أنها لا تلقى بالا إلى حياة المستعربين أو ثقافتهم ، أو حتى مجرد الاهتمام بالحياة الشعبية .
- قومية الاتجاه ، على الرغم من ولائها العربي ، وتمكنها من الأدب

(١) توجد ترجمة رانية لابن حزم ، بقدر ما سمحت لي المراجع اتى بين يدي ، يمكن الرجوع إليها في الملحق الثاني للترجمة الإسبانية التي سوف أشير إليها في الفقرة التالية .

(٢) طوق الحمامة في الألفه والألاف ، لابن حزم القرطبي ، ترجمة إميليو غروم ، من النص العربي ، مدريد ، جمعية الأبحاث والنشر ١٩٥١ .

• بلغت مبيعات النص في أمانة عربية حتى كتابة هذه السطور إحدى عشرة طبعة فيما أعلم ، أدقها وأرقها النجدة التي صدرت عن دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٥ . (المترجم)

العربي المشرقي ، مجارة لموقف الأسرة الأموية في إسبانيا في مواجهتهم للعباسيين ، أى أنها تحاول أن تجافى النماذج المشرقية وأن تنافسها .

• عصرية الطموح ، تهتم بالإنسان ، وقل ما تعنى بالكتب ، ربما بسبب تسرب الروح الغربي إليها ، أى أنها تنهض على مزاج الكاتب أكثر مما تقوم على ثقافته الواسعة ، أو تمكنه من قواعد اللغة ، وتحاول أن تنهرب من الرذيلة المشرقية ، في الاعتماد الدائم على المؤلفات السابقة :

وهذه الملامح الأربعة يمكن أن تلتقى بها كلها ، فيما أعتقد ، عبر صفحات طوق الحمامة ، والملمحان الأخيران على الأقل تجدهما واضحين وموجزين في تلك الحملة الشهيرة التي جاءت في آخر المقدمة : « دعنى من أخبار الأعراب والمتقدمين ، فسيلهم غير سبيلنا : وقد كثرت الأخبار عنهم ، وما مذهبي أن أنضى مطية سوى ، ولا أنحلى بحلى مستعار » . والواقع أن ابن حزم قص علينا في كتابه الشهير ، كما نعرف ، تجاربه الذاتية ، وتجارب أصدقائه ، وشخصيات أخرى سبقته ، وكلهم في كثير منهم الغالية أندلسيون . وفيما خلا الأحاديث النبوية ، والنصوص الدينية ، وبعض الأمثال ، وقليل من الإشارات العارضة ، لم يذكر في مصادره غير كتاب واحد : كتاب الزهرة لابن داود الأصفهاني (٨٦٨ - ٩١٠ م) (١) ، وجاء به في الحقيقة في مجال تصحيح ما فهم المؤلف المشرقي من فقرة التقطها من حديث أفلاطون عن الحب والجمال في محاوره « المسأبة » Le Banquet ،

(١) نشرة النصف الأول من هذا الكتاب الشهير ، واستعى اهتمام ماسينيون بقوة في كتابه : محنة الخلاج (١٩٢٢) ، لويس نيكول ، بمساعدة إبراهيم طوقان ، عام ١٩٣٢ ضمن السلسلة التي تنشرها جامعة شيكاغو ، وعن مخطوطات النصف الثاني ، ولما يزل مخطوطاً ، أنظر : مجلد الأندلس - المجلد ٤ ، عام ١٩٣٦ - ١٩٣٩ ، ص ١٥٤ - ١٥٤ .

• نشرت وزارة الإعلام العراقية النصف الثاني من الكتاب ، في سلسلة « كتب التراث » بتحقيق إبراهيم السامرائي ونوري حمودي القيسى ، بغداد عام ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م (المترجم) .

ويمكن الظن بدءاً أن كتاب الزهرة مصدر مباشر لطوق الحمامة ، فهو أى كتاب الزهرة ، يدور حول الحب أيضاً ، أو كان معروفاً جيداً في إسبانيا ، بل وهناك من قلده في زمن الحكم الثاني (١) ، ومؤلفه ظاهري ، ابن مؤسس هذا المذهب ، وقد انحاز إليه ابن حزم نهائياً . ولكن الواقع أن ما هو مشترك بين الكتابين قليل جداً . فالكتاب المشرق مختارات من شعر الغزل مخصصة ، لا تمت إلى مؤلف الكتاب بصلة . حتى حين أن الكتاب الأندلسي دراسة نفسية ، ذات حواش فلسفية ، والكتاب الأول طافح بالصناعة المحتازة ، والتحدقات الختنة ، ويتميز الثاني بأنه طبيعي وإنساني ، مباشر ودافئ .

هل يمكن القول إذن أن « طوق الحمامة » عمل أصيل بكامله ؟ لا ، على التأكيد . ليس ثمة عمل أدبي يفتقد السوابق واللاحق ، ولو كان مجرد الدبال الذي تولد منه . وفيما عدا ذلك يؤكد لنا ابن حزم أنه ترك جانباً أخبار الأعراب والمتقدمين ، وكان يعرف جيداً الكثير من الأخبار التي تروى عنهم . والجو الذي تنسجه عبر صفحات « الطوق » لم يظهر في الأندلس عفوياً على يد جيل معين ، وإنما نعرف أنه جاء من المشرق الإسلامي ، من البيئة التي عاشت فيها ، أدبياً على الأقل ، أسطورة الحب العذري ، ثم تحدت أدبياً أيضاً . وفضيلة ابن حزم التي لا جدال فيها ، تقوم بالدقة على أنه أسبق أو غرب هذا الجو ، عراه من أرديته البدوية ، أو البغدادية ، وحتى من اسمه ، فكلمة « عذري » لا تظهر ولا مرة واحدة على امتداد كل صفحات الكتاب ، لكي يكسوه من جديد ثياباً قرطبية ، ومن الطبيعي أن تتخلف في تربته وفي أساسه المراد التي بعثت لابن حزم أن يطبقها ، مراد من الصعب جداً تحديدها ، لأن المرئف ، فيما نقول ، لم ينسخها بالمعنى الحرفي للكلمة ، وإنما تمثلها وطررها عفوياً ، أعطى لها روحاً جديداً ، وشكلاً مغايراً ، وحياة مختلفة .

(١) أنظر مقال الياس تيريس ، مجلة الأندلس ، المجلد ١١ ، عام ١٩٤٦ ، ص ١٣١-١٥٧ .

تقع أثر هذه المصادر الخفية مخاطرة إذن ، لكل ما قلت ، ولأن الدراسة الواحية للصلاحيات بين الأدب الأندلسي والأدب العربي في المشرق لما نزل من معاشرة ، ومن ثم كان جرأة مني أن أعرض مؤقثاً ، وفي شكل مقال ، وكما محاولة لجس النبض ، لواحد من هذه المصادر ، وهو كتاب «الموشى» للوشاء . ولقد صرحت في البدء بأن الكتاب غير معروف تقريباً ، ودرج للدارسون على اعتباره آلياً ، وعلى نحو تقليدى ، مجرد قائمة بالأخلاق الفاضلة ، وقوانين السلوك ، ليتصرف المجتمع العربي في أزهى عصوره على هديها . هكذا اعتبره مثلاً آدم ميتز في كتابه نهضة الإسلام ، ويقول عنه بروكلمان في دائرة المعارف الإسلامية : «دليل الحياة الأنثوية في عالم بغداد للعظيم» . وعشياً يمكن مثلاً أن نجد له أثراً بين مصادر دراسة الحب في الأدب العربي الكلاسيكى ، وحررها علماء من الطبقة الأولى ، مثل جولدنسيم (١) أوردتر (٢) . والحق أن كتاب الوشاء حتى ولو كان مرشداً عظيم الفائدة إلى الأخلاق الفاضلة ، فإنه أصلاً كتاب عن الحب في الجانب الرئيسى منه ، وهو على التأكيد الجانب الأكبر انشاعاً ، وهو شئ منظم جداً ، لأن الحب في حد ذاته ، وفي مظاهره المصقولة ، قناعة أنيقة تخضع لقواعد دقيقة مسلم بها . وكان الوشاء متخصصاً في الموضوع ، فهو لا يحلل نفسية الحب العذرى في دقة فحسب ، وإنما يضيف إليه النصوص والقصائد الأكثر روعة ، والأجمل توجيهاً . وعرض الحب القيان ، وشن طريقه محظوظاً ، ثم انتهى بالسيطرة على كل الأوساط البغدادية ، بل وبصرح

1 - Goldziher I : Vorlesungen Über dan Islam, P 192'y
ZDMG, 69 (1915) ' pp 192 - 207 .

2 - Ritter H : Philologica VII (Arabische Und persische
Schiften Über di profane Und die mystische Liebe)
en Der Islam 'Xxl' 1933 ' PP 84 - 100 .

في كتابه «الموشى» أنه خص هذين الموضوعين ، كل واحد منهما بكتاب مستقل ، ولعلهما فقد اسروا الخط ، لأنى لا أراهما واردين في قائمة مؤلفاته ، وهما : كتاب المقتضى (١) ، وكتاب القيان (٢) . ورغم أننا نجهل هذين السكتابين فإن مادة الموشى ربما كانت أفضل ما نملك بين أيدينا عن الحب بين العرب ، وهو أكثر فائدة من كتاب الرهرة لابن داود ، وأشأ ، قريباً . كما سنرى ، في روحه إلى ابن حزم في طوق الحمامة .

وفي حدود ما أشرت : في قراءة مستأنية ولما كان ليست مستوعبة ، سأجمل وأجمع الفقرات التى فى الموشى أو فى طوق الحمامة (٢) ، والتى أعتقد أن بينها بعض الشبه . ويجب أن أضيف إلى ذلك أنى بصدد مقال ، نتأجى مؤقتة تماماً ، لأن الشبه يمكن أن يجى من مؤلف آخر اختار الاتجاه نفسه ولما يعرف ، وأن هذه المشابهات لها ، فيما أرى ، بعض القيمة المقدمة إذ أخذت في جعلها فحسب ، أى أنها تدعم بعضها بعضاً ، وتحليلها منفصلة يجعلها تبدو ، وهى كذلك حقاً . غير ذات معنى وقابلة الإقناع . فذهجن نتحرك ، وأعيد النقود ، على تربة ظنية . وبدل أن أتبع ما ورد فى الموشى أو فى الطوق متسلسلاً ، رأيت لسهولة العرض أن أجمع على نحو غير طبعى قليلاً . وكمجرد توجيه فحسب ، الفقرات التى وازنت بينها ، طبقاً لما تخضع له من تشابه .

(١) في صفحة ٥٤ من طبعة ليدن : « ونحن مفردون لأهل الشن كتاباً فذكر فيه أحبا الملتصين . وبلغ الملتصين : وأشعار المنزولين ، مع جملة من صفات الهوى . فى كتاب المقتضى . إن شاء الله تعالى » .

(٢) في صفحة ١١٠ من صبعة القاهرة : « وقد ألفردنا كتاب القيان بدهم القيان . فأغنى ما فى ذلك الكتاب عن تكثير هذا الباب . فأعرفه ، إن شاء الله » .
فشير في بعض الحالات ، كما فى هذه . إلى الطبعة المشرقية . لأن طبعة ليدن ليست بين يدي وأنا أحرر هذه الصفحات .

(٣) فيما يتصل بالموشى استخلصت ، لإلاعى حالات فائرة كدلالة ، طبعة بروف التى أشرت إليها فى سقى . ولما يتصل بطرق الجملة استخلصت طبعة بروف : ليدن - بريل ١٩١٤ . وتحول المشابهات الأرقام من ١ إلى ٥٧ .

• تسهيلات مقارن . العربى استخلصت طبعة دار المعارف بمكاتب طوق الحمامة ، القاهرة ١٩٧٥ ، بدلاً من طبعة بروف .

- في الاقتباس ، أو الأسلوب ، أو اللغة .
 - في التعليقات على عدد محدود من الوقائع .
 - في الملاحظات النفسية :
 - في الأفكار أو في المواقف الشاعرية :
 - في التقسيم و عناوين الأبواب :
- وأؤكد على أننا بصدد تشابه يحىء من الذاكرة القوية التي شهر بها العرب ، ومستمدة من رواسب القراءة ، أكثر مما يعتمد على النسخ أو الاقتباس .
- وأستبعد الفرض الذي يخرج عن نطاق الموازنة ، ويجب أن يضاف إذا أكدته المشابهات الأخرى ، وهو أن الموشى يمكن أن يكون واحداً من الكتب التي قرأ فيها ابن حزم وأخبار الأعراب والمتقدمين ، والتي أدار لهاظهره كتابه :

١- التشابه في الاقتباس أو الأسلوب أو اللغة

- ثلاثة على الأقل الاقتباسات المشتركة المهمة التي وجدتها :
- ١ - الحديث النبوى : « الأرواح جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » ، ويشير إليه الموشى صفحة ٢٥ ، ويوجد في الطوق صفحة ٢٣ .
 - ٢ - الحديث النبوى الثانى : « حبك الشيء يعنى ويصم » ، جاء به الموشى في صفحة ٦١ ، وذكره الطوق صفحة ٢٩ ، دون أن يشير إلى أنه حديث نبوى .
 - ٣ - والحديث النبوى الثالث ، فيما يظن : « من عشق فعف فمات فهو شهيد » ، ويظهر في الموشى ص ٧٥ ، ويختلف قليلا عما عليه في الطوق صفحة ١٥٢ ، وجاء به ابن حزم دون أن يشير إلى أنه حديث واكتفى بقوله : « وقد جاء في الآثار : » .

• أذكر القارئ بأن الكاتب يستخدم عادة طبعة ليده من الموشى ، إلا في حالات قليلة أشار إليها ، أما صفحات الطوق فتشير إلى طبعة دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٧٥ م . (المترجم) .

• وإليك الآن حالتين يتشابه فيهما الأسلوب :

٤ - يقول مؤلف الموشى ، مع بداية الجزء الثانى ، أنه سوف يتضمن شيئاً من المزل أكثر مما فى الجزء الأول : « ولا بد من خلطها بشئ من الهزل ، إذ فى ذلك ترويح لقلوب ذوى العقل » . وبهيماً مؤلف الطوق فى مقدمته ، ليبرر تناوله موضوعات قد لا تبدو حادة ، مشيراً إلى آراء مؤلفين آخرين ، ويبدوها : « أجمعوا النظم بشئ من الباطل ليكون أعون لها على الحق » ، أو « أرحموا النظم فلها مصداً كما يصدا الحديد » .

• - فى صفحة ٧٧ من الموشى يتحدث المؤلف عن مال بعض المحبين الكاذبين ، فيقول : « فاستحسن الناس الملل والاستبدال ، والغدر والانتقال ، وأنا أبرأ إلى الله أن يكون هذا من شعر ظريف ، أو من فعل حصيف » . ويورد ابن حزم فى صفحة ١٤٩ ، بعد أن بين أن : « للشعراء فن من الشعر يدمون فيه ألباكى على الدمن ، ويشنون على المناظر على اللذات » ، حالة أبى نواس ، وأنه « كثيراً ما يصف نفسه بالغدر الصريح فى أشعاره » ، ويقلد الشاعر المشرق بأبيات له ، ثم يعقب عليها بقوله : « ومعاذ الله أن يكون نبيان مدارس لنا يطعاً » .

• وأخيراً يتوافقان فى حالتين لغويتين :

٦ - يقول الموشى فى صفحة ٥٤ : « وأما أمن عشق من الشعراء فما يحصرهم عدد ، ولا يحصرهم أحد » ، وفى الطوق ، صفحة ١٩ : « وأما كبار رجالهم ، ودعائم دولتهم ، فأكثر من أن يحصوا » .

٧ - ويقول الموشى فى طبعته المشرقية ، صفحة ٤٩ ، إن الحب « أمير مطاع » ، وقائد متبع . ويذكر الطوق ، صفحة ٨٣ : « لعلمت أن الهوى سلطان مطاع » .

٣ - التشابه فى التعليق على عدد محدود من الوقائع

٨ - الضرب الأول من الحب : بين ضرور الحب التى ذكرها ابن حزم ، صفحة ٢٣ : « محبة المتحابين فى الله عز وجل » ، وهو عنوان

باب من أبواب كتاب الموشى : « باب صفة المتحابين فى الله عز وجل » :
٩ - ذكر الطوق من علامات الحب وشواهده الظاهرة عند المحب ،
صفحة ٢٨ : « شرب فضلة ما أبهى المحبوب فى الإناء » . وفى الموشى ،
صفحة ٩٣ ، نجد الجارية التى أرادت أن تعشق فى غيبا : « شربت من
فضلة كأسه » .

١٠ - فى الفصل الثالث من الطوق وأوقفه المؤلف على قصة أبى للمرى
عمار بن زياد ، الذى أحب جارية رأها فى النوم ، نجد ابن حزم يعذله قائلا :
« ولو عشقت صورة من صور الحمام لكنت عندى أعذر » . ونجد فى الموشى ،
صفحة ٥٦ : « وبلغنا أن منهم من عشق صورة فى حمام ، وخيلا فى منام ،
وكفنا فى حائط ، ومثالا فى قوب ، والعشق ألوان وأنواع وضروب وفنون
وأمره عجيب » .

١١ - ويتخذ الطوق عن المراسلة ، صفحة ٥٦ ، فيقول : « وأما
سقى الحبر بالدمع فأعرف من كان يفعل ذلك » . ويورد الموشى ، صفحة
١٥٤ ، قصيدة فيها : « مزج المداد بدمعه » ، وبعد ذلك بقبيل ، فى
آيات شعر أخرى : « هذا كتابى بدمع عبقى » .

١٢ - ويقول الطوق ، عند الحديث عن الهدايا التى يتبادلها العاشقان ،
صفحة ١٣٠ : « وما رأيت قط متعاشقين إلا وهما يتبادلان خصل الشعر ...
وأما تهادى المساويك بعد مضغها فكثير » . ونقرأ فى الموشى ، صفحة ٩٣ :
« وتبعث إليه بخاتمها وخصلة من شعرها ... وقطعة من مسواكها » ، وفى
صفحة ١٤٠ : « وقد تهادى أيضاً أهل الظرف بالمساويك » .

٣ - التشابه فى الملاحظات النفسية

١٣ - فى الباب الخاص بماهية الحب من طوق الحمامة ، ص ١٤ ،
نجد هذه الملاحظة : « والحب - أعزك الله - داء عياء ، وفيه منه الدواء
على قدر المعاملة ، ومقام مستلذ وحلة مشتهاة ، لا يودسليمها البرء ، ولا يبتنى

عليها الإفاقة ، وفي الموشى ، صفحة ٨١ من الطبعة المشرقية : « الحب مع ما فيه من الماراة والنكد ... مستعذب عند أربابه ، مستحسن عند أصحابه »
 ١٤ - وربما كان الباب الخاص بعلامات الحب في الطوق ، من أظهر الأبواب أصالة ، وأغناها بالملاحظات النفسية ، في صفحة ٢٧ وما بعدها ، وتلتقى في الموشع بسلسلة الملاحظات أيضا ، استخدم لها المصطاح نفسه : علامات . ففي صفحة ٤٨ : « وأعلم أن أول علامات الهوى على ذى الأدب نحول الجسم ، وطول السقم ، واصفرار اللون ، وقلة النوم ، وخشوع النظر ، وإدمان الفكر ، وسرعة الدموع ، وإظهار الخشوع ، وكثرة الأتئين ، وإعلان الحنين ، وانسكاب العبرات ، وتتابع الزفرات . وعن تأثير الحب في العاشق يقول طوق الحمامة ، صفحة ١٨ وما بعدها : « فكم بخيل جاد ، وقطوب تطلق ، وجبان تشجع ، وغليظ الطبع تطرب » . وفي الموشى ص ٤٩ من الطبعة المشرقية : « وقد يشجع الجبان ، ويسمى البخيل ، ويطلق لسان العلى ، ويقوى حزم العاجز » .

١٥ - وفكرة أن للحب سلطاناً لا يتاوم ، وتلتقى بها ، في الطوق ، صفحة ٤٧ ، ونصها : « إن للحب حكماً على النفوس ماضياً ، وسلطاناً قاضياً ، وأمرأ لا يخالف ، وحدأ لا يعصى .. » توجد أيضاً في الموشى ، صفحة ٤٩ من الطبعة المشرقية : « وإن يدل له العزيز ، وينخضع له المتجبر ، ويبرز له كل محتجب ، وينقاد له كل ممتنع » . ومن جانب آخر يعرض الطوق للفكرة مرة أخرى فيما بعد ، على نحو أشد تفصيلاً ، في باب الطاعة ، صفحة ٦٨ وما بعدها . والملاحظة التى ترد في نفس الفصل الخاص بعلامات الحب ، صفحة ٥٠ ، وتعرض للمحب المزيّف ، ممن « يتحلى بشيم قوم ليس منهم ، ويدعى غريزة لا تقبله » ، نجد لها سابقة في كتاب الموشى ، صفحة ٤٨ : « وإن يغبي ادعاء أنه قارن العشق والهوى ، لأن علامات الهوى ثائرة ، وآيات الادعاء ظاهرة »

١٦ - وتأكد طوق الحمامة ، صفحة ٦٠ ، في باب طلى السر ، أن

الحب لا يمكن إخفاءه ، ونص عبارته : « وبأي السر الدقيق ، ونار الكلف المتأجج في الضلوع إلا ظهوراً في الحركات والعين » ، توجد في الموشى أيضاً ، في صفحة ٤٨ : « ولن يخفى المحب وإن تسمر ، ولا ينكم هواه وإن نصبر » .

١٧ - وفي مقابل باب المساعد من الأخوان ، في طوق الحمامة ، صفحة ٧٧ وما بعدها ، يستخدم الموشى ، صفحة ١٧ ، الصديق المساعد . يقول ابن حزم مشيراً إلى المساعد من الأخوان : « فإن ظفرت به يدك فشددها عليه شد الضنين ، وأمسك بهما إمساك البخيل ، وصننه بطارفك وتليدك .. » ، ويذكر الموشى ، في الصفحة التي أشرنا إليها ، مشيراً إلى الغرض نفسه ، بيتاً من الشعر تعود سفيان الثوري أن يردده :

فإذا وجدت أخوا الأمانة والنقي فيه البدين قرير العين فاشدد

٩٨ - في طوق الحمامة ، في باب الواشى ، صفحة ٨٣ وما بعدها ، يدين ابن حزم في عنف بالغ الوشاة والكذابين ، وفي الموشى ، صفحة ٣٣ ، باب كامل بعنوان : « باب ماجاء من فضل الصدق لدوى الأداب ، وما كره من الكذب لدوى الألباب » .

١٩ - وتشهير ابن حزم بخيانة المرأة وغدرها حنيف ومعروف ، أنظر مثلاً صفحة ١٠٩ وما بعدها من طوق الحمامة ، و صفحة ١٦٥ . وفي هذه الأخيرة يقول : « ولولا أن أكون منبهاً على عورات يستعاذ بالله منها لأوردت من تنبهن في الشر ، ومكرهن فيه ، عجائب تدهل الألباب » ، وعرض الموشى للفكرة أكثر من مرة ، فهو يقول في صفحة ٧٩ : « إن للغدر في النساء طبع ... » ، وفي صفحة ٨٨ و ١٢٠ : « مع أن مكرهن أخفى من الخيال ، وأعظم من راسيات الجبال ، تنفذ حيلهن على الأرجال ، ويتمكن كيدهن من الأبطال » .

٢٠ - وتحمل الغدر ، وعدم الثورة عليه ، ومواجهته بمثله ، هو فيما يرى ابن حزم دناءة وخسة ، يقول في صفحة ١٤٨ من الطوق : « ومنها

(أى من الأسباب الموجبة للساو) الغدر ، وهو الذى لا يحتمله أحد ، ولا يفضى عليه كريم ، ولا يلام السالى عنه . . . بل اللائمة لاحقة لمن صبر عليه . . . فما يصبر عليه إلا دنىء المروءة ، خبيص النفس : نذل الهمة ، ساقطة الأنفة . . . وتجرى الفكرة نفسها فى الموشى ، صفحة ١١٨ : « ثم أن أجهل الجهالة ، وأضل الضلالة ، صبر الفتى الأديب ، على غدر الحبيب ، فإن الصبر على الخيانة والغدر ، يضع من المروءة والقادر . . . »

٢١ - - وأصرف النظر عن بعض فقرات أزيد جاءت فى الموشى ، دون أن يكون لها شبيه محدد من فقرات أخرى فى الطرف ، ولكنهما تسير على خطى هذا الكتاب ، وانظر لها مثلاً ، الموشى صفحة ١١٢ : « اعلم أن صبر المحب على هجر الحبيب ، تجرعه البصيص والتعذيب ، ومعالجة الزفير والنحيب ، وتمتله القلب لفرق الرجيب ، من المعجز الظاهر ، والموت المتأخر ، والمبادرة بالانصراف . بعد تغير الآلاف ، من الحزم المكين ، والرأى الرصين . . . »

٤ - - الشابه فى الأفكار أو فى المواقف الشعرية

٢٢ - يتحدث الموشى . صفحة ٧٨ . عن استحالة أن يحب الإنسان حباً حقيقياً شخصين فى الوقت نفسه : « وهل يجتمع وحدان فى موضع » ، وقبلاً بعد ، فى صفحة ٩٩ : « يورد قصيدة من بحر السريع . لأديب مجهول ، يعرض للموضوع نفسه ، ومنها هذا البيت : »

سادك منه حسن - حسن - أم ليس يرضى الله دينين

ونجى فى الطوق ، صفحة ٤٦ ، قصيدة لمؤلفه ، من بحر الخفيف ، منها هذان البيتان :

لحسن فى القلب موضع لحبيب - من ولا أحدث الأمور بثنان

وكننا الدين واحد مستقيم - وكفدر من عنده دينان

٢٣ - فيما يتصل بموضوع المراسلة (أنظر رقم ١١) ، يورد الموشى فى الصفحة ١٥٩ . هذا البيت من بحر الكامل المشهور بمجهول :

مازلت أبكى مذقرات كتابها حتى محوت مخطورها بدموعى

وفى صفحة ٥٧ من الطوق ، نجد هذا الشطر من بيت شعر لابن حزم ، وجاء فى بحر الطويل ، والتشابه اللغوى بينهما واضح :

• فما زال ماء العين يحوسطوره •

٢٤ - فى الموشى ، صفحة ٣٧ ، نجد هذا البيت من الشعر ، فى بحر الرمل ، لشاعر مجهول ، ويعرض لكتمان السر :

أمت السر بكتمان ولا يبدون منك إذا استودعت سرى

ويورد ابن حزم فى صفحة ٦٢ من كتاب الطوق ، قطعة من قصيدة له ، جاءت فى بحر البسيط ، ومنها هذا الشطر :

أميته وحياة السر ميتته

٢٥ - ويحى الموشى فى صفحة ٥٣ بقصيدة من بحر الوافر ، للشاعر العباسى على بن الجهم (ت ٨٦٣ م) ، مهداة إلى الخليفة المتوكل ، وسقط صريح حب جاريته قبيحة ، وإليك من أبياتها الثمانية هذه الأبيات الثلاثة :

تنكر حال على الطبيب فقال : أرى بجسمك ما يريب

جست العرق منك فدل عندى على داء له شأن عجيب

.....

فحرك رأسه ودنا منى وقال : الحب ليس له طبيب

وفى أرى فإن هذه القصيدة هى المصدر المباشر الذى ألهم ابن حزم قصيدته التى من بحر الوافر أيضاً ، وجاءت فى ستة عشر بيتاً ، ونلتقى بها فى الطوق ، الصفحة ١٣٧ ، ومنها أشرطة الأبيات هذه :

• يقول لى الطبيب بغير علم •

• فقال : أرى نحو لا زاد جلاً •

• فأطرق باهتاً مما رآه •

٢٦ - وفى الموشى ، الصفحة ٦٧ ، نجد هذا البيت من بحر البسيط

لشاعر مجهول :

الحب أوله عذب مذاقته لكن آخره التنغيص والكدر
وبيت آخر من بحر البسيط للشاعر ابن أبي رعد :
الحب أوله عذب وآخره / مثل الخرازة بين القلب والكبد
وفي الصفحة ١٨٢ من طوق الحمامة نجد قصيدة طويلة لابن حزم ،
من بحر الطويل ، ومنها هذا البيت :
رأيت الهوى سهل المبادئ لذيذها وعقباها مر الطعم ضحك المسالك
٥ - تشابهات في التقسيم وعناوين الأبواب

هنا علينا أن نتحدث حتماً عن اختلافات أكثر مما نعرض لألوان من
المشابهات . وفيما يتصل بمنهج الكتاب وتقسيمه إلى أبواب ، ليس ثمة شك
في أن الطرق قطعاً أفضل نهجاً وتنظيماً وترتيباً من كتاب الموشى أو كتاب
الزهرة . فابن حزم وهو فيلسوف وعلم اهتم ، بروح غربي ، بمناقشة حتى
خطة الكتاب تفصيلاً ، الصفحتان ١٧ و ١٨ ، ويمكن أن نقول الشيء
نفسه فيما يتصل بعناوين الأبواب ، وثمة شيء من تشابه بين عناوين الموشى
وطوق الحمامة . فحيث يقول الموشى ، في الصفحة ٦٤ : « باب من مات
من شدة التمدد ، وتعضضت أعضاؤه من شدة الوجد » ، يوجز
طوق الحمامة الفكرة في : « باب الموت » . وحيث يقول الموشى ، في
الصفحة ٣٧ : « باب الحث على كتمان السر » ، في حفظ ما حثت عليه
ضلوع الصدر » يختصره الطرق في : « باب طي السر » . وعناوين كتاب
الزهرة مسجوعة وبجادة وشاعرية ، وعناوين الطوق بلا سجع وعارية
وموحية ، وذات وقع غربي .

ويتصل بهذا الغرض ، ولو أنني سأخرج عن الموضوع قليلاً ، أن ألقى
بملاحظة أراها مفيدة وجديدة ، ذلك أن أمتد الأبواب الأخيرة في كتاب
الموشى ، الصفحة ١٦٤ ، يدور حول العبارات التي ينتشها العشاق على
خرايتهم ، وعنوانه : « وما ينتشاه أهل الهوى على خرايتهم » ، وفي النقرة
الأولى منه نلتقي بعشرة نقوش ، إليك أوائلها :

من كثرت لحظاته ، دامت حسراته .

من تداوى بدائه ، لم يصل إلى شفائه ،

من قدم هواه ، دام أساه .

ونلاحظ أن ثمانية نقوش منها ، دون تغيير أو مع تحوير طفيف ،
هناوين أبواب في كتاب الزهرة لابن داود ، وهي واقعة تثير الاهتمام ،
لأن ابن داود والوشاء كانا متعاصرين ، فهل كان كتاب الزهرة مصدراً
هذه العبارات التي نقشها العشاق على خواتيمهم ، أم أن كتابات العشاق
هي التي ألهمت ابن داود عناوين أبواب كتابه ؟

دراسة أصول كتاب أدبي قمة ، وهو طوق الحمامة في حالتنا هذه ،
مفيد دائماً وضروري ، ولست أدري ما إذا كانت الملاحظات التي سبقت
مقبولة أم لا ، وما إذا كانت تسهم تاريخياً في تفسير إمكانيات الإبداع في
كتاب ابن حزم القرطبي الشهير . وأعتقد ، في حالة الالتفات إليها ، أن
غايته لا تتوقف عند هذه فحسب ، فممنذ زمن وأنا أدافع وأدعو ، معطياً
المثل متواضعاً ؛ إلى أنه من غير الممكن أن ندرس الأدب الأندلسي
علمياً دون أن نحدد ما به من عناصر مشرقية ، وما هو تجديد أو اقتباس
إسباني ، وهو أمر صعب للغاية من الوجهة التقنية في حالات كثيرة . وحالة
ابن حزم ، وابن شهيد أيضاً ، مثل متميز وواضح لمعرفة الصلة وردود
الفعل المتباينة للتبارين ، والاصطدام بين المفكرين ، المشرق والغربي . ولو
لم تمت القيادة الأدبية ، والتي يمثيها المؤلفان الكبيران ، تحت أنقاض
الخلافة ، تاركة الطريق واسماً وعريضاً لعصر من التشريق والبغدة ، كما
انتهى إليه حال دول الطوائف ، لكان من المؤكد أن أدب الأندلس
وثقافته ما كان ليصبح بالشكل الذي وصلنا عليه الآن ، مجرد مقاطعة
ناثية من أدب العرب وثقافتهم ، بل كان سيرتفع شامخاً ، في مملكة متألفة
ومستقلة على نحو ما كانت عليه خلافة قرطبة .

كتاب منية المحبين وبغية العاشقين

لشيخ يوسف بن مرعي الحنبلي

إن نفقوتأثيرات وطرق الحمامة في الأدب التالي شيء مفيد ، لا لكي نعرف القدر الذي بلغه من الشهرة كتاب ابن حزم فحسب ، وإنما أيضاً لكي نغذي الأمل ونندعمه في العثور يوماً على مخطوطة جديدة له ، لأن إمكانيات العثور عليها تزداد منطقياً مع اكتشاف أن دائرة انتشاره كانت أوسع مما برهنا عليه . وحتى الآن ، ماعدا الخطأ أو الإغفال . درس الباحثون تأثير الطوق ، أو اكتشفوا إشارات إليه ، في المؤلفات التالية :

• في الأدب الأندلسي : في كتاب « أعمال الأعلام » لابن الخطيب ، طبعة الرباط عام ١٩٣٤ ، الصفحات ١٢٤ - ١٢٦ (١) ، وثلاث قصائد في كتاب نفح الطيب للمقرئ ، المجاهد الثاني ، للصفحة ٤٠٦ ، من الطبعة الأوربية .

• في الأدب الإسباني : تأثيرات موضع نقاش في كتاب « الحب المحمود » لكاهن هيتا ، وهو من القرن الرابع عشر (٢) . وفي كتاب الراهب للكرملين جوزيف دي نخوس مارية Joseph de Jesus Maria ، وعنوانه

١ - أنظر : ليفي برونسال ، مجلة الأندلس ، المجلد ١٥ ، للصفحات ٣٢٩ - ٣٤٠ .
٢٦١ - ٣٦٢ .

• في الجزء ٣ ، للصفحة ٥٩٩ ، من طبعة إسماعيل عيسى . (المترجم)

٢ - أنظر : أميركو كاسقرو ، إسبانيا في تاريخها ، ص ٣٧١ - ٤٦٩ : بونس أيرس . ١٩٤٨ .

• ترجمت هذا الكتاب القيم إلى اللغة العربية : وسوف ننشر ترجمته قريباً . وفيما يتصل بتأثير « طوق الحمامة » في كتاب « الحب المحمود » ، أنظر للفصل الخاص بتأثير الطوق في الأدب الإسباني ، من هذا الكتاب (المترجم) .

مزايًا فضيلة العفة Excelencias de la virtud de la castidad ونشر
في القلعة عام ١٦٠١ م (١) .

• في الأدب العربي المشرقي : في « روضة المحبين » لابن قيم الجوزية (٢)
وفي « ديوان الصبابة » لابن أبي حجلة (٢) ، ومع شيء من الشك في كتاب
« تزيين الأسواق » للأنطاكي (٤) ،

وإلى هذه التأثيرات يمكن أن نضيف الآن تأثيراً واضحاً في كتاب
آخر هو : « منية المحبين وبغية العاشقين » للشيخ السورى يوسف بن يحيى بن
مرعى الطور كرمى الحنبلى ، ولم يرد في قائمة رينر التى حررها عن
كتب الحب (٥) .

وطبقاً لكتاب « خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر ، للمحجى ،
الجزء الرابع ، الصفحة ٥٠٨ ، نعرف أنه رحل إلى مصر للدراسة عام ١٠٤٤ هـ
- ١٦٣٤ م ، وعاد منها سنة ١٠٤٩ هـ - ١٦٣٩ م ، وكان مفتياً في
نابلس ، وعلى مذهب ابن تيمية ، وتوفى يوم الإثنين ١٠ من صفر عام
١٠٧٨ هـ - ١ من أغسطس ١٦٦٧ م (٦) .

١ - أنظر : كاسترو ، المرجع السابق ، ص ٤٠٣ ، وأنظر أيضاً : خايمه أوليفر
أسين ، مجلة المجمع الملكى الإسباني ، المجلد ٣٠ ، ص ٣٨٩ ، ٤٢١ هـ عام ١٩٥٠ .

٢ - أنظر : بروكلمان ، مجلة إسلاميكا ، المجلد ٥ ، ص ٤٦٢ - ٤٧٤ .

٣ - أنظر : غرسية غوث ، مجلة الأندلس ، المجلد ٩ ، ص ٦٥٠ - ٦٧٢ .

٤ - أنظر المرجع السابق .

٥ - أنظر فيما سبق صفحة ٣٠٠ من هذا الكتاب الهامش رقم ٢

٦ - في فهرس مكتبة بلدية الإسكندرية ، ولا أعرف ما إذا كن بداية المخطوطة نفسها ،
ومع ذلك يقال أنه توفى عام ١٠٣٣ هـ ، ١٦٢٣ م ، وذكر هذا التاريخ بروكلمان في كتابه
تاريخ الأدب العربى ، ج ٢ ص ٣٦٩ ، والملحق ج ٢ ص ٤٩٦ ، ويدعو بروكلمان : مرعى
بن يوسف بن أبى بكر بن أحمد الكرمى ، زين الدين المقدسى الحنبلى ، ولد في طول
الكرم ، قريباً من نابلس . ومخطوطة الإسكندرية تظهر عند بروكلمان في الملحق فقط ، ج ١
ص ١٢٩٢ ، في الفقرة الخاصة بالمطبوعات .

وقد أمكننى أن أعود إلى مخطوطتين من « المنية » ، إحداهما كاملة فى مكتبة بلدية الإسكندرية ، تحت رقم : ن - ٤٥٦٤ - ج ، وجاءت فى ٣٥ ورقة ، بلا ترقيم ، وكتبت فى خط شرقى جيد ، وهى لى ساجيل عليها دائما . والأخرى فى دار الكتب المصرية ، وجاءت فى ٥١ ورقة ، ومسطرتها ١٥ × ٢٠ ، وكتبت فى خط مغربى ، ونحمل رقم ٦٢٥٢ أدب ، ولست إلى مجهول ، فكان عنوانها : « الحب والمحبة » ، مؤلفه مجهول ، ولو أنه يمكن التوصل إلى معرفة المؤلف فى الحال .

نحن بصدد كتاب محدود الصفحات ، وبعد مقدمة قصيرة مسجوعة يقسم المؤلف كتابه فى عشرة أبواب هى :

- ١ - فى إثبات حقيقة المحبة وشرفها .
- ٢ - فى كلام الخائفين فى حقيقة المحبة .
- ٣ - فى حقيقة العشق وأسبابه ومراتبه ، وفى الفرق بينه وبين الخلقة والمحبة ، وفى أسمائه . وبين المؤلفين الذين يذكرهم فى هذا الباب تظهر أسماء : أفلاطون ، (ولكن ليست نظريته فى الأملاك المقسومة) ، وابن سينا وأرسطو وأبقراط والمتنبى والأصمى وابن تيمية والقاضى عياض وابن قيم الجوزية .
- ٤ - فى كلام الخائفين بمدح العشق وذمه . وفيه يذكر كتاباً آخر له عن الحب بعنوان : « تسكين الأشواق بأخبار العشاق » .
- ٥ - فى ذم الهوى وفى ذكر القلب ومدح العقل .
- ٦ - فى علامات لمحبة والعاشق ومذا يصير لهما عند غلبة من السكر وغيره ومذا يترتب عليهما .
- ٧ - فى حقيقة الشوق وهل هو يزول بالوصول أو يزيد ، وهل يصح كتمان المحبة ، وهل يتصير عند تمام لمحبة هجر ، وهل لمعرض الحبيب من عداوة .
- ٨ - فى إرشاد العاشق السقيم ، إلى الطريق المستقيم ، وبيان عقوبة من جتئح للعمل السقيم .

٩- في الحذر من المرد وأصحاب العنار، وما قيل فيهم من الأشعار :

١٠- في فضل الشعر ، وفي ذكر شيء من أشعار المحبين . وهو مختارات من شعر الغزل ، ليست مهمة إلى حد كبير ، ويضمها المؤلف أشعار آله ، ويختتمها بموشحة :

والإشارة الوحيدة التي يذكر فيها ابن حزم باسمه توجد في الباب الرابع ، الورقة ٩ ب ، في الوسط منها : « وقال ابن حزم : وقد أحب من الخلفاء الراشدين والأئمة المهتدين خلق كثير ، وعبيد الله أحد الفقهاء السبعة عشق حتى اشتهر أمره وعدلائمه ظالماً^{٢٦} ، وعشق عمر بن عبد العزيز جارية زوجته فاطمة مشهورة^{٢٧} . وهذه الفقرة تلتقي في جانب مع ما ذكره ابن حزم في كتابه « طرق الحمامة » ، الصفحة ٦ من طبعة بروف : (أو الصفحة ٢٠ من طبعة دار المعارف) * ،

وأما في الباب السادس من « المنية » ، وهو الخاص بعلامات الحب ، فقد اتكأ الشيخ مرعى طويلاً على كتاب ابن حزم ، ودون أن يشير إليه ، وإليك جانباً من نص المؤلف الشرقي ، وفيه صرفت النظر عن الأشعار التي تمخله ، وهي غير ذات أهمية ، إلى جانب فقرة غير واضحة ، وقد ألححت إلى الاتفاقات الأكثر وضوحاً ، وجئت بها في حرف مختلف ، وحلفت عليها :

« فالمحب والعاشق علامات يعرف بها المحبون ، وحالات يتميز بها العاشقون (١) »

لعمري العلامات (الورقة ١٢ ب) اضطراب أعضاء الحب العاشق عند نظر

* تختلف عبارة ابن حزم في الطوق عما في كتاب المنية شيئاً فيما يتصل بعبيد الله ، ولم يشر الطوق من قريب أو بعيد إلى قصة عمر بن عبد العزيز ، فلعلها إضافة من صاحب المنية ، أو لعله رجع إلى نسخة من الطوق غير التي بين أيدينا ، نسخة كاملة غير مختصرة ، وهو ما أرجحه (المترجم) .

١- في طرق الحمامة ، الصفحة ٢٧ ، من طبعة دار المعارف : « والمحب علامات يتفوقها الفطن ، ويهتدى إليها الذكي » .

محبوبه ومعشوقه (١). ورميه بطرفه نحو الأرض ، وتغيره تغير احمرار واصفرار ، وذلك من مهابة له ، وحياته منه ، وعظمته في صدره . . . [بيتان من الشعر]. . . ولذلك قال بعضهم : من علاماته اصفرار وجه المحب عند رؤية حبيبته ، واحمرار وجه المحبوب عند مقابلة محبة : . [بيتان من الشعر] . . . ومنها أن يضطرب المحب عند رؤية من يشبه محبوبه أو عند سماع اسمه (٢) . . . [بيتان من الشعر] . . . ومنها أن يستدعى مماع اسم محبوبه ويستأذ الحديث في أخباره (٣) وأشعاره ، وبحب أهل محبوبه وقرباته (٤) وغلاماته وجيرانه ومن ساكنه . . . [بيتان من الشعر وتنصبل للوضوح] . . . (الورقة ١٢) : . . . ومنها الإنصات لحديثه ، واستغراب ما يأتي به ولو كان حين الحال ، وتصديقه وإن كذب ، وموافقته وإن ظلم ، والشهادة له وإن جار . . . واتباعه كيف سلك (٥) ، والإصرار بالسير نحو المكان الذي يكون فيه ، والتعمد للعود بقربه ، والدنو منه ، والتباطى على القيام من عنده (٦) [بيت من الشعر] . . . ومنها بذل نفسه والتكريم بها دون من

١ - في طوق الحمامة ، الصفحة ٢٧ : « ومنها بيت يقع ، وروعة تبدو على المحب عند رؤية من يحب فجأة . . . »

(٢) في الطوق ، في الصفحة نفسها : « ومنها اضطراب يبدو على المحب عند رؤية من يشبه محبوبه ، أو عند سماع اسمه فجأة . »

(٣) في الطوق ، الصفحة ٢٩ : « ومن علاماته أنك تجد المحب يستدعى مماع اسم من يحب ، ويستأذ الكلام في أخباره . »

(٤) في الطوق ، الصفحة ٣٢ ، « ومن علاماته أنك ترى المحب يحب أهل محبوبه وقرباته . . . »

(٥) في الطوق ، الصفحة ٢٧ : « والإنصات لحديثه إذا حدث ، واستغراب كل ما يأتي به ولو أنه حين الحال . . . وتصديقه وإن كذب ، وموافقته وإن ظلم ، والشهادة له وإن جار ، واتباعه كيف سلك . »

(٦) في الطوق ، في الصفحة نفسها . « ومنها الإصرار بالسير نحو المكان الذي يكون

يحبّه ويهواه . . (١) . . (الورقة ١٣) . . ومنها الانبساط الزائد الكثير ،
والتضايق في المكان الواسع ، والمجاذبة على الشيء يأخذه أحدهما ، والتعمد
للمس اليد عند المحادثة ، ولمس ما أمكن من الأعضاء الظاهرة ، وشرب ما
أبقى المحبوب في الإناء (٢) . . .

في ضوء هذه الاستفادة ، أو إن شئت الدقة في ضوء هذا النقل ،
نستطيع أن نتوصل إلى النتائج التالية :

• أن طوق الحمامة كان معروفاً ، وجرت عليه عين القراءة والكتاب
في سورية ، في النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي (٣) . ومن ثم
لا يجب أن نفقد الأمل في أنه يمكن العثور يوماً على مخطوطة جديدة له
في المشرق .

• لقد أتاحت لي الفرصة أن ألحظ في مقدمة ترجمتي الإسبانية
للطوق (٤) أن « باب علامات الحب » أتبع له من بين أبواب كل الكتاب ،

= فيه ، والتعمد لقفود بقربه ، والدنومته . . . والتباطؤ في المشي عند القيام عنه . . .
(١) في الطوق ، الصفحة ٢٨ : « ومنها أن يجرّد المرء ببدل كل ما يقدر عليه مما كان
يتمتع به قبل ذلك » .

(٢) في الطوق ، في الصفحة نفسها : « ومن علاماته . . الانبساط الكثير الزائد ،
والتضايق في المكان الواسع ، والمجاذبة على الشيء يأخذه أحدهما . . والتعمد لمس اليد عند
المحادثة ، ولمس ما أمكن من الأعضاء الظاهرة ، وشرب فضلة ما أبقى المحبوب في الإناء . . »
• في هذا الاتفاق إشارة جديدة على أن إضافة برشييه ، الصفحة ٣٤ من طبعته ، لتصبح
المباراة « الانبساط الكثير الزائد في المكان للضييق » ، نزوة خالصة ، مثل عدد من التصويبات
الأخرى التي حاولنا .

(٣) كل بقية المؤلفين الذين أشرنا إليهم : ابن الخطيب ، وابن قيم الجوزية ، وابن
أبي حجلة ، من القرن الرابع عشر الميلادي ، وداود الأنطاكي من القرن السادس عشر .
المقري وحده توفي عام ١٠٤١ هـ = ١٦٣١ م ، وهو مع ذلك سابق للشيخ مرعي .

(٤) أنظر الصفحة ٢٩٧ المشر ١ من هذا الكتاب .

أكبر حظ من الذبوع والانتشار ، في الشرق والغرب على السواء ، فهل
باترى كان هذا الفصل يجرى بين يدي القراء وحيداً ، ومنفصلاً عن بقية
الكتاب ، أم أنه ضم ، مع فصول غيره ، إلى كتاب آخر لانهرفه ، وكان
هذا الكتاب المصدر المباشر لمن استخدموه في المشرق ، وحتى في الغرب ؟
في هذه الحالة علينا أن نصرف النظر عن النتيجة الأولى .

* * *

• ملاحظة أخيرة :

لم تعرض لى في مؤتمر المستشرقين ، ولكنى أبادر إلى رأى يمكن أن
يقال عن القسم الأول من هذه الدراسة ، من الذين يرون أن التشابه صدفة
فيما يتصل بالأمكار العامة في الحب ، وفي العبارات والغم ، مهمل جداً ،
لأننا ، في رأى من يدافعون عن هذه الفكرة ، بصدد مشاعر ومجالات مشتركة
بين كل عصر ومكان ، ولست من أنصار هذا الرأى . فالحب ليس شيئاً
مشتركاً بين مختلف العصور والثقافات ، فضلاً عما فيه من جانب تشريعى
وآخر يمس وظائف الأعضاء ، ويقول أورتيجا إى جاسيت : « الظن
بأن ظاهرة شديدة الإنسانية مثل أن نحب وجدت دائماً ، ودائماً في
صورة واحدة ، هو مثل أن نعتقد خطأ أن الأفراد يملكون مثل المعادن
والنبات والحيوان طبيعة واحدة وثابتة ، ونجهل أن كل ما فيه تاريخى ،
كل شيء . حتى ما ينتمى منه إلى الطبيعة فعلاً ، كما هو الحال في حاجاته
للغريزية . . . الحب شكل واختراع ونظام إنسانى ، وليس ابن عم المضم
ولازيادة الكلور في المعادة » . وأحتفظ لنفسى بتطبيق أفكار أورتيجا إى
جاسيت ، في مستقبل غير بعيد ، على تطور الأدب العاطفى عند العرب .
فقط أبادر هنا إلى القول بأنه يمكننا في القريب أن نؤرخ في عالم العرب
المشاركة متى اقتحم الحب العذرى مجال الحب الطبيعى الجاهلى ، ومتى
حل مكانه ، ومتى انتصر الحب الذى نمثله قصائد عمر بن أبى ربيعة

مورفاته ، ومتى ساد حب الجوارى ، ومتى برزت ظاهرة حب الغلمان
فى الأدب العربى ، ومن كل هذه الغراميات الأخيرة ، ذات التقليد
المشرق ، توجد عناصر فى طوق الحمامة لابن حزم . ومن جانب آخر ،
بين الروحانيات العاطفية النبيلة للأديب القرطبي والفحش الجامى لشاعر
كبير من القرن للتاسع الميلادى ، مثل الغزال ، تتوسط هوة عميقة ،
لا يمكن أن نفسرها برود فعل هفوية فحسب ، دون أى لون من تأثير
التقاليد المشرقية التى سبقته مباشرة .

آخرون كتبوا في الحب

بعد ابن حزم

كان ابن حزم نسيج وحده في كتابه «الطوق» ، على نحو ما رأينا ، لم ينقل عن أحد ، ولم يتأثر في منهجه بقراءة ، وترك أثره فيمن جاءوا بعده ، دون أن يبلغ أحد منهم مبلغه ، وأول هؤلاء فيما أعرف أبو محمد جعفر بن أحمد السراج ، المتوفى سنة ٥٠٠ هـ = ١١٠٧ م ، وإذا عرفنا أنه جاء إلى الحياة عام ٤١٦ هـ = ١٠٢٥ م ، تبين لنا أنه عاصر ابن حزم لسنوات طويلة تقارب الأربعين عاماً ، وكان عالم قرطبة ملء السمع والبصر ، ولكن تحديد الزمن الذي زيارعت فيه مؤلفاته المشرق عسير ، ولما يدر من ، ويمكن القول إجمالاً أن دنيا المشرق في القرن الحادي عشر كانت مهياة ، إن لم تنقل متشوقة ، إلى أن تقرأ كتاباً من طراز «طريق الحمامة» . دون أن نجزم بأن عبني السراج وقعت عليه ، وليس في كتابه ما يرجح ظناً : على نحو ما صنعنا بعد قليل :

يعرف السراج بالقارئ البغدادى . لأنه ولد في بغداد ، وعلى صاحبها لقي الله ، وكان رجلاً كثير التجارب ، رحل إلى مكة والشام ومصر ، ويقول عنه جلال الدين السيوطي : « كان على الطبقة في الحديث والقرأة والنحو واللغة والأروى » . ومن هنا كانت أغلب تأليفه تقوم على الرواية والنقل ، والجمع والنظم ، وكتابه « متسارع العشاق » خير مثال لهذا ، فهو حشد من الروايات والأخبار والأشعار ، مسندة أو مرسلية ، يوردها دون أى تحليل أو نقد أو موازنة . كأنما يستهدف الرواية وحدها ، وكأنما غايته التسلية والإمتاع وكفى .

ويختلف عن ابن حزم في أنه فقيه سياسى . ويحدث سلفى ، يجرى على مذهب العامة في أيامه ، وليس له اطلاع على الفلسفة ، ولا مشاركة في النقاشات الأجنبية المترجمة ، وعانى في حياته وثقافته ، لا يتميز بموقف بارز في أى مجال ،

وربما لهذا السبب لا تقف عنده كتب التراجم طويلا ، فهو محدث كمثات
المحدثين الذين تضيق بهم بغداد ، ونحوى كمآلاف منهم على امتداد العالم
للعربى ، وأقرب الظن أنه كان رفيق العاطفة ، يصبو للجمال ، ويتذوق الشعر ،
ويقول الأبيات منه على استحياء ، يلفه الوقار ، وتكبح نزعاته التقاليد ،
ويحرص دائما على الأخلاق السائدة ، وأراه وجد في الحديث عن العشاق غيره
تسليية ، والحياة مع أخبارهم سلوى ، ولعله أراد أن يكتب تاريخه ، وأن بنفس
عن مكنون صدره ، حين سطر سيرتهم فى : « مصارع العشاق » .

بدأ السراج كتابه بلا مقدمة تبين منهجه ، وانتهى به دون خاتمة توجز
غايته ، وكسره على اثنين وعشرين جزءا ، زحمها بكل ما عرف من قصص
العشاق ، حتى ما كان نادرا أو خرافة لا تصدق ، ولا نبى أخباره مرتبة ،
وقد يعرض للموضوع ثم يعود إليه ، وقد يجىء بجانب منه فى جزء ، وجانب
ثان فى جزء آخر ، ومحورها أخبار العشاق المذربين ، وفاضت على أيامه ،
وأصبحت تمثل فى بغداد تيارا ملحوظا ، فى عالم الأدب على الأقل . ويأتى
بأخباره مستندة ، وهو فى ذلك يجرى على عادة سارية ، لأن إسناد الخبر عنده
ليس دليل الصحة دائما ، وإهماله ليس قرين الضعف . وأورد لنا عبر هذه
القصص طائفة من الشعر لعدد كبير من الشعراء على أيامه أو قبلها ،
مثل جرير ، وعمر بن أبى ربيعة ، وبشار بن برد ، وأبى العتاهية ، وأبى نواس ،
وأبى تمام ، والبحتري ، وغيرهم . ولشعراء آخرين مجهولين من الأهراب
وسواهم ، لا نعرف أسماءهم ، ولم تكن كتب الأدب برواية شعرهم ،
وكان متداولاً فى مجالس السمر البغدادية على أيامه ، ويأتى بها لأنها تكمل
القصة التى يوردها ، أو توشى الموضوع الذى يتحدث عنه ، أو لأن ذاكرته
فاضت بها . وعرض على نحو أقل للحب الإلهى ، وأورد عدداً من قصص
للصوفية ، وأشعارهم فى حب الله ، أو الجنة ، أو الحور العين ، أو فى مدح
صاحب الكعبة .

وحاول فى الجانب الأكبر من قصصه أن يؤكد خلود العاشقين ، وأن

يبرز ملامح النساك منهم ، والذين يخافون الله ، وأن يربط بين الحبس والتمنى والعفة ، وتركنا نفهم أن الذين يسهم بقدر في توجيه الحب وجهة عفيفة ، فعشاقه يؤكدون من خلال تعاملهم على الوازع الديني ، وأنه يحول بينهم وبين ارتكاب المعاصي ، أو يحماهم على إخفاء عواطفهم ، فصاروا أمثلة للتضحية والوفاء . وهو في كل الحالات رجل إخباري ، لا يحلل ولا يدرم ، لا يأنس العلل ، ولا يدفع لك بالنتائج ، ومع ذلك فتحليل القصص الذي أورده يهدي إلى تفسير أدق لظاهرة الحب العذري في بغداد . ومن المفيد أن نشير إلى أن السراج ، وقد طوى كتابه على الكثير من شعار العذريين وصريح الحب الإلهي ، لم يجد حرجاً في أن يتحدث عن عشاق الغلمان ، وأورد شيئاً من شعرهم الماجن ، وهي ظاهرة ترتبط بتقديم الحضارة ، وكانت بغداد في قمة الحضارة على أيامه ، ولعلها لم تكن ترى في الحديث عن مثل هذه الظاهرة الشاذة شيئاً يعاب .

ومهما يكن فكتاب السراج قصص الخصل عن الواقع ، وعن الأسماء التي ارتبطت به ، زاد فيه الرواة وأعادوا تلويثه ، أو ابتدعوه أصلاً ، ونشروا بين سطوره أسماء معروفة : ليكون أقرب إلى الواقع ، وأنشد إلى قلوب السامعين ، وهو يعكس دون شك ذوق الذين أقبأوا على هذه القصص ، يسمرون بها أو يؤرخون لها ، دون أن تصبح وثيقة لحياة أبطالها ، أو واقع المجتمع الذي انتموا إليه ، ومؤلف الكتاب فقيه خائف ، يتوجس شراً من وراء رواية أية حكاية ، فيوردها مسندة ، كما نرى يريد أن ينفض يديه من مسئوليتها ، ويوصل الباب دون مشاعره ، فلا يعرف أحد على نحو يقيني ما تنطوي عليه ، وكأها ملامح يقف ابن حزم في الجانب المقابل لها تماماً .

• • •

بعد ثمانى سنوات من وفاة السراج يجيء ابن الجوزي ، أبو الفرج عبد الرحمن ، القرطبي البغدادي ، ولد في بغداد عام ٥٨٠ هـ = ١١١٤ م ، وفيها توفي عام ٥٩٧ هـ = ١٢٠١ م ، والجوزي نسبة إلى (فرضة الجوز) (٢١ م ابن حزم)

من خواحي عاصمة الرشيد . وأمضى طفولة نعمة ، مات أبوه ولما يتجاوز الثالثة من عمره ، وأهملته أمه ، فرحته عمه له ، ثم احتضنه بحاله حين ظهرت مواهبه ، وتفرد بين قرنائه ، واتجه صغيراً إلى الوعظ ، فبرع فيه ، أعانته عليه مشاعر رقيقة ، وحنان متدفق ، ورغبة في الإصلاح ، وعزم على مقاومة الفساد الذي عم وطم ، بالكلمة القارعة ، والقصة الموحية ، والمثل القدوة . ولكن مواهبه لم تقف به عند الوعظ ، فشارك في كل مناحي العلم على أيامه ، كتب في علوم القرآن والحديث ، والأدب واللغة ، والرّيح . والفقه ، والتاريخ والسير ، وتعرف له المكتبة العربية قرابة ستين كتاباً بين مخطوط ومطبوع ، على حين يرتفع أصحاب التراجم القدما بمؤلفاته إلى ثلاث مئة ، وبهنا من بينها جميعاً كتابه : « ذم الهوى » .

وقبل أن نعرض للكتاب نفسه أرى من المفيد أن نغف عند صورة دقيقة لمؤلفه ، أوردها ابن العماد الحنبلي ، نقلاً عن الموفق عبد المطيب ، ففيها ما يكشف اتجاهه ، ويلقى ضوءاً على مؤلفه ، يقول : « كان ابن الجوزي لطيف الصوت ، حلو الشائل ، رقيق النغمة ، موزون الحركات ، لذيذ المفاكهة ، لا يضيع من زمانه شيئاً ، يكتب في اليوم أربع كرايسن ، ويرتفع له كل سية من كتابه ما بين خمسين مجلداً إلى ستين ، وله في كل علم مشاركة . . . وكان يراعى حفظ صحبه ، وتلطيف مزاجه ، وما يفيد عمله قوة ، وذنه حدة ، يعتاض عن المفاكهة بالمفاكهة ، لباسه الأبيض الناعم المطيب . . . وله مجون لطيف ، ومداعبات حلوة ، ولا ينفك عن جارية حسناء ، وذكر غير واحد أنه شرب حب البلاد فسقطت لحيته ، فكانت قصيرة جداً ، وكان يخضبها بالسواد إلى أن مات » .

ورغم أن ابن الجوزي احتاط لنفسه ، فجعل عنوان كتابه : « ذم الهوى » ، مما يرفع الحرج عنه للوهلة الأولى ، احتاج كمادة الذين كتبوا في الحب قبله ، أن يشير إلى أنه يؤلف كتابه استجابة لرغبة أبديت له : « شكاً إلى بعض من أثرت شكواه إثارة همتي في جمع هذا الكتاب ، من بلاء

بئلى به ، وهوى هوى فيه ، وسألى المبالغة فى وصف دواء دائه ، فأهديت له نصيحة ودبد لأودائه ، وقد أثبت بها على أبلغ ترتيب . وبعد مقدمة قصيرة جداً لا تتجاوز هذه الأسطور ، عقب بما يشبه أن يكون اهتذاراً عما يمس بوقاره من مضمون الكتاب : « وأعلم أنى قد نزلت لأجلك فى هذا الكتاب عن بفاع الوقار ، إلى حضيض الترخص فيما أورد ، اجتذاباً لسلامتك ، واجتلاباً لعافيتك ، وقد مددت فيه النفس بعض المد : لأن مثلك مفترق إلى ما يلهيه من الأمار ، هن الفكر فيما هو بصده من الأخطار ، فليكن هذا الكتاب سميرك ، واستعمال مأمرك به فيه شغلك ، والله ولى صلاحك ، فإنه لأعاصم إلا من رحم . »

ثم أتى على الأبواب التى تضمنها الكتاب ، وتبلغ الخمسين ، وتحت كل باب فصول عديدة ، تتناول الجوانب المختلفة للقضية التى يعالجها . نحن مع « ذم الهوى » ، إذن أمام كتاب ضخم ، لعله أضخم كتاب ألف فى هذا المجال ، ولا غرو أن يكون كذلك ، فصاحبه واعظ ، معارف وفيرة وهبارة موثقة ، ورغبته فى الإفاضة بيّنة ، وإدراكه لنفسية القارئ دقيقة ، وكانت دراسته بجمع هذا كله ، بجاء الجانب الأكبر منها فى التحذير والتذكير ، من التنبيه إلى فضل العقل ، وذم الهوى والشهوات والحض على مجاهدة النفس ومحاسبتها وتوبيخها ، ومدح الصبر والحث عليه ، وحراسة القلب من التعرض للشواغل والفتن ، وما يصدأ به ، وما يجلو صدأه ، أو يفرغه من محبة الرب .

وخص النظر بأبواب عديدة ، تدور حول الأمر بغض البصر ، وذم فضول النظر ، والتحذير من شره ، والتهنى من النظر إلى المردان ومجالسهم ، وإثم النظر وعقوبته ، ومن عاقب نفسه عليه ، ومن طلب العمى خوفاً للفتنة ، وثواب من غض بصره عن الحرام ، ومعالجة الهم والفكر المتولد عن النظر ، والتحذير من فتنة النساء ، والتخويف من الفتن ومكابد الشيطان ، والتحذير من المعاصى وقبحها ، وفى ذم الزنا ، وعرض للعواطف المنحرفة ،

وحذر من ذلك كله ، وذكر بعقوبته ، وحث على التوبة لمن تردى في مهاويها . وخرج من ذلك إلى نهاية منطقية فيها الحماية لمن أراد العافية ، فحجب في الزواج ، وقرع من خيب امرأة على زوجها ، وبذلك انتهى الجانب الوعظي من الكتاب .

ومن الباب الخامس والثلاثين حتى نهاية الكتاب وقفه على العشق ، حقيقته وأسبابه وذمه ، وثواب العفة فيه ، وما يجري على العاشق من المرض والضنى والحنون ، والحيل والمخاطرة والهلكة لأجل لقاء المحبوب ، ومن ضربت به الأمثال من العشاق ، ومن حمله العشق على أن يزني بمحارمه ، ومن كفر بسببه ، ومن دفع به العشق إلى أن يقتل نفسه أو معشوقه ، ومن قتله العشق ، وأدوية الشفاء ، وأخبار مشاهير العشاق ، وأنهى الكتاب بباب وقفه على الوصايا والزواج والمواظاة .

كان اعتماد ابن الجوزي في الجانب الخاص بالنهاي والتحذير ، والإرشاد والتذكير ، قائماً على النقل عن الزهاد والعباد والمحدثين ، والفقهاء والمتصوفة والمفسرين ، والأدباء والعلماء وعلية القوم ، والبدو وعامة الشعب . وقد يذهب بعيداً فينقل عن السيد المسيح ، ويستشهد بأحوال الرهبان ، أو يضرب المثل بأنبياء بني إسرائيل . وأفاد في الأبواب الخاصة بالعشق من التراث اليوناني المترجم ، فهو ينتقل عن أفلاطون ، وبودجانس ، وأرمسطوطاليس ، وفيثاغورس ، وجالينوس ، ويسميه « الأوائل » ، ويعقب على آرائهم بالإسلاميين . إنه مفتوح العقل والقلب ، يلتقط أية مادة يسقط عليها عقله ، ما دامت تخدم الهدف الذي يسعى إليه . ويوشى قصصه بين حين وآخر بأبيات من الشعر تمتد أحياناً حتى تصبح قصيدة طويلة ، وأخباره مستندة دائماً ، وعبارته واضحة أبداً .

وحددت مهمته واعظاً نهجه في الرواية ، فهو يهتم بالتأثير في المقام الأول ، لا بعينه المصدر كثيراً ، ولا صدق ما يرويّه ، محور القصة ويطورها ، وقد يوشىها بحدث ولو موضوع ، لكي يبلغ التأثير غايته .

وَجَرى قلمه بأبعد مما جرى به قلم أى واحد من الذين سبقوه ، يورد
قصة الأم التى عشقت ابنها واحتالت عليه ، والأخ الذى أحب أخته واتخذها
عشيقته ، وبعضى بالتقصين فى خبر مثير وأسلوب سهل جذاب ، يغرى
بالقراءة ، ويمسك باهتمام القارىء حتى النهاية .

والكتاب صورة لما كان يجرى فى المجتمع العربى بعامه ، وفى بغداد
على نحو خاص ، فى عصر المؤلف وما قبله ، وإذا صفينا مادته من طابع
القصة ، وإرادة التأثير ، التقينا بالحياة كما هى ، وإذا البون شاسع بين
ما يحدث فعلاً ، وما يتعمده ابن الجوزى واعظاً ، وقد أسرف فى أمثلته ،
وأراها لا تحقق ما أراد منها ، فيها أشاع نادراً ، وأذاع مجهولاً ، وجعل من
مقطعات الأبرار مندوحة لعامة الناس .

وأدار المؤلف ظهره للأندلس ، والغرب الإسلامى ، وحتى مصر
لا ترد إلا نادراً ، وكان فى ذلك خلصاً مع نفسه ، فهو لم يبرح بغداد فيما
يبدو ، واللفظ مادته من روايات معاصريه الذين لقيهم ، وشهادة بنت
أحمد من بينهم على نحو ظاهر ، والخبر الأندلسى الوحيد الذى اهتم به ،
وأورده تفصيلاً ، قصة أحمد بن كليب مع أسلم بن عبد العزيز .

وأكد أنجزم أن ابن الجوزى لم يقرأ « طوق الحمامة » ، أو حتى سمع
به ، فهو لا يأتى على ذكر ابن حزم أبداً ، ولا يلتقى معه رأى أو منهج
أو فكرة ، ومسافة الخلاف بينهما واسعة ، مادة ومنهجاً ، ابن حزم أصيل
وذاق ومبدع ، وابن الجوزى قارىء ومختار وصانع ، والأول واقعى
ومقرر وذاق ، والثانى واعظ وقصاص وناقل . والقرطبى يقدم مادة
لا نكاد نجد ما عند غيره ، والبغدادى يقدم حشداً هائلاً من الروايات ،
ويمكن أن نلتقى بالجنب الأكر منها معثراً فى مؤلفات أخرى ، ولكن
ذاك لا يقل من شأنه ، فهو شيق بحكاياته وأسلوبه ، وأنت تجرى بين
سطوره ، وكأنك تقرأ كتاباً معاصراً ، لا تقع منه على جملة قلقة ،
أو تعبير غامض ، أو كلمة صعبة تقف عندها ، أو تحتاج فى فهمها أن

تعود إلى المعاجم :

* * *

وبعد قرن تقريباً يحيى ابن قيم الجوزية ، ومن توافق الصدف أن البعد الزماني بين وفاة السراج ومولد ابن الجوزي ، يعادل تقريباً المسافة بين وفاة ابن الجوزي ومولد ابن قيم الجوزية ، سنوات تتجاوز التسعين وتقل عن المائة ، ؛ وثمة فارق جوهري بينهم ، فالسراج وابن الجوزي بغداديان ، وابن قيم الجوزية دمشقي ، جاء إلى عاصمة بني أمية عام ٥٦٩١ = ١٢٩٢ م ، وبها توفي عام ٧٥١ هـ = ١٣٥٠ م ، وعبر حياته الطويلة تنقل ما بين سورية ومصر ومكة . وكان تلميذاً لشيوخ الإسلام ابن تيمية (١٢٦٣ - ١٣٢٨ م) ، لا يخرج عن شيء من أقواله ، وينتصر له في جميع ما يصدر عنه ، وهو الذي هذب كتبه ، ونشر علمه ، وسجن معه في قلعة دمشق ، وأهين وهذب بسببه ، وطيف به على جمل مضروباً بالعصى ، وأطلق سراحه بعد موته . وكان ابن تيمية إماماً جليلاً ، لا يخضع في مذهبه إلا للقرآن والسنة والإجماع ، رغم أنه من أتباع الإمام أحمد بن حنبل ، وقد رفع عقبرته ضد البدع عبادة الأولياء والحج إلى قبورهم ، والنذر لهم ، وسار الوهابيون على ومبادئه فيما بعد .

وكان ابن قيم الجوزية حسن الخلق ، محبوباً عند الناس ، ذا عبادة وتهجد وطول صلاة ؛ تفنن في كافة علوم الإسلام من تفسير وحديث وأصول ، متمكناً من النحو وعلم الكلام والتصوف ، أغرى به الكتب فجمع منها عدداً عظيماً ، وكتب بخطه الحسن شيئاً كثيراً ، وألف تصانيف كثيرة تقارب السبعين ، أروجها : « زاد المعاد في هدى خير العباد » ، وبهمنان . بينها كتابه : « روضة المحبين ونزهة المشتاقين » ، وأراد به فيما يقول : « عوناً على الدين والدنيا ، فتارة يضحك قارئه ، وتارة يبكيه ، وطوراً يبغده عن أسباب اللذة الفانية ، وطوراً يرغبه فيها » .

تناول ابن القيم الجوزية الحب من كل جوانبه ، حب الله والإخوان ،

والأموال والنساء والألحان ، وفي المحبة والمحبة وجدت الأرض والسموات ،
وعليها فطرت المخلوقات ، ولها تحركت الأفلاك الدائرات ، وبها وصلت
الحركات إلى غاياتها ، واتصلت بداياتها بنهاياتها ، وبها ظفرت النفوس
بمطالبها ، وحصت على نيل مآربها ، وتخلصت من معاطبها . ويرد الحب
إلى أسباب ثلاثة : ما قام بالمحبيب من الصفات التي تدعو إلى محبته ، وما
قام بالمحب من الشعور بهذه الصفات : والموافقة التي بين المحب والمحبوب ،
ومتى قويت هذه الدواعي وكملت ، قويت المحبة واستحكمت ، والعكس
صحيح أيضاً .

وهو رجل دين ملتزم ، وباحث جاد في دروسه وفي حياته ، يعرض
للجنس والحب فلا يرى له طريقاً غير حكم الشريعة ، لا يرجع إلى عادة
جارية في آياه ، ولا إلى تفسير مستعار ، لا يتساهل ولا يترخص ، وإن
فصل الخطاب هو أن الاتصال الجنسي الحرام يفسد الحب ، ولا بد أن تنتهي
المحبة بينهما إلى المعادة والتباغض ، أما الاتصال المباح فإنه يزيد الحب إذا
صادف مراد المحبوب ، فإنه إذا ذاق لذته وطعمه أوجب له ذلك رغبة أخرى
لم تكن حاصلة قبل الذوق .

ويعرض للنظر على غير ما نظر فيه ابن الجوزي قبله ، يورد آراء الذين
يروونه مباحاً ، لأن رؤية الجمال البديع تنطق ألسنة الناظرين بقولهم : سبحان
الله رب العالمين ، وتبارك الله أحسن الخالقين ، والله تعالى لم يخلق هذه المحاسن
عبثاً ، وإنما أظهرها ليستدل الناظر إليها على قدرته ووحدانيته وبديع صنعه .
ولقد خطب رجل امرأة فاستشار النبي فقال : هل نظرت إليها ؟ فقال :
لا . قال : اذهب فانظر إليها . و«أمر النبي للخطيب بأن ينظر إلى المخطوبة
إنما هو نظر للحاجة ، وهو من النظر المأذون فيه لمصلحة راجحة ، وهو
دخول الزوج على بصيرة ، فالنظر المباح أنواع هذا أحدها ، بخلاف النظر
إلى الصورة المحرمة ، بل إن التلاصق لا يذهب التقى إذا كان في عشق مباح ،
بل هو أمر مستحب ، كعشق الزوجة والجارية . ويورد مناظرة طريفة بين

القلب والعين ، فالعين رائدة ، والقلب باعث وطالب ، وهذه لها لذة الروية ، وهذا له لذة الظفر ، ولهذا كانا في الموى شريكين ، فلما وقعا في العناء ، واشتركا في البلاء ، أقبل كل منهما ياوم صاحبه ،

ويورد في حتمية العشق آراء الأطباء والفلاسفة ، والمنكرين العرب ، وأهمهم رأى ثمامة بن أشرس ، وهو موجود في كل الكتب السابقة التي عرضت للمحب ، ويعرض لإرادة الحب : هل هو اختياري تابع لهوى للنفس وإرادتها ، أو اضطرارى لا يدخل تحت قدرة العبد ، فهو بمنزلة محبة الظمان للماء البارد ، والجائع للطعام ، ويورد آراء أكل من المريقين ، ويفصل بينهما ، منتهيا إلى رأى وسط ، فالحب في أوله ، من نظر وتفكير وتعرض ، أمر اختياري ، ولكن ما يترتب عن هذا الاختيار اضطرارى ، ويضرب لذلك مثلا بالخمور والسكر ، فشرب الخمر أمر إرادى ، ولكن السكر الذى يتولد عنها اضطرارى ، ومنى وقع السبب اختيارا ، لم يكن فاعله معذورا فيما تولد عنه . فإذا حصل العشق بسبب غير محذور ، كمن يعشق زوجه أو جاريتها ، ثم فارقتها وبقي عشقا غير مفارق له ، لا يلام صاحبه عليه ولا يقف بالجبرية عند هذا الحد ، فمن وقع نظره فجأة على جميلة ، ثم صرف بصره ، ولكن العشق تمكن منه ، لم يكن مختاراً .

ويتناول قضية الحب من جانبها الفقهى ، وأكمله فيما يرى ما انتهى بالزواج ، فالعزوبة ليست من الإسلام فى شيء ، فإذا تزوج المحبان فإن للمعاشرة فوائد وآداباً وقواعد منها : « إكمال اللذة ، وكمال الإحسان إلى الحبيبة ، وحصول الأجر ، وثواب الصدقة ، وفرح النفس ، وذهاب أفكارها الرديئة عنها ، وخفة الروح ، وذهاب كثافتها وغلظها ، وخفة الجسم ، واعتدال المزاج ، وجلب الصحة ، ودفع المواد الرديئة ، فإن صادف ذلك وجهها حسناً ، وخلقاً دمثاً ، وعشيقاً وافرأ ، ورغبة تامة ، فذلك اللذة التى لا يعادها شيء ، ولا سيما إذا وافقت كما لها ، فإنها لا تكمل حتى يأخذ كل جزء من البدن بقسط من اللذة ، فتلذذ العين بالنظر إلى المحبوب ، والأذن بسمع

كلامه ، والأنف بشم رائحته ، والنفم بتقبيله ، واليد بلمسه ، وتعتكف كل جارية على ما تطيبه لدهنها ، وتقابله من المحبوب ، فإن فقد من ذلك شيء لم تزل النفس متطلعة إليه ، فلا تسكن كل السكون ، ولذلك تسمى المرأة مسكناً لسكون النفس إليها ، قال الله تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها » .

ويدرك واعياً أن الرغبة تشتد مع الصحة الكاملة ، والغذاء الجيد ، وتهبط أو تتلاشى مع المرض والجوع والحاجة ، فالصوم ، مثلاً ، يكسر حدة الشوق ويضيق على النفس مجارى الشهوة . ويختم كتابه بخمسين وصية لمن وقع في الهوى وأراد أن يبرأ منه ، وهى نصائح مسجوعة ، ووعظ إنشائي ، قرأتهما تسلى ، ولكنها لا تشفى عاشقاً ، ولأننا أخذ بيد مريض .

ينفرد ابن قيم الجوزية بين رفاقه بأنه قرأ كتاب « طوق الحمامة » دون شك ، وعلى ذلك شواهد من حياة الرجل ، ومن طبيعة العصر ، ومن كتابه نفسه . فنحن نعرف أنه كان جماعة للكتب حفيماً بها ، وخاف وراءه مكتبة غنية ، وكانت الصلة بين دمشق والأندلس أقوى بكثير فى هذه الفترة من الزمن مما كانت عليه بين الأندلس وبغداد بعد أن سقطت الخلافة ، واجتاح هولاكو عاصمة بنى العباس ، وأتى على معالمها تدميراً ، وأرسل بها إلى دائرة الظل لزمان طويل ، على حين صعد نجم القاهرة مريعاً ، وأصبحت قبلة العالمين العربى والإسلامى ، بعد أيام صلاح الدين المجيدة ، وبعد أن حطم الجيش المصرى بقيادة الظاهر بيبرس جيش التتار فى موقعة « عين جالوت » ، عام ١٢٦٠ م ، وحرر سورية ، وعاد بها من جديد لإقليم من دولة كبرى عاصمتها القاهرة ، وتشمل مصر والشام والجزيرة العربية . وكانت مصر محط الأندلسيين فى طريقهم إلى الحج ، أو رحالة إلى الشرق ، أو تجاراً يعماون فى التصدير والاستيراد ، أو طلاباً يبحثون عن العلم ، أو أساندة يحاولون أن يجدوا لهم فى خلق الأزهر مكاناً ، زهواً يما وصلوا إليه وبلغوه فى وطنهم ، أو هاربين من الملاحقة يطلبون الأمن

والمأوى . ومن القاهرة ينطلقون إلى الحجاز للحج ، وإلى القدس تبركاً ،
وإلى دمشق طلباً لصناعاتها الدقيقة ، وكانت تشتهر بها على نحو عالمي ، طوال
العصر الوسيط .

أما تأثير « الطوق » في كتاب « روضة المحبين » ، فينتجلى من خلال
مناقشة ابن قيم الجوزية لآراء ابن حزم وفيما نقل عنه ، فهو يرفض رأى
عالم قرطبة في أن سبب الحب « اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة
في أصل عنصرها الرفيع » ، لأنه مبني على القول بتقديم خلق النفوس على
الأبدان وهو فاسد . وعلى خطى ابن حزم يؤمن بوحدانية الحب ، ولكنه
لا يقف مثله بالفكرة عند جانبها العاطفي وحده ، وإنما يكسوها ثوباً دينياً ،
فيذكر الآية : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » ،
ويذكر آراء المفسرين في أن المقصود عجز الإنسان عن العدل بينهن في
الحب والشهوة ، وإن كان يستطيع أن يفعل ذلك فيما هو مادي من الملابس
والمسكن والنفقة . وينثر أبيات ابن حزم في استحالة تعدد المحبوب ،
ويصنع منها مثلاً موجزاً : « ليس في القلب حبان ، ولا في السماء ربان » .

أما الباب الخاص بعلامات الحب ، فكان فيه عالة على ابن حزم تماماً ،
ينقل عنه دون أن يشير إليه ، ويستشهد به ذاكره في أكثر من موضع ،
والفرق بينهما أن ابن حزم موجز ، يحاول أن يعطى صورة لنفسه ولمن حوله ،
دون أن يرتدى ثياب الواعظ أو مسوح الراهب ، ولا يحاول أن يبحث
عن أمثاله خارج حياته وحياة صحبه ، ولا يقتنص الشواهد مما قرأ في كتب
الآخرين ، على حين أن ابن قيم الجوزية يورد على ما يقول ، أو ينقل إن
شئت ؛ الشواهد كثيرة ومتعددة ، وهو بؤرخ أو محلل ، ولكن عينه على
ما تقتضيه الشريعة إجازة أو تحريماً ، وقد كما أفكاره أثواباً مشرقية ،
وصاغها في صورة دينية ، ليبلغ بها غايته ، وكان واثقاً من نفسه فلم يكن
في حاجة ليعتذر عن حديثه في الحب ، أو ليبرر إقدامه على التأليف فيه .

وكان ابن أبي حجلة التلمساني ، أحمد بن يحيى ، أبو العباس ، معاصراً لابن قيم الجوزية ، حنظلياً مثلاً في اتجاهه الفقهي ، وهو يمثل وحدة الثقافة الإسلامية في عصرها الزاهر خير تمثيل ، فقد ولد في المغرب عام ٧٢٥ هـ = ١٣٢٥ م ، وأمضى شطراً من حياته في دمشق ، ثم جاء القاهرة واستقر بها ، وولى مشيخة الصوفية بصهرنج منجك ، إلى أن توفي عام ٧٧٦ هـ = ١٣٦٦ م ، وله أكثر من ثمانين مصنفاً في الحديث والفقه والنحو والأدب ، وله شعر ونثر ، وبهمناء من بين كل مؤلفاته كتابه : « ديوان الصباية » .

بدأ ابن أبي حجلة كتابه بمقدمة مسجوعة ، أبان فيها غايته بأنه يحوى أخبار من قتلهم الهوى ، وتركهم كهشيم محتظر ، وبزهو بأن جماعة من معاصريه غلبوا من تقدم بالتأليف في هذا الباب ، ويقارن بين كتابه وبين ما ألفه الشهاب محمود ، ويرى أن ذلك بالنسبة إلى هذا مشكور ، ويشير إلى « طوق الحمامة » في السطور الأولى من مقدمته إشارة غامضة ، لم أتبين ما يريد منها تماماً ، ربما لأن النص الذى بين أيدينا مطبوع تجارياً ، يحىء على هامش كتاب « تزيين الأسواق » للأنطاكى ، فهو ملء بالتحريف والأخطاء .

سلك ابن أبي حجلة في تأليف كتابه طريق « الاختصار والاقتصار » ، على النوادر القصار » ، واحتذى فيه شكلاً منهج ابن حزم ، فرتبه على مقدمة وثلاثين باباً وخاتمة . أوقف المقدمة على ذكر حلد العشق واشتقاقه ، وما قيل في اسمه ورسمه ، وأسبابه وعلاماته ومراتبه ، وأسمائه ومدحه وذمه ، واختلاف الناس فيه : أهو اختياري أم اضطرارى ، وخص الخاتمة بمن « مات من حبه ، وقدم على ربه ، من غنى وفقير ، وكبير وصغير » ، ودرس في كل باب من أبوابه جانباً من جوانب الحب ، فبدأ بذكر الحسن والجمال ، والمحبين والظرفاء من الملوك والخلفاء : ومن عشق على السماع ، ومن أحب من أول نظرة ، وتغير ألوان المحبين ، والغيرة ، وإنشاء السر ، ومغالطة الحبيب ، والرسل والرسائل ، وطيف الخيال ، والرقيب والنام

والواشي ، والتعائب بين الأحبة ، ومساعدة العاشق ، والشفاء من الجوى ،
وتعنت المعشوق ، والدعاء على المحبوب ، والخضوع ، والوعد ، والرضى
من المحبوب ، واختلاط الأشباح ، ونحول المحب ، وما يكابده المحبون ،
وطيب ذكر الحبيب ، ووصف ما يحمل في المحبوب شكلاً ، وأخبار
المطربين من الرجال وذوات الحجال ، ومن ابتلى بحب النساء والغلمان ،
ومن انتصف بالعفاف . ويأتى بعناوين الأبواب مسجوعة في تكلف ظاهر ،
وتحت كل باب فصول تختلف طولاً وعدداً من باب إلى آخر .

عاش ابن أبي حجلة في عصر بدأت فيه الثقافة العربية تأخذ شكلاً
موسوعياً ، يقوم على الجمع والحفظ والترتيب ، وكان المغاربة أكثر ميلاً ،
وأسبق أخذاً ، في هذا الاتجاه ، ويتجلى هذا واضحاً في «ديوان الصبابة» ،
فقد زحمة صاحبه بأسماء الفلاسفة والشعراء والكتاب ، وهو لا يقنع من
الآسماء الأجنبية بل ذكرها ، وإنما يضيف إليها تعريفاً موجزاً ، لا تجده عند
من سبقوه ، ممن كتبوا في هذا المجال ، فأرسطو فلكى وتلميذ أفلاطون ،
وأفلاطون أخذ الحكمة عن فيثاغورس ، وبطليموس فلكى وعلى معرفة واسعة
بالجغرافية ، وإلى جوار هؤلاء تنقئ بأسماء ابن سينا ، والجنيد ، ومن الشعراء
أبو تمام ، وبشار ، وأبو نواس ، وأمرؤ القيس ، والبهاء زهير ، وابن نباتة
المصرى ، وآخرون كثيرون .

وينقل عن سبقوه في الكتابة عن الحب ، كالحرائطى ، وابن حزم ،
والسراج ، وابن الجوزى ، وابن قيم الجوزية ، وعن أبي عمرو ومحمد بن
أحمد النوفانى ، في كتابه «نخبة الظراف» ، وشمس الدين بن الأكتفانى في
كتابه : «غنية اللبيب عند غيبة الطبيب» ، وتفرد من بين هؤلاء جميعاً بأنه
ضمن كتابه أمثلة أندلسية عديدة ، جاء بها من مصادر مختلفة ، أشار إليها
حيناً ، وأهمها حيناً آخر ، وهو أمر طبيعى من مغربى يعيش في المشرق ،
ويشده الحنين دوماً إلى مسقط رأسه ، وذكريات أمسه ، وكان الأندلس
جزءاً من عالم المغرب أحاسيساً وذكريات . فقد أورد في الباب الأول بيتين

الحكم بن هشام دون أن ينسبهما إليه ، مكتئباً بقوله : إنها « لبعض ملوك
الأندلس » وهما :

ظل من فرط حبه مملوكا ولقد كان قبل ذاك مليكا
تركته جآذر القصر صبا مستهما على الصعيد تريكا

ثم عاد في الباب الثاني ، وهو الخاص بذكر « الحنين الطرفاء » من الملوك
والخلفاء ، فذكرها ثانية ، وأضاف إليهما بيتين آخرين ، ونسبها إلى الحكم
ابن هشام صراحة (١) ، وأتى بأبيات الرشيد في جواريه ، وهى مشهورة ،
ووصلت الأندلس في زمن مبكر ، وراجت فيه كثيراً ، وأتبعها بأبيات
الخليفة الأندلسي سليمان المستعين ، من قصيدته التى قالها يعارض فيها أبيات
الرشيد ، وكان الأندلسيون يزهون بقصيدة أميرهم ، ويرون بحق أنها أرق
من أبيات الرشيد ، وقد أتينا عليهما من قبل (٢) . وينقل بعدها رواية للشيخ
أثير الدين أبى حيان نصها : « كان السلطان أبو عبد الله محمد بن السلطان
الغالب بالله ، أحد ملوك الأندلس ، جميلاً حسن السيامة ، متظاهراً بالدين ،
رأيته مراراً بغرناطة ، وأنشدنى شعراً ، وحضرت عنده لإنشاد الشعراء ،
ومن شعره :

أياربة الخدر التى أذهبت نسكى على كل حال أنت لا بدلى منك
فلما بذل وهو أليق بالهوى وإما بعز وهو أليق بالملك »

وهو كما ترى شعر سخيف ، وكل مبررات روايته وذكره أن قائله
أمير . ويورد الأبيات التالية ، من قصيدة رقيقة وشهيرة لابن بلى ، نقلها
عن ابن الأبار فى كتابه « تحفة القادم » ، وهى ليست موجودة فى « المقتضب »
منه الذى اختاره أبو اسحاق إبراهيم بن محمد البليغى :

(١) المقطوعة من خمسة أبيات فى « الحلة السرا » لابن الأبار ، ج ١ ص ٤٩ ، طبعه
للقاهرة ١٩٦٢م

(٢) أنظر صفحة ١٢٢ من هذا الكتاب .

حتى إذا مالت به سنة الكرى زحزحته شيئاً وكان معانقياً
أبعده عن أضلع تشتاقه كى لا ينام على وصادخافق

ويلقى عليها ابن الأبار : « نسب بعض أهل عصرنا ابن بقى (١) إلى
الجفاء في قوله : « أبعده عن أضلع تشتاقه » ، ولو قال : أبعدت عنه
أضالع تشتاقه « لكان أحسن » . ويعقب عليه برأى ابن الأثير في هذه
الآبيات ، نقلاً عن كتابه « المثل السائر » : « أبيات ابن بقى من الحسن
والملاحاة بالمكان الأقصى ، ولقد خفت معانيه على القلوب حتى كادت
ترقص رقصاً » . ولم يقف عند هؤلاء وحدهم ، فاستشهد بأبيات من شعر
ابن عبد ربه ، وابن زيدون ، وابن شرف ، وابن رشيق ، وابن الزقاق ،
وابن خفاجة ، وابن سهل الإشبيلي ، وغيرهم .

وقد اتكأ ابن أبى حجلة على ابن حزم في أكثر من مكان ، وكان غرسية
غوث فطناً كعادته حين لحظه أن « باب علامات الحب » في « طوق الحمامة »
كان أكثر أبواب الكتاب ذبوعاً وتأثيراً فيمن جاءوا بعده ، ونجد ذلك
واضحاً في مقدمة « ديوان الصباية » ، في الفصل الخاص بأسباب الحب
وعلاماته ، فهو يذكر : « ومنها أنه يستدعى سماع اسم محبوبه ، ويستلذ
الكلام في أخباره ، ويحب أهل محبوبه » ، « والإنصات لحديثه إذا حدث ،
واستغراب كل ما يأتي به ، ولو أنه عين المحال ، وتصديقه وإن كذب ،
وموافاقته وإن ظلم ، والشهادة له وإن جار ، واتباعه كيف سلك »
« والإسراع بالسير نحو المكان الذى يكون فيه ، والتعمد للعود بقربه ،
والدنو منه ، وإطراح الأشغال الشاغلة عنه ، والزهديها ، والرغبة عنها ،
والاستمانة بكل خطب جليل داع إلى مفارقتها ، والتباطؤ في المشى عند
القيام عنه » . وهى فقرات نقلها كلها عن « الطوق » نصاً دون أن
يشير إليه .

(١) وردت كلمة ابن بقى في ديوان الصباية المنشور في المرات الثلاث (ابن تقى) ،

وبذكر ابن أبي حجلة في الباب الثالث من كتابه ، وهو « في ذكر من عشق على السماع » ، ووقع من النزوع إلى الحبيب في النزاع » ، قصة أبقرط حين وصف له رجل من أهل النقص أنه يحبه ، فقال : « ما أحبني إلا وقد وافقته في بعض أخلاقه » ، وقد نقلها نصاً عن ابن حزم ، وقد أوردها في « الطوق » في باب « الكلام في ماهية الحب » . وينقل في الباب التاسع والعشرين ، وهو « في ذكر من ابتلى من أهل الزمان بحب النساء والغلمان » ، قصة أوردها ابن حزم في « الطوق » في « باب فضل التعفف » ، وينسبها إليه في هذه المرة ، ويلقبه بالأموي ، ونص عبارته : « قال الحافظ أبو محمد الأموي ، أن امرأة يثق بها حدثته أن فتي علقها وعلقته ، وشاع أمرهما ، فاجتمعا يوماً خاليتين ، فقال لها : هلمى نحقق ما يقال فينا . فقالت : لا والله ، لا كان هذا أبداً ، وأنا أقرأ : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » .

وأورد ابن أبي حجلة في الباب الثاني ، « في ذكر المحبين الظرفاء » ، من الملوك والخلفاء » ، أبياتاً لابن حزم ، دون أن ينسبها إليه ، وقد جاءت في « الطوق » عند الحديث على وحدانية الحب ، في « باب من لا يحب إلا مع المطاولة » (١) ولم يورد « ديوان الصبابة » البيت الأول ، وتقدم بالبيت الأخير بيتاً ، وتأخر بالذي سبقه ، وأعاننا على تصحيح كلمة فيه ، جاءت قلقة في طبعتنا الأولى « للطوق » ، وصححناه في الطبعة الثانية منه ، كانت في تلك « ذو شك » ، فأصبحت في هذه « ذو شرك » ، وهي أقرب إلى الصواب . وفي الباب الثالث ، وهو « في ذكر من عشق على السماع » ، يورد ثلاثة أبيات من الشعر ، من بحر الهزج ، وينسبها لشاعر يدعى المدني ، على حين ينسبها ابن حزم في « الطوق » في « باب من أحب بالوصف » لنفسه ، والبيت الأول منها :

(١) طوق الحمامة ، ص ٤٦ ، الطبعة الثانية ، تحقيق الدكتور الطاهر أحمد مكي ، دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٧٧ .

ويامن لامنى فى حب من لم يره طرفى (١)

وفى الفصل نفسه يورد ابن أبى حجلة أربعة أبيات من الشعر، غير منسوبة لأحد، ومطلعها :

يا ليت شعرى من كانت وكيف مرت

أطلعة الشمس كانت أم هى القمر

وقد نسب ابن حزم الأبيات لنفسه، وجاء بها فى « الطوق » فى « باب من أحب فى النوم (٢) »، وأعانتنا رواية « ديوان الصبابة » على تصويب كلمة غامضة وغير واضحة فى البيت الثانى، وهى « أظنة » فأصبحت « أظنها »، وكلمة « تخيل » فى البيت الثالث فأصبحت « تخير »، وبذلك استقام معنى الأبيات. وقد نسب ابن أبى حجلة فقرة فى الفصل الرابع، من مقدمة كتابه إلى ابن حزم وهى : « قال رجل لعمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين، إني رأيت امرأة فعشقتها، فقال عمر : ذلك مما لا يملك ! »، ولم يذكر المصدر الذى نقاها عنه، ولا توجد فى نسخة « الطوق » التى بين أيدينا، وهى به أشبه .

وقد نلتقى بالعنوان واحداً، أو متقارباً، عند الإثنين، ولكنهما يختلفان فى تناوله، فباب « الإداعة » عند ابن حزم، هو باب « فى إفشاء السرو الكتمان عند عدم الإمكان » عند ابن أبى حجلة، و« فى الرسل والرسائل »، والتلطف فى الوسائل » عنده، نلتقى به عند ابن حزم فى بابى « المراسلة » و« السفير ». وهو يفرد باباً خاصاً لكل من « الرقيب » و« الواشى »، ولكن ابن أبى حجلة يجمعها فى باب واحد : « الرقيب التهام »، والواشى الكثير الكلام ». وابن حزم، فى كل هذه الأبواب، يتخذ مادته من الواقع، ويوشىها بشئ من شعره، أما ابن أبى حجلة، فاكتمى فيها بأمثال عديدة من الشعر، لشعراء مختلفين، وقليل من حكايات مشرقية

(١) طوق الحمامة، ص ٣٨، وفى ديوان الصبابة : أيامن

(٢) طوق الحمامة، ص ٣٧

ينقلها عن الخرائطي ، دون أن يأتي بجديد أو ينقل عن ابن حزم شيئا .

والحق أنهما في ماعدا ما أشرنا إليه من توافقات ، نقل فيها الأديب المغربي عن عالم قرطبة العظيم ، يختلفان دافعا ومناخا وغاية . لقد جاء ابن حزم في وهج الخلاف ، وكتب الطوق في عنفوان شبابه فكان صورة للتمرد والأصالة ، وعدم المبالاة بما حوله ، وألف ابن أبي حمزة كتابه وشمس الحضارة الإسلامية تسرع نحو الغروب ، فجاء مزيجا مما حوله ، رواية وجعا ، وخرافة وأساطير ، وفحشا وقلة حياء .

ولقد عالج ابن الحزم الحب عاطفة لاتقنن ، أمسك بجوانب غير قليلة من ظواهره ، وحاول أن يجد لها تفسيراً ، ودخل به ابن حمزة في مناهات الفقه ، فيبحث مثلاً : هل التداوى بالجماع يبيحه الشرع ، ويذهب إلى أن ذلك غير جائز إذا كان المحبوب ممن لا يجوز نكاحه ، وأما التداوى بالضم والقبلة ، فإن تحقق الشفاء به ، كان نظير التداوى بالخمير عند من يبيحه ، بل لعل ذلك أسهل من هذا ، لأن شربه من السكباتر وهذه من الصغائر .

ويعرض لحق الزوجة على زوجها حين ترغب ، ويأتي بآراء الذين لا يرون لها هذا الحق ، لأنه للزوج وحده ، إن شاء استوفاه ، وإن شاء تركه ، ويراها أضعف الأقوال ، لأن القرآن والسنة والعرف والقياس يرفضه ، ويرده قول الله : « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف » . وقال آخرون بل هو حق واجب ، وحددوا له مواعيد ، وضربوا آجالاً ، وكان ابن قيم الجوزية يرجح هذا الرأي فيما يشير .

وأمر ابن أبي حمزة في وصف المرأة حسياً ، راعى في ذلك فصولا تتناول كل أجزاء جسمها ، وما قال الشعراء فيها وتغزلوا به ، وهي أشياء يرى منها كتاب ابن حزم . والظاهرة التي استرعت انتباهي ، ووقفت عندها طويلاً ، أن ابن حزم عرض لظاهرة حب الغلمان ، وجاء لها بشواهد واقعية تتناثر عبر صفحات الكتاب كله ، دون أن ينحصرها

ببَاب ، أو يحللها ، أو يدلي فيها برأى ، إلا ما جاء في الباب قبل الأخير ، وأوقفه على « قبح المعصية » وتحدث فيه عن حرمة الزنا واللواط بعمامة . ولم يعرض لظاهرة حب المرأة للمرأة لا تلميحاً ولا تصريحاً ، ولا تمثيلاً ولا حتى تقبيحاً ، تجاهها تماماً . على حين خص ابن أبي حنيفة ظاهرة التغزل في الغلمان بباب كامل : « ذكر من ابتلى من أهل هذا الزمان بحب النساء والغلمان » ولم يقف بالأمر عند هذا الحد ، فتجاوزه إلى الحديث عن حب المرأة للمرأة ، وأفاض فيه ، وأسرف لونا وقولا فيما أتى به من شواهد وأمثلة وأشعار .

لا أظن سركوت ابن حزم عن هذه الظاهرة يعني أن قرطبة قد خالت منها ، فليس ذلك من طبيعة الحياة في القديم أو الحديث ، ولا أظنه تجاوزها تعقفاً فقد تحدث عن الحب يقع من الرجل على الغلام ، فهل يقع في الظن أن الناسخ رفع من الكتاب ما اتصل بهذا الأمر ؟ ربما . إنه فرض قائم حتى نجد للأمر تفسيراً آخر ، ولا يقلل من هذا الاجتهال أنه أبقى على ما اتصل به من الغلمان ، فالرجل فيما يتصل بالمرأة أناني بطبعه ، ولدينا على هذا شواهد كثيرة ، حذف فيها الناسخون أو الطابعون ما اتصل بحب المرأة للمرأة ، وأبقوا كل ما اتصل منها بالرجل مهما كانت معيبة .

بقى أن أشير إلى أن الأندلسيين احتفوا بديوان الصبابة على نحو لانعهده حتى مع كتاب ابن حزم ، فقد وصل الأندلس عام ٧٦٧ هـ = ١٣٦٦ م فيما أرجح ، أي قبل وفاة مؤلفه بعشرة أعوام كاملة ، ورفع إلى السلطان أبي عبد الله بن أبي الحجاج يوسف ، فأعجب به ، وأشار أصحابه على لسان الدين بن الخطيب أن يعارضه ففعل ، وجعل الموضوع أشرف ، فيما يقول : وهو بحمد الله تعالى ، أتمه في أخريات أيامه ، مكرهاً لا بطل ، وأعطاه عنوان : « روضة التعريف بالحب الشريف » ، وجماع من بين أفضل ماسطر وزير غرناطة الكبير ، ومن سيخريات القدر ، أن هذا السفر الجليل كان وثيقة الإتهام التي أدانته بها محكمة التفتيش ، ودفع حياته ثمناً

تأليفه في الظاهر وضحية الأعياب السيادية وقادرتها في واقع الحال .

* * *

وبعد أربعين عاماً من وفاة ابن أبي حجلة ، ينجى إلى الحياة البقاعى ، إبراهيم بن عمر بن حسن ، وأصله من البقاع في سورية ، وسكن دمشق ، وولد عام ٨٠٩ هـ = ١٤٠٦ م ، وتوفي بها عام ٨٨٥ هـ = ١٤٨٠ م ، وكانت له رحلة إلى القاهرة وبيت المقدس ومكة ، وهو مؤلف وأديب وشاعر ، وألف كتاباً عن الحب أسماه « أسواق الأشواق » ، لما يزل مختلطاً . ولم يتجلى إلا الإطلاع عليه . ولكن الأطاكي يقول عنه إنه اختصار لكتاب « مصارع العشاق » للسراج البغدادي ، وعرضنا له من قبل ، ويصف مختصر البقاعى : « بأنه طال غير طائل ، وجميع ما لا حاجة لهذه الصناعة إليه من المسائل ، كذكر الأمانيد والتكرار الذى هو شأن الأحاديث النبوية ، لتوثيق الأحكام الدينية ، وكالإخلال بمجادين الأخبار ، ولطائف الأشعار ، التى هى بهذا الفن أعلى من الجوى ، بأهل الهوى ، وعدم الترتيب المستلزم لاحتلال التهذيب ، وكالإعراض عن ذكر غالب أسباب وقوع بعض العشاق فى شرك الحب » .

* * *

وعلى نفس المسافة من مجىء البقاعى بعد ابن أبي حجلة ، ينجى داود الأنطاكي من البقاعى تقريباً . وهو داود بن عمر المعروف بالأفك ، ولد فى أنطاكية فى تاريخ نجهاه ، وحفظ القرآن ، وقرأ المنطق والرياضيات ، وشيئاً من الطبيعيات ، وتعلم اليونانية وأحكمها ، وكان عالماً بالطب والأدب ، وضريراً ، وإليه انتهت رياضة الطب فى زمنه ، وهاجر إلى الديار المصرية ، « ومثل فيها بين يدي الأمانيل » ، وخدم من سما فيها من أرباب الفضائل واستقر بالقاهرة زمناً ، ونال شهادة عريضة ، ثم رحل إلى مكة ، وأقام بها سنة ، وتوفى فى آخرها عام ١٠٠٨ هـ = ١٦٠٠ م .

ألف الأنطاكي كتاباً فى الحب ، وأعطاه عنواناً : « تزيين الأسواق » ، ينضم إليه أشواق العشاق ، وجاء اختصاراً لكتاب البقاعى ، إلى جانب

كتب أخرى كثيرة أفاد منها، وأشار إلى بعضها في مقدمته . ونشر كتابه في القاهرة عام ١٣٢٨ هـ = ١٩١٠ م ، وبحاشيته «ديوان الصبابة» لابن أبي حجلة وعرضنا له من قبل . وليس من السهل علينا أن نحكم ، وكتاب البقاعى ليس بين أيدينا ، إذا أخذ البقاعى عن السراج ، وماذا ترك ، وما الذى تجاوزه الأنطاكى من كتاب البقاعى وما الذى حرص عليه ، ولكن من يقرأ كتاب «تزيين الأسواق» ، يجد نفسه أمام الظاهرة التى تتميز بها كتب «المبصرين» ، حين يتدفقون إملاء ، فتتدافع المادة فى أفواههم ، وتجيء كيف ما اتفق .

وحكايات الأنطاكى وأمثاله وأشعاره مشرقية فى جعلتها ، ومصادره كذلك ، وأشك كثيراً أنه رأى «طوق الحمامة» ، فهو لا يشير إليه كتاباً أو مؤلفاً ولا مرة واحدة ، ولا يلتقى مع صاعده فى منهج أو اتجاه ، إذا استثنينا أمثلة ثلاثة توافق فيها الإثنان . الأول ، وينسب الأنطاكى إلى «وحكى عن بعضهم» ، وهو : «حكى ، حكى لى امرأة عن شخص هويا وهو يته ، أن قال لها يوماً : هل لك أن نحقق ما قيل فينا ، فقالت : معاذ الله أن أفعل ذلك ، وأنا أقرأ : «الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين» والثانى : حكاية الأندلسى الذى باع الجارية فى أرض البربر ثم استردها والثالث : حب ابن كليب الكاتب ، الشهير بابن قزمان ، لاسم ابن عبد العزيز ، ولا أرى الأنطاكى فيها جميعاً قد نقل عن «الطوق» . فالحكاية الأولى أرجح أنه نقلها عن «ديوان الصبابة» ، وجاءت فيه . وذكره الأنطاكى بين مصادره ، وأما الثانية فيغلب على ظنى أن ابن حزم والأنطاكى كليهما نقلتا عن أصل ثالث ، وأما الأخيرة فيذكر الأنطاكى نفسه مصدرها الذى نقلها عنه ، وهو كتاب «الإحاطة بأخبار غرناطة» للسان الدين بن الخطيب .

ولمنا لظاهرة تسترعى النظر أن يكون «طوق الحمامة» بين يدي ابن أبي حجلة ، أو قرأه على الأقل ، وهو يحور «ديوان الصبابة» ، ثم لانا فى

به بين مصادر الأنطاكى ، وكان حريصاً على أن يجمع بين يديه كل ما كتب
عن الحب قبل أن يحرر كتابه ، ونقل عنها جميعاً ، وأشار إليها في أحايين
كثيرة ، وعلى الرغم من أننا نلتقى به بين الكتب التى نقل عنها المقرئ
المعاصر صاحب « نفح الطيب » ، ومن نسخة تخالف نسخة « الطوق » التى
بين أيدينا ، وجاء إلى القاهرة بعد سنوات قليلة من وفاة الأنطاكى ، وأرجح
أنه استخدم نسخة وجدها فى القاهرة . لأنه يشير كثيراً إلى أنه خلف مكتبته
وراءه فى قاص . ويحيل إلى أن المغاربة ، وتشمل الأندلسيين ، كانوا أكثر حرصاً
على تسجيل تراثهم ، والحرص عليه ، والاحتفاظ به ، على حين كان المشاركة
كإعادة ، لا يرون فيما خطه هؤلاء جديداً يستأهل أن يتقنوا عنده ، وأن
يفيدوا منه .

* * *

وحول الامام الذى توفى فيه الأنطاكى ، قباء أو بعده بقليل ، يعرج إلى
الحياة يوسف بن مرعى الحنبلى ، وسوف يؤلف كتاب : « منية المحبين ،
وبغية العاشقين (١) » ، وقد درسه غرسية غومث ، وتنبع تأثير الطوق فيه ،
وترجمنا هذه الدراسة من قل .

تأثير طوق الحمامة

في الأدب الإسباني

شرامخ الأدب الإسباني في فجر حياته ثلاثة :

* ملحمة السيد : قصيدة شعرية طويلة ، تدور أحداثها ١٠٠٠- ول أندلسي مغامر ، نصف عربي ونصف أسباني ، نصف مسلم ونصف مسيحي ، عاش في القرن الحادي عشر ، وتوفي في مدينة بالنسبة عام ١٠٩٩م ، وأصبحت بطولته ومغامراته غذاء المشاعر عند عامة الناس ، على نحو ما أصبح عندنا عنتر بن شداد ، وأبو زيد اللؤلؤ ، وسيف بن ذي يزن والظاهر بيبرس ، وآخرون (١) .

* الحب المحمود Libro de Buen Amor : لكانه مدينة هيند (١٢٩٥ - ١٣٥٣ م) ، ومن الصعب أن نضعه تحت جنس أدبي معين ، فهو قصيدة طويلة ، تضم قرابة ألفي بيت من الشعر ، وتدور في جواهرها حول فن الحب ، وقد أزهى هذا اللون من الشعر في أوربا ، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين ، حين أدار الشعراء ظهورهم لشعر القديسين وقصائد الوعظ ، واتخذوا من الإنسان وحياته وحيى إلهامهم وأبدعوا شعراً رقيقاً يدور حول الحب والخمر ، ويتخذ من الجامعات والمتنديات الثقافية مهبطاً يلوذ به ويختصم ، بتأثير من الأدب العربي ، وكان راقياً ومرغوباً ومطالوباً سماعه ، ومعرفة مجديزه به .

* لاثليستينا La Celestina : عنوان يمكن أن نترجمه بجوارح (بالقيادة) ، وهي مسرحية مأسوية كتبها فرناندو دي روكاس (ت ١٥٤١ م) ، شأنها شأن « طوق الحمامة » ، و « الحب المحمود » تتخذ من الحياة العاطفية منطلقاً للتعبير عن عدد من مشكلات العصر الذي كتبت فيه .

أما ملحمة السيد فبعيدة موضوعاً وشكلاً عن « طوق الحمامة » .

لأنها إبداع جماعى ، صنعها شاعر . أو شعراء ، جوالون ، ومادتها الحرب والنزال . والشجاعة والأبطال . ويأتى فيها الحب مختلفاً ، فهى تعرض للمرأة زوجة وفية مطبعة . والإبنة عروساً مصونة مطاوبة . ونقطة اللقاء الوحيدة بينهما أن ابن حزم والسيد التنبيطور تعاصرا أحواماً . الأول شيخاً اعتزل الحياة فى قريته منت اشم : من مقاطعة ولبة جنوب غربى الأندلس أثر بعد نضال ثقافى عنيف ومرير أن يقنع بطلابه ومريديه ، إلى أن توفى عام ١٠٦٤ م . وولد الثانى فى بيدار ، شمال مدينة برغش ، عام ١٠٤٥ م ، وحين كان ابن حزم يودع الحياة إلى رحاب الله ، كان السيد فتى يافعاً حرس الملك القشتالى ، يتهيأ لأن يكون واحداً من فرسانه ، وليشارك معه فى الحرب للمرة الأولى ، حين وقف ملك قشتالة إلى جانب حليفه المقتدر ابن هود ملك سرقسطة . ضد راميرو الأول ملك أرجون ، فى معركة تمت فى ربيع عام ١٠٦٣ م (٢) .

ويختلف الأمر فيما يتصل بالكتابين الآخرين ، فكلاهما تأثر «بالضوق» نقل عنه ، أو صار على هديه . أو احتذاه أسلوباً . ونبدأ بالأول منهما ، وتعد الثانى الفرصة قابلة .

كان المفكر الإسبانى العظيم أميركو كاسترو أول من أشار فى كتابه : « أسبانيا بين المساجين واليهود والمسيحيين » أو كما أسماه فى طبعته الثانية : « حقيقة أسبانيا التاريخية » ، إلى أن « طوق الحمامة » كان حاضراً فى الأدب المسيحى على امتداد القرن الرابع عشر . ويصف إميليو غرسية غومث عميد المستشرقين الإسبان فى وقتنا هذا كتاب مواطنه أميركو كاسترو — ويقف من آرائه فى الجانب المقابل — بأنه مؤثر ومدش ودهشم ، ولم أول غزو يقوم به متخصص فى الدراسات الرومانية على حقن الثقافة العربية ، وجاء رداً على عدد من الرحلات التى قام بها المستشرقون فى مجال الدراسات الرومانية (٣) .

وقد عاش «طوق الحمامة» على نحوين مختلفين فى الأندلس ، الإسلامى والمسيحى على السواء ، حوصراً رسمياً وامتداداً شعبياً ، أما رسمياً فلأن الصراع الفكرى بين

ابن حزم ومنهضى مذهبه الظاهري ، وفلسفته التشريعية ، وفكره المستنير جعل كتبه غير محبة ، ظاهراً على الأقل ، إلى القائلين على أمور الثقافة في قرطبة الإسلامية ، وأخير فلائنه كتاب صريح ، يتحدث عن الحب في لغة علمية ، ويدرسه أمراً واقعاً ، يحل ويوجه في دقة الطيب ، أدون أن يرتدى ثياب الواعظ الرديء ، وما من خير يرجي في أن نلاحظ قضية العاطفة لسبباً ولعننا ، دون أن نغوص وراء أسبابها . وأما شعبياً فقد وجد طريقه إلى جمهوره القراء ، نكايه في الدولة ، وتشغيماً من الغمهاء ، واسمعتاً عما بين دفتيه من علم وأدب .

والشيء نفسه يمكن أن يقال عن الكتاب في الجانب المسيحي ، وقد عاش ابن حزم فترة التوازن الحربي بين الجانبين ، وشالت كنفه بعد موته واحد وعشرين عاماً لصالح المسيحيين ، حين سقطت مدينة طليطلة عام ١٠٨٥ م في يد ألفونسو السادس ، ولكن عزوف المسيحيين الرسميين عنه يعود إلى أسباب أخرى . لقد ناقش ابن حزم في كتابه : « الفصل في المال والأهواء والنحل » المسيحيين في عصره ، مناقشة علمية هادئة ومستنيرة ومعتمة ، فأكسبه هذا بغض رجال الدين المسيحيين على أيامه ، والحوار بينهم ، والكلمة إليهم ، ولم يكن لهم من سعة الثقافة ورحابة الأفق ما كان له ، فيفهمون قوله ، ويعرفون قدره ، ويدركون أن الأفكار تناقش ، والعلماء يجادلون . أما بين الجماهير ، وفي جانب كبير منها ، وبخاصة بين المستعربين الذين يقيمون في الدولة الإسلامية ، أو المسلمين الذين تخلفوا في المدن الإسلامية التي سقطت بيد المسيحيين ، وأولئك المسيحيين الذين كانوا يقيمون على الحدود ، فقد قرأوه في العربية ، أو تناقلوا نصوصه شفاهاً « أو عرفوه كيفما اتفق » ، لأننا نلتقي بنصوص قشتالية (٤) ترجمة حرفية منه ، ولأن الحب بالأسلوب الذي عرضه ابن حزم ، كان مجهولاً عند اليونان والرومان ، وظهوره في العصر الوسيط صدى لكتب من طراز كتاب ابن حزم ويقول كاسترو في صراحة : « على أولئك الذين لا يريدون أن يخطئوا تاريخياً

عندما يصعدون أحكاماً على الإديري (الإسباني والبرتغالي) ، أن يعرفوا ما كان يحدث في الجانب العربي من الأندلس . ولو أن واحداً من الأوروبيين ، فيما يرى ، كتب صفحات كالتى كتبها ابن حزم ، لوضع على رأس قائمة عابرة الأدب المؤررى (٥) .

بدءاً ، ما كتاب « الحب المحمود » ؟

إنه قصيدة طويلة ، جاءت في أثنى بيت ، وتنظم عناصر عديدة غير متجانسة ، ويمكن أن نردها إلى المخاور التالية :

مقدمة نثرية . سبقتها صلاة شاعرة في أبيات راقصة ، عرض فيها المؤلف غايته من الكتاب ، وأثم وقف بأزاء لوتين من الحب : الحب المحمود كما تنظمه الشرائع ، والحب المحزون الذى يفتح العالم . « وألفت هذا الكتاب الجديد ، وأردت فيه بعض الطرق والحيل والحدع التى يستخدمها أبطال الحب الدنيوى المحزون فيخطئون . وقد قرأتها ، أو سمعتها ، من رجال ونساء عتلاء ، إذا أردت أن تنجز فسر على منوالهم ، ويمكنك أن تقول مع داود صاحب المزامير : اخترت طريق الحق » ! .

« والخطيئة شئ إنسانى ، وإذا كان بعضهم - ولا أنصحهم - يركنون إلى الحب المحزون . فسوف يجدون له طرقاً هنا ، لأن كتابى هذا للجميع ، رجالاً ونساء ، موافقين وكارهين : من أراد الطيب ، واختار النجاة ، وعمل صالحاً تقرباً إلى الله . ومن أراد الحب الدنيوى المحزون ، وسلك إليه الطريق الذى أراد ، ويمكن أن يقول : أما أنا فعلى الرب توكلت ، أتبع وأفرح برحمتك ؛ لأننى نظرت إلى مذاتى ، وعرفت الشدائد فى نفسى » .

وقصص غرامى بطله مؤلف الكتاب نفسه ، يحىء في إشكال ترجمة ذاتية له ، يعرضها علينا خلال سلسلة من المغامرات العاطفية ، يحكيها في ظرف ملحوظ . وتنتهى بالفشل عادة . والتاريخ العاطفى لرجل يدعى دون مليون ، وسيدة تدعى دونيا أندرينا . وثالثة تعاون العاشقين ، وهى السفيرة عند

ابن حزم ، والقوادة عند كاهن هيتا ، ويستعملها أحيانا اللفظ في صورته العربية *alcahuete* وأبيات مطولة في نقد الحب ، اقتبسها من مسرحية لاتينية مجهولة المؤلف ، كتبت في القرن الثاني عشر الميلادي ، وتحكى قصة فتاة استسلمت لإغراء ، وانتهى أمرها بالزواج ، ومعركة رمزية ساخرة بين دون كرنال ، ودونيا كوارسما ، ومع كل واحد منهما جيشه .

ثم استطرادات ذات طابع تربوي أو اجتماعي وساخرة ، ليست دائما على صلة وثيقة بالأصل . أنه يصور لنا الصراع الحاد بين الإحساس الديني وبين عواطف الإنسان العادي في العصر الوسيط ، ويضعهما وجهًا لوجه ، فتحس بالآلام ، ونتمثل أزمة العادات في عصره . وهو رجل دين ، ولكنه يصطدم بالتقاليد القبضة ، ولا يتردد في أن يحمل على رجال الدين ، وأن يسخر من العلاقات الغرامية بين الرهبان والراهبات ، ومن ثم فهو يقدم لنا الجانب الواقعي ، من الحياة اليومية في الكنائس والأديرة ، وما وصلنا من وثائق العصور الوسطى يؤيده في روايته ، فنحن نعرف أن « المجمع الديني » الذي عقد في مدينة بلد الوليد ، في الأندلس المسيحية ، عام ١٣٢٢م ناقش بالنص قضية « عشيقات رجال الدين » ، وأعطاهم مهلة شهرين لكي يفارقوهن ، ولكن المحاولة فشلت ، كما نتبين ذلك من المجمع الديني الذي عقد في مدينة سلمنقة عام ١٣٣٥ م ، وفشل أيضا في محاولته ، واحتاج الأمر لعقد مجمع جديد في مدينة القلعة عام ١٣٤٢ م . ونلاحظ أن كاهن هيتا يعطى أهمية قليلة للعلاقات الغرامية التي كانت قائمة بين القسس والراهبات ، حين يصف مغامرات بطله ، أو أن شئت نفسه ، معهن ، وسوف ينتهى به المطاف أخيرا إلى التوبة ، فيذهب إلى دير يحاول أن يتطهر مما ارتكب من ذنوب في سابق أيامه .

ويسخر من الغنى ، ومن الصراع المستمر بين رجال الدين وعامة الناس في سباقهم من أجل الاستيلاء على أموال الذين محتضرون ، ولا ينجو من سخريته القارصة العجائز المتصاليبات ، ولا الثروات المتهتكات . وخلال

ذلك كله : ينثر العديد من الأساطير والحكايات والأمثال والمخاورات :
ويأتى بتصانيد غنائية : فى أوزان مختلفة : ذات طابع دينى وموجهة إلى
مریم العذراء ، أو علمانى لكى يتغنى فيها العميان والطلاب ، وأنشيد يترنم
فيها العاشقون لجمال الريفيات .

وهذه العناصر المتعددة ليست جزراً منعزلة ، وإنما يجمع بينها خيط
فكرى تمثله رواية غرامية : ذات سيرة ذاتية : فيها خيال محقق : وتقنية
محكمة ، وتستلهم أشياء واقعية : وهذا الخيط يحافظ على وحدة العمل الأدبى
وتتجمع حوله الأفكار الأخرى للكتاب .

* * *

منذ البدء كان الوصول إلى حقيقة مؤلف كتاب « الحب المحمود »
مشكلة : وفكرة ملحة فى الوقت نفسه : وحتى وقت قريب جداً كان
شخصية غامضة ومبهمة ، تطل على الدارس من وراء ضباب معتم :
أو تناقض محير : حتى أن محقق نص الكتاب ، الناقد الأسباني خوليو
ثيخادور يقول فى مقدمته للكتاب « بحرف الواحد : » : « خارج ما أورده
المؤلف عن نفسه : فى كتابه : لا يمكن القول أننا نعرف عنه كلمة واحدة » .
ولكن المشكلة قد حلت الآن أو هى فى طريقها إلى الحل ، وفى ضوء الوثائق
الجديدة من الضروري أن يعاد النظر فى تعامل مادة الكتاب : على نحو أدق
وأكثر موضوعية ، وكتابة حياة المؤلف وتاريخه . تقدم نشر الفاتيكان جانباً
محدوداً من وثائقه السرية ، وفيها ما يبنى ضوءاً كافياً على شخصية المؤلف :
إن جانب وثائق أخرى عشر عليها فى « المعهد الإسباني » ، فى وارسو
عاصمة بولندا ، وفى كنائس أسبانية أخرى ، ولدراسة هذه الوثائق ،
وتحقيق شخصية مؤلف كتاب « الحب المحمود » انعقد « المؤتمر العالمى
لدراسة كاهن هيتا عام ١٩٧٣ » .

اسمه الحقيقى خوان روبث ، ودخل التاريخ الأدبى من خلال لقبه « كاهن
هيتا » ، وهى الوظيفة الدينية التى كان يتولاها فى قرية هيتا ، من مقاطعة

وادی الحجارة ، شرق مدريد وعلى مقربة منها . وطبقا لوثيقة دينية وجدت في الفاتيكان ، وأشار إليها لأول مرة في صيف ١٩٧٤ الدكتور أميليو سميث الأستاذ في جامعة برشاونة ، في جريدة أ . ب . ث ، فإن خوان رويث ولد في الجانب الإسلامي من الأندلس ، وربما في قلعة بحصب (٥) ، ويطلق عليها الآن اسم « القعة المكية » ، وهي مدينة صغيرة في مقاطعة جيان ، ابنا غير شرعى ، لرجل ثرى من بالثيا ، يدعى أرياس جونثالث ، ومثل هذه الصلات كانت عملا عاديا في تلك الأيام ؛ ونجد صدى ذلك واضحا في الأشعار الشعبية البشتالية ، على حين تصمت المصادر والوثائق الرسمية ، لا مجال للظن في صحة هذا الخبر ، لأن الوثيقة المتصلة به ، كانت طلبا مقدما إلى البابا في روما ليغفو عنه ، ويتجاوز عن هذه الصلة غير الشرعية ، ليتمكن تعيين خوان رويث كاهنا لمدينة « سجوينثا » ، ومن الوثيقة نعرف أنه جاء إلى الحياة آخر عام ١٢٩٥ م ، أو أول العام الذى تلاه .

وتقول الوثائق أر جده وعمه ، وهدداً كبيراً من أفراد أسرته ، قتلوا في الصراع الذى كان دثرا بين المسلمين والمسيحيين على امتداد القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين ، وأن أباه غير الشرعى كان أسيرا ، وعاش في الجانب الإسلامى ٢٥ عاما ، وأن سيده المسلم قدم له جارية مسيحية كانت عنده ، لتصبح زوجة له ، على أن يصبح الذكور من أولادها أحرارا ، والبنات جوارى للسيد ، وأنجب أرياس من زوجته الرقيقة ستة أولاد ذكور ، ومن ثم اعتق السيد الزوجين وأبناءهم ، وهي رواية فوق الشك أيضاً ، لأننا نعرف أسماء وأعمار ثلاثة من الأخوة أصبحوا رجال دين ، وتقدموا إلى البابا أيضاً بطلبون إذنا خاصاً بتولى مهامهم لصغر سنهم ، وعفوا عن عدم شرعية مولدهم .

وقد أطاق مراح الوالد عام ١٣٠٥ م ، وتزوج ثانية فيما يبدو ، وكان له من زوجته الجديدة ، والشرعية من الوجهة المسيحية ، ثلاثة أولاد ، ونعرف أنه توفى عام ١٣١٢ م .

إذن فقد ولد خوان رويث ، كاهن هيتا ومؤلف « الحب المحمود » من أم كانت جارية لسيد مسالم ، يقيم في مقاطعة جيان ، ولأب عاش أسيرا خمسة وعشرين عاما بين قوم يتكلمون العربية ، وإذا كان لمقاطعة أن تعرف كتاب « طوق الحمامة » وأن يسير فيها ذكره ، بعد قرطبة نفسها ، فهي كورة جيان ، مقاطعة الحياة اللاهية ، والرواقص المشهورات ، والقرنة من عاصمة الخلافة .

لم يكن خوان رويث مجهولا على أبياته ، ولا قليل الأهمية ، فقد تولى مناصب عديدة ، ذات أهمية اجتماعية كبيرة ، وأصبح في رعاية مارية مولينا ملكة قشتالة ، وقد عين كاهنا لمدينة « سيجونثا » عام ١٣١٢ م ، وله من العمر ستة وعشرون عاما .

وفي عام ١٣١٨ م عين رئيسا للشمامسة في « مدينة دل كامبو » ، وبعدها بعام عينه البابا يوحنا الثاني والعشرون كاهنا لمدينة « بالنشيا » وقد بذلت الملكة مسعى كبيرا لدى البابا ليعينه مطرانا ، وهو الثلاثين من عمره ، دون حاجة إلى غفر جده عن مولده غير الشرعي ، وفي هذه المناسبة أشار البابا إلى الدماء التي بذلتها أسرته في الحروب ضد المسلمين . وفي عام ١٣٢٢ تلتقى به في مدينة « برغش » ، وحول هذه الأعوام سمح له البابا أن يدرس ، ربما في جامعة « مونبلييه » ، وهي الجامعة التي كان يتردد عليها رجال الدين القادمون من ممالك شمال الأندلس المسيحية . وبعد فترة صممت امتدت حتى عام ١٣٤٣ م ، تلتقى به ثانية ، في وثيقة مقدمة من مطران طليطة ، يطالب له فيها وظيفة دينية في « قلهرة » . وفي ما بين عامي ١٣٤٣ و ١٣٥٣ م ، تلتقى بفترة فراغ كبيرة في حياته ، ويرجح المؤرخون أنه أمضاها في السجن ، أو النفي ، بسبب كتابه « الحب المحمود » ، وفي هذا العام تلتقى به إلى جوار الكاردينال « خبل دي البرنس » ، ورحل معه إلى إيطاليا ، وإلى أفنيون في جنوب فرنسا .

كشاعر يأتي خوان رويث في القمة ، لا بين عباقره عصره فحسب ، وإنما على كل شعراء أسبانيا في العصر الوسيط ، دون استثناء أو عدوان على أحد . فهو خير من تحدث عن المرأة والحب في أيامه ، ودون مبالغة يمكن أن نضعه إلى جانب أوفيد ، ودانتى ، وبترارك ، وشكسبير ، وهابن ، وفرلين ، وعمر بن أبي ربيعة ، والعباس بن الأحنف . وابن زيدون . وهو - فيما يرى أميريكو كاسترو - يقدم لنا مجتمعاً متأثراً بالتقاليد الإسلامية إلى حد كبير .

ربما هناك من تنضح مشاعره الذاتية بخنان أكبر ، وكثير وإن يتفوقون عليه في مصادر الإلهام ، أو في المفهوم الشعري للحياة ، ولكنه يتفوق على الجميع في شيئين أساسيين : كتب تاريخ عصره ساخراً ، وتميز في أمر آخر لم يبلغه الشعراء بعده إلا بقرون : وضوح شخصيته .

لقد ضمن كتابه كل ما عرفه عن العالم والحياة ، وليس إقليلاً ، فهو كمصدر تاريخي يساوى كثيراً ، ولولا كتابه « الحب المحمود » - والشيء نفسه يقال عن طوق الحمامة - لجهلنا الكثير من تاريخ العصور الوسطى . إن كتب التاريخ تحدثنا كيف قاتل آباؤنا ، وكتب التاريخ تخطيطاً أرادوه مثلاً ، أما هو - أو هما - فيحدثنا كيف كان يعيش أهل عصره واقعاً ، في بيوتهم وفي الأسواق ، في أحزانهم ومسراتهم ، ماذا كانوا يأكلون على موائدهم ، وكيف كانوا يلبسون ويعشقون .

كان خوان رويث مثقفاً في اللاتينية والعربية ، وفي القانون والتوراة ، وقرأ واعياً كتاب « كوند لوكارنو » ، مجموعة من الحكايات العربية ، ترجمت إلى القشتالية في زمن مبكر ، وحازت شهرة كاسحة ، اقداس توعب الحكايات وتمثالها ، وأفاد منها ، واقتبس بعضها .

وهو شاعر ساخر بكل ما تتسع له الكلمة ، لم ينبج من سخريته شخص ولا موقف ، يهيج سامعيه بتصوير الحياة اليومية الطريفة ، يلاحظها بدقة ، وينقلها في أمانة ، ونظراته إلى الواقع نافذة ، كل شيء عنده يتحدث إلى

العين ، ويترجم إلى مشاعر ، وقادر دائماً على أن يجعنا نرى المشاهد التي نقرأها ، فهو صاحب واقعية شجاعة ، يجن أمانها أكثر الناس جرأة ، على فحه كل ما في قلبه . وقبله يسع العلم كله . إنه أشجع كتاب العصر الوسيط في أسبانيا ، وأشدهم حرراً ..

وقد حار النقاد المحدثون فيه إنساناً . وكتابه يمد كل ظرف بما يريد من شواهد : لأنه يتلاعب بالألفاظ والمواقف . فالأديب الفرنسي « بومجر » (١٨١٦-١٩٠١) ، يراه في كتابه : « الأدب القشتالي القديم » (٢ ص ٨٣) ، مفكراً جرأ ، عدواً للكنيسة . ، ويشاركه هذا الرأي العالم الموسوعي الأسباني مينيندث أي بلايو فيراه : « رجل دين فاجر وسكير ، طواف نيل ، رفيق حانات » . والحق أن كاهن هيتا كان رجل دين ليس على شيء من الدين ، فهو يكره زملاءه على أيامه ، سميت درجاتهم أو انحطت ، من القلب ، وكان في حياته أقرب ما يكون إلى شاعر من أشبيلية على أيام بني عباد . أو من بغداد على أيام أبي نواس . وكتابه أول نص أدبي أسباني من العصر الوسيط يناهض الكنيسة ونفوذها وينضح أخلاق أهلها .

كان خوان رويث شاعري المزاج ، قلق الروح ، يعيش حياة فوضوية ، ويؤثر أن يتحرك وسط أجواء شعبية ، رفته أقصاء يهوديات . وزامرين إسماعيلين ، ورجال دين من عشاق السهر ، ورغم مهنته أمضى من حياته في الحانات أكثر مما أمضى في الكنيسة ، وتحدث عن الحب والشعر والكأس ، أكد بما صلي بالناموس القداس ، أو ألقى عليهم من العظات . وجاء بين عصرين أدبيين دون أن ينتمى إلى أي منهما ، وتزوج أدبين يتقاسمان شبه الجزيرة ، العربي والأسباني ، دون أن يكون خالصاً لأحدهما . وإذا كانت « ماحمة السيد » ابناً شرعياً للاستاذم العربية التي سادت الأندلس . فقد جاء « الحب المحمود » ابناً شرعياً للكتاب « طوق الحسنة » .

• • •

اختلف النقاد في موقفهم من أصول « الحب المحمود » . حاول الفرنسيون

أن يستولوا عليه دون أن يتركوا لغيرهم نصيباً منه ، فرأى بوميجر في كتابه الذى أشرنا إليه من قبل ، أن خوان رويث « تلميذ للأدب الفرنسى ، ولم يكن شاعراً أسبانياً فى شىء ، إلا فى لغته ، التى يتناثر بينهما طوفان من الكلمات الأجنبية » . ولم يشر إلى شىء من التأثير العربى ، رغم أن الكلمات الأجنبية التى يشر إليها جملها عربى .

وتوزعت الأسبان اتجاهات شتى : بعضهم بحث عن أصول « الحب المحمود » فى أى مكان ، إلا فى المكان الذى يجب أن يبحث فيه ، فتحدث عن أصوله اللاتينية والفرنسية ، وسكت عن العربية ، أو مرجها تحت اسم الشرقية على استحياء ، أو تجاوز الصمت إلى الإنكار ، كأن القول بتأثر إنسان بالحضارة الأرقى فى وطنه شىء يعاب عليه ، ويقال من أهميته ، أو كأن هناك فى عالم الأدب ما يوجد من عدم ، أو يبدأ من فراغ ، وبعضهم أحسن بالأثر العربى عبر صفحات الكتاب فأشار إليه إجمالاً دون أن يقف عند تفصيلاته لأنه لم يكن يعرف العربية على نحو يتيح له أن يقدم على ما يقول برهاناً ، ومن هؤلاء أميركو كاسترو ، وأشرنا إليه أكثر من مرة .

أما المستشرقون الأسبان ، والمثقفون الموضوعيون منهم بخاصة ، فقد وقفوا عند التأثير العربى على نحو أو آخر ، فعرض له « أنخل جوناثالث بالثيا » فى كتابه « تاريخ الأدب الأسباني » ، والمج إلى أنه « يتجلى عند خوان رويث على صورة لا يرقى إليها الشك ، ونرى ذلك بوضوح فى مواضيع شتى من كتابه الحب المحمود » ، وضرب لذلك عدداً من الأمثلة . ويشاركه هذا الرأى مينينث أى بلايو ، وزاد القول بأن خوان رويث كان يعرف من العربية ما يصاح للاستعمال الدارج ، لاما يمكنه من دراسة الفنون الأدبية .

ودرست الكتاتبة الأرجنتينية « مارية روزة ليدا » التأثير العربى فى « الحب المحمود » من جانب آخر . رأت الكتاب يشبه أن يكون ترجمة ذاتية لحياة مؤلفه العاطفية ، ومثل هذه التراجم نادرة جداً فى أدب العصور الوسطى الأوربية ، سواء فى الأدب اللاتينى أو الآداب الرومانشية التى

انفصلت عنه ، أو الآداب الجرمانية ، ولا نجد له مثيلاً حتى القرن الثالث عشر ، حين كتب الشاعر الألماني أولريش فون ليشتنشين (١٢٠٠-١٢٧٦ م) كتابه : « فضائل المرأة » ، وكتب أديب إيطاليا الكبير دانتي (١٢٦٥-١٢٧٦ م) كتابه : « الحياة الجديدة » (٦) . أما في أدب القرن الرابع عشر القشتالي ، فكان « الحب المحمود » استثناءً .

أمام هذا التميز حاولت ليدا أن تبعث من جديد ، وعلى نحو أكثر تفصيلاً فكرة منسية دعا إليها من قبل المستشرق الأسباني « فرانسيسكو فرنانديث اى جونثالث » (١٨٣٣ - ١٩١٧ م) ، وأصر فيها على أن هناك صلة بين الكتاب وفن المقامة العربية .

لقد ازدهر فن المقامة بين عرب الأندلس ، وخير شروح مقامات الحريري قام بها أندلسيون ، وهضى نفر من أدبائه يكتبون على منوالها ، رسائل وخطباً ومواعظ ورحلات وهاوياً ، ومنذ القرن الثاني عشر أخذت المقامة في شكلها العربي طريقها إلى يهود قطلونية ، وأدباء بروفانس ، وجنوبي فرنسا ، وأصبح واضحاً أنه أخذ طريقه إلى قشتالة أيضاً ، بعد أن عثر أخيراً على قصيدة قشتالية ، كتبها «دون سم توب ديه كاريون» بعنوان : « محاوراة بين القلم والجلام » ، وجاءت كلمة القلم من عنوانها في صورتها العربية el Calamo ولأن فن المقامة ينتمى أيضاً « كتاب الطرب » ، وألفه يوسف بن مثير بن صيرة ، يهودى من برشلونة ، في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، وفيه تلتقى شخصية البطل والراوي والمؤلف في واحد ، ويصبح محوراً لعمل تلتقى فيه بالحكمة والمثل والخرافة والأسطورة ، وينحط الحوار التربوي بالشعر الغنائي والسجع . ولم تضع ليدا هلى نقاط التقاء بين المقامة وكتاب « الحب المحمود » تفصيلاً ، ربما لأنها لم تكن تعرف العربية . إلا أنها أوضحت أن الشبه في البناء الفني بين « كتاب الطرب » ، وجاء في شكل مقامة ، وبين كتاب « الحب المحمود » لا يدع مجالاً للشك أو التردد . وأخيراً فإن نشر قصيدة « الحوار بين القلم والجلام » ، وهو يهودى من قشتالة . ومعاصر لصاحب « الحب المحمود » ،

وجاءت في شكل مقامة ، يفتح الباب واسعا أمام البحث الأدبي في قابل الأيام ،
لكي يتتبع تأثير المقامة العربية في عدد من الأجناس الأدبية الأسبانية بخاصة ،
والأوربية بعامة . ولكن ليدا ، وهي تقارن بين « الحب المحمود » وفن المقامة
العربية ، كانت تهدف إلى حل مشكلة البناء الأدبي في كتاب كاهن هيتا ، وفي
كل كتاب أوربي ألف على منواله في العصر الوسيط ، ومن ثم وقفت بجهد هاعند
الشكل ، دون أن تتجاوز به إلى محتوى الكتاب ومادته .

* * *

كان إميليو غرسية غومث ، أول من هرّض ، فيما أعلم ، للمشابهات بين
محتوى « الطوق » ومحتوى « الحب المحمود » ، ورأى « أن كتاب كاهن هيتا
لا يمكن أن يفهم دون افتراضات عربية كثيرة » ، من بينها إذا أردت أن مؤلفه
من المدجنين (٧) ، وأنه يلتقي في نقاط كثيرة ومثيرة مع كتاب ابن حزم ، ولو
أن من السداجة يمكن القول بأن هذا أخذ من ذلك .

وقد قام غرسية غومث بعدد من الموازنات بين نصوص متشابهة في
الكتابين ، ولمكنه توقف إزاء غياب الوثائق التي تبرهن على الصلة المباشرة ،
وكان حصيفا فطنا — كمادته — حين قرر أن « إنكار التشابه عمل غير علمي ،
والقول به يجعل موقفى رديئا — أى موقف غرسية غومث — يوم توجد وثائق
تبرهن عليه ، وهو أمر محتمل تماما ، كما حدث في الحوار الذي دار حول المصادر
الإسلامية للكوميديا الإلهية لدانتى ، والتأكيد بالتبعية المباشرة مجازفة ؛ واعتقد ،
مثل كاسترو ، أنه توجد عناصر عربية كثيرة ، ولكنى أرى أنه بعيد كثيرا
أن يكون « طوق الحمامة » من بينها ، كمصدر أصيل وبطريقة مباشرة ، لأن
كتاب ابن حزم كان يتحرك في نطاق محدود : إنه كتاب خاصة ، وصعب
للغاية ، وتفصله عن « الحب المحمود » هوة عميقة من الاختلافات الفكرية » :

كتب غرسية غومث هذا الكلام في مقدمته للترجمة الأسبانية التي قام بها
لطوق الحمامة ، عندما صدرت للمرة الأولى عام ١٩٥٢ ، ومن ذلك الحين
حدث فيما يتصل بكاهن هيتا أشياء كثيرة ، أبرزها الوثائق الدينية السرية في

الغالبية كان وعدد من الكنائس الأسبانية ، وأشرنا لها من قبل ، ومنها يثبني أن مؤلف كتاب « الحب المحمود » ولد لجارية كانت في حوزة سيد عربي في قاعة يخصص من مقاطعة جيان . وأن أباه غير الشرعي ظل أسيراً لسيدة المسلم خمسة وعشرين عاماً ، وهي فترة كافية لتجعله متمكناً في اللغة العربية ، وكانت لغة الثقافة ، وكان تعليم الجوارى فيها ، بنين وبنات ، أمراً شائعاً .

وقلعة يخصص حيث ولد خوان رويث ونشأ . وعاش أبوه من قبل أعواماً ضوئية . كانت موطن ثقافة ، ومهبط شعراء ، فنيها عاش بنو سعيد المؤرخون والأدباء ، واليهيم نسبت القاعة أيضاً ، وتميز من بينهم أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد ، وكان غزلاً في الشعر وفي الواقع ، ولدت له حبة ذائعة مع حفصة الركونية الشاعرة ، لانتقل عنها وشهرة عما كان بين ولادة وابن زيدون ، وكان ينافس في حبها أمير غرناطة من قبل الموحدين ، عثمان ابن عبد المؤمن ، ودفع أبو جعفر حياته ثمناً لهذا الحب . وتميز بنو سعيد بالعلم والثقافة . وأنهم يتوفرون على مكتبة عامرة ، وشهر من بينهم أبو عمران مومى بن محمد (ت ٦٤٠ هـ - ١٢٤٢ م) بأنه جماعة للكتب ، يطلبها أنى وجدها ، ويبدل فيها كل غال ومير تخص . ويصفه ابنه أبو الحسن على بأنه « عاش سبعة وستين سنة ، ولم أره يتخلى يوماً عن مطالعة كتاب ، أو كتب ما يخلو به » حتى في الأعياد (٨) . وليس مهماً بعد ذلك أن تكون الأحداث قد عصفت بأبناء سعيد فهاجروا ، أو معظمهم . إلى المشرق أو إلى مدن أخرى في الأندلس . لأن الجوالثاني الذي أزهريهم ، ومن حولهم ، تأصل في هذه المدينة الصغيرة النائية ، في منتصف الطريق بين قرطبة وغرناطة :

أكان ممكناً أن يحرص بنو سعيد على اقتناء الكتب ، وأن يكون لهم منها الكثير ، وبينها عدد من مؤلفات ابن حزم . يتقانون عنها في مؤلفاتهم ثم لا يكون من بينها الطوق ؟ الأقرب إلى طبيعة العصر والناس ، وموقع المدينة ، ومكانة ابن حزم ، أن يكون كتاب « الطوق » معروفاً ومتداولاً . وأن تقع عليه عين والد خوان رويث ، ولعله تحدث به ، وقص ما عرف من حكاياته . ولعله توفر لنفسه على نسخة منه : في عصر كانت فيه

معرفة العربية والتميز على كتبها موطن اعتزاز ، ومدعاة فخر ، في قشتالة نفسها ، حيث بدل ألفونسو العاشر ، أو العالم ، ملكها (١٢٥٢-١٢٨٤ م) جهدا مضاعفا لترجمة التراث العربي إلى القشتالية ، فترجم إليها القرآن والإنجيل وكتباً أخرى كثيرة ، علمية وأدبية ، فدفع بالثقافة العربية إلى العقول القشتالية المتنوعة وغذى النثر القشتالي بالأساليب والأساطير والأمثال العربية .

ثمة نقاط يلتقي فيها ابن حزم وخوان رويث ، وأخرى يفتان عندها على القميص . كلاهما رجل دين ، وكتب أولهما « الطوق » منفا ، أونافيا نفسه ، وكتب الثاني « الحب المحمود » بين جدران السجون ، وكلاهما كان ثائرا على الجامد من أفكار عصره ، وعالما بموضوعا واحدا ، والتزما منه موقفاً متقارباً ، وأكدّا على سلامة عقيدتهما : وكما كان الطوق صورة فريدة ، في جوانب منه ، للحياة العاطفية في قرطبة القرن العاشر الميلادي وما بعده ، كان الحب المحمود صورة لها في قشتالة على امتداد القرن الرابع عشر .

ويتقابلان في الكثير أيضاً . كان ابن حزم يمثل حضارة في القمة توهجها أنهيكها الترف وحياة اللذادة ، وتنهياً للانحدار ، وعاش خوان رويث في مجتمع جاس ، ينفض عن بصره وعقله وقلبه غبار القرون الوسطى ، بكل ما تحمله من تخلف وظلام وجهالة . وكان ابن حزم موسوعي الثقافة ، رفيع الفكر ، حاد الذكاء . وكاهن هيتا إذا قيس برفاقه في قشتالة يجيء في المقدمة ولكنه حين يقف إلى جوار ابن حزم يبدو متواضعا في كل شيء ، معرفة وثقافة وفكرا ، وآثر ابن حزم أن يكون جادا وعنيفا ومستقيماً السلوك ، واختار خوان رويث أن يكون ساخرا ومهادنا ومستترا . ويذكر ابن حزم فيما يقدم من أحداث مجتمعه ، غالباً : الاسم والمكان والحادثة ، وآثر قرينه القشتالي أن يتخفى وراء الرمز ، وأن يقف عند ما هو عام . وابن حزم من الخاصة ، أبوه وزير وتولى هو الوزارة ، وينتمي في أسرة لها في مجتمعه مكانة وجاء خوان رويث ابناً لعلاقة غير شرعية ، لم تراع فيها القوانين التي يجري عليها أهل دياره ، وكان عليه أن يطلب العفو عنها من البابا في كل وظيفة

يتولاها . وأخيرا فكتاب ابن حزم ذو موضوع إو واحد ، وقلما يتجاوزه إلى أمر لا يتصل به ، وكتبه نثرا : وشاه بالكثير من شعره ، وكاهن هيتا اتخذ من حياته العاطفية إطاراً لكتابه . وحمله كل ماعرف وأراد ، وإذا استثنينا المقدمة ، وهي قصيرة ، فقد جاء به شعرا كله .

أول ما نضع يدنا عليه من تأثيرات عربية في كتاب « الحب المحمود » قدر هائل من الألفاظ العربية . يستخدمها الشاعر في مهارة ، ويرسمها بأحرف لاتينية في دقة غير معهودة على أيامه ، ولا تقتصر على الأسماء والحروف كما عند الآخرين ، وإنما تتجاوزها إلى الأفعال وأسماء الفاعلين مثل : ياء النداء Ya وشيكة Xaquima وفي الأسبانية الحديثة Jaquima ، ومرفوض Marfuz ، ومؤنثها : مرفوضة Marfusa ، وجملة كاملة مثل : قلبي عربي Calbi garabi ، وفعل الأمر مثل : اسكت ascut ! وامش amxi . وأخذ عدد من قصائده شكل موشحات كاملة ، في صورتها الفنية الدقيقة ، فهي ذات مطع وأغصان وقتل ، وجاءت في اثني عشر دوراً ، وإذا كان من الوشاحين العرب من وجد عنوبة في أن يوشى موشحاته بخرجة أعجمية ، في شكل لفظ أعجمي أو من عامية أهل الأندلس ، فقد تجاوز كاهن هيتا هذه اللقطة بكثير ، وجعل خاتمة كل دور في موشحته لفظاً عربياً ، على نحو ما نرى (٩) :

كاهن هيتا يرسل سفيراً إلى فتاة عربية

كسى أنسى شجنى وحزنى وآلامى ،
رجوت عجزوتى أن تسعى في زواجى ،
فتمحدث إلى فتاة عربية لم تعبرها سمعاً ،
هى تصرفت بعقل وأنا غيت طويلاً .

باسمى قالت القوادة العربية :

يا صديقتى ، يا صديقتى : طال الزمن ولم أراك ،
لم أنت هكذا ؟ ما أصعب أن القاك ،

حب جديد بحبيك ، فردت العربية : لست أدري Les nedri !

ابنتي ، واحد من القلعة alcala يسلم عليك ،

يرسل لك هذا الثوب açodra (١٠) مع هذه البراءة alvalà

الله معك ومن ذلك عندنا كثير ،

خاويه ، ابنتي ، أيتها السيدة ، قالت العربية : لا والله Le gualà !

ابنتي الله يعطيك السلام والصحة ،

لا تستهينى بها ، لأننى لم أستطع أن أحضر لك أكثر ،

أحضرت لك هدية جميلة وردك يكون على الود ala wud (١١)

لن أمضى وحدى ، قالت العربية : أسكت ascut !

وعندما رأت العجوز أنها لا تستطيع شيئاً

قالت : طالما قلت لك ، حتى هذا نفسه تفقدينه ،

لأنك لم تقول شيئاً ، أنى أود الرجيل من هنا

مزت العربية رأسها وقالت : أمش ، أمش Amxi, amixi !

* * *

وإذا وقفنا عند المشابهات فى النصوص ، وضعنا يدنا ، فى قراءة عابرة

« للحب المحمود » ، على بعض منها ، يكاد أن يكون ترجمة لما فى الطوق :

يقول ابن حزم يلتمس لنفسه مندوحة فى تأليف الكتاب : « ... كان

القاضى حمام بن أحمد ، حدثنى عن يحيى بن مالك ، عن عائذ بإسناد يرفعه

إلى أبى الدرداء أنه قال : أجمعوا النفوس بشيء من الباطل ليكون عوناً لها

على الحق . ومن بعض أقوال الصالحين من السلف المرضى : « من لم يحسن

يتقنى ، لم يحسن يتقنى » . وفى بعض الآثار : « أريحوا النفوس فإنها تصدأ

كما يصدأ الحديد » (١٢) .

وعن الموقف نفسه يقول خوان رويث :

« كامات عالم وقالها كتون (١٣) :

الرجل بما فى قلبه ،

[يخلط أهباجاً وفكراً باسماً ،]
 لأن الأحزان الكثيرة تلد خطايا كبيرة » (١٤) :

ويقول ابن حزم مشيراً إلى تأثير الحب في النفس : « ومنها أن يجود المرء ببذل كل ما كان يقدر عليه مما كان ممتنعاً به قبل ذلك ، كأنه هو الموهوب له ، والمسعى في حفظه ، كل ذلك ليبدى محاسنه ويرغب في نفسه . فكم يخيل جاد ، وقطوب تطلق ، وجبان تشجع ، وغليظ الطبع تطرب ، وجاهل تأدب ، ونقل تزين ، وفقير تجمل : وذى سن تفتى ، وناسك تفتك ، ومصون تبذل » (١٥) .

وفي هذا المعنى يقول صاحب الحب الخمود :

ويخلق الحب من الحشن لطيفاً ،
 ويهب القول الجميل لمن كانت كلماته صماء ،
 وبه يعود الجبان شجاعاً ،
 ويصبح الكسلان نشطاً وجاداً ،

ويحفظ الفتى بشبابه طويلاً ،
 ويعود بالشيخ ، في كثير ، فتى شها ،
 ويجعل من الأسود أبيض جميلاً ، مثل السمك ،
 ومن لا يساوى بجوزة يعطه الحب شهرة عظيمة (١٦) :

ويتشابه موقف ابن حزم وخوان رويث من الرسول الذي يبعث به الحب إلى محبوبه فلا يكون وفياً ، يخون مهمته ، ويغدر بصاحبه ، ويصطفى الغنيمة لنفسه .

يقول ابن حزم في باب « الغدر » : « ومن قبيح الغدر أن يكون للمحب سفير إلى محبوبه ، يستريح إليه بأسراره . فيسعى حتى يقلبه إلى نفسه ، ويستأثر به من دونه ، وفيه أقول :

أقمت سفيراً قاصداً في مطالبي وثقت به جهلاً فغضب بيننا

وحل عرى ودى وأثبت وده . وأبعد عني كل ما كان ممكنا
فصرت شهيدا بعد ما كنت مشهدا . وأصبحت ضيفا بعد ما كان ضيفنا» (١٧)
ويقص كاهن هيتا ما حدث له مع رسوله فرناندو غرسية ، وكيف
أرسله إلى فتاة تدعى «كروث» ، تعمل خبازة ، فاخص بها نفسه :
عيناى لن تريا النور ،
لأنى فتدت كروث .

* * *

كروث الخبازة الحبيبة ،
أخذتها عشيقة ،
حسست الطريق إليها عريضا فوجدته ضيقا ،
مثل ما يفعل الأندلسيون .

* * *

فكرت أن تكون لى ،
قلت لفرناندو غرسية ،
احمل لها رضاي ورغبي
وكن عني محاميا لطيفا ولبقا ،

* * *

قال لى : إنها أعجبتني وكانت على هواه ،
وأنه جعل من كروث خاصة به وعشيقة ،
لقد تركني اجنر النخالة ،
وأكل الخبز الأكثر حلاوة .

* * *

قدم لها عملا بنصيحتي
حنطة طيبة مضى عليها عام ،
وأهداها أرنباً

الخائن ، الزائف ، مرفوض

* * *

أخرى الله رسولا

عجلا ، بالغ الطيش :

ولا رعى الله صياد الأرناب ،

يخص نفسه بالصيد من وراء سيده (١٨) .

وربما كان الفصل الخاص بالسفير أوضح تأثيرا في كتاب « الحب المحمود » ، وفي كتب إسبانية أخرى سوف نعرض لها في مرة تالية ، من أى باب آخر ، وقد اختار ابن حزم هذا اللفظ الأنيق المذهب لكلمة « القوادة » ، وكانت شائعة بين العامة في الأندلس ، مسلمين أو مسيحيين ، يتحدثون العربية أو الرومانشية ، لقد دخلت هذه في صورة aleahuete ، والسفير أو القوادة أو الرسول ، يطلق على المرأة ، والرجل قيلا ، الذى يتارب بين الرؤوس والقلوب في الحلال أو الحرام ، وكانت هذه المهنة شائعة في الأندلس ، ولم تكن محتقرة أو شرأ خالصا على النحو الذى عليه اليوم ، فلم تكن القوادة إذ ذاك تسمى بين الذين باتقون على أجر ، فهؤلاء يوتهن المعروفة ، وأما تتردد بين من تلتقى عراهم على حب ، ينتهى بهم إلى الزواج أو لا ينتهى ، لأنها تقوم بالوساطة بين المحبين ، رسولا يحمل الهدايا والأفكار ، في مجتمع لم يكن قد عرف البريد المنظم ، أو الهاتف الموصل ، أنها أشبه ما تكون « بالخطابة » في المجتمع العربى المعاصر ، قبل أن ينتشر التعليم وبعم الاختلاط . وقد خص ابن حزم « السفير » بباب قصير ، أو وصلنا قصيرا ، عرض فيه لمهنته وصفاته واغراضه وحيله ، ولن نأتى بنص ما قال هنا ، وإنما نخيل إليه القارىء في كتاب « طرق الحمامة » نفسه (١٩) .

هذا الباب واضح التأثير في كتاب « الحب المحمود » ، وأزعم أن « طرق الحمامة » كن بين يدى خوان رويث ، أو في ذاكرته على الأقل ، وهو بحرر كتابه . ولكن كاهن هيتا ، وهو رجل دين ، وأمضى حياته نائبا

للأسقف في أكثر من مدينة أندلسية . في منطقة التعاور ، على الحدود بين
المسلمين والمسيحيين ، دفع لهذه المهنة باسم جديد استمدته من الحياة المحيطة به
وهو Tortaconventos ، اسم كان يطلق في البدء على أولئك المترددين على
الأديرة ، يحماون لها الهدايا ظاهرا ، أو يلتمسون عندها المغفرة تمويها ، أما
واقعا فلكي يرى الرجل صاحبه ، وتلقى المرأة حبيبها ، وكان يطلق أيضا
على خادومات الأديرة ، وكن يسفرن بين الرهبان والراهبات ، وكل طائفة
تقيم في دير منفصل ، يترددن بالرسائل ، ويحملن الهدايا ، ويحددن المواعيد
ويوفقن بين المتنافرين ، وأصبحت الكلمة تعني في الأسبانية ما يعنيه لفظ
« القوادة » في العربية ، ولو أن كلمة alcahuete وهي عربية الأصل كما
أشرنا ، ظلت أكثر استخداما ودوراناً على الألسنة ، وذكرنا في الأدب .
ربما لأن الأولى تشير إلى معنى كانت الكنيسة تحول دون تنبيه الأذهان إليه .
وكما أن ابن حزم حدد صفات السفير الناجح ، وأخطائه ومتاعبه ، كذلك
صنع خوان رويث :

لتكن سفيرتك إليها من قرابتك :

وأن تكون وفية لك ، وليست خادماً لها :

وأن تعرف ذلك سيدتها ، حتى لا تكذب الأخرى :

ومن يتزوج رديئاً محال ألا يندم طويلاً .

* * *

حاول ما استطعت أن تكون سفيرتك

لبقة ، فطنة ، ذات دربة وخبرة :

تعرف كيف تصبر وتصوغ الأكاذيب اللطيفة :

* * *

إذا لم تكن لك قريبة كهذه فعليك بالعجائز :

من اللاتي يترددن على الكنائس ويعرفن الأزقة ،

يحفظن كثيراً من الحكايات والنصائح وفيهن رقة ،

معهن كتاب السحر لموسى ، وبه يفتن الأسماع :

* * *

يا لمن من عجائز معلمات ثرثرات ،
تاتهن في كل مكان : في الميادين وفي الخارات .
يتوجهن إلى الله بالحساب . ويصلين دائماً مستعدات ،
أى ، كم من خباثت يعرفن ، أولئك العجائز الصايعات ! :

* * *

أرسل عجائز في السحر بالأعشاب ماهرات ،
تضمين من بيت إلى بيت ويزعن أنهن قابلات :
بالمساحيق والكحول والدهونات ،
ترمى الفتاة بنظرة فتعمى الذكر منها والمدركات :

* * *

وفتش عن سفيرة بين أولئك السودانيات الوادعات ،
من العاملات في بيوت الرهبان والقسس والراهبات .
لأنهن مشاعات جيدات وبالأخذية جديرات :
فهؤلاء القوادات يقمن بالكثير والرخيص من المقايضات .

* * *

حيث يضى أولئك النسوة تكون الهجة ،
فتيات قليلات يستطعن الإفلات منهن ،
ولكى لا يكذبن عليك تعلم كيف تلاحظنهن ،
فلهن جاذبية : ويعرفن جيداً كيف يعميهن :

* * *

وبين أولئك العجائز جميعاً ، فإن هذه أفضلهن !
ارجوها ألا تكذبك ، وأظهر لها حبك خالصاً ،
أن السمسار الماهر قادر على بيع الحيوان العاطب ،

وملابس كثيرة رديئة قد تخفى لحافاً جيداً (٢٠) :

* * *

ثم ماذا؟ .. لقد وصلنا كتاب « الطوق » فى مخطوطة وحيدة عثت بها يد الناسخ ، فحذف منه كل ما كان على غير هواه ، ولم يتردد فى أن يصرح بذلك آخر الكتاب ، ولا أحد يدرى ماذا حذف ، وإلى أين جرى به هواه . وجاءنا كتاب « الحب المحمود » فى مخطوطات ثلاث ، لم يكتب منها شئ بخط المؤلف ولا فى حياته ، وأقربها إلينا أكثرها شعراً ، أى أن الكتاب أيضاً لم يصلنا كما أراد له مؤلفه ، ولا أحد يدرى ما الذى سقط منه ، وما الذى غير فيه من ألفاظ وجمل ، ومع ذلك ففيه مما أخذ عن ابن حزم صنفحات لو مضينا بها إلى النهاية لطالت ، وحسبنا ما أوردنا منها شاهداً ودليلاً .

* * *

والكتاب الآخر الذى نلمح فيه « تأثير الطوق » مباشرة ، أو عن طريق « الحب المحمود » ، هو مسرحية « لا ثلستينا La Celestina » وهو اسم البطلة ، ويطلب لى أن أنزجها بالمهنة التى تجسست فيها والتى تدور حولها المسرحية وهى « القوادة » . وقد نشر فى مدينة برغش بعد سبعة أعوام من سقوط دولة الإسلام فى الأندلس ، بعنوان : المأساة الالهية لكاليستو ومليبيا Tragicomedia de Calisto y Melibea ، وأثارت الجدل حاداً فى عصرها ، بين راض وساخط ، ومؤيد ومعارض ، ثم أعيد نشرها فى إشبيلية ، مدينة طروب ومرحة وثرية ، عام ١٥٠١م وفى المدينة نفسها أعيدت طباعتها فى العام التالى ، وهو نجاح لا مثيل له بمقاييس النشر فى تلك الأيام ، وما أسرع ما نغير الاسم ليصبح كلمة واحدة : لا ثلستينا (٢١) .

وهى مسرحية رائعة ، فنتت أجبالا من القراء ، وتنتن الآن ، وستظل كذلك ، ربما لأجبال عديدة تأتى من بعد ، واعتبرت كشافاً أدبياً رائئماً ، وحملة أدبية موفقة إلى عالم المجهول ، وأصبحت محور الدرس

والتعليق في الجامعات والمعاهد ، وكتب حولها الكثير . وذاعت في كل العالم الثقا ، واعتبرت إحدى النقط الأدبية الخالدة التي يزورها الأدب الإسباني في مجال الأدب العالمي .

أما مؤلفها فرناندو دي روخاس Fernando de Rojas (ت ١٥٤١) فلا نعرف عنه إلا شيئاً قليلاً . وهذا الشيء القليل غامض ومضطرب وملئ بالألغاز . رغم أن إبداعه العلمي يضعه إلى جانب القمم الأدبية في العصر الوسيط : ماحمة السيد . والحب المحمود . ودون كيخوته . ولكن المجد سقط على الكتاب وتجاوز الكاتب . فمعاوماتنا عن شخصه محدودة . والوثائق المتصلة به نادرة ، وتاريخ وفاته أكيد ، وبعض الإشارات الخاصة بحياته وأسرته تلتقي بها متناثرة ومضطربة في بعض وثائق العصور الوسطى . وهذه الإشارات رغم قصرها ترسم إطاراً تقريبياً للعالم الذي كانت تنحرك من خلاله شخصية المؤلف : دون أن تقدم لنا معاومات دقيقة ومفيدة عن شخصيته نفسها . وكل ما نعلم عنه أكيداً أنه ولد في قرية بويلا ، من مقاطعة طليطلة ، في تاريخ نجهاه ، . وأنه تركها ليصبح عمدة طليطلة ، مدينة أكبر حجماً ، في المقاطعة نفسها .

بقي علينا أن نتصور حياته من خلال الكتاب ، بدل أن نفسير إنتاجه في ضوء حياته : وحياة المؤلف مفيدة في تفسير إبداعه وإلقاء الضوء عليه . كما أن عماء الأدبي ضوء كشف لما استتر من حياته . أو انطوى في خبايا صدره ، كلاهما يفسر ويفسر . يأخذ ويعطى ، أما هذا فنحن بإزاء جانب واحد فحسب ، أن نبني حياة فرناندو دي روخاس .

ينتهي دي روخاس إلى قطاع عريض من المجتمع الإسباني ، شغل القرن الخامس عشر الميلادي وما بعده . ويعرف بالمسيحيين الجدد وهم أولئك الذين أرغموا على اعتناق الكاثوليكية من اليهود . فاستجابوا لذلك رهبة أو نفاقاً ، بعضهم نسي معها أصوله تماماً ، واحتفظ الآخر بكل مبادئ اليهودية في أعماقه ، احتفظ بها لنفسه وأورثها خلفه من

بعده ، وإن ظل في ظاهره كاثوليكيًا بالطبع ، ومنهم من أصبح تحت هذا الرداء من رجال الدين الكبار ، وبلغ مرتبة متقدمة بين أخبار الكنيسة ، فأصبح مطراناً أو أسقف أو قديساً ، أو حتى من رجالات اللاهوت واللامعين . وكان هؤلاء المسيحيون الجدد يعتبرون في إسبانيا العصر الوسيط مواطنين من الدرجة الثالثة ، يعيشون حياة قلقه ، في جو خائف من الأرهاب والبؤس والتعاسة ، مواطنين بلا حرمان من أى لون ، وبلغ الذعر بينهم أن بعضهم كان يخاف البعض الآخر ، وكل فرد يشك في كل الآخرين ، ومن الممكن أن يقف الواحد منهم أمام محكمة التفتيش ، بكل ماثله من رعب وقسوة ، وأن يتعرض لألوان من التعذيب لأحد لها لجرد لفظ يتفوه به ، يخرج من فيه عفواً دون قصد ، وكلمة عابرة يقولها في بيته بين أفراد أسرته ، على مائدة الطعام ، يمكن أن تنهى به إلى أعماق السجون المظلمة تحت الأرض :

من بين وثائق محاكم التفتيش التي نشرت عام ١٩٠٢ ما يتصل بمحاكمة أحد أقرباء دي ريوخاس ، لأنه قال عرضاً ، يشير إلى الآخرة : « أنا هنا بخير ، ولست أعرف ماهناك » . وقريبة له ، كانت وحدها ، وتفوهت بألفاظ شبيهة ، وخشيت أن يكون أحد الجيران قد سمعها ، ولم تره ، فيبلغ عنها ، فأسرعت إلى المحكمة بنفسها ، لتبرهن على حسن نيتها ، وقدمت اعترافها كاملاً : « أنا إيزابيل لوبث ، زوجة فرانسيسكو لوبث ، قلت دون أن أدبر ماقلت ، أو أعتقد : لا أستطيع أن أقول رأيي في الآخرة ، لأنني لأرى شيئاً مما يجري هناك ، كمثل جار تعود الناس أن يتفوهوا به » . وعندما بلغ دي ريوخاس الثانية عشرة من عمره اعتقل والده وسجن وقدم لمحكمة التفتيش ، ولنفادى العذاب اعترف بكل التهم الموجهة إليه فحكمت المحكمة بإعدامه حرقاً في حفل عام وفي العام الذي حرر فيه كتابه كانت هناك قائمة طويلة من أقاربه ، ومئات آخرين من أصدقائهم أو معارفهم أو جيرانهم ، تأخذ طريقها إلى محاكم التفتيش في مدينة

طليطلة ، ورآهم يتناظرون على النار أحياء ، ويواجهون العذاب ألوانا .
وشاهد ما هو أقسى : رأى يهود طليطلة جميعاً . وقد خرجوا إلى
حقل عسام ، سنة ١٤٨٤ م يعلنون توبتهم . ويعلنون دينهم القديم .
وفي عام ١٥٠١ م أتم دى روخاس تحرير مسرحيته « القوادة » :
وله من العمر ٢٥ عاما . ومنذ ذلك الوقت ، وحتى وفاته في ٣ أبريل
من عام ١٥٤١ . لا نعرف عنه شيئا ، إلا عرضا في وثيقة محاكمة
حمية . وقد رفض قاضي محكمة التفتيش أن يسمح له بأن يختار
حمية . وعينت له المحكمة محاميا آخر ليس موضع شك منها ، وتضم
الوثيقة قائمة بالكُتب التي وجدت في مكتبته وتعطينا صورة له بأنه كان
رجوازيا مرموقا ، يهتم بتعمية ثروته ، دون أن يعطى الجانب الثقافي أية عناية
جدة . وفي هذا الجو كتب دى روخاس مسرحيته . فجدت تعبيراً عنه ،
أو محاولة للتعبير . سلبا وإيجابا ، ومن خلالها قدم لنا رأيه ملفوفا في ما
حول . وعمما يعتمد في أعماقه من مشاعر وأحاسيس .

محتوى المسرحية بسيط وعادى . ككل الأعمال الأدبية الكبرى التي
أبدعها الذكاء الإنساني ، وإذا أسقطنا المناظر والمواقف والحديث المباشر
عن الأبطال ، فهي تدور حول شاب فارس يدعى كاليستو ، دخل حديقة بيت
صحة باراك ، فرأى هناك مليبيا ، فتاة في سن المراهقة ، فوقع أسير هواها
في . الخال وحين أبدى لها حبه صدمته في عنف ، فعاد إلى بيته حزينا تعيسا
صرير الخيبة والحسرة ، وتحدث بما جرى له إلى خادمه ، فأشار عليه هذا
بأن يدعو امرأة عجوزا تساعد في محنته . « خبيرة بأمور النساء » ، بائعة
عظور ، أستاذة في فن التزيين . قوادة . وساحرة إلى حد ما » تدعى
ثلستينا .

وجاءت ثلستينا سريعا . وقبلت القيام بالمهمة ، واستطاعت أن تدخل
بيت مليبيا . تحت ستار أنها تباع خيوط غزل ، واستطاعت أن تتحدث

إلى الفتاة ، وأن تتغلب على مقاومتها العنيدة ، أخذت تعزف لها على فضائل العاشق ، شاب من أسرة نبيلة ، ذكى ومهذب ومرموق ، واستطاعت بحيلها ودهائها أن تمنع الفتاة بمقابلة الفتى امرا ، بعيدا عن أبويها العجوزين ، وتلت ثلستينا مكافأة طيبة على صنعها ، وطالب خادما كاليستو جانبا منها بوصفهما وسيطين ، ورفضت العجوز أن تعطيهما شيئا مما أخذت فقتلاها ، فاقتصت العدالة منهما ، وذبحا في ميدان عام .

وذهب كاليستو ليلا لموعد مع حبيبته ، لقيها في حديقة البيت ، وهما في لحظة صفاء عاطفى سمع كاليستو ضجيجا فى الشارع ، وصياحا من خدمه الذين تركهم يرقبونه ، فأمرع لنجدتهم ، فسقط به السلم الموصل إلى الحديقة فمات نتوه ، وعندما رأت الفتاة ما حدث لحبيبتها لاذت بأعلى برج البيت ، وسجنت نفسها فيه ، وأسرت لوالديها بأنها فقدت شرفها ، ثم ألقت بنفسها من فوق البرج ، فسقطت ميتة ، وفوق جثتها وقف الأب والأم ، يندبان حظهما ، ويبيكان شيخوختهما وحيدتين ، وقدما لنا من خلال الحوار الذى دار بينهما ، صورة قائمة ومتشائمة للحياة الإنسانية بآثامها وأخطائها وآسها .

تقوم المسرحية على ثلاث شخصيات رئيسية : كاليستو العاشق ، ويعنى اسمه فى اللغة الإغريقية فتى رائع الجمال ، مرح بالطبيعة ، نبيل بالوراثة ضعيف أمام العواطف ، قوى فى غيرها : ومليبيا حبيبته ، ويعنى اسمها ذات الصوت العذب ، وتركت لنا المسرحية وصفا مفصلا لها ، فهى : ذات عيني خضراوين واسعتين ، وحواجب رفيعة ومرتفعة ، وأهداب طويلة ، وأنف أقى ، وفم صغير ، تزينة أسنان بيضاء رقيقة ، وشفاه ممتلئة ، شقراء تضرب إلى الحمرة ، ووجه عريض ، وكف صغيرة ، وأصابع طويلة ، ملونة الأظافر ، شقراء وسط اللامس ، وبشرة بضة حلوة . عذراء الروح ساذجة ، استجابت لإغراء القوادة مندفعة ، وعلى وجهها تدافع مشاعر الخوف والرغبة . وقد أصبح الاسمان : كاليستو ومليبيا .

توأمَان في الأدب الإسباني ، على نحو ما عليه روميو وجوليت عند الإنجليز والشخصية الثالثة ، وحملت الرواية اسمها الأهميتها ، ثلستينا ، وقامت بدور الوسيط ، عجوز شريرة ، ذكية وذات حيلة ، وعلى معرفة واسعة بالحياة والناس . وقدرة ساحرة في العزف على أوتار القلوب ، مشعوذة تؤمن بالخرافات ، وماهرة في تحريك أدق المشاعر المنطوية في أبعاد أغوار النفس ، واستخدامها لصالحها ، طماعة جشعة ، وهي نقيصة سوف تودى بها أخيرا .

حار النقاد في تصنيف العمل الذي قام به دي روخاس ، اعتبره بعضهم رواية لاتعاج حجه ، وكتابته نثرا ، وصعوبة عرضه مسرحيا دون تصرف ، ورأى آخرون أن غلبة الحوار عليه ، وتقسيمه إلى مواقف ودعوة المؤلف إلى قراءتها على مجموعة من السامعين ، ومراعاة الملامح والنغم في الإشارات والأصوات والحركات ، بما يناسب كل شخصية ، يرمي إلى أن المؤلف أراد بها شيئا آخر غير الرواية .

أ وإذا تجاوزنا الشكل إلى المحتوى فإن قراءة فاحصة للرواية ، أو المسرحية إذا شئت ، تظهر لنا واقع كاتب قلق الضمير دينيا ، وأن العناصر المسيحية فيها ضئيلة للغاية ، في عصر كانت المسيحية كل شيء في واقع أهلها ، أو هي الحياة نفسها ، والقليل من هذه العناصر مفتعل وسطحى على نحو واضح في أغلب الأحوال . ويدعنا المثلون نفهم من خلال مواقفهم ، أو عبر كاماتهم ، أنهم لا يؤمنون بالحياة الآخرة ، وتحكم الجميع فلسفة أبيقورية واضحة . ثلستينا تنصح : « تمتع بشبابك ، وبالיום الجميل ، والليلة الحلوة ، والأكلة الشهية ، والشراب المعتق ، لا تدع ذلك ما استطعت إليه سبيلا . انفق واخسر ، ولا تبك الثروة الضائعة ، أنك لن تحمل معك من هذا العالم شيئا » وتقول أليسيا ، والددة مليبيا : « نستمع ما دام لدينا ما نأكله اليوم ، غدا لا يعني ، لن نعيش أبدا ، وقليلون هم الذين يبلغون مرحلة الشيخوخة ، والذين يبلغونها لم يحدث أن أحدا منهم مات من الجوع » .

وبشكو كاليستو لخادمه نار الجوى تحتاج داخله ، وحرارة الشوق
يغص بها قلبه فيقول له الخادم في بساطة : ولكن هذا يتعارض مع تعاليم
المسيحية ! . فيهب كاليستو كصفه بين مستغرب ومنكر ، فينزعج الخادم
منه : ألسنت مسيحيّاً ؟ . فرد عليه : أنا ؟ ... أنا عاشق مليبيا ،
لها ولدت ، وفيها أموت ، وأعبدها مدى الحياة ! .

إنها باختصار رواية تسخر في قسوة من الرأى العام على أيامها ، ومن
القيم التي كان يقدها وتستعبده ، ووضعت حدا فاصلا بين عصرين أدبيين ،
وتستمد أهميتها من الواقعية الرائعة التي صيغت فيها ، ورسمت شخصياتها
في دقة ، ويرى العلامة الإسباني مننديث أي بلايو : أنه لو لم يوجد
ثرفانتيس ، مؤلف دون كيخوته ، لاحتلت المقام الأول في أدب
الإبداع الإسباني : وفيها تلتقى البسمة والدمعة ، والبهجة واللذعة ،
والموت والحزن ، شباب وجماليات ، ونبلاء وأغنياء ، ومن خلا بالهم
من أي شيء ، ومخاوقات غادرة ، ومجرمون ، وشياطين . وإلى جانب
الأفكار الفلسفية تقدم لنا صوراً من التقاليد والحياة الاجتماعية الإسبانية في عصر
النهضة ، رسمت في عناية لا يعلى عليها ، وفي صدق لا يبلغ مداه . وهي غنية
بالأمثال والجمل السائرة ، تأتي على لسان الخدم وغمار الناس ، وقد أثرت
في المسرح النثرى في القرن السادس عشر الميلادي ، ومعها بدأ فن الحوار
في أوروبا ، وتركت بصماتها واضحة في قصص الشطار ، وفي الأعمال الأدبية
التي تبحث بين الطبقات الدنيا عن مسرح لها . وكأي عمل أدبي إسباني كتب
في تلك الأيام تضم الكثير من الألفاظ ذات الأصل العربي .

* * *

ونأتى إلى ما يعنيننا من العرض السابق . فيم يلتقى ابن حزم ودى روخاص
وفيم يفترقان ؟

منذ البدء ينبغي أن نشير إلى أن مظاهر الاختلاف بين شخصيهما أشد
وأقوى من جوانب الاتفاق : كان ابن حزم فقيهاً ملتزماً ومتشدداً ، شاعراً

ومؤرخاً وفيلسوفاً، وعالمًا بالأصول، وشارك في كل النشاطات الفكرية على أيامه، وكان ينتسب في بيت إن لم تكن له عرافة بعيدة فهو من الطبقة العالية الجديدة، التي شهدتها آخر القرن العاشر، من أبناء الوزراء وكبار الموظفين، وأهلهم مواهبهم وخبراتهم أن يتقدموا إلى مواطن الصدارة في وطنهم، سياسياً واجتماعياً، وأن يابعوا درراً هاماً في تقرير مصائره. وكان دي روخاس كاثوليكياً ينحدر من أصول يهودية قريبة، ملاحق ومضطهد، مغمور لا نعرف له تاريخاً، ولم يشارك في الحياة الثقافية على أيامه بغير هذه الرواية، ولا توجي معالجته لها بأنه كان في قرارة نفسه منسجماً مع العقيدة التي يرفع شعارها ظاهراً، ويعلمها تقية وخوفاً.

وعرف ابن حزم ما ترجم من الفاسفة اليونانية على أيامه، وأفاد منه، وقرأ الكتب المنزلة، وعرف عقائد أهلها، وناقشهم بعنف، ولكن لانعرف أنه ألم بشيء من الأدب اللاتيني، أو انتبه إلى أدب المستعربين على أيامه، ولا تعكس كتاباته المختلفة شيئاً منها، على حين أن دي روخاس، وجاء مع توهج عصر النهضة، كان يعرف اللاتينية إلى جانب لغته القشتالية، وقرأ بترارك الإيطالي (١٣٠٤ - ١٣٧٤م)، وبخاصة في كتابه: «تدبير الثروة De Remediis utriusque Fortunae» ونقل جانباً من معارف الإنسانية، وعنه عرف من الشعراء هوراس وجوفنال. وشعراء آخرين من اللاتين.

ويختلف شكل العمل الأدبي عند كل منهما، فابن حزم حرر كتابه في نثر راق، يجيء في الطبقة الأولى إيقاعاً وجزالة، ومزجه بأشعاره، وحال عاطفة الحب وجوانبه. والتقط شواهد أحداثاً وقعت من حياته أو حياة صحبه. ولا يجيء الحوار عنده إلا نادراً، ولمواقف عارضة وقصيرة، ولم يدرك بخلده أن يكتب رواية. فضلاً عن مسرحية، ولا كان هذا الجنس الأدبي موقراً في مجتمعه. على حين اختبأ دي روخاس وراء عمله الأدبي، جاء خفياً كاد. في شخصياته وأحداثه، نعم لها معادل في واقع الحياة، ولكنها ليست أحداث أحد بعينه. واختار لها شكلاً جديداً مستمداً من الآداب

اللاتينية ، يقع في منطقة بين الرواية والمسرح ، وكتب نثرأ كله ، وتعتمد على الحوار في المقام الأول ، وترك الأحداث نفسها تتكلم ، ووضع بعض ما يريد أن يقول على لسان أبطاله ، حتى يهرب من المواخذة المباشرة والقريبة ، ولو أن ذلك لا يعني بالضرورة أنه كان حرأ ، لأن محاكم التفتيش يمكن أيضاً أن تواتخذ الكاتب بما يضعه على لسان الأبطال في رواياته أو مسرحياته ، ولكن إدراك المراد جملة ، من عمل أدبي كامل ، فوق الطاقة الذهنية للقائمين عليها .

لكن ابن حزم أعطى دى روخاس الفكرة الرئيسية التي أدار حولها العمل [الأدبي ، وهي فكرة « القوادة » ، وينبغي أن نشير بدءاً إلى أن هذا اللفظ لم يكن يعني إذ ذاك ما نعنيه منه الآن ، أو الإسيان فيها بعد زوال دولة الإسلام ، فلم تكن تتاجر بالإثم ، وإنما تضطلع بدور الرسول بين المحبين في مجتمع لم يكن يعرف البريد المنظم ، ولا الهاتف الموصل ، ولا التلاني السهل ، فهي تذلل الصعاب ، وتنقل الأخبار ، وتحدد المواعيد ، وتؤدي الهدايا . ويسميا ابن حزم « السفير » في طوقه ، ولم يرد عنده لفظ القوادة ولا مرة واحدة هجر الكتاب كما ، ولكن الاختلاف في التسمية فحسب ، ذلك أن ابن حزم ، وكان مصقولاً في حياته ، راقياً في تربيته ، اختار اللفظ الذي يتفق مع موضعه من المجتمع والحياة ، واختار آخرون كلمة « القوادة » ، وربما بعد عصره ، حين انحطت المهنة وندهرت ، كأي شيء في جهود الانحدار ، وشاعت على الأفواه وفي الكتب ، ودخلت اللغة الإسبانية في صورة Alcahuete ، وتحت هذه الصورة التقينا بها مراراً في كتاب الحب المحمود ، ومن قبله خصما [الشاعر الأندلسي أبو جعفر بن سعيد بأبيات رقيقة ، لا تخرج في محتواها عما وصفها به ابن حزم نثرأ ، وأوجز خصائصها في بيت واحد : « من لطف أحاديثها ، تجمع بين الماء والنار » .

وقد اختار دى روخاس « القوادة » بطاقة لروايته ، وأدار حولها الأحداث كلها ، دون أن يستخدم اللفظ ولا مرة واحدة ، ولكنه ألبسها

كل الصفات التي أوردها ابن حزم في كتابه عن « السفير » ، مهنة وأسلوباً واقتداراً ، والمثير أن المستينا في الرواية ، أغنى للقراءة ، تتحدث عن نفسها ، وتنعت مهنتها بأنها سفارة .

كان ابن حزم ، فيما أعلم : أول من خص « السفير » بباب مستقل في كتاب ، وجاء قصيراً نسبياً ، وما كان للطريق أن يتخلو منه ، فهو يعالج قضية الحب ، وما كان للحب أن يشيع في مجتمعات ما قبل وسائل الاتصال الحديثة ، دون وسيط يلدل صغابه ، ويقوى وشائجه ، ويحكم الصلة بين طرفيه ، وكانت القواعد ، أو السفير أو الرسول إن شئت ، هي هذا الوسيط . وكل الذين جاءوا بعد ابن حزم عالمة عيه ، وصاحب « الحب المحمود » ، ورجعنا فيما سبق أنه عرف « الطوق » ، لا يتجاوز في وصفه لما يتحدث به أديب قرطبة ، ودي روخاس لا يكاد يخرج عن هذا الخط أيضاً . ويبقى هل تأثر بالطوق مباشرة أو عن طريق الحب المحمود ، أو عن طريق كتاب ثالث ألفه كاهن طليمة Arcipreste de Talavera (١٣٩٨ - ١٤٦٦ م) ، وأسماه : « كرباج Corbacho أو ذم الحب الطياري » ويتحدث عن قضايا أربع خص كل واحدة منها بباب : الخطايا التي يؤدي إليها الحب الخجون ، وشروط ورذائل النساء ، والصلة بين الحب وأمزجة الرجال ، وتحديد فكرة الإرادة الحرة ، والباب الثاني من بينها أكثر واقعية ، وأشد ارتباطاً بالحياة ، وكلا الكتابين ، الحب المحمود وكرباج ، من مصادر دي روخاس في روايته ، وكلاهما اتكأ على ابن حزم ، ومعهما لا أستبعد أن تكون عن مؤلف « القواعد » قد وقعت على كتاب « طوق الحمامة » ، وكان مؤلفه قد دخل مع ابن النخريفة اليهودي في جدل حنيف ، فحول ما بدر منه في حق الإسلام والمسلمين . وفي العقيدة اليهودية وما يتصل بها ، حوار استقر في ذاكرة كل يهودي مثقف من أجياله . ومن الذين جاءوا بعده ، وربما حتى يومنا . وقد أثر ابن حزم لا يثبت عند الفكرة فحسب وإنما يتجاوزها إلى الملامح الرئيسية لشخصية المستينا . وفي النظرة المشائمة للحياة . ومحاولة فتح باب الأمل

عريضاً وواسعاً أمام الراغبين في رحمة الله من المخطئين، ولقد ينتهي بنا تحليل النص في دراسة أكثر تأنيباً إلى مشاهات أخرى، ولا أظن أن تأثير ابن حزم وقف عند هذين الكتابين. ومع دراسة أوسع للأدب الإسباني الوسيط قد تقع على تأثيرات أخرى أشد وضوحاً، وأكثر عمقاً.

الهوامش والتعليقات :

- ١ - ترجمت نص الماحمة إلى العربية، وقدمت لها بدراسة تفصيلية، في كتابي: ملحمة السيد، أول ملحمة أندلسية كتبت في اللغة القشتالية، وصدرت عن دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٧٠.
- ٢ - ملحمة السيد، ص ٩٨، الطبعة الأولى، دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٠ م.
- ٣ - غرسيه غومث مقدمة الترجمة الإسبانية لطوق الحمامة، ص ٧٧-٧٨، الطبعة الثالثة، مدريد ١٩٧١.
- ٤ - القشتالية أصنى لهجات الأندلس المسيحية في العصر الوسيط، وهي كغيرها تفرعت عن اللاتينية، واهتمت اللهجات الضعيفة التي حولها، ولأن قشتالة موطنها قامت بالدور الأول في حركة الاسترداد المسيحية، أصبحت لهجتها اللغة الرسمية، ولم تعرف كلمة الأسبانية إلا متأخراً. وقد استعصى عدد من اللهجات أو اللغات على الفناء، مثل القطلونية، ويتحدثون بها في قطلونية، على البحر الأبيض، وعاصمتها برشلونة. والغاليسية ويتحدثون بها في الشمال الغربي، أو لغة الباسك، وهي غير لاتينية، ويتحدث بها سكان مقاطعة الباسك في الشمال، وهم بقالبون بالا استقلال.
- ٥ - وتسمى أيضاً قلعة بني سعيد.
- ٦ - كان ابن حزم أول من استخدم في طوق الحمامة تعبير «الحياة المجددة» أنظر ص ٩٠، وتعليقنا هناك، في طبعتنا الكمامة والمحققة لطوق الحمامة، دار المعارف، طبعة ثانية، القاهرة، ١٩٧٧.
- ٧ - المدجنون: هم المسلمون الذين تخلفوا في المدن التي سقطت في يد المسيحيين، وظلوا على إسلامهم، وحافظوا على العربية لغة لهم.
- ٨ - الإحاطة لابن الخطيب، ج ١ ص ٢٢٢، ط الأولى، تحقيق محمد عنان - المغرب في حل المغرب لابن سعيد، ج ٢ ص ١٦٦.
- ٩ - لا أعرف أحداً قبل أشار إلى هذه الظاهرة.
- ١٠ - وردت هذه الكلمة في مخطوطات «الحب المحمود» في صور مختلفة: Goda و Qadra و Aqodra، و حار خوليو ثخادور يحقق النص بازائها، فليس لأي منها معنى في اللغة الإسبانية، وأقرب كلمة إسبانية إليها Cidra، اسم ثمرة تشبه الليمونة، وهي أنفه من أن تهدى. فلم يجد بداً من القول بأن أصلها عربي، واختار من الصور الثلاث

لفظ Çoda . والمشتق منها في تخریجات غير علمية . وتأنيها غواثين علم الأصوات . لينتهي بها إلى أن أصلها سعودي . ولقد أسرفت على نفسه كثيرا ، ذلك لأن اللفظ يجب أن يكون Çodra أو مع أداة التعریت العربية açodra . وهي صورة إسبانية لكلمة الصدرية (بضم الصاد) العربية . ومعناها الشرب . وما هو معنى الشاعر فيها أرجح ؛ أنظر :

• Arcipreste de Hita : Libro de buen Amor , tomo II, P. 126 - 227 , edicion y notas de Lulio Cejador , Clasicos Castellanos , Madrid 1954

• الصحاح للجوهري . والقاموس المحيط ، مادة : صدر .
• دوزى : المعجم المفصل بأسماء الملابس العربية ، ص ٢٠٥ الترجمة العربية للدكتور أكرم فاضل . بغداد ١٩٧١ .

١١ - في معظم الطبقات الإسبانية لكتاب «أحب المحمود» يوجد هذا اللفظ مرسوما على النحو التالي : alaud . أى العود ، وترجمتها على هذا النحو ، عندما نشرت هذه الدراسة مقالا في مجلة «آفاق عربية» العراقية ، ولكن خلال رسالتي صيف عام ١٩٧٦ إلى مدير يد اطلعت على نسخة أخرى للكتاب ، فوجدت صورة اللفظ فيها على هذا النحو : ala wud ، أى على الود ، وهي أكثر احتمالا ، وانسجاما مع معنى البيت .

١٢ - طوق الحمامة . بتحقيق ص ١٦ . دار المعارف : الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٧ ، وكل إشارتنا هنا إلى الطوق تنصرف إلى هذه الطبعة .

١٣ - كتون (٢٣٤ - ١٤٩ ق.م) خطيب روماني شهير . وداعية تقشف ، أدرك مبكراً أن ترف روم المبالغ فيه سوف يودى به . فحاول أن يقف في طريقه ، وإن يقلل منه ففشل ، وأصبح اسمه يطوق وصفاً على كل رجل ذي عادات متقشفة .

١٤ - أحب المحمود : الدور رقم ٤٤ .

١٥ - الطوق : ص ٢٨ .

١٦ - أحب المحمود . الدوران رقم ١٥٦ - ١٥٧ .

١٧ - الطوق : ص ١١٥٤ .

١٨ - أحب المحمود : الأدوار ١١٥ - ١٢٠ .

١٩ - باب السفير : طوق الحمامة ، ص ٥٨ ، من طبعتنا .

٢٠ - أحب المحمود : الأدوار رقم ٤٣٦ - ٤٤٣ .

كتب أخرى للمؤلف

- ١ - امروؤ القيس : حياته وشعره ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ١٩٧٥ م
- ٢ - دراسة في مصادر الأدب ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ١٩٧٧ م
- ٣ - ملحمة السند ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ١٩٧٠ (نقد وبعاد طبعه) ،
- ٤ - مع شعراء الأندلس والمتنبى ، ترجمة كتاب المستشرق الإسباني إميليو غرسية غومث ، الطبعة الأولى ، مكتبة وهبة ، القاهرة ١٩٧٤ م .
- ٥ - بابلو نيرودا : شاعر الحب والنضال ، دار روز اليوسف ١٩٧٤ .
- ٦ - تحقيق طوق الحمامة لابن حزم ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ١٩٧٧ ،
- ٧ - القصة القصيرة : دراسة ونماذج ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ١٩٧٧ ،
- ٨ - الأدب المقارن : أصوله ومناهجه ، دار المعارف ١٩٧٧ :
تحت الطبع :
- ٩ - الشعر الأندلسي حتى نهاية القرن الحادى عشر ، للمستشرق الفرنسى هنرى بريس .
- ١٠ - ابن حزم القرطبي ، للمستشرق الإسباني ميغيل أسين بلاثيوس .

فهرس

- ١ — الإهداء : ٣
- ٢ — صورة تمثال لابن حزم ٥
- ٣ — كتابات في البدء ٧
- ٤ — مخطط تقريبي لمدينة قرطبة في القرن العاشر الميلادي ١٢
- ٥ — قرطبة على أيام ابن حزم ١٣
- ٦ — شاهد عصر ٧٢
- ٧ — فتنة البربر ١٠٣
- ٨ — ابن حزم قمة إسبانية : للمؤرخ الإسباني سانشث البرنس ١٣٥
- ٩ — غراميات ابن حزم ومشكلة الحب العذري في الأندلس ١٨٢
- ١٠ — مقدمة طوق الحمامة : للفيلسوف الإسباني أورتيغا أى جاسيت ٢٠٣
- ١١ — مزاج ابن حزم من خلال الطوق : صورة له بقلمه ٢٢٤
- ١٢ — المرأة في قرطبة من خلال طوق الحمامة ٢٣٩
- ١٣ — مؤلفات في الحب سبقت طوق الحمامة ٢٦٧
- ١٤ — كتاب سبق طوق الحمامة ، وكتاب جاء بعده :
للمستشرق الإسباني إمينيو غرمسة غومث ٢٩٧
- ١٥ — آخرون كتبوا في الحب بعد ابن حزم ٣١٩
- ١٦ — تأثير طوق الحمامة في الأدب الإسباني ٣٤٢